المركز القومى للترجمة

المدخل إلى بحوث الفعل

البحث الاجتماعى لتحقيق التغير الاجتماعى

تأليف
ديفيد جرينوود
مورتين ليفين



ترجمة
هشام سيد عبد المجيد

2339

المدخل إلى بحوث الفعل

البحث الاجتماعى لتحقيق التغير الاجتماعى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2339
- المدخل إلى بحوث الفعل: البحث الاجتماعى لتحقيق التغير الاجتماعى
- ديفيد جرينوود، ومورتين ليفين
- هشام سيد عبد المجيد
- الطبعة الاولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

INTRODUCTION TO ACTION RESEARCH:
Social Research for Social Change – 2nd Edition
By: Davydd J. Greenwood & Morten Levin

نشرت هذه الترجمة بالتعاون مع ساج للنشر أمريكا ، لندن ، نيودلهي، والتي نشرت الطبعة الإنجليزية عام ٢٠٠٧

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

المدخل إلى بحوث الفعل

البحث الاجتماعى لتحقيق التغير الاجتماعى

تأليف: ديفيد جرينوود

مورتين ليفين

ترجمة: هشام سيد عبد المجيد

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جرينوود، ديفيد؛ ليفين، مورتين
المدخل إلى بحوث الفعل: البحث الاجتماعى لتحقيق التغير الاجتماعى / تأليف: ديفيد جرينوود، مورتين ليفين، ترجمة: هشام سيد عبد المجيد.
ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٦
٥١٦ ص، ٢٤ سم
١ - التغير الاجتماعي
(أ) ليفين، مورتين (مؤلف مشارك)
عبد المجيد، هشام سيد (مترجمة)
(ب) العنوان ٣٠٣,٤

رقم الإيداع: ٢٦٥٤٥/ ٢٠١٥
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 92 - 0049 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الجزء الثانى

العلم والمعرفة والممارسة فى بحوث الفعل

الجزء الثالث

التطبيقات المتنوعة لبحوث الفعل

الجزء الرابع

بحوث الفعل والتعليم العالى والديمقراطية

مقدمة الطبعة الثانية

نشعر بالرضا لما توفر لدينا من فرصة مراجعة هذا الكتاب. ولعل السنوات التى أعقبت نشر هذا الكتاب أظهرت أنه أصبح المرجع الأكثر انتشارا بين هؤلاء الذين يحاولون الوصول إلى وجهة نظر حول بحوث الفعل (AR). وقد تمثلت إستراتيجيتنا فى كتابة هذا المؤلف فى مزج بناء سهل يقدم للقراء الأسس الفكرية والعلمية الاقتصادية والسياسية لبحوث الفعل مع مسح مختصر للأشكال الكبرى لبحوث الفعل. وقد استمر ذلك ليبدو وكأنه فكرة جيدة وسمة متميزة لهذا الكتاب. وخلال السنوات التى تم فيها نشر النسخة الأصلية من هذا الكتاب تعلمنا تناول أفضل عن بحوث الفعل وعمقنا مفاهيمنا المعرفية، ووسعنا إدراكنا للممارسات المتنوعة لبحوث الفعل. وكل ذلك أدى إلى تحسين الطبعة الثانية. وربما كان تركيزنا الأكبر فى عملنا طوال السنوات الثمانى الماضية ينصب على تحليل المشكلات وتكامل بحوث الفعل فى مؤسسات التعليم العالى وفى ممارساتها. ويعتبر ذلك كأساس ليس فقط لمستقبل بحوث الفعل، ولكن أيضا لمستقبل مؤسسات التعليم العالى، والتى يبدو أنها فى فترة متصلة من تخفيض النفقات، وربما كان ذلك هو أكثر الأبعاد الملحوظة فى الطبعة الثانية.

مقدمة الطبعة الأولى

التقى ديفيد جرينوود **Davydd Greenwood** ومورتين ليفين **Morten Levin** لأول مرة عام ١٩٦٦ فى المقابلة التنظيمية للمؤتمر التذكارى لإينار ثورسرود **Einar Thorsrud**، وقد بدأ التعاون بيننا منذ نصف عام مضى. وقد قضى ليفين فترة تفرغه عام ١٩٨٧ فى مدرسة علاقات العمل والصناعة فى كورنيل، وعمل فى برنامج نظم التوظيف ومكان العمل. وقد انضم جرينوود أيضا على هذه الجماعة فى نفس الوقت، وبالتدريج أصبح يعرف كل منا الآخر بصورة أفضل. وكان هناك أصداء لضحكاتنا وسخريتنا وسياساتنا واهتماماتنا. وقد قام ليفين بالعديد من الرحلات إلى إيثيكا **Ithaca** وأيضا إلى كورنيل أعوام من ١٩٩٤- ١٩٩٥ وكذلك عام ٢٠٠٥.

وفى عام ١٩٨٦ أسس ليفين بشكل جيد لبحوث الفعل (**AR**) بينما كان جرينوود فى السنة الأخيرة لأول مشروع ضخم لبحوث الفعل فى التعاونيات الصناعية فى مدينة موندراجون بإقليم الباسك بإسبانيا. وبالنسبة لجرينوود فقد كان المؤتمر التخطيطى هو الحدث الأهم لسببين رئيسيين. لقد قابل العديد من الأشخاص ذوى الأهمية فى أوروبا وأمريكا وأعضاء حركة بحوث الفعل بأستراليا، حصل على أول جرعة من عملية التخطيط المشتركة ذات النمط الإسكندينافي. وقد انخرط ليفين بالفعل لبعض الوقت فى تدريس نظريات ونماذج بحوث الفعل فى الجامعة النرويجية للعلوم والتكنولوجيا فى تروندهيم **Trondheim**. وفى المقابل فلم يأخذ جرينوود بحوث الفعل داخل الفصول الدراسية حتى عام ١٩٩٠، ولم يكن لديه أى تفكير فى تدريس القضايا التى أظهرتها بحوث الفعل.

وقد بدأ تعاوننا الحقيقى مع الطلاب الحاليين، وقد تعزز تعاوننـــا مـــن خلال اهتمامنا المشترك بالتدريس. وفى عام ١٩٨٩ دعا كل من مورتين ليفين وماكس إلدين Max Elden جرينوود إلى تروندهيم لإدارة مجموعـــة مـــن جلسات الحوار (سمينار) عن نشاط موندراجون لأول جماعـــة مـــن طـــلاب الدكتوراه فى بحوث الفعل فى برنامج الدراسات العليا المتجدد فى ترونـــدهيم. وقد ساعدت جهود شرح العمليات المعقدة لبحث الفعل طوال ثـــلاث ســـنوات لجماعة من الطلاب واسعى الاطلاع فى إقناع جرينوود على أن يقوم بتدريس بحوث الفعل فى جامعة كورنيل. وقد بدأ هذه العملية عـــام ١٩٩٠ مـــع حلقـــة النقاش التى غيرت ممارسته التعليمية للأبد. والقصة تكمن فى أن أول حلقـــة حوار قد تم توثيقها بواسطة المشاركين فى المقالة المرتبطة بهذه الخبرة التـــى اشـــترك فـــى تأليفهـــا (Elvino, Grant Mathews, Greenwood, Martin, Thomas, 1997). وقد زار ليفين ومجموعة من طلابه كورنيل فى نهاية أول سمينار، حيث شرع طلاب جرينوود وطلاب ليفين فى مناقشة بحوث الفعل.

وبعد ذلك تبادل كل من جرينوود وليفين الزيارات باستمرار. وقد تم دعوة جرينوود بشكل منتظم لتقديم النصائح لجماعـــة ليفـــين مـــن طـــلاب الدكتوراه وللاشتراك فى اللجان الثنائية لمناقشة رسائل الدكتوراه. ومن ثم فقد وظف ليفين فى برنامج المشروع النرويجى ٢٠٠٠، ووجهه للعمل كمستشار لبحوث الفعل ومستثير لفريق بحث الفعل لليفين. وأثناء بعض هذه الزيارات قمنا بإلقاء المحاضرات معا فى الجامعة. وقد علم ليفين جرينوود بوضـــوح كيفية تصميم أول مؤتمر بحث.

وقد ساعد ليفين وجرينوود بالتعاون مع كل من هـــانز فـــان بنيـــوم **Hans Fan Beinum,** ورينى فان دير فليست **Rene Van Der Vlist** وكجيل جوهانسين **Kjell S Johannessen** وكلاودى فوتشيوكس **Claude faucheux**

كأعضاء لهيئة برنامج تنمية بحوث الفعل بإسكندنافيا، والتى أحضرت حوالى ٣٠ من باحثى الفعل المهنيين معا للتدريب الإضافى لتحسين جودة البحث وكتابة بحوث الفعل، وذلك لمدة عامين. ولقد ذهلنا من الصعوبات التى تواجه ممارسى بحوث الفعل فى كل من كيفية الوصول إلى نتائج البحث المكتوبة، والوصول إلى التعامل الحازم مع القضايا المعرفية.

وقد أدت بنا هذه الخبرات إلى الاعتراف بمسئوليتنا العامة فى التعليم، وإلى وجهات نظرنا الأخلاقية والسياسية المتشابهة. ومن خلال هذه العملية أصبحنا صديقين مقربين، ولكن أدت بنا هذه الخبرات أيضا إلى الاعتراف بأننا نشترك فى الكثير من الأفكار التى تضاف إلى وجهات النظر الأخرى المختلفة لبحوث الفعل من الأشخاص الآخرين الذين نقرأ عنهم. وعلى الرغم من أن الطرق التى وظفناها لم تكن حديثة، فإن اهتمامنا بالعلاقات السياسية بين بحوث الفعل وبين البحوث الاجتماعية التقليدية، وسلبية الدور الاجتماعى للجامعات، والنقص العام فى الطموح المعرفى والاهتمام المنهجى فى معظم بحوث الفعل المكتوبة أكد لنا أن لدينا وجهة نظر كافية عن بحوث الفعل تختلف عن وجهات النظر الأخرى، والتى تعتبر جديرة بتحديدها بدقة فى الكتابة.

وقد اقترح ليفين كتابة هذا الكتاب، مستفيدين من فترة إجازته الجامعية من ١٩٩٤- ١٩٩٥ فى التخطيط لكتابته معا. وعندما دخلنا فى هذه العملية، فلم يكن لدينا فقط الوقت الرائع الذى عمقنا فيه اقتناعنا بأن وجهة نظرنا عن بحوث الفعل تختلف عن وجهات النظر الأخرى السائدة، ولكن أيضا لدينا العديد من الفرص المتاحة لمحاولة اختبار وجهات النظر هذه على كل من الطلاب والزملاء، والتى تضمنت بعض أوراق العمل ذات التأليف المشترك. وقد أظهر هذا الكتاب تحديات تعليم بحوث الفعل والرغبة العامة

فى زيادة جودة وشهرة بحوث الفعل من خلال رسم خطط معرفية وسياسية واضحة فى الجامعات.

وكان طلابنا معنا طوال هذه العملية. لقد علمونا كيفية التعلم (عدم التعلم) عن بحوث الفعل: لقد انتقدوا معظم الأفكار فى هذا الكتاب، لقد أرغمونا باستمرار على أن نعمل حسابًا لأسئلتهم الحادة النابعة من الأزمات والمشكلات التى تواجههم كباحثى فعل. لقد أصبحنا جميعا متعلمين متعاونين فى عملية تأليف هذا الكتاب.

لذلك كان هذا الكتاب خلاصة ١١ عاما من الحوار بين جرينوود وليفين والذى كان خلالها الطلاب من كل الأنواع والأعمار مشاركين فعالين. وكان التزامنا نحو هؤلاء الطلاب واعتقادنا بأن هناك شيئا جديدا يمكن قوله هو السبب الرئيسى لكتابة هذا الكتاب.

ويعتبر هذا الكتاب فريدا فى العديد من الجوانب. لقد وضع خطة معرفية لبحوث الفعل، وهى التى وصلت بشكل جيد إلى ما وراء طموحات الكثير من الممارسين، وتلك القضايا التى تتحدى العلوم الاجتماعية التقليدية الأكاديمية على كل من المستويات المعرفية والأخلاقية. وهى أيضا فريدة فى محاولتها تنظيم تنوع وتعقيد التيارات السياسية والفكرية، والتى تنعكس داخل بحوث الفعل. إننا لا نحاول تقليل هذا التعقيد ليكون نموذجا مثاليا، ولكن على العكس من ذلك نريد أن يفهم القارئ شيئا عن الاتجاهات المختلفة لبحوث الفعل.

إننا نتطلع إلى هذا الاتجاه باهتمام، إننا نعتقد أنه لا توجد طريقة واحدة صحيحة لإجراء بحوث الفعل، حتى لو كانت هناك بعض الممارسات التى نفضلها بشكل شخصي. إن بحوث الفعل هى سياق محدد يرتبط بقوة بمهارات واهتمامات وخلفيات الممارسين. لقد تعلمنا من خلال تدريسنا أننا لا نستطيع توقع كيفية ارتباط طلاب معينين بقضايا بحوث الفعل. ونحن نعلم

أن التدريس الجيد يحتاج إلى اتجاه مفتوح ومتنوع يزيد من قـدرة الطـلاب على أن يجدوا نقاط الالتقاء الخاصة بهم.

ومع ذلك فإن الكتاب الكامل، والإبقاء على العمل مستمرا، والـدعوة إلى الحوار والمناقشة فى مجال ليس كافيا بالنسبة له. إن هدفنا وأملنا يتمثـل فى أن يشجع هذا الكتاب القراء على انتقاد تطبيقات بحوث الفعـل، ونحـن ندعوكم للارتباط بنا فى هذا المشروع.

شكر وتقدير

نود أن نتقدم بالشكر والتقدير إلى ليزا شاو بمؤسسة ساج للنشر والتوزيع على حماسها ودعمها لإخراج هذه النسخة المعدلة من هذا الكتاب. وقد ساعدتنا مراجعاتها لهذه النسخة فى تعديل الكتاب، كما فى مراجعة العديد من الدوريات من طبعتها الأولية. كما لا ننسى العمل الرائع لبام سوينكى على إخراجها الرائع لهذه النسخة.

الجزء الأول

ما بحوث الفعل؟

يقدم هذا الكتاب بحوث الفعل (AR) كمجموعة من الوسائل التعاونية لإدارة البحث الاجتماعي، وفي نفس الوقت تتفق مع المتطلبات العلمية الصارمة وترتقي بالتغيير الاجتماعي الديمقراطي. ونعرض للقارئ العديد من القضايا المعرفية والفنية التي برزت بواسطة بحوث الفعل، ونحاول رسم صورة شاملة للأنواع المتعددة لبحوث الفعل التي توجد حول العالم. ونقدم في الفصل الأول "المدخل: بحوث الفعل والتنوع والديمقراطية" بحوث الفعل على أنها إستراتيجية بحثية وممارسة إصلاحية. ونرى أن بحوث الفعل هي وسيلة للعمل في الميدان، من خلال الاستفادة من أساليب البحث المتعددة، والتي تهدف إلى تعزيز عملية التغيير وتوفير البيانات لإنتاج المعرفة العلمية. وتعتمد بحوث الفعل على التطوير التعاوني للمعرفة وتصميم الفعل، والذي يشمل المستفيدين كمشاركين مشاركة تامة في عمليات التعلم المتبادل.

إن بحوث الفعل هي عبارة عن مجموعة من الإستراتيجيات الديمقراطية والتضامنية الشعورية لإنتاج المعرفة وتصميم الفعل، والتي يتعاون من خلالها الخبراء المدربون والمستهدفون المحليون في العمل معا. ويتم اختيار موضوع البحث بالتعاون بين المستفيدين المحليين وباحثي الفعل، حيث يتم تنظيم العلاقة بين المشاركين على أنها عمليات تعلم مشتركة. وتركز بحوث الفعل على العمل "مع" المستفيدين المحليين بدلا من العمل "لأجلهم" وتثق في خبراتهم الثرية وردود أفعالهم الممكنة التي اكتسبوها من معيشتهم الممتدة لزمن طويل في المواقف المعقدة التي واجهتهم.

وقد نبعت بحوث الفعل من العديد من المصادر وتدريجيا تركزت حاليا فى إستراتيجية متعدد الأبعاد لتحقيق التغيير الاجتماعى. ونظرا لتنوع اتجاهات بحوث الفعل فقد سعينا فى الفصل الثانى (تاريخ بحوث الفعل) إلى تقديم ملخص وافٍ عن هذا المجال، وتفصيل عميق للمناقشات التى دارت حول بحوث الفعل. وقد افترضنا أنه خلال أعوام عديدة قدمت بحوث الفعل مناقشات قوية تتعلق بالوسيلة التى يمكن أن تعمل بها العلوم الاجتماعية، ولكن هذا الوضع قد تم التوقف عنه مؤسسيا وأيديولوجيا. ومن وجهة نظرنا فإنه من المهم أن نرى كيف تستطيع بحوث الفعل منح النشاط والحيوية للعلوم الاجتماعية، والتى يبدو مستقبلها بالنسبة لنا محل شك بسبب الهجمات المتصلة من العولمة، والنظرة التجارية لإنتاج المعرفة وانتشارها، وإعادة بناء الجامعات كميادين صناعية متضامنة (متحدة) ومدارس مهنية.

وتتمثل المصادر الكبرى لبحوث الفعل فى التقاليد الاقتصادية والسياسية الأصلية البعيدة عن تلك التى تتكون منها العلوم الاجتماعية المعاصرة، ومنها الفلسفة الأمريكية البرجماتية، وعلم النفس التجريبى والاجتماعى، وتنمية المجتمع وتعليم الكبار، وأنشطة الديمقراطية الصناعية، والاستقصاء الإنسانى، وعلوم الفعل، وتعلم الفعل، والممارسة الانعكاسية، والتنمية الريفية المشتركة، واللاهوتية الليبرالية. وأن ما يأتى بكل هذه الاتجاهات معا هو الاعتقاد بأنه لا يوجد بديل عن التعلم بواسطة العمل.

وتتمثل إحدى نتائج ذلك فى تلك الحالات وقصص الحالات التى احتلت مكانا مركزيا فى عمليات التعلم التى أسهمت فى تكوين ممارس بحث فعل ذى كفاءة. لذلك فقد أنهينا الجزء الأول من الكتاب ببعض حالات بحوث الفعل فى الفصل الثالث، ولذلك قمنا بوصف ثلاث حالات لكى نرى المادة الثرية والتحديات والأخطار والإمكانيات. وقد نبعت إحدى هذه الحالات من الخبرات الإسبانية فى الجمعيات التعاونية بموندراجون، وكان موقع الحالة الأخرى فى قرية صغيرة فى غرب النرويج، أما الحالة الأخيرة فقد كانت داخل جدران جامعة كورنيل.

الفصل الأول

مدخل إلى بحوث الفعل، والتنوع، والديمقراطية

من الممكن أن تساعدنا بحوث الفعل فى بناء مجتمع أفـضل أكثـر حرية وعدالة من خلال تعاوننا فى تحليل هذه المشكلات وحلها فى بيئتهـا. وهنا نقدم للقارئ فى هذا الكتاب صورة شاملة عن بحوث الفعل متـضمنة الفلسفة الشاملة التى تقوم عليها، ومراجعة بعض الطرق الشائعة الاسـتخدام وأمثلة للحالات فى بيئتها، ومراجعة مختلف اتجاهاته التطبيقية. وأثناء كـل ذلك يستمر دفاعنا عن بحوث الفعل وأجندتها عن التغيير الاجتماعى مقارنة بأشكال البحث الاجتماعى الأخرى، والتى لا تساهم بصورة مباشرة وفعالـة فى عمليات التغيير الاجتماعى الديمقراطى، بل إنها فى نفس الوقت تساهم فى تكوين المعرفة الاجتماعية الصادقة.

ويقوم دفاعنا عن بحوث الفعل على أساسـين مختلفـين، ولكنهمـا مرتبطان هما المضمون الديمقراطى وجودة البحث الاجتماعى. فبحوث الفعل تساعد فى جعل عمليات البحث تتسم بالديمقراطيـة مـن خـلال تـضمين المستفيدين المحليين كباحثين أساسيين فى العملية. وأيضا تقدم بحوث الفعـل بحثا اجتماعيا ذا جودة أفضل من تلك البحث يقوم بها إستراتيجيات البحـث الاجتماعى ذات الخبرة المهنية. لذلك تعتبر بحوث الفعـل عـاملا أساسـيا ومركزيا فى الالتزام بالتحول الاجتماعى الديمقراطى مـن خـلال البحـث والتحليل وتصميم الفعل.

تعريف بحوث الفعل:

بحوث الفعل هى بحوث اجتماعية تنفذ من خلال فريق عمل، يتضمن باحثي فعل مهنيين وأعضاء من المنظمات والمجتمع المحلى وشبكة (المستفيدين) الذين يسعون إلى تحسين مواقف المشاركين. وترتقى بحوث الفعل بالمشاركة الواسعة فى عملية البحث وتدعم الفعل الذى يقود إلى موقف بالعدالة والتأييد أو إشباع احتياجات المستفيدين.

ويقوم كل من المهنيين والمستفيدين معا بتحديد المشكلات التى يريدون دراستها، ويتعاونون فى إنتاج المعارف ذات العلاقة بهم، ويتعلمون الأساليب الفنية للبحث الاجتماعى ويتخذون الأفعال(١)، ويفسرون نتائج الأفعال القائمة على أساس ما تعلموه. وتعتمد بحوث الفعل على الاعتقادات والخبرات التى يقوم من خلالها كل الناس -بمن فيهم باحثو الفعل المهنيون- بتجميع وتنظيم المعرفة المركبة واستخدامها باستمرار فى كل يوم من أيام حياتهم. وهذا الاعتقاد يعتبر واضحا جليا فى أى من مشروعات بحوث الفعل نظرا لأن أول خطوة يتخذها باحثو الفعل وأعضاء المجتمع والمنظمة وشبكة العمل **network** هى تحديد المشكلة التى تبحث عن الحل. إنهم يبدعون بالمشاركة **Pooling** بمعرفتهم. إن بحوث الفعل تحقق العلاقة الديمقراطية بين الباحثين المهنيين وباقى الأطراف المحلية ذات الاهتمام.

ونظرا لارتباط ممارسة البحث ببرامج التغيير الاجتماعى، فإن بحوث الفعل تنتقد الممارسات الأكاديمية التقليدية والمنظمات التى تركز على ضرورة دراسة المشكلات الاجتماعية بدون البحث عن إيجاد حلول لها. وعلى الرغم من أن بحوث الفعل ترى أن نظم المعرفة الأكاديمية والمهنية لا تهتم بالممارسة الموجهة على أنها تتسم بالعناد والمكابرة، فإن باحثى الفعل لا يرفضون طرق البحث الرسمى ولا يتجاهلون القضايا المعرفية التى تمثل

ضرورة لزيادة نمو وتطور المعرفة الاجتماعية الصحيحة. وفى المقابل يتسم باحثو الفعل بالدقة لأن نتائج بحوثهم تؤثر على حياة ومعيشة المستفيدين، ولديهم اهتمام عميق وكبير بصدق المعرفة التى تم الحصول عليها. وسوف يتم التعامل مع هذه القضايا بالتفصيل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب وخاصة فى الفصل الرابع "الأسس المعرفية **epistemological foundation** لبحوث الفعل" وفى الفصل الخامس "الطريقة العلمية وبحوث الفعل".

لماذا يصعب الوصول إلى مفهوم عام لبحوث الفعل:

لقد قررنا أن نكتب نظرة عامة وشاملة عن بحوث الفعل نظرا لأن خبرتنا بطلاب الجامعة والممارسين الذين يدرسون الموضوع لأول مرة. ومن خلال خبرتنا وجدنا أن الطلاب والممارسين الجدد يفتقدون إلى الوصول بكفاءة إلى الوسائل الشاملة والمتوازنة للتعلم عن المصادر المتنوعة والنظريات والطرق والدوافع، وكذلك المشكلات المرتبطة بالمجال المعقد. وعلى الرغم من وجود العديد من المؤلفات والكتابات عن بحوث الفعل، والتى تتضمن عددا من الأعمال التمهيدية والأدلة التى توفر نظرة شاملة عن مختلف الاتجاهات (سوف نذكرها فى أماكنها) فإننا نشعر بأننا نحتاج أيضا إلى نوع آخر من الكتب العامة. وتتسم الأعمال الموجودة حاليا بالإيجاز والتركيز على نوعيات معينة من بحوث الفعل واستبعاد الأنواع الأخرى. أو أنها لا تربط تاريخ وفلسفة وممارسة بحوث الفعل بمجموعة واسعة من القضايا الفلسفية والعلمية والسياسية. ويحاول الكتاب الحالى أن يتغلب على بعض هذه الحدود والعراقيل.

تكمن صعوبة الحصول على مثل هذه النظرة الشاملة عن بحوث الفعل فى تنظيم التطبيق العملى لبحوث الفعل. يوجد باحثو الفعل فى مؤسسات الخدمات الاجتماعية والمنظمات غير الحكومية ومؤسسات التنمية

الدولية وأقسام التخطيط والصناعة. وكذلك ينتشرون فى المعاهد والمؤسسات الأكاديمية (مثال: التعليم والتخطيط والاتصالات، والخدمات الاجتماعية وتقييم البرامج وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والسلوك التنظيمى). وتقريبا لا تخلو أى مؤسسة أكاديمية من وجود قسم لبحوث الفعل. والأكثر من ذلك فإن العديد من شبكات وجماعات الزملاء فى مختلف التخصصات يشتركون فى اهتمامهم ببحوث الفعل. وإحدى النتائج تتمثل فى أن ممارسى بحوث الفعل لديهم معرفة عامة قليلة، ويقرءون الدوريات والكتب المتنوعة، وغالبا ما يكتبون بتجاهل عن مساهمات الآخرين فى بحوث الفعل فى مجالات أخرى.

إننا نعتقد بأن إنشاء قسم جامعى لبحوث الفعل ليس هو الإجابة على هذه المعضلة. حقيقة كان تقسيم العلوم الاجتماعية إحدى الوسائل التى تضمنتها أجندة الإصلاح الاجتماعى، والتى نبعت من السياسة الاقتصادية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر الميلادى قد قلت أو تراجعت، ومع ذلك فإننا لم نترك المؤسسات الأكاديمية غير المرتبطة، وسوف نتناول هذه القضايا فى الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب.

ونريد أن يفهم القارئ أن ما سوف يلى ما هو إلا عرض لمجموعة متنوعة ومتشعبة من الممارسات التى تركز على استخدام البحث الاجتماعى من أجل التغيير الاجتماعى الديمقراطى. ولهذه النهاية فإننا نحاول أن نعرض العديد من الاتجاهات المتنوعة لبحوث الفعل وتوفير بعض المراجع التى تسمح للقراء بمتابعة اهتماماتهم الخاصة. إن ما نقدمه هو محدد بخبراتنا وأحكامنا عن الاتجاهات المختلفة التى نعرفها وبأجنداتنا العلمية والمنهجية والسياسية. إن هدفنا هو تقديم عرض عقلى أمين وشامل عن مجال بحوث الفعل من وجهة نظرنا. ونحن ندرك تماما أن الخريطة ليست لمقاطعة أو إقليم ونعرف أيضا أن القدرة المعرفية للممارسين يوجد بها العديد من الفجوات والخصوصيات فى اختياراتنا[٢].

بحوث الفعل والبحوث التطبيقية، والبحوث الكيفية مقابل البحوث الكمية:

تشير بحوث الفعل إلى اتحاد ثلاثة عناصر هي الفعل والبحث والمشاركة. وإذا لم توجد هذه العناصر الثلاثة فإن العملية يمكن أن تكون مفيدة، ولكنها ليست بحث فعل. ومن ناحية أخرى فإن بحوث الفعل هي إستراتيجيات بحثية ضرورية لاتخاذ الفعل المناسب للارتقاء بعملية التحليل الاجتماعي والتغيير الاجتماعي الديمقراطي. إن التغيير الاجتماعي الذى نشير إليه هنا ليس هو أى نوع من التغيير. إن بحوث الفعل تستهدف زيادة قدرة أعضاء المجتمع أو المنظمة على التحكم الفعال فى مقدراتهم وتحسين قدراتهم على تحقيق ذلك داخل بيئة أكثر دعما وعدالة.

وبحوث الفعل ليست بحوثا تطبيقية، بل إنها ترفض بوضوح الفصل بين التفكير وبين الفعل، والذى يرتكز على الفصل التطبيقى التام الذى يميز البحث الاجتماعى فى العديد من الأجيال. إن الفصل الزائف بين النظرية والتطبيق من وجهة نظرنا يعتبر الميكانيزم الذى بسببه تم تشويه العلوم الاجتماعية. إنه يخلق رقصة غير مفيدة بين النظريات غير المرتبطة والفاعلين المرتبطين، تلك الرقصة التى تحرر كل جانب من الحاجة إلى الفهم الصحيح للعالم الاجتماعى وعمليات تغييره ويعوق قدرتهم عن المحاسبة لكل من النتائج الاجتماعية والمنهجية والأسس النظرية.

نحن نعتقد أن المعرفة الاجتماعية الصادقة يمكن أن تنبع فقط من ارتباطها المنطقى بالممارسة من خلال الفعل. ونحن نعتقد كباحثى فعل بأن الفعل هو فقط الوسيلة المدركة لإنتاج معرفة جديدة واختبارها. إن الاعتقاد الواسع الانتشار بأنه لكى تكون عالما اجتماعيا يعنى ألا ترتبط بفعل اجتماعى يعتبر بالنسبة لنا غريبا جدا وغير بديهى، وسوف نخصص مساحة واسعة لشرح هذه الظاهرة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

إننا نرفض الاتجاه السائد لدى الناس الذين يعتقدون أن بحوث الفعل يجب أن تكون بحوثا كيفية بدلا من أن تكون بحوثا كمية. وربما ينبع هـذا الافتراض غير المبرر من الاعتقاد بأن العمل الموجه بالفعل لا يعتبر علميا (لأنه يتضمن فعل) والافتراض الآخر (الخاطئ من وجهة نظرنا) بأن البحث الكمى أكثر علمية من البحث الكيفى. ونظرا لأننا لا نـؤمن بـصحة هـذه الافتراضات ولأننا نستخدم كلا من الطرق الكمية والكيفية فإننا نرفض فكرة أن بحوث الفعل هى بحوث كيفية فقط ونحن مقتنعون بأن باحثى الفعل لابـد أن يكونوا على درجة عالية من الكفاءة والمهارة فى جميع أشـكال البحـث الاجتماعى.

ويجب أن يتقبل باحثو الفعل عدم وجود أى قيـود علـى اسـتخدام تكنيكات وأساليب البحث الاجتماعى. فكل المسوح والتحلـيلات الإحـصائية والمقابلات ودراسة المجتمعات البدائية وتواريخ الحياة تعتبر مقبولة ومفيـدة لو تم الاتفاق على الغرض من استخدامها من قبل المشاركين فـى بحـوث الفعل، وكذلك إذا استخدموها بطريقة خاصة لا مثل اضطهاد المشاركين. إن المعرفة الدقيقة لكمية المعادن التى تحتويها المياه الجوفية فى مكان ما تعادل تقريبا معرفة كيفية تكوين الناس للوعى والإحساس بالمستقبل كجـزء مـن مشروعات بحوث الفعل. إن الطرق الكمية والكيفية والمختلطة تعتبر جميعها مناسبة للمواقف المختلفة.

الفعل والبحث والمشاركة:

على الرغم من الفروق الجوهرية بين ممارسى بحوث الفعل، وكذلك بين مواقف حياتهم، فإننا نعتقد أن هناك العديد من الالتزامات المهمة تـربط بيننا. إن بحوث الفعل هى مزيج من ثلاثة عناصر متوازنة لو غاب أحـدها

فإن هذه العمليات لا تعتبر بحوث فعل. وليس معنى قولنا هذا إن كل الأبحاث غير بحوث الفعل تعتبر غير ذات معنى، ولكن نريد فقط أن نميز بين بحوث الفعل وبين أنواع البحوث والأنشطة التطبيقية الأخرى.

١. الفعل **Action**: بحوث الفعل هي بحـوث تـشاركية **Participatory** لأنها تستهدف تغيير المواقف الأساسية للجماعة والمنظمة أو المجتمع في الاتجاه نحو حالة تتسم بالإدارة الذاتيـة والليبراليـة (الحريـة) والدعم. إن ما يعرف على أنه حالة تحررية يختلف من ممارس إلى آخر، فالبعض يستخدم بحوث الفعل في خلق نوع من التحـرر مـن خلال عملية تحقيق ذات كبيرة. والبعض الآخر يركز أكثـر علـى المعاني السياسية للتحرر، حيث يختلفون بين أنفسهم حـول طبيعـة أجندة التحرر السياسي التي يدافعون عنها. ولا يزال البعض الآخـر يعتقد أن بحوث الفعل تحدث في العديد من أنواع الأنـشطة البحثيـة وخاصة تلك التي يوجد فيها بعض أعضاء التنظيمات أو المنظمـات التي يتم دراستها. وعلى الرغم من أن القليل من الممارسين يحاولون ربط بحوث الفعل بالتطبيقات الثورية فإن باحثي الفعـل يعتبـرون مصلحين اجتماعيين أكثر من أن يكونوا ثوريين.

٢. البحث **Research**: نحن نؤمن بالبحـث وبقـوة وقيمـة المعرفـة والنظريات والنماذج والتحليل. ونؤمن أيضا أن بحوث الفعل تعتبـر واحدة من أقوى الوسائل لتكوين معرفة بحثية جديدة.

٣. المشاركة **Participation**: نحن نؤمن بالمشاركة التي تمثل قيمة قوية وبارزة في الديمقراطية وضبط مواقف حياة الإنسان. وهذه القيم تنبع من مناقشاتنا وتخلق التزاما عاما وقويا لجعل عملية تكوين المعرفـة أكثر ديمقراطية. وتتضمن بحوث الفعل باحثين اجتماعيين مـدربين

يعملون كميسرين ومعلمين لأعضاء المجتمعات المحلية أو المنظمات. ونظرا لأن هؤلاء الناس يحققون معا أجندة بحوث الفعل ويكونون المعرفة اللازمة لتغيير أو تحويل المواقف، ووضع النتائج موضع التنفيذ فإن بحوث الفعل هى عملية مشاركة يتحمل من خلالها كل فرد بعضا من المسئولية.

إن كل هذه الاتجاهات المختلفة قد تم تقسيمها إلى أجزاء فرعية وفقا للموضوعات التى تتناولها: تنمية المجتمع، والتغيير فى أنساق التعليم، والتنمية الاقتصادية والتحرر فى العالم الثالث، والتغيير فى المؤسسات الرئيسية فى المجتمع (الشركات والبيروقراطيات الإدارية وغيرها). وتعتبر العديد من هذه الاتجاهات متعارضة. البعض منها يعتمد على الأفكار الماركسية عن الاقتصاد السياسى والتحول الاجتماعى، ويمتد جذور البعض الآخر إلى الفلسفة البرجماتية، ولا يزال البعض الآخر يبنى على أساس بعض جوانب علم النفس الاجتماعى، ويدافع البعض الآخر ببساطة عن فكرة أينما يكون السؤال فإن المشاركة هى الإجابة. ونحاول أن نأخذ القارئ بجدية إلى أن يصبح مدركا لهذه الاختلافات، ولكننا لا نضمر أى وهم أو خداع للتوفيق أو للتسوية بين هذه الاختلافات.

بحوث الفعل والنظم وتغطية الأحداث:

كما ذكرنا سابقا فبحوث الفعل لا تعتبر نظما، إنها تتضمن ممارسين من علم الأنثروبولوجى ودراسات التنمية والتعليم والهندسة ودراسات الجنس والنوع والخدمات الاجتماعية وعلم النفس والخدمة الاجتماعية وعلم الاجتماع والتخطيط والهندسة المدنية والكثير من المجالات الأخرى، والتى تتضمن الكثير من أشكال الممارسات غير الأكاديمية. ومن ثم لا يجد الطلاب أى

عرض لبحوث الفعل فى مقرراتهم الدراسية الأساسية فى معظم الأقسام العلمية. وتستخدم التخصصات الأكاديمية مقررات المداخل لتقوية التخصصات البينية الجديدة، ولزيادة معدلات تسجيل الطلاب لاستيفاء متطلبات إدارات الجامعات، والتى من خلالها تحصل الأقسام على موارد إضافية. وعموما فإن هذه المقررات لا تستهدف جذب الطلاب أو الممارسين الذين يشتركون فى وجهات نظر خاصة عن الديمقراطية والمشاركة وإيجاد معارف نافعة. وهذه هى الحالة على الرغم من خيال المحافظين الجدد فى الولايات المتحدة الأمريكية الذين يتصورون العلوم الاجتماعية والإنسانيات فى الجامعات الولايات المتحدة مجالا خصبا للارتقاء بالأيديولوجيات اليسارية.

إن بحوث الفعل فى بيئة التعليم العالى لا تعتبر وسيلة سهلة للعمل بسبب أن عمليات تسجيل الطلاب وحدود التخصصية تعتبر الأدوات التى تستخدم فى المنافسة والقيادة والإدارة الأكاديمية. ومع ذلك فإننا نواجه بزيادة عدد الطلاب من المجالات المتنوعة والذين يأتون إلينا لتعلم بحوث الفعل. والبعض يأتى كرد فعل لخبراتهم غير المرضية فى التجريد والسلبية الاجتماعية فى المجالات التى يعملون بها، والبعض الأخر بسبب رفضهم لمذهب النفعية فى العديد من المجالات التى تسمى بالتطبيقية، والبعض الآخر بسبب خبراتهم بالعديد من الاتجاهات التى تنتقد أنساق النظم القانونية (مثال ذلك: مذهب مساواة المرأة **Feminism** والماركسية الجديدة والنظرية النقدية). إن التحدى الذى يواجه عملية تعليم الجماعات المتنوعة والمتباينة يتمثل فى كيفية تقديم مدخل إلى الأشخاص الذين يبحثون عن شىء يمدهم بخلفية كافية تسمح لهم بالاستمرار فى التعلم الاستقلالى لبحوث الفعل وفى نفس الوقت لبناء الخبرات الممكنة التى تنقلهم إلى اكتشاف بحوث الفعل من أول جلسة أو مكان.

بعد التفكير فى هذه المشكلة وتعليم مقررات بحوث الفعل خلال العشرين عاما الماضية، قررنا أن أفضل اتجاه بالنسبة لنا يكون فى تطوير

مناقشة تاريخية وفلسفية وأخلاقية لبحوث الفعل توفر بعض حالات ممارسة بحوث الفعل، ومن ثم تقدم اتجاهات متنوعة لبحوث الفعل. ولاستيفاء شروط هذا التصميم نقوم بتطوير مناقشة فلسفية لبحوث الفعل كنشاط علمي ورؤية ارتباط بحوث الفعل بالعديد من الأنواع المختلفة للحركات الإصلاحية في العلوم الطبيعية والهندسة والعلوم الاجتماعية. ونعزز ذلك بالمناقشات والحجج السياسية والاقتصادية التي تأخذ في حسابها إخماد البحوث الاجتماعية ذات التوجه التطبيقي في المجال الأكاديمي. ونظرا لأننا نهتم بالمعبر بين النظرية والتطبيق فإننا أيضا نزيد من مناقشات التصميمات المنهجية والأدوات المفيدة لبحوث الفعل. ومن ثم فمن أجل استدعاء وجهات النظر المتنوعة بين الممارسين، فإننا نقدم ملخصا عاما لبعض الأوضاع والمواقف الرئيسية لبحوث الفعل (والتي تتضمن وجهات نظرنا) ونعلم جيدا أن الكثير من بعض هذه المواقف والأوضاع تتجاهل البعض الآخر في الممارسة.

ومن المحتمل أن تتعرض هذه النظرة العامة للانتقادات من بعض ممارسي بحوث الفعل بسبب أنها غير شاملة، وبسبب أننا عبرنا عن آرائنا الخاصة عن كل اتجاه راجعناه. وتوجد اقتراحات عديدة لبحوث الفعل والعديد من الجماعات المختلفة التي يدعي بعضها أنه يعرف الوسيلة الصحيحة لإجراء بحوث الفعل، بينما يرفض البعض الآخر الاسم كلية ويفضلون (غالبا لأسباب حسية) مصطلحا آخر (مثل بحوث المشاركة، الاستقصاء والإنساني، علم الفعل). ويتجاهل بعض الممارسين بشكل تقليدي بعض الأعمال أو يتعصبون للبعض الآخر. وعلى الرغم من إدراكنا بأن مراجعتنا لن تكسبنا أصدقاء في كل الجماعات، فإننا نصر على تقديم وجهة نظرنا هذه عن بحوث الفعل كحق فكري وسياسي وندعو الآخرين لتقديم وجهات نظر بديلة وانتقادات حول وجهة نظرنا هذه. وقد أشارت الطبعة

الأولى من كتابنا هذا بعض ردود الفعل، ولكن حتى الآن لم تقتــرح وجهــة نظر بديلة متكاملة حول مجال بحوث الفعل.

تناولنا لبحوث الفعل: بحوث الفعل البرجماتية:

تسود خبرتنا هذه (وإن كانت ليست مقصورة عليها) بعض المؤســسات الصناعية ومؤسسات التعليم العالى ومؤسسات المجتمع فى أوروبــا والولايــات المتحدة الأمريكية. ويعتبر ديفيــد جــرين وود **Davydd Greenwood** عــالم أنثروبولوجيا ومورتن ليفين **Morten Levin** عالم اجتمــاع ذو خلفيــة فــى الهندسة. ويعمل جرينوود أستاذ فى جامعة كورنيل **Cornell**، التــى تعتبــر مجمعًا ضخمًا بالولاية ومعهدًا خاصًا، ويعمل مديرا أكاديميــا للعديــد مــن المراكز الكبرى فى التخصصات البينية المتعددة لأكثر من ٢٠ عاما، بينمــا استمر فى تعليم الأنثروبولوجى. وقد احتل بحثه الرئيسى مكانا متميزا فــى إسبانيا، وفى شمال مدينة نيويورك، وحاليا فى الدراســة المقارنــة العلميــة للجامعات. لقد كان عضوا فعالا فى العديد من البرامج فى النرويج والسويد، منها برنامج دكتوراه بحوث الفعل الذى أدارة مورتين ليفين. وليفين هو أستاذ فى العلوم والتكنولوجيــا بجامعــة النــرويج **(NTNU)** بمدينــة تروانــدهيم **Trondheim** وكان هو الرائد فى إنشاء المجمع الهندسى وبــرامج بحــوث الفعل فيها، وأيضا قائد لبعض الأنشطة الدولية- برامج تنمية الحياة. وقد أدار أيضا العديد من بحوث فعل فى الولايات المتحدة وكندا، وهو مؤسس وقائــد لبرامج دكتوراه بحوث الفعل برعاية الشركاء الاجتماعيين النرويجيين الــذى تم تأسيسه فى جامعته.

لقد قمنا بجهد مخلص لكى نصبح واســعى الاطــلاع للعديــد مــن الاتجاهات، ولكننا مدركون أيضا بأن هناك العديد من الهفوات فى خلفياتنــا. إننا لم نتجاهل بدون وعى الاتجاهات الأخرى من خلال الكتابة عن أساســنا

المعرفى. إن المصطلح الأطول لحل مشكلات التوازن الموجود هنا هو بالنسبة للآخرين يتمثل فى كتابة وجهات نظرهم حول هذه الموضوعات ويصبحون ناقدين لما قدمناه. نحن نستجيب لذلك ونأمل فى فتح حوار يوسع من إدراكنا الجمعى للغرض من بحوث الفعل وتعزيز الحوار حول ديمقراطية إنتاج المعرفة والفعل. ونأمل أن يساهم كتابنا هذا فى تشجيع المناقشة النقدية المطولة التى نحتاجها لبحوث الفعل وتطبيقاتها(٣). إن هدفنا هو تقديم خط **strand** واحد متسق من التفكير يتكامل فيه الوضع الفلسفى والمنهجى والسياسى والاقتصادى مع التطبيق الراسخ الذى تدعمه الطرق ولأدوات المناسبة، مع الاحتفاظ بالفهم العميق لكل أنواع ممارسات ورؤى بحوث الفعل.

وكما ذكرنا سابقا فإننا نعتبر أكثر خبرة فى استخدام بحوث الفعل فى الصناعة وفى تنمية المجتمع فى المجتمعات الصناعية الغربية. ونحن نشترك فى التزامنا بتحقيق ديمقراطية المعرفة والتعلم، والتغيير الاجتماعى. إننا مصلحون ولسنا ثوريين، ومع ذلك فنحن علماء اجتماعيون ولسنا محللين نفسيين. ونحن نعتقد أننا لا نملك الحكمة أو الحق فى قيادة الآخرين إلى الترتيبات الاجتماعية الصحيحة "لما هو حسن بالنسبة لهم"، كما فعل بعض الممارسين الليبراليين، أو كما دافعت الكثير من الاتجاهات العلاجية لبحوث الفعل. وبدلا من ذلك فإننا نعتقد أننا نحاول ببراعة كلما أمكن ذلك توفير المساحات والأدوات من أجل التغير الاجتماعى الديمقراطى.

إننا نرفض توجيه مثل هذا التغيير من طرف واحد أى من وضعنا كباحثى فعل. إننا نعتبر أنفسنا مشاركين فى عملية التغيير الاجتماعى والتى من خلالها تحكم الممارسة القواعد الديمقراطية عملية اتخاذ القرار. إننا نحضر إلى المنضدة مهارات ومعارف معينة، ويفعل الآخرون غيرنا نفس

الشيء حيث يحضرون قدراتهم الخاصة وخبراتهم للتأثير في المشكلات. وهذا سبب ما أطلقنا عليه ممارستنا الخاصة المتنوعة لبحوث الفعل "بحوث الفعل البرجماتية".

وتعتبر آراؤنا حول المواقف الديمقراطية والتحررية ذات صلة بموضوعنا، ونحن نرغب فى توضيحهما. إن الديمقراطية مصطلح متعدد المعانى، وإن المحاولات التى تحاول توضيح هذا المفهوم تتسم بالتعارض الحاد. (انظر المراجعات المتميزة لداهل: Dahl, 1989). ويرى البعض وخاصة الكثير من الأمريكيين الشماليين أن مصطلح الديمقراطية غالبا من يستدعى إلى الذاكرة فلسفة المساواة بين البشر Egalitarianism. ويرى الآخرون أن هذا المصطلح يتضمن المشاركة، بينما يرى البعض الآخر أنه عملية اتخاذ القرار من خلال الإجماع، والبعض يرى أنه عملية اتخاذ القرار وفقا لقاعدة الأغلبية. ويرى البعض أن الديمقراطية تتضمن المجتمع المتجانس، والبعض الآخر يرى أنها تتضمن ساحات المناقشة والجدل النشط. ولكل من وجهات النظر هذه انتماءاتها الوراثية والنظرية والسياسية والأخلاقية.

ومن وجهة نظرنا فإن هذه الآراء تسوى بين الديمقراطية مع إيجاد ساحات للنقاش والجدال الفعال وبين عملية اتخاذ القرار التى تحترم تنوع الجماعات وتعززها. ونحن نرفض بوضوح العدالة المميزة بين الناس، وعمليات الديمقراطية القائمة على نماذج الإجماع. إننا نتخذ تنوع المهارات والخبرات والثقافات والسياسات والتنوعات الجنسية (ذكورا وإناثا) كأكثر الموارد أهمية بالنسبة للتغيرات الاجتماعية الكامنة فى الجماعات. وبناء على ذلك فإننا نرفض وجهة النظر السياسية السائدة حول الديموقراطية على أنها حكم الأغلبية، ونقبل انتقاد إيريس يونج (1990) Eris Young لوجهة النظر هذه حول الديمقراطية التى تعتمد على الأفعال والإجراءات المستبدة لنظام

الرعاية الاجتماعية فى الدول الرأسمالية لتقليل العدالة الاجتماعية من خـــلال إعادة التوزيع المحدود للسلع والأرباح على عدد محدود من غير القـــادرين. ولا تحترم هذه النظرة الديمقراطية ولا تحترم التنوعات بكـــل أشـــكالها ولا تسعى إلى تعزيز قدرات المحرومين للعمل نحو تحقيق مصالحهم المشروعة. وتهدف بحوث الفعل إلى تمكين المجتمعات والمنظمات من تعبئة مـــواردهم الداخلية المتنوعة والمركبة بأقصى درجة ممكنة.

وبناء على ذلك فإننا نرتاب فى اتجاهات بحوث الفعل التـــى تعطـــى امتيازا وأولوية لتجانس المجتمعات أو اتخاذ القرارات على أساس الإجماع، معتقدين بأن مثل هذه الاتجاهات تفتح الباب على مـــصراعيه للاحتمـــالات الكبيرة للاختيار والإجبار. ولم يحاول أحد أن ينظر بعيدا نحو توثيـــق هـــذه المشكلات. ومن النقاط المختلفة فى التاريخ المعاصر، كما حدث عام ١٩٦٨ حيث تجسدت الانتقادات الديمقراطية للمشروعات الرأسمالية المألوفـــة، فـــى محاولات إيجاد ما أطلق عليه الأشكال الاجتماعية البديلة. وقد اتخذت العديد من هذه المحاولات شكل المجتمعات المـــستهدفة **Intentional** والتعاونيـــات والمدارس المفتوحة، وحاول الكثيرون أيـــضا إلغـــاء الاختلافـــات الثقافيـــة والاجتماعية وإبدالها باتخاذ القرارات القائمة على الإجمـــاع وفقـــا لقواعـــد الأغلبية. ولعل الوصف الإثنوجرافى المذهل لمثل هذا التنظـــيم قـــد قدمـــه مانسبريدج **(1983) Mansbridge** فى كتابه "ما وراء خصوم الديمقراطيـــة **Beyond adversary democracy**" ولتخليص الأقلية من ظلم الأغلبية، فإنهم خططوا للتغيير الاجتماعى محاولين إحلال الإجماع المطلق بدلا من قاعـــدة الأغلبية. وكان التأثير كما رآه توسكيفيل **Tocqueville (2001/1835, 1840)** فى الأجيال التى مضت غالبا ما خلق مطلبا استبداديا للإجماع، والـــذى فـــى النهاية أدى إلى الإضعاف التدريجى فى الاعتقاد بالديمقراطية من خلال خبرة جماعات الضغط والرقابة الذاتية.

ونعتقد أن التنوع يعتبر واحدا من أهم خصائص المجتمعات الإنسانية. ويعتبر التنوع حقيقة بيولوجية، غالبا ما يتكاثر فى كل جيل بغض النظر عن مقاصد أى شخص. ويعتبر التنوع أيضا نتاجا ثقافيا. إن أى شخص يكلف نفسه عناء النظر عن قرب يكتشف أنه حتى فى أكثر الجماعات التى تبدو متجانسة يوجد داخلها اختلافات واسعة فى المعرفة والاهتمامات والخبرات والقدرات. ونحن نرى أن هذه الاختلافات تعتبر موارد اجتماعية ثرية، والتى يمكن عند تعبئتها بفعالية فإنها تمنح الجماعة أو المنظمة قدرة كبيرة على تغيير نفسها. ونرى أن الديمقراطية نسق مفتوح، والذى يجب أن يكون قادرا على الترحيب بهذه الاختلافات وتحقيق أقصى درجة من الاستفادة الإنسانية منها. ومن وجهة نظرنا فإن الهدف من الديمقراطية هو الارتقاء بقدرة المجتمعات والتنظيمات على تأكيد وتعبئة وتنشيط هذه الاختلافات داخلها.

ونرى أن المواقف الليبرالية هى تلك المواقف التى يكون التغيير الاجتماعى فيها ممكنا، والتى يمكن أن تتأثر بالمشاركين. بالإضافة إلى ذلك فإننا نرى أن الجماعة أو المنظمة تصبح ليبرالية عندما تزداد قدرتها على التسامح والاستفادة من تنوع وجهات النظر والقدرات والخبرات داخلها ومكافأتها، وإذا كانت تسمح بزيادة نسبة الأعضاء الذين يؤثرون على توجهات المستقبل بالنسبة للعمل الجماعى. وأخيرا فإن الموقف الليبرالى يتسم بزيادة ترحيب الجماعة بالتغيير كفرصة لتعزيز قدرات الجماعة ولنموها.

خطة الكتاب

يستمر الجزء الأول من هذا الكتاب بعرض الفصل الثانى عن تاريخ بحوث الفعل، وعرض ثلاث حالات فى الفصل الثالث. ونتناول فى الجزء

الثانى (العلم والمعرفة والممارسة فى بحوث الفعل) حيث تتناول الفصول من (٤-٨) المناقشات الفلسفية والمنهجية لبحوث الفعل كشكل من الاستقصاء العلمى، والذى يقابل بشكل أفضل المعايير العلمية أكثر مما نطلق عليه حاليا "بالعلوم الاجتماعية" فى الدراسة الأكاديمية. وسوف نقدم عرضًا وتفسيرًا لعملية تهميش أنشطة بحوث الفعل فى المجالات الأكاديمية من خلال تلخيص الخصائص التاريخية والسياسية والاقتصادية للمؤسسات الأكاديمية فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. وفى الجزء الثالث (تنوعات تطبيق بحوث الفعل) ننتقل إلى الفصول من ٩-١٥ والتى تتناول الاتجاهات المختلفة لبحوث الفعل بداية باتجاهنا الخاص. ونقترب فى الجزء الرابع من خلال الفصل ١٦ من تعليم باحثى الفعل، ونتعرض فى الفصل السابع عشر للنظرة الأوسع لبحوث الفعل والمشاركة والديمقراطية. وطوال هذا العرض فإننا ندافع بقوة عن وجهة نظرنا ولكن مع الاهتمام بتشجيع القارئ على ألا يتقبل ذلك بدون مناقشة.

افتراضاتنا عن هذا الكتاب للقراء

نفترض أن قراءنا لديهم خبرات سابقة، سواء للبحث الاجتماعى التقليدى، أو للتغير الاجتماعى الموجه بالفعل. ونحن نهدف إلى تقديم بحوث الفعل للقراء الذين يسعون إلى الوصول إلى ما يأملون من أساليب مناسبة وبناءة للقيام بالبحث الاجتماعي. ونحن لا نطلب منك أن تتجاهل خبراتك السابقة، إننا نشجعك على استخدام هذا الكتاب كمرجع تتعلم منه عن اتجاهات بحوث الفعل. وكما يحدث فى فصولنا التعليمية أو فى مشروعات بحوث الفعل، فإننا نرى أن العلاقة بين القارئ- والمشارك، والمؤلف- والباحث تعتبر علاقة تضامنية.

الهوامش

١) أحيانا ما ينخرط باحث الفعل المهنى فى الأفعال النابعة من عمليات بحـوث الفعـل وأحيانا لا. وهذا يعتمد على الموقف وعلى احتياجات المستفيدين.

٢) وقد ساعد وجود دليل بحوث الفعل لبيتر ريـسون وهـيلارى برادبـورى **Peter Reason and Hilary Bradbury (2001a)** فى علاج هذه المشكلة، وإن هذا العمل يمكن أن يتم بنشاط مع الاستفادة من العديد من وجهات النظر والببليوجرافيات الشاملة.

٣) إن التبادل المفيد من هذا النوع قد تم نشره فى المجلة الدولية لبحوث الفعل (والتـى سميت فيما بعد بالمفاهيم والتحولات **(Greenwood, 2002, 2004a)**

الفصل الثانى

تاريخ بحوث الفعل

يمكن كتابة التاريخ بوسائل متعددة، ولكن لا يمكن لشخص بمفرده أن يكتب التاريخ. وينصب اهتمامنا فى هذا الفصل على تحديد انتساب (انتماء) **Genealogy** بحوث الفعل، التى تركز على الطريقة التى تعلمناها لفهم بحوث الفعل أثناء سنوات عملنا فى هذا المجال. ونحن لا نؤمن بأنه من الممكن تقديم تفسير موضوعى لتطور بحوث الفعل. وغالبا ما تقوم محاولة صياغة تاريخ ظاهرة معينة على افتراض أساسى، وهو أنه من الممكن رسم خط تاريخى واحد يربط بين العناصر المختلفة لهذه الظاهرة. وهذا لا ينطبق على حالة بحوث الفعل أو ربما أى موضوع آخر. إن تنوع الأنشطة التى تحددت اليوم كبحوث للفعل لا يمكن –بطريقة واضحة– أن ترتبط ببعضها. والمثال اللافت للنظر لهذا الموقف حدث عام ١٩٩١ عندما تم نشر كتابين مهمين فى نفس الوقت بنفس العناصر فى عنوانهما: فالس بوردا ورحمن **Fals Borda and Rahman''s (1991)** الفعل والمعرفة: تحطيم الاحتكار باستخدام بحوث الفعل **Action and Knowledge: Breaking Monopoly With Participatory Action Research**. وكتاب وايت **Whyte (1999)** بحوث الفعل المشتركة **Participatory Action Research**. وقد استخدم الكتابان نفس العناصر فى عنوانيهما، وعلى الرغم من ذلك كما رأى ليفين **Levin (1998)** لم يعترف كل منهما بالآخر. وبملاحظة قائمة المراجع التى اعتمدا عليها نجد أنهما لم يشتركا سوى فى ثلاثة مراجع فقط ترتبط بممارسة بحوث الفعل.

وقد تغير هذا الموقف خلال الخمسة عشر عاما الماضية. وقد أشار دليل بحوث الفعل الذى حرره ريسون وبرادبورى Reason and Bradbury (2001)، والذى جمع العديد من الاتجاهات الفكرية المتنوعة عن بحوث الفعل فى مجلد واحد إلى ظهور العديد من الآراء العالمية المتنوعة فى التطور المعاصر لبحوث الفعل. وقد وجدت العديد من المراجع المشتركة للأعمال الكلاسيكية لكل من كارل ماركس Karl Marx وجون ديوى John Dewey وكورت ليفين Kurt Lewin وجورجين هابرماس Jurgen Habermas وهانس جورج جادامر Hans Georg Gadamer وريتشارد رورتى Richard Rorty وغيرهم. إن ما تم افتقاده فى مجلد ريسون وبرادبورى وفى مجال بحوث الفعل عموما أصبح يمثل مجالا للنقد لمختلف تصورات بحوث الفعل، أو للخلاف حول مختلف الممارسات والنتائج. والأكثر من ذلك فقد استهدفت المساهمات فى مجلد ريسون وبرادبورى تقديم تصور واحد ومحدد، ولم يتضمن التصورات الفكرية المتنوعة. ونأمل أن يوجد نوع من الإبداع من خلال شبكة المهنيين الدولية فى بحوث الفعل تتضمن تعدد الآراء المعالجات النقدية والتى توفر خريطة ذات دلالة للتنوعات والاتجاهات المختلفة لبحوث الفعل.

وعلى الرغم من ذلك فإنه من الخطأ الادعاء بأن الأنشطة المتنوعة التى يطلق عليها بحوث الفعل تفتقد إلى خصائص أو مميزات الحركة الفكرية الاجتماعية. إن بحوث الفعل تجسد حركة تنوع واسعة تتضمن العديد من التشابهات فى القيم والاتجاهات فى المجال الإمبيريقى والالتزام بالتعلم المتبادل بين أصحاب المشكلات والباحثين. وقد أصبح الممارسون فى مجال بحوث الفعل يشاركون فى المؤتمرات، ويكتبون الفصول فى نفس دليل بحوث الفعل لريسون وبرادبورى وينشرون فى نفس الدوريات العلمية، ولكن لم ينتج عن هذا النشاط اتصال أو تواصل كاف لذلك فمن السهل على القارئ

أن يبدأ فى جانب من جوانب بحوث الفعل لكى يجد ما يريد ثم ينتقل إلى الجوانب أو الأركان الأخرى.

ويمكن تقسيم الاتجاهات المتنوعة والعديدة من التفكير إلى فئات محددة، ولكن يكفى لتحقيق أغراضنا هنا التركيز فقط على الوصول إلى نظرة تاريخية أكثر عمومية. أخيرا فإننا نقدم فى الجزء الثالث من هذا الكتاب الأصول التاريخية لمعظم اتجاهات بحوث الفعل، كما نتعرض بالشرح لكل اتجاه. ومن وجهة نظرنا فإن تاريخ بحوث الفعل يحتوى بالضرورة على أكثر من قصة أو رواية وكل رواية أو قصة تضيف عناصر أساسية إلى الصورة التاريخية الكبرى.

هذا وقد بدأنا ببناء تاريخ بحوث الفعل وركزنا اهتمامنا على الديمقراطية الصناعية الشمالية. وقد مثلت خبرات المنظمات الصناعية الشمالية الأرضية الخصبة والأساسية لتطور ونمو بحوث الفعل، وقد كرسنا معظم المساحات فى هذا الفصل للتقاليد الشمالية والغربية لأن القارئ يحتاج إلى معرفة من أين نحن جئنا. ويجب ألا يفسر ذلك على أنها إستراتيجية استثنائية أو انفصالية، ولكن بالأحرى تفصيل أو وصف للكيان الخاص بنا. بعد ذلك نقدم عرضا لحركات التحرر فى البلدان الفقيرة؛ نظرا لأنها تمثل جزءا حيويا من تاريخ بحوث الفعل. (ونقدم فى الفصول الأخيرة المشاركة الشمالية فى بحوث الفعل (PAR) واتجاهات التحرر الأخرى والتى تعطى معالجة دقيقة ومهمة) ويعتبر التقارب النهائى (بدون التشابهات المتبادلة) ضروريا لمستقبل بحوث الفعل ويحدد القوى المنظمة فى الشمال والجنوب ضد الديمقراطية. وتعتبر هذه واحدة من الممارسين الأساسيين فى بحث الفعل بالمشاركة، ويعتبر أورلاندو فالس بوردا **Orlando Fals Borda** هو الذى فهم ذلك جيدا وتوصل إلى كل الأوضاع فى عالم بحوث الفعل عندما اختار

تنظيم مؤتمرات العالم، التى أطلق عليها عنوان التقـــارب **"Convergence"** فى قرطاجنا وكولومبيا عام ١٩٧٧ وعام ١٩٩٧. ونخـــتم الفـــصل بمـــوجز مختصر لاتجاه الاستقصاء الإنساني/الاستقصاء التعاونى.

الديمقراطية الصناعية Industrial Democracy:

يشير مصطلح حركة الديمقراطية الصناعية إلى أول الجهود المنظمة والمنطقية لبحوث الفعل فى المجتمعات الصناعية الغربية. وترجع جـــذورها للعمل المبكر لكورت ليفين **Kurt Lewin** فى الولايات المتحـــدة الأمريكيـــة (كانت فى جامعة كورنيل أولا ثم أخيرا فى **MIT**). وقـــد عبـــرت أفكـــاره المحيط الأطلسى ووجدت أرضية خصبة فى معهـــد تافيـــستوك للعلاقـــات الإنسانية بلندن. وكان هناك عدد من الأنشطة فى بريطانيا العظمى، وهـــى المصدر الرئيسى لمشروعات بحوث الفعل على نطاق واسع والتى انتقلـــت إلى النرويج فى مشروع الديمقراطية الصناعية. وقد تم إعادة صياغة العديد من هذه الأفكار فى شـــكل إســـتراتيجيات الإدارة الـــصناعية فـــى الـــسويد والشركات الصناعية بالولايات المتحدة الأمريكية، وأخيرا وصـــلت اليابـــان أيضا. ويعتبر هذا الانتشار السريع للأفكار التى تطورت من خلال بحـــوث الفعل قصة نجاح عن انتشار بحوث الفعل، ولكنها أيضا تعتبر قـــصة عـــن الطريقة التى استخدمتها الأفكار الراديكالية المعتدلة عن التغير الاجتمـــاعى كأدوات للإدارة، والتى استهدفت إنتاج منظمات أكثر كفاءة بدلا من المنظمات الأكثر عدلا.

ويتمثل افتراضنا الرئيسى بأن الأفكار الأساسية لحركة الديمقراطيـــة الصناعية قد أصبحت مقبولة اليوم كتقنية حديثة لتنظيم العمل. ولم يفشل قائد صناعى واع فى الغرب فى أن يضع فى حسابه تنظيم العمل القائم على فريق

أو على العاملين ذوى المهارة والمسئولية القادرين على الانخراط فى عمليات التجديد والإبداع (التحسين والتطوير) المستمر فى مستوى توزيع العاملين فى أعمالهم. وقد لاقت هذه الأفكار قبولا على نطاق واسع فى الوقت الحالى ذلك أن أصولها المعاصرة نسبيا فى حركة الديمقراطية الصناعية أصبحت فى طى النسيان.

ولعل إحدى نتائج ذلك أن مفهوم الديمقراطية الصناعية قد فقد معناه الأساسي. وقد طبق بعض الممارسين والشركات مصطلح الديمقراطية الصناعية بشكل اختيارى، وأعطوا إستراتيجيات الضبط النموذجى للإدارة اسما جذابا اجتماعيا، بينما لا يزالون يستخدمون أساليب تايلور **Tayloristic Ways**[١]. وعلى الرغم من أننا ننظر إلى ذلك على أنه موقف إشكالى فإن أى شخص آخر دائما ما يرى ذلك عندما تظهر أفكار جديدة فى المؤسسات الصناعية. ونستطيع أيضا أن نرى نفس عمليات التأهيل فى اتجاهين آخرين لبحوث الفعل سوف نناقشهما فى هذا الفصل. ففى الحركة التحررية التقليدية على سبيل المثال نجد أن العمل التعددى الذى يطلق عليه التقدير الريفى السريع **Rapid Rural appraisal** والتقييم الريفى بالمشاركة **Participatory Rural appraisal** أو تحليل التعلم بالمشاركة **Participatory Learning Analysis (Chambers, 1994a,b,c)** ينظر إليه على أنه مشاركة بدون قصد فى السلع والبضائع التى بنيت داخل إستراتيجيات التنمية كأسلوب تحرص عليه المؤسسات الرأسمالية. وقد سارت هذه العملية تماما بالتوازى مع عملية الاختيار أو الانتخاب بالديمقراطية الصناعية. وبالمثل فإنه من الممكن أن نتتبع عناصر نفس النوع من التأهيل التى اتخذت شكل الإصلاحات السريعة فى المؤسسات التنظيمية بدون تعلم منظور المدافعة لكل من هيرون **Heron (1996)** وريسون **(1994) Reason**. وتوجد دائما الانتخابات **co-optation** بجانب الجهود الحقيقة والأصيلة لجعل المجتمع ديمقراطيا. ويتمثل التحدى الذى

يواجه بحوث الفعل فى أن المجتمع لا يحتفظ بنقائه "purity" ولكن فـى أن يحدد إستراتيجيا كيفية تـوفير أرض جديـدة لتنظـيم العمـل الـديمقراطى والمحافظة على زخم التحول الديمقراطى، والذى يجعل بحوث الفعل أعمالا جديرة بالاهتمام .

العمل المبكر لكورت ليفين Kurt Lewin:

أدى انتشار النازية فى ألمانيا إلى ترك عالم النفس الاجتماعى كورت ليفين أوروبا وطلب اللجوء إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وتدرب ليفـين كعالم نفس اجتماعى وتركز اهتمامه الرئيسى على التغير الاجتماعى وخاصة فيما يتعلق بكيفية التنظير للتغير الاجتماعى وتحديد مفاهيمه وكيفية الارتقـاء به. وعلى الرغم من اختلاف الحسابات فى هذا الموضوع فإن ليفين قصد أن يكون الشخص الذى يخترع بحوث الفعل ويعطى لها معانى قريبة من تلـك التى نستخدمها فى هذا الكتاب.

وقد تخيل ليفين بحوث الفعل العملية التى بواسطتها يستطيع شـخص ما بناء تجربة فى موقف اجتماعى أو مادى بغرض تحقيق هدف معين. على سبيل المثال فى الأيام المبكرة من الحرب العالمية الثانية أجرى ليفين عـام ١٩٤٣ دراسة رعتها سلطات الولايات المتحدة الأمريكية على استخدام "معدة" الحيوانات **Tripe** بدلا من لحوم البقر فى وجبات الغذاء. وكان سؤال الدراسة هو إلى أى مدى تستطيع أو تتشجع الزوجات أو ربات البيوت الأمريكيـات على استخدام الكرشة فى وجبات غذاء الأسرة. فلحم البقر أصبح نادرا ويتم توزيع المتاح منه أساسا على القوات الأمريكية. ولذلك تطلعـت الـسلطات الأمريكية إلى مصادر بديلة للحوم البقر لاستهلاك المواطنين.

ويميل اتجاه ليفين فى هذا البحث إلى دراسة إلى أى مـــدى يمكـــن تدريب عدد محدود من الزوجات أو ربات المنزل الأمريكيات على فن طبخ الكرشة. ومن ثم اختبر كيفية تأثير هذا التدريب على عادات طبخهن اليومية فى أسرهن. وفى هذه الحالة فإن بحوث الفعل أصبحت مشابها لمـــا يـــسمى بالتجربة الطبيعية **Natural Experiment**، والتى تعنى أن الباحثين فى سياق الحياة الواقعية يدعو المشاركين أو يجبرهم على أن يتحملوا جزءا من النشاط التجريبى. وما زال هذا الاتجاه البحثى يضرب بقوة داخـــل حـــدود العلـــوم الاجتماعية التطبيقية التقليدية، بمصاحبة أنماط التحكم أو الضبط الـــسلطوى التى يتضمنها، ولكنه كان يهدف إلى تحقيق نتائج اجتماعية نوعية ومرغوبة. وقد أصبحت فكرة ليفين عن التجريب فى الأماكن الطبيعية هى الإستراتيجية الرئيسية فى مشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية. وقد تدرب ليفين كعالم نفس اجتماعى، ومن ثم أصبح لديه اهتمام مهنى بالتعديل الـــسلوكى الـــذى أصبح واحدا من أهم القضايا الرئيسية فى المراحل المبكرة للجهود النرويجية لتحسين ظروف العمل.

ويوجد مساران آخران فى تفكير ليفين كان لهما تأثير كبير فى تطور حركة الديمقراطية الصناعية. أولهما تصور ليفين العلمى للتغير الاجتمـــاعى على أنه يتضمن ثلاث عمليات مرحلية: تفكيك البناءات السابقة أو القديمـــة (إذابة التجمد **unfreezing**) وتغيير هذه البناءات (التغيير) وأخيـــرا تثبيتهـــا والعودة بها إلى بناءات ثابتة ومستقرة (التجمد **Freezing**). وثانيهما عمله أو نشاطه عن ديناميات الجماعة وتحديد العوامل والقوى المهمة المؤثرة علـــى نمو الجماعات وصراعاتها ومظاهر التعاون داخلها، والتى أدت إلى مفهـــوم جماعـــات ت (**T-groups**)، والتـــى أصـــبح لهـــا تـــاريخ لاحـــق (انظـــر **Gallagher,2001)**

وما زال التصور العلمى لليفين عن العمليات المرحلية للتغيير هو النموذج المؤثر حتى الآن. وتتمثل الفكرة الرئيسية لليفين فى أنه يمكن تحديد التغيير الاجتماعى كعملية متتابعة ومنفصلة تستخدم مصطلحا ديناميا حراريا Thermodynamic كناية عن حالات الذوبان (عدم التجمد) والطفو Floating والتجمد Freezing. ويتمثل جوهر نموذج ليفين فى فكرة ثبات واستقرار الظروف والأوضاع الاجتماعية والتى تسبق التغيير، والتى تحققت بعد أن يتخذ التغيير مكانه وموضعه. ويعتبر تدخل الفعل Action intervention (وهو عملية التغيير) حلقة ضمن مجموعة حلقات تنتهى فى النهاية بعودة الأنساق إلى حالة الثبات والاستقرار. وكان لهذا التصور العلمى للتغيير تأثير مسيطر وقوى فى الأيام المبكرة لبحوث الفعل وما زال سائدا فى تصورات الكثير من الممارسين فى منظمات التنمية بالولايات المتحدة الأمريكية (Lewin, 1994). وأصبح هذا النموذج جذابا لأنه يمثل أنواعا من التدخل المهنى قصيرة المدى المنطقية والحقيقية، وقد تطور هذا المفهوم أساسا بين علماء النفس الاجتماعى خلال السبعينيات من القرن الماضى. ولعب أيضا دورا كبيرا فى تشكيل الأفكار التى تقع وراء ممارسات الاستشارة فى مجال التطور أو النمو التنظيمى Organizational development، والتى هى جهود مخططة ومنظمة لإيجاد تغيير مشترك Participative change فى التنظيمات (Cummings & Worley, 2001) بدون الارتباط الضرورى بعمليات تغيير طويلة المدى.

ومن وجهة نظرنا فإن ذلك يعتبر وضعا خاطئا ومحدودا جدا. فنحن نؤيد ونفضل أن تكون نماذج بحوث الفعل عمليات تعلم مستمرة ومشتركة، وليست كنوع من التدخل قصير المدى، ومن وجهة نظرنا فإن عملية التغيير هى نقطة انطلاق مفتوحة وغالبا لا توجد نقطة نهاية مطلقة لها. والأكثر من ذلك فنظرا لأن أفكارنا الجوهرية وممارساتنا المحورية تستهدف إيجاد قدرات

تعلم داعمة، ومنح المشاركين والمستفيدين فرصة الاختيار لزيادة التحكم فى مواقف حياتهم الخاصة، فإن تحديد عملية التغيير على أنها قصيرة المدى لا تتطابق مع ما نتبناه أو نعتبره ممارسة جيدة لبحوث الفعل. وربما تعتبر الأهداف قصيرة المدى (الإصلاحات السريعة) مناسبة إذا كانت تمثل خيطا فى نسيج واسع من التغيير المستمر.

إن هذه الانتقادات لوجهة نظر ليفين لا تضعف من فكرته الأساسية عن بحوث الفعل: إن هذه الانتقادات تظهر فقط حدود اتجاهه المنشور وخاصة استخدامه لمفهوم عمليات التغيير قصيرة المدى بواسطة المستشارين الذين استغلوا فرصة الشهرة المبكرة لبحوث الفعل فى تحويل النمو أو التطور التنظيمى إلى مشروعات ربحية. لقد تحولت بحوث الفعل المعاصرة تحولا كبيرا بعيدا عن صياغة أو معادلة ليفين ويمكن أن نرى ذلك فى الوسائل التى تتميز بها عمليات التغيير. وتركز الصياغات المعاصرة حواراتها المستمرة على التعامل الكبير (Gustavsen, 1992) والإنتاج التعاونى للتعلم التعاونى المنتج **Cogenerative** كمحرك للتغيير المدعم.

وكان هناك تأثير مهم لعمل كورت ليفين فى جوانب أخرى: وهو مجال ديناميات الجماعة. وديناميات الجماعة هى مجموعة من التطبيقات والطرق التى تشكلت بقوة بواسطة تركيز ليفين على تكوين جماعات تستطيع مقاومة توترات العمليات التنموية (عمليات النمو) بدلا من تلك الجماعات التى تنهار عند ظهور هذه التوترات. ومن بين أكثر الاتجاهات شهرة اتجاه أسلوب جماعة ت **T-group technique**. ويشير حرف ت **(T)** هنا إلى بناء الجماعة. وفى بداية تكوين الجماعة يلعب الميسر **(Facilitator)** دورا اجتماعيا رئيسيا فى الجماعة ويكون وضعه فى قمة بناء الجماعة **(T)**. ويشجع الميسر الممارسة من خلال اتخاذه دورا لا يتسم بالسيطرة والإجبار.

ومن خلال هذا الشكل من السلطة –وليس بالأسلوب السلطوى المعتاد– يستم وضع أعضاء الجماعة فى مشكلة وتحت ضغط وأحيانا خلال نــزاع حــاد ومؤلم، ليستعيدوا المصطلحات المرتبطة باتجاهاتهم نحو الـسلطة، وأخيــرا جعل الجماعة تعمل بطريقة جديدة.

وتبدأ تطبيقات جماعة "ت" ما أصبح الطريق إلى جماعات الحساسية **sensitivity groups**، والتى تقدم تعلم تجريبى عن التفاعلات بين الأشخاص **interpersonal interaction** كطريق إلى النمو الشخصى العميق. ويعتبــر هذا الاتجاه أكثر اتجاهات النمو الإنسانى انتقادا والذى يتـضمن المخــاطر العالية لإيجاد الــضرر بالمــشاركين. **(Filley& House, 1969)** ومــا زال المعمل القومى للتدريب بجامعة ميتشيجان يعلم الناس ديناميــات الجماعــات بوسائل يعتمد عليها منهجه، ولكن بتركيز أقل على القــضايا التــى كانــت مركزية فى نماذج التدريب البدائية (القديمة) وبتركيز أكثر علــى ديناميــات الجماعة ومهارات التفاعل الاجتماعى المطلوبة لبناء فرق العمل.

وقد اعترف ليفين أيضا بنوعين من المقولات المهمــة فــى العلــوم الاجتماعية. وهذه المقولات معروفة ومهمة، وهى "لا يوجد شىء عملى مثل النظرية الجيدة"، و"إن أفضل وسيلة لفهم شىء ما هى محاولة تغييره"، وقــد وجدت هذه الشعارات أصداء واسعة لدى ممارسى بحوث الفعل نظــرا لأن هؤلاء الممارسين يتميزون بالتطبيقات العملية ويقدرون قيمة النظريــة فقــط عندما تكون موجها جيدا لهذه التطبيقات، والذى يضعهم فى موقــف مــضاد للبحوث الاجتماعية التقليدية. ونعتقد أن أفضل وسيلة لاختبار النظريــة فــى بحوث الفعل هى فى رؤيتها، وهى توفر فهمــا عميقــا وشــاملا للبنــاءات الاجتماعية، وفهم المكتسبات التى تم الوصول إليها من خــلال المحــاولات المخططة التى تستهدف التغيير بتوجهات نوعية. ويعتبر التزام المــستفيدين

المحليين بعمليات التغيير والتغييرات المناسبة الناتجة تعتبر برهانا على الاستفادة من النظرية.

وقد أرست أعمال ليفين البناء الأساسى لما يطلق عليه اليوم بحوث الفعل. لقد وضع مراحل إنتاج المعرفة القائم على أساس حل مشكلات الحياة الواقعية. لقد وضع من البداية دورا جديدا للباحثين وأعاد تحديد معيار الحكم على جودة عمليات البحث والاستقصاء. لقد غير ليفين دور الباحث من ملاحظ عن بعد إلى أن يكون ضمن (داخل- مشارك فعال) عملية حل مشكلة واقعية وملموسة. إن معيار الجودة الذى طوره ليفين للحكم على النظرية كان فى تركيزها الجيد والمناسب على قدرتها على دعم حل المشكلة العملية فى مواقف الحياة الواقعية.

معهد تافيستوك للعلاقات الإنسانية

The Tavistock Institute oh Human Relations:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كان الهدف الأكبر لبريطانيا العظمى يتمثل فى إعادة بناء قاعدتها الصناعية. وقد تحطمت هذه القاعدة الصناعية خلال سنوات هذه الحرب، حيث بدأت الجهود القومية بسرعة بعد انتهاء الحرب لإعادة إنعاش الاقتصاد البريطانى. وقد استدعت الحكومة البريطانية معهد تافيستوك للعلاقات الإنسانية بلندن، وذلك لدعم مختلف أنواع هذه الجهود.

ويعتبر معهد تافيستوك (الذى يسميه أعضاؤه عيادة **Clinic**) بيئة فكرية تكونت، بواسطة أصحاب فكر التحليل النفسى وتوجهات الفعل **Action orientation**. وقد ظهرت أهمية هذا المعهد مع الدراسة التى أجريت على

- مناجم الفحم الإنجليزية عندما لم يؤد إدخال معدات جديدة فى هذه المناجم إلى الزيادة المتوقعة فى إنتاجيتها. وقد تعاقد المعهد على إجراء هذا البحث مع اللجنة المختصة بمتابعة ومراقبة هذه المناجم. وقد أظهرت نتائج الدراسة الأكثر شهرة الآن، والتى قام بها كل من تريست **Trist** وبامفورث **Bamforth** (١٩٥١) كيفية الارتباط الحتمى بين المنتجات التكنولوجية وتنظيم العمل. وقد أظهر المؤلفان أنه يمكن تفسير نقص الأداء الجيد إلى عدم التطابق بين المتطلبات التى تخلقها التكنولوجيا وبين ما هو نافع ومفيد وبين العمال كجماعات إنسانية متفاعلة. إن فصل دورة العمل إلى أجزاء فى كل فترة **Shift** يسبب تقسيم التحسن على الفترات ويقلل من الإنتاجية ككل. وقد قدم الفهم العميق القائم على أساس نتائج تريست وبامفورث (١٩٥١) الوقوف مع اتجاه تيلور التقليدى للعمل، حيث دائما ما يركز البحث على إيجاد أكثر الوسائل الفنية كفاءة فى تنظيم العمال إلى جماعات مسئولة ومنفصلة تتعامل فقط مع العناصر الأكثر وضوحا وتحديدا لدورة الإنتاج. وقد شكل هذا الفهم ظهور حركة الديمقراطية الصناعية.

وقد استعاد معهد تافيستوك أعمال ليفين عن مفهوم التجارب الطبيعية وبحوث الفعل **(Gustavsen, 1992)** من الولايات المتحدة الأمريكية، وقد التزم معهد تافيستوك نفسه بإجراء تجارب مباشرة على حياتهم العملية. وكانت العلاقة بين العاملين والاتحادات والنقابات العمالية ببريطانيا العظمى لا تسمح بالتجريب فى منظمات العمل الصناعية. ومع ذلك فقد قام إينار ثورسرود **Einar Thorsrud**، وهو عالم نفس ومدير سابق للموارد البشرية فى المؤسسة الصناعية النرويجية بعملية إيجاد نوع من الاتصال بمعهد تافيستوك. وقد قاد هذا الاتصال أخيرا الأمل فى إجراء تجارب الحياة الواقعية فى الديمقراطية الصناعية، ولكن فى النرويج بدلا من بريطانيا العظمى.

وبالتعاون مع الباحثين الرئيسيين بمعهد تافيستوك إريك تريست Eric Trist وفريد إيمرى Fred Emery ثورسرود Thorsrud تم تصميم البرنامج النرويجى، والذى يتفق تماما مع اتجاه ليفين (Gustavsen, 1992) وقد ركزت الإستراتيجية الأساسية لهذا البرنامج على البدء فى العديد من التجارب فى وقت واحد، حيث تركز جميعها على تحسين وتطوير الديمقراطية على مستوى العمالة Shop- floor .

وقد اهتم ثورسرود Thorsrud والمهنيون والخبراء بمعهد تافيستوك بإقناع الاتحاد النرويجى للتوظيف (الاتحاد النرويجى للعمال) ومجلس نقابة التجاريين والمهنيين بضرورة تأييد ودعم مشروع الديمقراطية الصناعية. وكانت المرحلة الأولى فى المشروع تتمثل فى الدراسة الأوروبية للديمقراطية الصناعية بوجه عام، مع التركيز على أى من النماذج النيابية representative أو بالمشاركة Participative للديمقراطية التى تعطى بحق درجة عالية من ضبط العاملين (الموظفين) لعملهم (Emery& Thorsrud, 1976). وعلى غير المتوقع فقد أظهرت نتائج الدراسة أن اتجاهات المشاركة فى تنظيم العمل كانت ضرورية لزيادة وتنمية الديمقراطية الصناعية.

وقد تم تنفيذ مشروع الديمقراطية الصناعية النرويجى كمجموعة من التجارب فى العديد من الشركات والمصانع المتنوعة الإنتاج والتى توجد فى المناطق الريفية والحضرية. ومن المواقع الميدانية الستة لهذا المشروع ربما نستطيع القول الآن: إن موقعًا واحدًا فقط قد حقق نجاحا طويل المدى، مع إدراك أنه أصبح هناك تأثير واضح على الشركة أو المصنع. أما التجارب الأخرى فقد أظهرت نجاحات قصيرة المدى مبرهنة على أن الإنتاج القائم على أساس العمل الجماعى كان أكثر مناسبة وكفاءة للمؤسسات والشركات

الصناعية. ولعل نظم العمل البديلة هذه قد فاقت بوضوح فى إنجازها الـــنظم التنظيمية التقليدية لتيلور.

وقد ظهرت خلال هذا العمل ثلاثة مفاهيم كبيرة ومهمة. أولها التفكير التكنواجتماعى **Sociotechnical Thinking** وهو بنـــاء روابـــط وعلاقـــات مباشرة بين التكنولوجيا وتنظيمات العمل. وقد أصبح الاتجاه التكنواجتماعى تصميما معياريا لكل أنواع التدخل والتعاملات. وثانيهما أن تصميم العمل قد تم إنجازه طبقا لمفهوم أطلق عليه متطلبات الوظيفة النفسية **Psychological Job Demands**، والثالث من خلال ربط التفكير التكنواجتماعى بإشباع متطلبـــات الوظيفة النفسية ظهرت فكرة الجماعات شبـــة الاستقلاليـــة **Semiautonomous groups**. إن متطلبات الوظيفة النفسية يمكن أن تشبع أو تتحقق لـــو تحملـــت جماعات العاملين المسئولية نحو العملية الإنتاجية. ويمكن أن تتحقق عمليات التعلم والحاجة إلى التنوع والاختلاف والتحكم الـــذاتى داخـــل مثـــل هـــذه الجماعات. وتستطيع أن تعطى عملية إعادة تنظيم التكنولوجيـــا الـــصناعية الحرية الكافية للعاملين وتمنحهم الإمكانيات الكبيرة للنمو الإنسانى والصناعى من خلال الربط بين العديد من الوظائف.

إننا نقدم بعض الأمثلة المختصرة لهذه المـــصطلحات الرئيـــسية. إن مناقشة العلاقات التكنواجتماعية المتبادلة (وتعنى التفاؤليـــة **optimization**) تؤكد على إمكانية تحرك عملية التكيف فى أى اتجاه من التنظيم الاجتمـــاعى إلى التكنولوجيا والعكس. وإذا أعطينا مثالا لنوع من التكنولوجيا المستخدمة فإن أى شخص يستطيع أن يمد العاملين أو يدربهم على المهارات الضرورية للعمل فى البيئة التكنولوجية أو نظم التكنولوجيا مع الأنواع الخاصـــة مـــن السلوك وأشكال التنظيمات الجماعية.

إن المبدأ الأساسى فى التصميمات التكنواجتماعية هو عمل هذين النوعين من التكيف فى نفس الوقت، والنظر إلى التصميم التكنولوجى والتنظيمى على أنهما عنصران غير منفصلين فى نفس شبكة العلاقات. فمن غير الممكن أن يخرط العامل أى شىء بدون أن يكون لديه مهارات فهم كيفية وضع القطعة فى الآلة، وكيف يختار سرعة القطع المناسبة، وكيف يحدد عمق عملية القطع. إننا نستطيع أن نضيف المزيد عن الحاجة إلى المهارة، ولكن نكتفى بأن نحدد أن المخرطة أوجدت الحاجة إلى المهارات العملية. إن العامل بدون المهارات الضرورية يصبح بالتأكيد كارثة عند إنتاج أى منتج.

والمثال الموازى من الجانب التنظيمى هو نظام إنتاج حزام النقل. وعادة ما تأخذ دورة العمل العادية فى نظام تجميع السيارات أقل من دقيقة. وتحت هذه الظروف فمن الصعوبة تخيل كيف يخلق العمل فرص تعلم وحرية شخصية. فإذا لم يتم إعادة التصميم الكلى لنظام إنتاج حزام النقل فإن الفرص اللازمة للتغيير التنظيمى تكون قليلة جدا. إنه من الممكن إنتاج السيارات من خلال العمل القائم على أساس الجماعة باستخدام دورات عمل طويلة وتزويد العاملين بدرجات عالية من الحرية. وقد أوجدت فولفو **Volvo** فى مصنعى كالمار **Kalmar** وثورسلاندا **Thorslanda** هذه النظم. ومن الواضح فى هذين المثالين أن الربط بين التصميم التكنولوجى والاجتماعى يؤدى إلى نظام إنتاجية فعال.

لقد أصبحت متطلبات الوظيفة السيكولوجية تصميما معياريا مركزيا فى الاتجاه التكنواجتماعى التقليدى. وقد صاغهما كل من إيمرى **Fred Emery** ثورسرود **Thorsrud** كما فى شكل (٢-١). والمعايير المقترحة فى شكل (٢-١) تعتبر دليل موجه لتصميم العمل.

شكل (٢ – ١) المتطلبات النفسية للوظيفة

المصدر: (Emery& Thorsrud,(1976) pp.103-105

التنوع الأمثل للمهام داخل الوظيفة

النمط ذو معنى للمهام الذى يعطى لكل وظيفة الوعى والإحساس بالمهمة المميز ككل:

- المدة المثلى للدورة.
- وضع معايير لجودة المنتج كميا ونوعيا، وكذلك التغذية الراجعة المناسبة عن المعرفة عن النتائج.
- ما تتضمنه الوظيفة من بعض المهام التحضيرية والاحتياطية أو الإضافية.
- تستلزم المهمة المتضمنة فى الوظيفة درجة من العناية والمهارة والمعرفة والجهد يجعلها جديرة بالاحترام فى المجتمع.
- لابد أن يكون للوظيفة مساهمة فعالة فى الترويج لفوائد المنتج للمستهلكين.
- التزود بالمهام المتشابكة والتناوب الوظيفى والجوار المادى عندما يكون هناك اعتماد متبادل بين البدائل.
- التزود بالمهام المتشابكة والتناوب الوظيفى والجوار المادى عندما لا تقدم الوظائف الفردية مساهمة فعالة للترويج لفائدة منتجاتها النهائية.
- عندما يرتبط عدد من الوظائف معا بواسطة المهام المتشابكة أو التناوب الوظيفى فإنها تصبح جماعية.
- التزود بقنوات الاتصال لذلك فإن الحد الأدنى من احتياجات العاملين يمكن أن يندمج داخل تصميم وظيفة جديدة في أي مرحلة مبكرة.
- التزود بقنوات ترقية بمستويات الإشراف التى يقرها العاملون.

ومن أهم السمات المميزة الأخرى لتصميم التكنواجتماعي هي تطبيق مفهوم فيليب هربست Philip Herbst (1976) عن الحد الأدنى من المواصفات الحاسمة minimum critical specification وفكرته هي أنه يجب أن نشكل البناءات التكنولوجية والتنظيمية بوسائل أو طرق تساعد في اختيار البناء التنظيمي كلما كان ذلك ممكنا. إن تقديم أقل القيود الممكنة في أنماط وأدوات العمل والآلات أو في البناءات التنظيمية، يعطي مزيدا من الحرية للعاملين لتصميم ظروف عملهم الخاصة. لذلك فمن خلال تحديد الحد الأدنى من ظروف العمل فإن أي شخص يستطيع تحقيق درجة عالية من الضبط المشترك Participative control على مستوى العمال. وهذا بالطبع يعتمد أيضا على الافتراضات الأساسية عن معرفة ودوافع القوى العاملة workforce.

ومن المفاهيم المهمة الأخرى التي طبقت في تصميم التكنواجتماعي هو مفهوم إيمري وتريست Emery and Trist (1973) عن وفرة الوظائف redundancy of functions ووفرة المهام redundancy of tasks. إن النظام الذي يتميز بوفرة الوظائف يجعل العامل قادرا على إنجاز أكثر من وظيفة، بينما في تصميم وفرة المهام فإن التنظيم يبنى على أساس أن يكون لديه عمال يمكن بسهولة التبديل بينهم؛ نظرا لأن لديهم جميعا كفاءات محدودة وضيقة. وهنا فإن الهدف من اتباع مبدأ وفق تعدد الوظائف هو تصميم العمل بطريقة يستطيع من خلالها كل عضو من أعضاء المنظمة أن يقوم بأكثر من المهمة التي يشغلها بالفعل، وهذا بالطبع يفترض أن العاملين قادرون تماما على إتقان مجموعات من المهارات المتعددة. وإذا حدثت أي مشكلات في أي مرحلة من مراحل نظام الإنتاج، فإن أي شخص أو عامل قادر على أن يوقف هذه المشكلات ويقدم المساعدة المطلوبة. وهذا يحقق بالطبع المرونة

الكافية والحرية الكامنة لدى للناس للاستجابة للإنتاج. وهـذا أيـضا يعـزز فرص التعلم لدى العمال لأنهم تدربوا على إدارة أكثر مـن وظيفـة. وهـذا بالتبعية يزيد من فهمهم لنظام الإنتاج ككل ومكانهم داخله.

ويعتبر الفكر التكنواجتماعى هو النتـاج التـصورى الأكبـر فـى الديمقراطية الصناعية التقليدية. وفى دراسة تريست وبـامفورث **Trist and Bamforth, (1951)** بمناجم الفحم، والتى ظهر فيهـا بوضـوح العلاقـات التبادلية بين التكنولوجيا وتنظيم العمل. وقد مثلت تغيرا كبيـرا مـن أفكـار تيلور، حيث التحكم التكنولوجى الإدارى هو المسيطر تماما، أو من التفكيـر القائم على العلاقات الإنسانية، حيث تعتبر العوامـل الاجتماعيـة والنفـسية والتنظيمية مستقلة عن التأثيرات التكنولوجية. **(Herzberg, 1966; Maslow, 1943; Mayo, 1933)** ففى هذه الاتجاهات يعتبر كل من التنظيم والتكنولوجيا كيانات منفصلة، بينما تؤكد النظرة التكنواجتماعية على أنه لا يمكن أن يعمل التصميم التكنولوجى أو التصميم الاجتماعى بشكل منفصل عن الآخر. ومن ثم فإن هذا يعتمد على نظرة تكاملية وشاملة للعمال وتنظيمات العمل كأنساق إنسانية متعددة الأبعاد.

وقد لخص تريست **Trist, 1981** العلاقة بين النماذج القديمة لتنظيمات العمل وبين النماذج الجديدة للتكنواجتماعى كما نراها فى جدول (٢-١).

وما زال هناك بعض الشك فى أن التفكير التكنواجتماعى له تأثير كبيـر على العمل الصناعى المنظم. فالتصميم التكنواجتماعى يتضمن الجهود المبذولـة للانفصال عن نماذج تيلور لتنظيم العمل ولديه الاهتمام بتركيز الأضواء علـى العلاقات المتبادلة بين التكنولوجيا والحياة الاجتماعية. إن لديه قناعة كبيرة بـأن التركيز الحصرى على التغيير التكنولوجى أو على التنظيم الاجتمـاعى للعمـل لا يمكن أن يخلق نظمًا جيدة للعمل. وتمثل افتراضـات واقتراحـات الاتجـاه

التكنواجتماعى بالتأكيد تقديرات مبالغ فيها لــدى تأثيرهــا فــى تنظــيم العمــل الــصناعى. (علــى ســبيل المثــال: Van Eijnatten's 1993 book with the (bombastic title, The Paradigm that changed the work place

جدول (٢-١)

النماذج القديمة والحديثة لتنظيم العمل

النموذج الجديد التكنواجتماعي New Paradigm Sociotechnical	النموذج القديم الإدارة العلمية Old Paradigm Scientific Management
الارتباط الفعال	سيطرة التكنولوجيا
الإنسان مكمل للآلة	الإنسان امتداد للآلة
الإنسان مصدر للنمو والتطور	الإنسان قطعة غيار متوفرة ممتدة
التصنيف الأمثل للمهام والمهــارات المتعددة	تعطــل معظــم المهــام ونقــص المهارات
الضبط الداخلي (الــضبط الــذاتي، والأنساق الفرعية والإجراءات)	الضبط الخارجي (المشرفين وفريق المتخصصين)
مخطط (خريطة) المنظمة الأفقيــة ونمط المشاركة	مخطط (خريطة) المنظمة الرأســية والــنمط الأوتــوقراطي (الــنمط المستبد- الحكم المطلق)
المشاركة وتوزيع السلطة	المنافسة والصراع
أهداف وأغراض للأعضاء والمجتمع	أغراض المنظمة فقط
الالتزام	الاغتراب
التجديد والإبداع	انخفاض المخاطرة والمجازفة

وكان لمشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية بعدا ديمقراطيا مثاليا. وكان للمشاركة على مستوى العمال قيمة أساسيا ومن أهم حقوقهم. وقد دافعت القيادات العمالية وباحثو الفعل عن هذا الوضع. والمثال الملاحظ هى العبارة القوية (الحادة) وغير المشروطة من أحد أهم قيادات الباحثين وهو فيليب هربست **Philip Herbst (1976)** ، والتى قال فيها: إن جعل أماكن العمل أكثر ديمقراطية يعتبر الخطوة الأولى لتعزيز الديمقراطية فى المجتمع بشكل أوسع. وقد تبدد هذا العنصر الأيديولوجى بالتدريج خلال السنوات بالنرويج، واختفى أيضا من عمليات نشر الأفكار حول النرويج.

ومن المهم هنا ملاحظة أن الأفكار النابعة من مشروع الديمقراطية النرويجية لم تنتشر مباشرة أو بسرعة فى النرويج. وعلى العكس تم التعامل مع هذه الأفكار بنوع من الاهتمام، ولكن لم يكن لدى معظم المؤسسات الصناعية النرويجية الرغبة للعمل على أساسها. وبشكل أساسى كان لها تأثيرات كبيرة خارج النرويج. وفقط من وجهة النظر طويلة المدى كان من الممكن تحديد كيف أثر مشروع الديمقراطية بالتدريج فى نظم الإنتاج النرويجية.

طريق الانتشار: أولا الشرق ومن ثم الغرب

تم التقاط الأفكار الرئيسية فى الديمقراطية الصناعية- جماعات العمل وتصميم العمل طبقا للمتطلبات النفسية بشكل شبه منفصل- بواسطة المشروعات الرئيسية الصناعية فى السويد. وقد أدركت كل من شركات فولفو وساب سكانيا وألفا لافال القوة الكامنة لهذه الأفكار وقامت فى الحال بإعادة تصميم بعض نظم إنتاجها حول هذه المفاهيم. وقد اكتسب كل من مصنع ساب لتجميع المحركات فى سكوفد ومصنع فولفو لتجميع السيارات

فى كالمار سمعة عالمية ودولية كبيرة بسبب أساليبهم الإبداعية فـــى إعـــادة تنظيم العمل. ولكن كان تركيز الاهتمام على كفاءة هذه المشروعات فقط من الناحية الإنتاجية، ولكن تم تجاهل تحقيق أهداف تحقيـــق الديمقراطيـــة فـــى العمل. وقد أصبحت منظمة **PA radet**، التى ظهرت فى ترتيـــب الاتحـــاد السويدى للموظفين هى محرك التغيير القيادى للعمل بجانب الاتجاهات القائمة على أساس بحوث الفعل والهيئات الاستشارية التقليديـــة. لقـــد قامـــت هـــذه المنظمة بوظيفة جـــديرة بـــالاحترام والتقـــدير لتوصـــيل وربـــط الأفكـــار والممارسات وإقناع الصناعة السويدية أن تأخذ بالأفكار التى تم إنتاجها مـــن خلال مشروع الديمقراطية الصناعية. ولكن كـــان مـــن إحـــدى النتـــائج أن الديمقراطية الصناعية جنت سمعة كبيرة فى الصناعة بسبب أسلوبها الفعـــال فى تنظيم العمل فى خطوط تجميع الإنتاج أكثر من السير إلى نظـــام أكثـــر عدالة. وقد تفوقت بدرجة معينة على أساليب فورد التقليدية لتنظيم العمل فى إطار المصطلحات الاقتصادية، ولكن الدافعية التى أدت إلى إبداعاتها تضمنت برنامج تغيير اجتماعى واسع أكثر من ذلك.

إن تحول التفكير التكنواجتماعى إلى قارة أمريكا الشمالية كان أيضا متساوى السرعة. وقد التقط لويس ديفيـــز **Louis Davis** الأســـتاذ بجامعـــة كاليفورنيا بلوس أنجلوس هذه الأفكار وبـــسرعة وضـــع برنـــامج تعليمـــى واستشارى فى التـــصميم التكنواجتمـــاعى. **(Davis& Taylor, 1972)** وقـــد انفصل تفكير ديفيز تماما عن أى ارتباطات أيديولوجية واتجهت إلـــى قيمـــة الديمقراطية فى حد ذاتها. وتحول تصميم التكنواجتماعى إلـــى تـــصميم أداة للإنجاز المرتفع للإنتاج الصناعى. وقد ركز مفهوم التصميم على الترابط أو العلاقة التفاؤلية بين التكنولوجية والأنساق الاجتماعية، مشيرا إلى أن الوسيلة الوحيدة لإيجاد نظام إنتاج فعال حقيقى هى تحقيق الانسجام المناســـب بـــين الإنسان والتكنولوجيا.

وقد شارك مورتين ليفين Morten Levin فى ورشة عمل برعاية جماعة UCLA عام ١٩٨٠. حيث نظمت هذه الجماعة برنامج تدريبى مدته ١٤ يوما بتورينتو شارك فيه العديد من الأفراد من كل من كندا والولايات المتحدة. وقد أعجب مورتين عندما تعلم أن أبعاد النسق الاجتماعى للعمل قد تم وصفها وتحليلها طبقا لمصطلحات الفلسفة الوضعية لتالكوت بارسونز Talcott Parsons (1951)؛ نظرا لأن نموذج بارسونز يعتبر واحدا من النماذج الأكثر تجريدا ويتكون من بناءات غير سلوكية فى مجال نظرية الدور، إن هذا النموذج بمفرده يعتبر معبرا غير ملائم بين التكنولوجيا وتحليل الأنساق الاجتماعية. وكان الأكثر فائدة وإثمارا هو استخدام نماذج علم النفس الاجتماعى وتحليل المتطلبات السيكولوجية للوظيفة، ولكن حتى ذلك لاحظ مورتين أن الربط التفاؤلى بين التكنولوجيا والعمل قد تم إهماله ببساطة كمفهوم. والمصادفة الغريبة والمهمة أن ليفين قد لاحظ اتحاد الشركات المفلسة Union- busting firm قد أقاموا ورشة عمل لمدة ١٤ يوما بنفس الفندق لتدريب المديرين على كيفية الحفاظ على اتحاداتهم ونقاباتهم بعيدا عن شركاتهم. وقد ألقت برامج التدريب المتعارضة الضوء بوضوح على الفرق فى السياق السياسى والاقتصادى بين الدول الإسكندينافية وأمريكا الشمالية.

ويعتبر اتحاد المفلسين فى المجتمعات الإسكندينافية إستراتيجية يصعب تخيلها لهروب الاستثمارات أو الأعمال الربحية. وترتبط مشروعات التغيير التى تركز على حيوية العمل الإسكندينافى فى الغالب بالمغامرات بين الاتحادات التجارية والإدارة؛ لذلك فإن نقص الاهتمام بالعديد من أبعاد العدالة الاجتماعية لأنساق العمل التكنواجتماعية فى أمريكا الشمالية تعكس بوضوح عدوانية الجوانب السياسية والاقتصادية للصناعة فى هذه القارة.

وقد انتشر أيضا فكر الديمقراطية الصناعية فى العديد من الحركـــات القومية الأخرى. وقد تطلعت اليابان إلى وسائل تنظيم إنتاجهــا الــصناعى، والذى يؤمن ويوفر الإنتاجية العالية والجودة الممتازة. وقد لعب اثنـــان مــن العلماء الزملاء الذين تخصصوا فى ضبط الجودة، وهمــا جــوران **Juran** **(1980)** وديمنج **(1983) W.E. Deming** دورا مهما فى عملية إعادة صياغة التصنيع باليابان. وقد التقطت الشركات اليابانية نماذجهما عن منتج يتوفر فيه شروط الجودة. وفى الحقيقة كان اليابانيون أكثر تقبلا لهما من نظرائهم فـــى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ساعدت الأفكار الأمريكية (حتى المستوردة من بريطانيا العظمى والدول الإسكنديناقية) فى صـــنع معجــزة المنتجـــات اليابانية. وربما تبدو هذه القصة جانبية أو هامشية، ولكن فى الواقع فإنه تسير بالتوازى مع حركة الديمقراطية الصناعية. وقد وجدت الموضوعات الرئيسية للديمقراطية الصناعية أرضا خصبة باليابان بسبب أن العمل الجماعى كان له أساس ثقافى قوى فى اليابان، وقد التقطت بسهولة أفكـــار الجماعـــات التـــى ارتبطت بعمليات حل المشكلة والمسئولية المهنية.

وقد ظهرت هذه الأنشطة أولا فى اليابان فى شكل دوائـــر وحلقـــات الجودة وجماعات حل المشكلة، والتى وجدت للتعامل مع القضايا الطارئة فى نظام الإنتاج. **(Ishikawa, 1976)** وكان الهدف هو توفير عاملين ومهندسين يعملون معا لحل مشكلات الإنتاج. وقد تم تنظيم حلقات الجودة هـــذه بـــشكل منفصل عن روتين العمل اليومى. وغالبا ما كانت تلتقى هذه الجماعات فـــى أوقات غير مدفوعة الأجر ويعملون مجانا لحل مشكلات الشركة. ويعتبر ذلك ملموسا فى السياق الثقافى اليابانى. وأخيرا احتاجت العديد من مفاهيم ضـــبط الإنتاج مثل كانبان **Kanban** (نظام تويوتا لإدارة الإنتـــاج؛ انظـــر مونـــدن **(Monden 1983** فى الوقت المحدد بالضبط **Just in time** (إنتاج بدون فاقـــد والتخزين المؤقت؛ انظر واميك وآخـــرون **Womack et al, (1990)** اتجاهـــا

مختلفا لتنظيم العمل. وقد أصبح وجود درجة عالية من الاستقلالية والمسئولية المحلية ممتزجة مع القدرة على تعلم وسائل تحسين الأداء بشكل منظم العنصر الجوهرى فى نظم التنظيم. وكانت هذه الجهود فى خط واحد مع مبادئ التصميم التكنواجتماعى النابع من الديمقراطية التقليدية. لذلك كان طريق الانتشار بشكل عام معقدا ومفاجئا من بريطانيا العظمى إلى النرويج إلى السويد ومن ثم إلى الولايات المتحدة واليابان وأخيرا العالم كله.

وكان طريق الانتشار فى حد ذاته يمثل ظاهرة مثيرة ومشوقة؛ لأن شبكات البحث العلمى لعبت دورا مهمًا فى هذه العملية. إن الانتشار فى السويد، ومن ثم إلى الولايات المتحدة كان ممكنا بواسطة الاتصال بين الباحثين. ويتمثل جزء مهم من رسالة الأكاديميين فى العمل واللعب بالأفكار. وإذا كان ذلك لا يحدث دائما ففى حالة الديمقراطية الصناعية فإن الأفكار التى وجدت داخل الدوائر الأكاديمية قد وضعت لنفسها موطئ قدم فى التطبيقات الصناعية. واستقرت هذه الجهود فى المعهد النرويجى للتكنولوجيا (والذى سمى أخيرا بالجامعة النرويجية للعلوم والتكنولوجيا) فى مدينة تروندهيم **Trondheim**، حيث أوجدت مكان للاتصالات بشبكات العلماء الدولية، وكان ذلك فى المراحل المبكرة لمشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية. ومن جانب آخر لم يكن تافيستوك معهدا مرتبطا بجامعة، ولكنه امتلك مكانة عالية بين الباحثين المهتمين بالتغيير التنظيمى، وبذلك كان مشهورا دوليا وعالميا. وقد اتصل الباحثون العاملون بمعهد تافيستوك بالعديد من شبكات المفكرين، والتى سهلت الانتشار السريع للأفكار التكنواجتماعية فى السياقات الأكاديمية.

ولكن لم يطور ذلك أى وعى لتقدير وتحديد الدور الأكاديمى فى هذه العملية. وبالتأكيد فإن الجامعات والأكاديميات لم تتبع هذه الأفكار والممارسات

للقطاعات الخاصة والعامة. والصحيح فإن الانتشار المتزايد والمتنامى لهذه الأفكار يرجع أخيرا إلى نجاح مبادئ التصميم التى قامت على أرضية الديمقراطية الصناعية فى تشكيل نظم إنتاج فعالة ومربحة. ذلك أن هذه الأفكار قد انتشرت لأنها عملت على إشباع الحاجات الاجتماعية للناس.

وقد تطور المنظور التكنواجتماعى بالتدريج إلى منظور أوسع يقوم على أساس المشاركة. فقد تغير الجيل القادم لباحثى العمل من ما حدده إيلدن **Elden (1979)** (وهو خبير جاء إلى المدينة وأخبر الناس بما يجب أن يفعلوه ثم تركهم) بـ (جيل الحقيبة النائمة **sleeping bag generation**) إلى الجيل الأخير من الباحثين الذين فهموا الدور كتقديم دعم بعيد المدى لقدرات الشركات المحلية على إدارة عمليات التغيير بأنفسهم. وقد خلقت هذه الحركة نحو المشاركة الواسعة داخل الشركات والمؤسسات تناقضًا ديمقراطيًا مهمًا. فى البداية "المرحلة القائمة على الخبرة" كانت الديمقراطية قيمة محددة بوضوح، ولكن عند ممارسة التغيير المتجهة نحو عمليات التغيير الواسع لإدارة الذات أصبح التركيز على الديمقراطية كمفهوم وقيمة قد تبخر، بينما الممارسات نفسها كانت أكثر تعاونية.

وقد أوجد هذا التغيير فى الاتجاه العام لبحوث الفعل فى الصناعة أيضا حركة بعيدة عن الوضع التنظيرى القائم على أساس التفكير التكنواجتماعى للتركيز على التعلم أو المعالجات المتبادلة بين مالكى المنظمات أو المسئولين عنها وبين الباحثين فيها. وقد اتخذت هذه العلاقة طريقين أساسيين. الأول بنى على أساس أخلاقيات الحديث (الكلام) المثالى لهابيرماس **Habermas (1985)**، فقد نشر بجورن جوستافسين **Bjorn Gustavsen (1985, 1992)** بصفة خاصة وبالتحديد عن الكيفية التى يمكن بها فهم العمل المتطور، وذلك من خلال محاضرات ولقاءات مع

مشاركين متكافئين (أعضاء من الشركات والمنظمات وبـــاحثين). والـــشكل الرئيسى الآخر فى هذا النموذج أو النمط من العمل كان من خلال إسهامات أويفينـــد بالـــشوجين Oyvind Palshaugen (1998) وبيـــر إينجلـــستاد Per Ingelstad (Gustavsen& Ingelstad, 1986)، وكان التركيز الرئيـــسى فى هذه الإسهامات على بناء الحوارات التى تزيد من قدرة المشاركين علـــى إيجاد لغة تصف عوالم حياتهم الخاصة، وتلك اللغة التى يمكن أن تقود بعـــد ذلك إلى التغيير التنظيمى.

والنمط الآخر المختلف لإجراء بحوث الفعل قدمه كل من إيلدن وليفـــين Elden and Levin (1991) فى البدايات المبكرة من تسعينيات القرن الماضـــى. وفى هذا العمل فإن عملية البحث تم تصورها على أنها عمليـــة تعلـــم متبادلـــة تتضمن أصحاب المشكلات والباحثين، حيث تعتبر تنوعاتهم واختلافاتهم عوامل بنائية كبيرة تحتاج إلى عملية خلق المعرفة. إن لدى هؤلاء المـــشاركين مواقـــع قوى مختلفة، تماما مثال ذلك أن قوى الباحثين تختلف عن تلـــك التـــى يملكهـــا أصحاب المشكلات المحلية. وفى هذا الاتجاه فإن بحـــوث الفعـــل تنبـــع مـــن العمليات المستمرة للتجريب وانعكاساتها، والتى من خلالها يعتبر التعلم المتبـــادل هو العملية الدافعة لكل من تدعيم التغيير وتكوين المعرفة.

المحتوى الفكرى للديمقراطية الصناعية

The Intellectual Content of Industrial Democracy

إن السبب الرئيسى للارتباط بعنوان "الديمقراطية الـــصناعية" فـــى البداية التقليدية لجهود بحوث الفعل فى الولايات المتحدة الأمريكية، والامتداد الفكرى خلال مرحلة تافيستوك، والظهور الكامل فى مشروع الديمقراطيـــة

الصناعية النرويجية تمثل فى أن كل هذه الاتجاهات قـد عـززت التركيـز الرئيسى على تشكيل البدائل للمنظمات ذات التسلسل الهرمـى الـسلطوى التقليدية. وكما أشرنا سابقا فإن العنصر الأكثر وضوحا داخل هذه الاتجاهات يدعى أنه يعطى اهتماما كبيرا للديمقراطية، ولكن لا يزالون لم يبنوا مفهوما عن أبعاد المشاركة فى هذه الاتجاهات لعملية التغيير التنظيمى حتى عندما لم يتصلوا بتحقيق الديمقراطية للملكية.

تركز الديمقراطية الصناعية على الوسائل التـى أظهرتهـا نتـائج البحوث من خلال إعادة تصميم المنظمات، والتى حسنت من قدرة المشاركين فيها على التحكم فى مواقف حياتهم الخاصة. وقد بدأت الديمقراطية الصناعية ردود فعلها الأولى عن تصميم عمليات البحث التى أعادت صياغة وتحديـد العلاقة بين المشاركين والباحثين بدرجة كبيرة وعالية من التبادلية. وقد أتاح الجيل الثانى من ممارسة البحث فى مشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية الإمكانيات الكبيرة للمشاركين للتحكم فى حياتهم.(**Elden, 1979**)

وقد قدم كتاب كارول باتيمان **Carole Pateman (1970)** عن "نظرية المشاركة والديمقراطية" مناقشة حادة حول الديمقراطيـة فـى المؤسـسات التنظيمية، وقد لعب هذا الكتاب دورا كبيرا فى إيجاد خلفية نظريـة لجهـود الديمقراطية الصناعية بالمشاركة (القائمة على المشاركة). وقـد اسـتفادت باتيمان من علم الأنساب **genealogy** المعتمد على أفكـار روسـى وميـل **Rousseau and Mill** لإجراء مناقشات حديثة ومعاصرة عـن الديمقراطيـة على مستوى العمال. وقد وفرت جهودهـا هـذه نموذجـا جيـدا لمناقـشة الديمقراطية، والذى تم استخدامه كنقطة انطلاق لقدرة العاملين على ضـبط مواقف العمل مستبدلين النماذج العددية (الرقمية) للديمقراطية كأساس لتشكيل مجتمع ديمقراطى ناجح. ولم تناقش باتيمان العلاقة بين الديمقراطية النيابيـة

والاشتراكية، تلك القضية التى ظهرت سريعا كنقطة حيوية فـــى المناقـــشات الأوروبية عن كيفية الارتقاء بالديمقراطية فى تنظيمات العمل.

وقد واجهت التأثيرات الفردية للمشاركة المباشــرة قـــوى جماعيـــة أوجدتها أنساق الممثلين النيابيين فى أماكن العمل، وقد كانت هـــذه القـــضية محور اهتمام الاتحادات والنقابات التجارية. وقد ركزت هذه المناقشات سريعا على الدرجة التى ضعفت بها النقابات والاتحادات المهنية والتجارية بواسطة الضبط الفردى والمباشر فى ظروف العمل الفورية والمباشرة، وما زال هذا السؤال حيويا فى محاضرات ومناقشات الديمقراطية الصناعية. (انظر الفصل رقم ١٧ **"Action research, participation, and Democratization"**)

وعلى الرغم من ذلك فقد المكون الديمقراطى فى العقـــد الأول مـــن الديمقراطية الصناعية أرضيته بالتدريج فى بحوث الفعل. بداية كانت تركـــز المناقشات السائدة على أن الديمقراطية تمثل إجبارا وقهرا أيديولوجيا، وقد تم استبدالها تدريجيا بالمناقشات الواقعية البرجماتية التى خففت مـــن الأســـئلة المتعلقة بالاقتصاد السياسى الذى ظهرت من خلاله الديمقراطية الـــصناعية. وفى هذه العملية تغيرت النغمة أو الكلام من التركز على الديمقراطية إلـــى التركيز على التمكين **Empowerment** ومن المشاركة كأساس للديمقراطية إلى المشاركة كضرورة للتحرك نحو عاملين لديهم الدافعية لتكوين وتـــشكيل منظمة أكثر فعالية وكفاءة وربما كسبا وربحية.

حقا لقد بدا لنا أن التمكين **Empowerment** هو مصطلح يستخدم كبديل عن المفهومين الأكثر وضوحا وطموحا، وهما المشاركة والديمقراطية. ونحـــن نعتقد أن لغة التمكين ذات الأبعاد الهرمية الحتمية تمثل خطـــوة إلـــى الـــوراء، وبالتأكيد التحرك بعيدا عن المفاهيم التى بدأت حركة الديمقراطيـــة الـــصناعية. وهذه النقطة قد تم إيضاحها فى أحد الكتب الأكثر أهمية عن النمـــو التنظيمـــى

Organizational Development (Cummings& Worley, 2001) والـــذى استخدم فيه مصطلح التمكين - كمصطلح محدد مرضيا ill defined- concept- بديلا عن الديمقراطية. وقد نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتــاب عــام ١٩٧٥ حيث اتخذت مكانة قوية، ولكن من عام ٢٠٠١ بدأ فى الضعف بقوة.

وقد اعتمد البعد الآخر للعلاقة بين الديمقراطية الصناعية والعمل المبكر لكورت ليفين على نموذج تغيير مبسط (التغيير المتجمد- والتغيير غير المتجمد) وعلى أفكاره عن التصميمات التجريبية لعمليات التغيير. وكل هــذه العناصــر كانت واضحة وبارزة فى مراحل التطور المبكرة للديمقراطية الــصناعية فــى بحوث الفعل. وأصبحت تصميمات التجريب المأخوذة من أعمال ليفين الوســيلة أو الطريقة التى تعمل على أساسها الأفكار. وقد أوصى الباحثون الــذين قــاموا بالعديد من عمليات التحليل بتصميمات تنظيمية جديدة وبناء العمليات التى تنفــذ بواسطتها عملية التغيير. وكانت الفكرة الجوهرية هى إحداث التغيير ومــن ثــم ترك المنظمات تقوم بتطوير حالة الاستقرار التى تتضمن عملية التغيير. وكــان يمثل التوجيه والإرشاد للمشاركين المحليين الحد الأدنى.

وقد أبقى هذا على نموذج "الخبير Expert" فى الفعل، والــذى لــم يتطور فى بحوث الفعل كما نفهم ذلك الآن. وقد لعب الباحثون فــى المراحــل المبكرة من الديمقراطية الصناعية دور الخبير الواضح clear-cut expert role. وقاموا بإجراء تحليلاتهم للمواقف فى بيئات نوعية محددة وطبقوا توصياتهم فى تصميم جديد. وكانت الخطوة التالية فى أنــشطتهم تتمثــل فــى تطبيــق أفكارهم بوسيلة تتضمن العاملين المتأثرين بالتغيير. وفى هذه الوسيلة أوجــد الباحثون مواقف تجريبية فى المواقع الطبيعية لاختبار مــا إذا كانــت هــذه الأفكار مثمرة أم لا. ومع ذلك فلم يصبحوا باحثين متعاونين على أى مستوى من الوعى.

وفى النسخة المعاصرة لهذا الاتجاه فقد كان هناك بعض التركيز على تضمين العاملين والموظفين فى عمليات التغيير. وعادة ما تتعزز المـــشاركة وتقوى من خلال أنماط متعددة من المؤتمرات حيث يتدرب المشاركون على التأثير من خلال تطوير العمليات الواقعية. وتعتبر المؤتمرات البحثيـــة أداة تطور جيدة، وقد وصفت بعض الاتجاهات المختلفة المـــؤتمرات الحواريـــة "dialogue conference" على أنها لها حصن منيع فى الدول الإسكندينافية. **(Gustavsen, 1992; Palshaugen, 1998)**

بحوث الفعل الجنوبيـــة بالمـــشاركة، تنظـــيم العمـــل، وتنظـــيم المجتمـــع والحقوق المدنية:

"Southern" PAR, Labor Organizing, Community Organizing and Civil Rights

يتمثل الجانب الكبير الثانى من تطور بحوث الفعل فى مـــزيج مـــن الجهود المتنوعة لإحداث الديمقراطية التى اتخذت مكانها تحت ظروف القهر والاضطهاد الواضح والعلنى. وتماما كما أن الديمقراطية الصناعية لم تكـــن نشاطًا فرديًا فإن هذه الاتجاهات التحررية أظهرت العديد مـــن الاختلافـــات الداخلية فى السياسات والأهداف والطرق- والكثير منها قمنا بتوثيقها هنـــا. وهدفنا هنا هو أن نتأكد من أن القراء أصـــبحوا واعـــين ومـــدركين لهـــذه الاتجاهات الكبيرة ولبعض من معظـــم التنوعـــات والاختلافـــات الكبيـــرة الواضحة.

وكثير من الأنشطة التى ناقشناها هنا أرّخت لمصطلحات بحوث الفعـــل الجنوبية بالمـــشاركة (PAR) والبحـــث بالمـــشاركة **Participatory Research**

وتنمية المجتمع بالمشاركة **Participatory community development** ويعتبر ذلك عنصرا مهما فى فهم كيف تطور كل مفهوم من هذه المفاهيم. وقد ظهرت اتجاهات بحوث الفعل فى البداية بسبب الظروف التى أوجدتها المواقف الإنسانية غير الديمقراطية والتى خلقت: الكتل الاستعمارية فى أفريقيا، وفى أمريكا اللاتينية، وفى جنوب شرق آسيا، والإبادة الجماعية للهنود الأمريكيين، والهجرات الواسعة لأجيال الفقراء الأوروبيين، واستعباد الأفريقيين فى الغرب. وقد ساهمت كل هذه الظروف فى ارتفاع حالات عدم العدالة والاستغلال والتعاسة الإنسانية. وقد ظهرت حركات الاستقلال وحقوق الإنسان فى العديد من أجزاء العالم ومحاولات تحقيق بعض المعايير العالمية لحقوق الإنسان وكأنها محاولات ووعود لحل هذه النزعات والآثام الشريرة.

ولسوء الحظ فقد تبع التحرر من الاستعمار إعادة الاستعمار مرة أخرى فى شكل تعزيز عدم المساواة التى انتقلت من مرحلة الاستعمار إلى مرحلة جديدة من عدم المساواة من خلال العولمة وما يطلق عليه بتنمية المجتمعات المتخلفة **Underdevelopment (Gunder Frank, 1970)** والذى جعل من الواضح أنه ليس الاستعمار هو الذى سبب الإصرار على عدم المساواة، ولكنها الكيانات الاستيطانية.

ويبدو لنا أن الكفاح من أجل المساواة قد اتخذ شكلا جديدا ظهر مع الأنشطة والحركات الاستثنائية والتى بلغت ذروتها بشكل نهائى فى أحداث ١٩٦٨. ومن هذا المنطلق أصبحت العديد من أشكال الكفاح ضد عدم المساواة البنائية معروفة تحت مسمى بحوث الفعل بالمشاركة الجنوبية وحركات حقوق الإنسان. وقد عمت هذه الحركات والأنشطة جميع أنحاء العالم: المجتمعات الريفية والمناطق العشوائية الحضرية والمدن الصغيرة فى الشمال الصناعى. وقد أصبح التركيز على الفئات المضطهدة من الناس؛ فاقدى الموطن والنساء

والمعرضين للعنصرية والإبادة الجماعية، والمعــاقين، والمــسنين والأيتــام وفاقدى المأوى والكثير من الفئات الأخرى.

ولم تجر أى مناقشة أو تحليل أو طريقة واحدة من خلال كــل هــذه الاتجاهات فى هذا الصراع، ولكنها عبارة عن أطر عمل محددة ومتعــددة. وقد تم استثارة الكثير من هذه الأفكار بواسطة أدبيات الثورة والعصيان التى قامت بها الحركات المنظمة للنقابيين التجاريين وإستراتيجيات تنظيم المجتمع لتعليم الكبار والنظم اللاهوتية التحررية والحركات الكاثوليكيــة وحركــات تحرر المرأة. وبتناولنا للتنوعات المختلفة للمشاركين فــى هــذه الحركــات وتعقدهم نجد أنه من غير الممكن أن نوجد خطا تاريخيًا واحدًا، والأفضل أن نقدم ببساطة أمثلة قليلة لكى يسترشد بها القارئ.

الجنوب The South:

تتميز هذه المنطقة بعدد كبير من العناصر المتنوعة أكثــر مــن أى وصف نستطيع أن نعطيه لها. ولعل الفكرة الرئيسية المتفق عليها هى وجود بناء ضخم من عدم المساواة والعدوان القائم على الطبقية فى كــل المنــاطق الحضرية والريفية. فى هذا الاتجاه من بحوث الفعل لا نستطيع التــسليم أو افتراض الميل أو الاتجاه نحو توزيع (مشاركة) القوة أو رؤية رعاية الفقراء والمهمشين. وقد تم تمويل هذه النظم بواسطة استغلال الفقراء، ويمكن فهــم الخطط والبرامج بالمشاركة على أنها محاولات لإضعاف وتقويض أنــساق التحكم والمراقبة للنظام السلطوى. لذلك يعتبر البحث الفعلى نشاطا سياســيا متأصلا مع المخاطر المصاحبة وأنماط التقسيم.

إن تحديد وضع بحوث الفعل فى هذه الظروف يتم لتأكيد التــضامن مع المضطهدين ولتأكيد الدور العدائى نحو القوة الكائنة. ونتيجة لذلك فنادرا

ما يتضمن هذا النوع من بحوث الفعل أصـحاب القـوة والنفـوذ أنفـسهم. ويتضمن هذا النشاط إلى حد بعيد – التعليم، والتنظيم، والحراك- بناء الثقـة بين الفقراء لزيادة قدرتهم على مواجهة القوة والنفوذ بالعدد الكافى وبالخطط الواضحة والكافية، لذلك فهم يملكون الفرص المناسبة لاحتمـالات النجـاح. ويتضمن هذا العمل عادة المخاطرة؛ نظرا لأن ممارسى بحوث الفعل يمكـن النظر إليهم على أنهم مثيرو مشاكل واستفزاز.

وتختلف هذه الاتجاهات من بحوث الفعل، ليس فى القـضايا التـى تتناولها، ولكن فى الإستراتيجيات التى تـستخدمها لمواجهـة أو "الحـديث بالحقيقة لأصحاب السلطة والنفوذ". وقد اعتمد بـاولو فريـر **Paolo Freire** **(1970)** على إستراتيجيات تعليم الكبار عن الحوار وتحليل ظروف الجماعات المضطهدة بالتزاوج مع تعلم أفكار قوة التغيير والكلمات المعبرة عنها بـدلا من إنكار أو إخفاء هذا الاضطهاد. وقد انتقل المستفيدون من الصوت السلبى إلى الصوت الإيجابى المعبر، ومن الإحساس بالضعف وعدم القـوة وعـدم الجدارة إلى فهم أن التصميم على مواجهة القوة بإعادة وصف المجتمع كونه يعانى من الاضطهاد بدلا من القول بالاستفادة من معاناتهم. وطبقـا لاتجـاه فرير فإنه يحرر المضطهدين نهائيا من وحشية النظم التى يستفيدون منها.

وفى كثير من المواقف فإن هذه الاتجاهات التى تمـارس بواسـطة أورلاندو فالس بوردا **Orlando Fals Borda** والكثير من مروجى ومتبنـى الفعل فى المجتمع تتضمن محاولة اتخاذ بعض أنواع تحالفـات المـستفيدين الطبيعيين – أعضاء المجتمعات المحتلة، الاتحـادات، الجماعـات الدينيـة، وغيرها، وبناء قواهم وتواصلهم. وفى مواقف أخرى يتضمن العمـل خلـق الظروف التى من خلالها يتم تنفيذ عمليات تعليم الكبار والمشروعات العامة، وغيرها مما يأتى بالناس معا، لذلك فإنهم يستطيعون تنظيم أنفسهم، وتتخـذ

عمليات بحوث الفعل عن انعكاس الذات **Self- reflection** والنقد الاجتماعي وتصميم أجندة وبرامج التغيير أماكنها في هذا الإطار. وفي مواقف أخرى مثل تلك التي تمارس فيها عملية تقييم المشاركة الريفية **Participatory Rural Appraisal (Chambers,1997)** فإن العوامل الخارجية تظهر بالإضافة إلى مجموعة من الأساليب والتكنيكات التي ترقى وترفع من مستوى الحوارات متعددة الجوانب في المجتمع وبين أعضاء التنظيمات، حيث تؤدي نتائج هذه الحوارات إلى خطة للعمل وجهود للتغيير.

وفي المجتمعات الفقيرة في الجنوب غالبا ما تعادي الحكومات هذه الجهود وتعرقلها، ولكن ربما تساعد المؤسسات متعددة الأنشطة والمنظمات غير الحكومية الناس المحليين على أن يكافحوا ضد حكوماتهم. ومع ذلك فليس من المعقول أن يصبح هؤلاء الخارجيون من أصحاب القوة جزءا من المشكلة كما هم أيضا جزء من الحل.

الجنوب في الشمال The "South" in The "North":

عندما يكون الجنوب فقط في الجنوب، فإن العالم يبدو وكأنه غير ظالم. إن هذا النوع من بحوث الفعل بقدر ما يحدث في الجنوب يحدث في أي مكان آخر؛ نظرا لأن البناءات الظالمة في الرأسمالية تظهر أن الغالبية العظمى من الناس في المجتمعات الغنية يعيشون في أوضاع بائسة. ويشير مصطلح "الجنوب" أيضا إلى مناطق فقيرة في الشمال: إنها كلمة رمزية **Code** تعبر عن الفقر وعدم التمكين. ونتيجة لذلك توجد العديد من أنشطة بحوث الفعل في الولايات المتحدة في أبلاشيا **Appalachia (Belenky, Bond, & Weinstock, 1997; Graventa,; Hinsdale, Lewis, & Waller, 1995; Horton 1990)** وفي المناطق غير الصناعية في الشمال الشرقي

وفى جميع العشوائيات (Readon, 1997; Schaffit & Greenwood, 2003) الحضرية (Benson, Harkavy, & Puckett,2000). وتمثل هـذه الأنـشطة مزيجًا مركبًا من جهود التنمية المحلية، وتنظيم المجتمع، وتنظـيم العمـل، وشبكات العلاقات بين المجتمعات وبناء التحالفات، وتفعيل حقـوق الإنـسان وحركات مساواة المرأة، والدفاع عن هؤلاء الذين يقعون تحت خط الفقر.

ويرى ميلس هورتون Myles Horton أسـس مركـز هايلانـدر للبحوث والتعليم بولاية تنيسى أن الناس يملكون القوة، ولكنهم لا يعرفونها أو لا يؤمنون بها. لذلك عمل هورتون على تجميع الناس معا وشجعهم على أن يشتركوا فى عرض مشكلاتهم وتحليلها معا. وقد سهلت مساهمته هـذه مـن إجراء الحوارات، وإضافة خبراته إلى هذا المزيج من خبرات هؤلاء الناس، وتشجيعهم على تصميم أفعالهم وإجراءاتهم الخاصة. وقد شعر أنه لن يقـوم بتنظيم الناس لأنهم كانوا قادرين على تنظيم أنفسهم عندما يقدم لهم قليل مـن الدعم. وهناك الكثيرون ممن عملوا فى نفس هذه المنطقة وكـانوا يملكـون العديد من أطر التدخل المهنى والذين انخرطوا فى الجهود المبذولة لتحقيـق الأهداف (Belenky, Bond & Weinstock, 1997; Maguire, 1994, 1996)

الخلاصة:

يقدم هذا العرض الجزئى لبحوث الفعل خلفية أساسية عـن بعـض وجهات النظر التى كان لها تأثير على تأليف هذا الكتاب. وقد ألقينا الـضوء على تاريخ بعض ممارسات بحوث الفعل الأخـرى فـى الجـزأين الثـانى والثالث، ولكننا نكرر أنه لا يمكن وصف بحوث الفعل وتحليلها ككيان واحد. ومن الأفضل فهمها كمجال يوجد فيه خطوط فكرية متنافسة والتى تم تكوينها تاريخيا بشكل استقلالى. وقد حصرنا من وجهة نظرنا ثلاثة اتجاهات مختلفة

لتاريخ بحوث الفعل. وقد اتخذت بحوث الفعل الصناعية مكانا متميزا ويكمن ذلك ببساطة فى أن مؤلفى هذا الكتاب جاءوا منها. وتعتبر بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة وغيرها من الاتجاهات السياسية المشابهة ذات أهمية خاصة ليس فقط بسبب أن أنشطتها الرئيسية هى الأكبر لارتباطها الواسع بكوادر من المشاركين، ولكن أيضا بسبب أنها تتعامل مع مشكلات الصراع الاجتماعى الكبيرة وذات الصلة. وقد أظهرت الاستقصاءات الإنسانية أو الاستقصاءات التعاونية أن بحوث الفعل تستطيع دعم عملية تكوين المعرفة من خلال استحضار أنواع المعرفة الواضحة والضمنية والانفعالية معا لتحسين المنظمات والرعاية الاجتماعية للأفراد.

لقد قلنا الآن الكثير ما يكفى لإرساء ووضع اتجاهنا فى مجموعة من السياقات التاريخية والتنظيمية ذات الصلة، ولكن يتمثل المشروع الرئيسى لهذا الكتاب فى عرض ما نأمل أن تصل إليه بحوث الفعل، وليس مجرد عرض لما هى عليه الآن.

الهوامش

١) تشير التيلورية إلى اتجاه المنظمة الصناعية، والذى يتضمن الحد الأقصى لتقسيم العمل فى العملية الإنتاجية من خلال تقسيم المهام فى تخصصات ضيقة والتى تتكامل تحت إشراف إدارة عليا ومهندسى إنتاج يقومون بعمل كل التصميمات والأفكار. وقد أطلق عليها التيلورية؛ نظرا لأن فريدريك وينسلو تيلور هو الذى ارتقى بممارسة ما ســمى "بالإدارة العلمية" عام ١٩١١.

٢) انظر على سبيل المثال، فالس بورد **Fals Borda, 1969**

الفصل الثالث

حالات بحوث الفعل من واقع الممارسة

قصص من ستونجفجوردين موندراجون،

وبرامج للتوظيف وأماكن العمل بجامعة كورنيل

Action Research Cases from Practice

The stories of Stongfjorden, Mondragon, and Programs for Employment and workplace Systems at Cornell University

نعرض فى هذا الفصل لثلاثة نماذج من عمليات بحوث الفعل (AR) أحد هذه النماذج فى مجتمع صغير والثانى فى مجموعة من المنظمات الصناعية والأخيرة فى جامعة كبرى. وتضع هذه النماذج تصورًا مسبقًا لمناقشات أكثر تجريدا وتفصيلا لبحوث الفعل التى نتناولها فى الجزء الثانى. ويتمثل هدفنا من سرد هذه الحالات فى إظهار مدى التشوق والإثارة من إجراء بحوث الفعل وكذلك تحدياتها ودرجة تعقيدها. ومن المهم أيضا أن نوضح أنه حتى المشروعات التى تفشل فى تحقيق أهداف فعل مرغوبة، فإنها تخلق فرص تعلم ثرية. وتمثل هذه الأمثلة بحوث الفعل فى بيئات مختلفة، حتى يمكننا التركيز على الخصائص والسمات المتنوعة لبحوث الفعل فى المواقف المتنوعة. وقد استهدف مشروع ستونجفجوردين تعزيز التنمية المحلية فى مجتمع ريفى صغير فى النرويج، بينما ركز العمل فى مدينة موندراجون على المشكلات التنظيمية فى الجمعيات والمؤسسات التعاونية بمدينة الباسك بإسبانيا. وأخيرا استهدف نموذج العمل بجامعة كورنيل إعادة صياغة العلاقة بين البحث ومدلوله فى مدرسة علاقات العمل والصناعة.

وقد قامت كل هذه الحالات على أساس المعايشة الطويلة للمؤلفين فى هذه الأماكن والمناطق المحلية. وتدور بحوث الفعل حول عمليات ردود الأفعال النوعية فى سياقات معينة؛ لذلك تعتبر هذه الحالات نقطة انطلاق مناسبة. ونركز هنا على كيفية تطور هذه المشروعات وتغيرها على مدار الزمن وكيف أعقبت العمليات الانعكاسية (عمليات ردود الفعل) بدرجات مختلفة، وذلك الكشف عن النماذج المتميزة من هذه المشروعات. وأيضا استخدمنا هذه الحالات لتنبيه القراء للتأكيد القوى لبحوث الفعل على قصص الحالة فى كل اتجاهات بحوث الفعل.

سترونجفجوردين: تنمية قرية فى غرب النرويج

من خلال الإبحار جنوبا على طول الساحل النرويجى مرورا بالساحل الغربى للوصول إلى البر، يستطيع أى شخص أن يرى ممرا مائيا قصيرا وضيقا يصل إلى ثلاثة أميال فى الداخل. وتحاط ستونجفجوردين بالجبال المنخفضة التى تنزل منها شلالات مياه إلى أسفل. ويمكن رؤية بعض المنازل المتفرقة مع بناء صناعى ومدرسة صغيرة ومحل بقالة وملعب للتنس ومسقط مياه، ويوجد مصنع للقوى يقوم بتحويل مياه الشلال إلى التوربينات. ويحيط بهذا الممر بعض المزارع الصغيرة. ويسكن هذه القرية ٢١٧ نسمة معظمهم فى سن أكبر من ٤٠ سنة.

وكانت القرية منفصلة عن أرض النرويج حتى بدايات الستينيات من القرن العشرين. وعلى الرغم من أن الطريق يربط المنطقة السكنية بمركز المدينة فقد ذهبوا إلى أن الطريق الرئيسى يحتاج إلى أماكن متعددة لعبور المراكب. فالاتصال القائم على استخدام البحر كان هو السائد، ولكن فى وسط الستينيات قرر السكان تحسين وتطوير محاور الطريق الخاص بهم لذلك

أضافوا وأقاموا العديد من الأميال على الطريق على التضاريس الجبلية الصعبة، حيث ربطوا القرية بالطريق الرئيسى العام للمدينة. وقد جسد بناء هذا الطريق أو ما أطلق عليه "طريق الناس" مدى تماسك المجتمع وقدرته على حل مشكلاته المرتبطة باهتماماته العامة. وقد لفت هذا النشاط الانتباه القومى كمثال لإمكانية تغيير مجتمع صغير للقرارات العامة ببساطة بالقيام بعمل الأشياء والجهود المرتبطة بشئونهم الخاصة.

وقد تم اكتشاف ستونجفجوردين بواسطة رجل إنجليزى أرستقراطى كان يصطاد أسماك السلمون هناك فى نهاية القرن التاسع عشر. وفى أحد أيام الصيف المبكرة تأثر هذا الرجل الذى كان يعمل أيضا رئيسا لهيئة الألومونيوم البريطانية بمشهد شلال المياه الموجود أسفل الممر المائى. وكرجل أعمال صناعى رأى فى الحال طاقة كامنة، وهذه هى العملية التى قادت إلى اكتشاف أول منجم للألومونيوم فى النرويج. وقد حصل على حقوق استخدام شلال الماء، وقام ببناء محطة للقوة الهيدروإليكترونية، وبدأ فى إنشاء مصنع لصهر الألومونيوم. وقد تم الانتهاء من محطة الطاقة عام ١٩٠٨، وتم استكمال مصنع صهر المعادن عام ١٩١٣. وقد تم تأسيس المدينة التى توجد فيها الشركة على طراز المجتمعات الصناعية الإنجليزية. وتم الانتهاء من ملعب التنس الذى كان على صورة الملاعب الموجودة فى مدن الطبقات العليا. وقامت الإدارة ببناء منازلها على الجانب المشمس من المدينة، بينما تقع أحياء العمال فى الظل، وقد قامت الشركة ببناء البنية الأساسية مثل المدارس والمستشفيات والمساعدات الفنية، وبسرعة أصبح لدى القرية واحد من أفضل نظم التعليم العام والرعاية الصحية فى غرب النرويج ككل.

وقد واجهت عملية التصنيع فى سترونجفجوردين العديد من الصعوبات. وقد جاء التحدى الأول أثناء الشتاء الأول لعمل مصنع صهر

الألومونيوم. فلم يولد شلال المياه القوة الكافية لاستمرار عمل المصنع. ونتيجة لذلك تم إنشاء أول محول للجهد العالى الكهربائى لتوصيل المجتمع بنظام توزيع القوة الكهربائية فى المجتمع الرئيسى. وقد استمر إنتاج الألومونيوم بالمصنع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وتعنى نهاية الحرب العالمية الثانية أيضا إغلاق مصنع صهر الألومونيوم، وقد تم منح العاملين وظائف فى مصنع آخر لصهر الألومونيوم يبعد حوالى ٣٠٠ ميل شمال ستونجفجوردين. وهنا توجد قصة قوية ومثيرة جدا حول كيفية ترك الأسر للقرية فى نفس القارب للإقامة والعمل فى مصنع صهر الألومونيوم الجديد. وبعد بضع سنوات حتى بعد أن حصل منتج السكاكين المحلية على التسهيلات المطلوبة وبدأ فى إنتاج السكاكين والآلات الحادة للأغراض المنزلية، وكذلك صناعة مستلزمات الطعام، بدأ بالفعل انخفاض موارد وثروات ستونجفجوردين. وقد فقد عددا كبيرا جدا من الوظائف الصناعية وتدهورت حالة المنازل والخدمات العامة فى القرية. وبدت القرية وكأنها تعد لجنازتها عندما تفكك بناؤها الاجتماعى.

وفى أواخر السبعينيات من القرن العشرين بدأت الوزارة النرويجية لحماية البيئة واستخدام الأرض فى إطلاق برنامج لتدعيم الأنشطة المحلية والتى تستهدف زيادة المشاركة المحلية فى إدارة شئون المجتمع ومراقبتها. وقد شمل هذا البرنامج كلاً من المدن والأحياء والمحليات. وقد قامت جماعة الأرواح المحترقة **burning souls (Philips, 1988)** تحت قيادة سيدة قوية جدا بتطبيق هذا البرنامج مقابل مبالغ مالية. وقد دعمت هذه المهمة المحلية الإجبارية الحافز فى التطبيق بدون اتباع الطرق الرسمية أو إرسالها خلال الحكومة المحلية. وعلى الرغم من ذلك فقد قبلت ستونجفجوردين كواحدة من ٦٠ موقعًا شارك فى برنامج المنح (إعادة الحياة– التنمية).

وقد ارتبط مورتين ليفين Morten Levin وعدد من المشاركين من مدينة تروندهيم Trondheim – كخبراء خارجيين– بهذه المهمة المحددة Task force بقرية ستونجفجوردين من خلال مدير البرنامج القومى. وقد كون عالما الاجتماع مورتين ليفين Morten Levin وتور نيلسين Tore Nilssen فريقا من قادة بحوث الفعل وعمل مع إيفار بروكهوج Ivar Brokhaug كخبير ومهنى فى البحث. بالإضافة إلى ذلك فقد التحق بهم اثنان من الدارسين فى العام الأول. وقد تضمن البرنامج قسم علم التنظيم وشئون الحياة Department of organization and work life science ومعهد البحث الاجتماعى فى الصناعة فى جامعة العلوم والتكنولوجيا بالنرويج.

ويعتبر الوصول إلى قرية ستونجفجوردين من موقع المكتب بمدينة تروندهيم صعبا ومعقدا. فالطيران إلى هناك يتطلب على الأقل استخدام ثلاث رحلات مختلفة من الطيران وتأجير سيارة. وتستغرق رحلة الطيران الجوى فقط حوالى ١٢ ساعة متواصلة بالإضافة إلى الرحلة البرية. وتتضمن الرحلة البرية عبور ثلاثة جبال من خلال طريق مختصر به يتسم بالانحدار الشديد والسقوط المستقيم إلى الممرات المائية. وفى البداية استخدم الفريق الطيران ثم بعد ذلك انتقل إلى السيارات كوسائل رئيسية للنقل.

وكان اللقاء الأول مع برنامج المهمة المحددة بناء ومنتجا. وقدم أعضاء برنامج المهمة المحددة وجهة نظرهم عن الموقف وأوضحوا بالتفصيل اهتمامهم بحماية قريتهم وتنميتها. واقترح الفريق إجراء مؤتمر بحث (انظر الفصل ٩ Pragmatic Action Research) للبدء فى عملية التنمية. وكان لدى الفريق العديد من الأسباب والمبررات لاقتراح مؤتمر البحث كأول خطوة فى هذه العملية. وفى ذلك الوقت كان الفريق ملتزما أيديولوجيا بهذا النوع من النموذج الاتفاقى (إجماع الآراء) لتنمية المجتمع

المحلى. وقد رأى الفريق أيضا أن القرية فى حاجة إلى حالة من الحراك الواسعة بقدر الإمكان ويعتقدون أن جهود التنمية يمكن فقط أن تنجح إذا شارك فيها أفراد المجتمع. وكان من السهل إقناع لجنة المهمة المحددة بأن مؤتمر البحث فكرة جيدة ومطلوبة.

وقد حاول الفريق عند التخطيط للمؤتمر الوصول إلى أكبر عدد ممكن من المشاركين، وفي نفس الوقت نحاول أن ننقل إليهم فكرة ما هو مؤتمر البحث. وقد تحققت المهمة الإجبارية الجديدة والتى تضمنت العديد من الناس أكبر كثيرا من الطالبين الأساسيين للمنح. وقد تكون فريق مؤتمر البحث من ثلاثة باحثين من معهد مورتين ليفين وباحث واحد من المعهد القومى للتخطيط الحضرى والإقليمى. وقد أدت هذه الزيادة فى أعداد الباحثين إلى وجود صراعات بين أعضاء فريق المؤتمر. وقد رفض الشخص الذى نظم المؤتمر الاندماج مع باقى الأعضاء الآخرين. وعلى الرغم من ذلك استمر مؤتمر البحث فى العمل بشكل جيد وأخبرنا بالكثير عن مدى قوة ونشاط التصميم نفسه.

وتشكلت العديد من جماعات المهام. وقد تحملت إحدى هذه الجماعات مسئولية بناء أعمدة إنارة جديدة على الطريق، وركزت جماعة أخرى اهتمامها على بناء أماكن لإقامة الصناعات والحرف الصغيرة. وخططت الجماعة الثالثة لإعادة بناء المنازل والطرق. وقد أعطيت الأسر المقيمة منذ فترة ماضية فى القرية بعض الأنشطة المحلية، حيث قامت المهمة المحددة بتنظيم العمل لتحديثه وتطويره بحيث يمكن استخدامه من أجل تحقيق أغراض المجتمع. وقد أنشئت حضانة للأطفال وتم أيضا إنشاء ورشة لإنتاج النسيج.

وقد قمنا بتنظيم مؤتمرين للمتابعة فى أول سنة بعد مؤتمر البحث. وكان الهدف من المؤتمر استعراض المشاركين فى المهام المحددة **Task forces**

للأعمال التى قاموا بها ومن ثم تحديد مدى تحملهم للمسئولية وفرص النجاح ومشكلاتهم مع المشاركين الآخرين؛ لذلك عقدت المقابلات التتبعية كـــأدوات لتعزيز جهود التنمية لأعضاء الجماعات وتشجيع التفكير الجمعـــى وتـــدعيم التعلم المتبادل بين الباحثين والناشطين. وبالإضافة إلى ذلك فقد عززت هذه المقابلات التتبعية من التزامات جماعة المهام المحددة والواضحة لأهـــدافهم ومراجعة خططهم لتنفيذ الأنشطة الأخرى. وكانت هذه المقابلات التتبعية ذات قيمة فى إيجاد حلقات من التغذية الراجعة. لقد أتاحت الفرصة للبدء فى عملية مراجعة الأهداف السابقة وذلك لتحديد ما تم تحقيقه منها ومـــا هـــو متبـــق ويحتاج إلى مزيد من العمل.

وبوجه عام فقد نجحت جماعة المهام المحددة فى تحقيق أهدافها إلى حد بعيد. إن استهداف الجماعة لإعادة بناء الطريق المضاء أدى إلى سلـــسلة من التحركات البارعة التى ساهمت فى بناء قوة ماليـــة واقتـــصادية كبيـــرة للمقاطعة. فقد تم تغطية معظم تكاليف أدوات الإضاءة من هذه الميزانية، بينما تم إنجاز العمل بشكل جماعى. وقد أدى ذلك إلى بناء تقليد أو عرف قوى هو العمل الجماعى التعاونى فى قرية ستونجفجوردين والتى ارتبطت بـــالمفهوم النرويجى عن **dugnad**، والموروث من ثقافة الفلاحة والصيد حيـــث كـــان الناس يتعاونون فى حل قضاياهم ذات الاهتمام المشترك التى لا يـــستطيعون التعامل معها بطريقة عادية أو فردية. وفى البداية فقد تم إنجاز العمل بسرعة وبفعالية مع التدعيم الجيد من كثير من الناس. وقد انقلبت المهمة حيث خفت المطالب وتضمنت مجموعة من الالتزامات الفردية وبمرور الوقت تقلـــصت الجماعة تدريجيا بحيث انخفض عددها وأصبح عدد الذين يملكون الحمـــاس قليلاً جدا.

وتم التعامل بسرعة مع بعض المهام الأخرى. فقد تم إصلاح ملعـــب التنس وكذلك رمز مكون الثروة الأول بالسرعة المطلوبة. ويستخدم القليـــل

من الناس الملعب فى ممارسة لعبة التنس بينما يستخدمه معظمهم كمنطقة لعب لأطفال القرية. وتعتبر أنشطة النظافة هى أكثر الأنشطة نجاحا بوجه عام. فقد تم تجديد المنازل والطرق وتحسنت النظرة إلى القرية بوجه عام.

ويعتبر بناء ميناء المراكب الصغيرة من المهام التى لم تحقق النجاح الكافى. ولتمويل هذا المشروع قامت جماعة المهمة المحددة بإنشاء شركة غير ربحية. فكل شخص يريد أن يركب قاربا عليه أن يدفع مقابلا ماديا (أجرة). ومن ثم قامت جماعة المهمة المحددة بالتعاقد مع أحد رجال الأعمال، ولكن هذا الشخص لم يستطع إدارة الميناء. فالآلات التى يمتلكها غير مناسبة للعمل وهو غير قادر على إتمام وظيفته بدون شراء أدوات وأجهزة حديثة. ونظرا لأنه يعيش فى القرية فقد خلق ذلك نوعا من التوتر. واعتقد البعض أن هذا الرجل قد خدع مالكى القوارب، ولكن البعض الآخر تفهم سوء تقديره للموقف وخطأ حساباته. وأرادت جماعة المهمة المحددة تحويل الأمر إلى المحكمة، إلا أنه قد تم حل المشكلة واستقرت قبل الوصول إلى ذلك.

وقد استمر الفريق فى العمل حتى عام ١٩٨٦. حيث ركزت الأنشطة بشكل أكبر فى المراحل الأخيرة من العملية على جهود رجال الأعمال وعلى العلاقات مع الكيانات السياسية والإدارية فى البلديات. وتوقفت بالتدريج السيدة المحلية الرئيسية التى كانت المحرك الرئيسى للمشروع طوال سنوات العمل. لقد كرست الكثير من طاقاتها ووقتها من أجل هذا المشروع، ونظرا لشعورها بأن جهودها أصبحت غير كافية فقد تخلت القيادة عن مسئولياتها وأعطتها لرجل أعمال آخر مبدع. وبدأ فى الإقدام على الصيد مركزا على صيد سرطان البحر مطورا تكنولوجيا وإستراتيجيات الصيد وأنشأ سوقا تجارية للبيع. وبدأ فى بناء قارب خشبى بتكنولوجيا عالية. وبدأ فى تربية

طيور التهيوج (طائر من فصيلة الدجاج) **Grouse**. وبالإضافة إلى ذلك فقد نجح فى تنفيذ العديد من الأنشطة السياحية وأنشأ مخيما خاصا وأجر العديد من الكبائن للسائحين والزوار.

وكان لكل نشاط درجة عالية من الخطورة ولكن مع وعد بجمع الكثير من الأموال. ومن خلال المشروع قام رجل الأعمال المحلى بتطوير قدرات السوق والبدء فى التعاون مع المنظمات والمؤسسات فى الجيرة لزيادة وجودهم فى السوق الألمانية. وانتهى ذلك إلى نجاح هذا النشاط بدرجة كبيرة. وفى السنوات الأخيرة من المشروع فقد تعاونا عن قرب معه واحتفظنا بالمعلومات عن أنشطته، ولكننا لم نصبح مشاركين بشكل مباشر.

والقضية الأخرى الكبرى التى تضمنتها السنة الأخيرة من المشروع هى جهود القرية لإقناع الحكومة المحلية بدعم عملية إعادة بناء الطريق والمرسى العام فى ستونجفجوردين. وكان للأنشطة المحلية اهتمام كبير بإعادة بناء المرسى العام (بناء رصيف طويل وكبير يتيح لعدد كبير من القوارب التى تستخدمها) فى الممر البحرى نظرا لأن المرسى القديم أصبح غير صالح تقريبا ولا توجد أموال متاحة وكافية لبناء مرسى أو ميناء آخر جديد.

وقد قاومت حكومة البلدية عملية إنفاق الأموال على مشروع تجديد الميناء مبررة ذلك بعدم وجود حركة مرور كافية تساعد فى تحقيق عائد أو ربح يغطى تكاليف التجديد. وقد انخفض عدد السفن الراسية فى الميناء بدرجة كبيرة جدا خلال هذه السنوات، وكان شعور الإدارة المحلية بهذه العملية ناتجا عن تغير وسائل النقل الرئيسية من السفن إلى الشاحنات العملاقة. ولكن نجد أن سكان قرية ستونجفجوردين رأوا أن نقص معدلات النقل البحرى فى الميناء هو نتيجة لسوء حالة الميناء؛ لذلك أصيبوا بالإحباط.

وقد اتصل أفراد المجتمع المحليون بوزارة البيئة لتلقى المساعدة وتلقى كل أنواع الدعم. ومن خلال مسئول الاتصال بالوزارة فقد طلب الفريق مساعدة الجماعة المحلية فى التفاوض على حل هذه المشكلة مع السلطات البلدية. وقد سافر الفريق إلى المجتمع وعقدوا العديد من الجلسات مع السلطات البلدية وكانت المناقشات تتسم بالحدة والجدية؛ نظرا لأنه كان لدينا المهارات الضرورية لإدارة وتكوين الحوارات بالإضافة إلى الدعم الصريح من الوزارة. وتم منح الأموال وتجديد الميناء. بعد ذلك توترت **wound down** ببطء علاقاتنا بالحكومة المحلية. فقد توقفت المنح المقدمة من الوزارة وانسحبنا من ستونجفجوردين بعد ثلاث سنوات ونصف.

وبمرور الوقت انتقل دور الباحثين إلى التعامل الأكبر. بدأ الباحثون كميسرين لمهمة إجراء مؤتمر البحث، وعملنا ذلك لعدة أشهر. وعندما انتقل المشروع تغير الدور إلى دعم جهود معينة وتشجيع ردود الفعل الجماعية للأنشطة المستمرة. وأثناء هذه المرحلة أحضر الفريق أيضا طالبين لدعم النشاط وإعطائهما الفرصة للتعلم عن بحوث الفعل. وخلال هذا العمل أصبح الباحثون قادرين على وصف وتحليل البناء الاجتماعى للقرية، وتعلم الكثير عن عدد ١٣ من جماعات التبشير المحلية، والتى تتكون من النساء المعلنات عن مزاد لعيد الميلاد، وبذلك يجمعون الأموال اللازمة لعملية التبشير محليا وخارجيا. وقد تعلم الفريق أيضا الكثير عن بناءات الأسرة، وإدراك العلاقات بينها، وكيف ارتبط السكان بالعديد من الأنواع الأخرى من شبكات العلاقات. وقد تضمنت هذه المرحلة المتوسطة عددا كبيرا من التحليلات ولو أنها تزاوجت مع تيسير أنشطة عملية التغيير المستمرة. وأثناء هذه المرحلة تحمل الباحثون مهمة إجراء مؤتمر البحث لمصنع السكاكين المحلى. وهذه الشركة كانت بمثابة النشاط السائد فى البلدية، وكان الهدف من البحث هو تكوين أسواق جديدة للمنتجات المرتبطة بالسكاكين. ونجح هذا النشاط بدرجة معقولة، حتى لو لم يظهر تطور مهم فى السوق لهذه الشركة.

وفى الجزء الأخير من عملنا تحمل الباحثون عبء تنفيذ دور مباشر وأكثر فعالية. لقد لعبوا دورا نشيطا وتقريبا نشاطا محليًا مسيطرا فى التعامل مع جماعات المصالح الخارجية. وكان هذا الدور بغيضا وقد تضمن العديـد من القضايا الأخلاقية. وللتفكير فى هذا الأمر، فإن الباحثين لا يملكون القوة للتفاوض مع الحكومة المحلية. لقد دخل الباحثون المـشهد بحيلـة ودهـاء "أصدقاء خارجيين" (انظر الفصل ٨) قادرين على تحريك شـبكاتنا المهنيـة لدعم أنشطة سترونجفجوردين. ويجب على الباحثين أن يلعبوا دور التعامـل مع الصراع على الأقل فى الجهـود الأولـى وذلـك لمـساعدة الأطـراف المتصارعة على إيجاد الحلول لصراعاتهم بأنفسهم.

وكان للباحثين فى سترونجفجوردين مشاركون أقوياء جدا "بحماسـة متوهجة **Burning Souls**". وبعض من هؤلاء الأفراد توقف عـن العمـل، ولكن معظمهم استمر طوال المشروع. وهؤلاء الناس كانوا أربعـة رجـال وامرأة، وكان لديهم قوة داخلية وقوة على إنجاز العمل بتركيز شـديد نحـو تحقيق الأهداف. وقد عملت هذه الجماعة كوحدة منغلقة تماما. فقط فقد انضم أخيرا على هذه الجماعة المقاول المسئول عن أرض المعسكر ومدير شركة السكاكين. وكان مدير المصنع نشطا لمدة عامين، ولكـن عنـدما احتاجـت شركته إلى اهتمام كبير منه ترك الجماعة. وقد أصبح المقاول شخصا قياديا أثناء المرحلة الأخيرة من العمل. وعلى الرغم من أننـا أحيانـا كـان لنـا ارتباطات مع أعضاء آخرين من المجتمع المحلى فإن هؤلاء الأشخاص لـم يصبحوا نشطاء رئيسيين. لذلك كان من المنطقى أن نعتقـد بـأن الجماعـة الأساسية هى التى تعكس قطاعًا ضخما من سكان القرية.

وطوال مدة المشروع تم بناء العديد من ميادين الاتصال المتنوعـة. وقد بدأ الباحثون بمؤتمر البحث. وتبع هذا النشاط إجراء سلسلة من المقابلات

التى من خلالها كانت تجرى الأحاديث الرئيسية المعتادة وردود الفعل الجماعية عن تطور العملية. وقد خلقت هذه المقابلات المعرفة لكل من السكان المحليين عن إعادة هندسة وتوجيه أنشطتهم للوصول إلى الأهداف المرغوبة بطريقة أفضل، والباحثين الخارجيين لفهم التحديات التى تواجه تنمية المجتمع المحلى بطريقة أفضل.

وهناك قضيتان أصبحتا حجر الزاوية فى جهودنا البحثية الفكرية. والسؤال الرئيسى الأول يرتبط بفهم البناء الاجتماعى المعقد. فالفريق مهتم بكيفية نشر المعلومات بسرعة فى المجتمع. أساسا فإن القرية ككل تعرف كل شىء، حتى لو أنهم متأكدون من أن لديهم اتصالات مع عدد قليل فقط من الناس. ولعل التساؤل الأولى للبحث إذن يركز على العوامل المتكاملة فى البناء الاجتماعى. ومن خلال عمل الطلاب اكتشف الباحثون فى النهاية تأثير ١٣ من أندية التبشير، والكورس (فرق الترتيل) ومرفأ القوارب، وكل جماعات شرب القهوة. وأوجدت هذه الشبكات المتداخلة إلى حد بعيد إمكانيات التوزيع الفعال للمعلومات. وتم تسجيل هذه النتائج فى أنشطة الطلاب.

ولعل أكثر الأبحاث المنشورة أهمية، والناتجة عن هذا العمل قد ركزت على فهم لماذا يصبح سكان معينون "نفوسا محترقة". كيف يمكن تفسير أن الشخص ينهض من أمام جهاز التليفزيون ثم يتحمل عبء ومسئولية قيادة نشاط التنمية المحلية؟ وقد تم صياغة الشكل الأولى لهذا التساؤل أثناء العمل فى ستونجفجوردين. وقد أثمرت بعض المناقشات مع النشطاء المحليين عن فهم أولى لقضية الحراك. وقد شكل هذا الفهم الأولى تساؤل بحث لرسالة الماجستير (قام بها أحد الطلاب)، والتى ركزت على المراحل المبكرة لتنمية المجتمع المحلى. وفى النهاية فقد نشر هذا العمل بواسطة مورتين ليفين (١٩٨٨) تحت عنوان الحراك المحلى.

موندراجون: المشكلات التنظيمية فى التعاونيات الصناعية:

تعتبر جمعيات موندراجون التعاونية فى إسبانيا واحدة من أكثر النماذج نجاحا فى الديمقراطية الصناعية فى أى مكان، وهى موضع اهتمام ومناقشات العالم كله. وأصبحت هذه الجمعيات التعاونية كجماعة من مديرى الأعمال مركزا للمناقشات الكبيرة التى تركز على قدرة المنظمات الديمقراطية على المنافسة بنجاح فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. (Bradley & Gelb, 1983; Kasmir, 1996; Thomas & Logan, 1982; Whyte & Whyte, 1991). ويتضمن المشروع الذى تم وصفه باختصار هنا إجراء بحث فعل لمدة أربع سنوات بواسطة فريق مكون من الجمعيات التعاونية وعدد من الباحثين المهنيين من الخارج، ونتج عنه عدد من الإصلاحات فى الجمعيات التعاونية وتأليف كتاب عن البحث بواسطة عدد من فريق البحث (Greenwood et al, 1992).

وتقع موندراجون فى إقليم الباسك بإسبانيا، وهو إحدى أكثر المدن كثافة سكانية وأكبر المقاطعات الصناعية فى إسبانيا. وهذا الإقليم يشتهر بحركة الباسك السياسية القومية، وبسبب أن سكان الباسك يتحدثون لغة لا ترتبط بأى لغة أخرى يتم الحديث بها فى العالم. وعند التركيز على الصناعة الإسبانية منذ القرن التاسع عشر، فإن إقليم الباسك كان من أكثر المناطق الجاذبة للهجرة الداخلية وبها عدد من السكان غير الباسكيين الذين جاءوا من بقية أنحاء إسبانيا يزيدون عن ٢٤%. وبعد فترة طويلة من النمو، عانى الإقليم من انحدار صناعى كان نتيجة شيخوخة (تهالك) البنية التحتية، ومن ارتفاع تكاليف المشروعات التجارية والصناعية، وكذلك من زيادة المنافسة القومية والعالمية. وقد بدأ المشروع فى هذا التوقيت، وقد تراوح معدل البطالة فى الإقليم حول ٢٥%. موندراجون نفسها تعتبر مدينة صناعية عدد

سكانها ٢٧٠٠٠ نسمة، وبها أقل نسبة بطالة. وتقـوم الجمعيـات التعاونيـة بموندراجون بتوظيف نسبة ٥٠% من سكانها الفعالين فى المنطقة مع الأخـذ فى الاعتبار النسبة المنخفضة للبطالة.

وقد بدأت هذه الجمعيات التعاونية بجمعية وحيدة، واسـمها ألجـور **Ulgor**، وقد أسست عام ١٩٥٦ بواسطة خمسة من القادة وثلاثة عـشر مـن العمال المتعاونين. ويوجد الآن حوالى ٢٠٠ جمعية تعاونية تقريبـا توظـف أكثر من ثلاثين ألفا من العمال المالكين **Workers-owners**. وخـلال فتـرة الركود العالمي، فقد بقيت هذه الجمعيات التعاونية هى الحل وهـى القـادرة على سداد الديون، وأنها قادت بنجاح التحول إلى المنافسة الفعالة فى الاتحاد الأوروبى. لقد قامت بصناعة الإنسان الآلى، ومحركات السيارات، وأشـباه الموصلات، ولوحات التحكم فى الحاسبات الآليـة والثلاجـات وغـسالات الأطباق والمواقد الحرارية، وأفران المـايكرويف والأجهـزة الإليكترونيـة وأنابيب المياه وأيضا البيع بالتجزئة للأغذية، كما يوجد العديد من الجمعيات التعاونية الخدمية مثل الحراسة والطهى، وكذلك إدارة العديد مـن المـدارس المتنوعة والتى تشمل الجامعات المعتمدة. وتصل نسبة صادراتها إلـى ٣٠% من إجمالى منتجاتها.

وقد قامت هذه الجمعيات التعاونية على أساس مبـادئ الديمقراطيـة الصناعية وتجسد مبادئ ملكية العمال ومشاركتهم. وللالتحاق بهذه الجمعيات يقوم الشخص بدفع رسم دخول يوازى أجر عام. ويصبح ذلك أساسا لامتلاك الشخص حسابا استثماريا وجزءا من الحصة الشخصية فى نجاح الجمعيـة. ويتلقى الأعضاء كدافعين حـصة مـن الأربـاح وزيـادة فـى رصـيدهم الاستثمارى. إن كمية الحصة التى تعود على الأعضاء تعتمد على الإنجـاز الاقتصادى المتوقع والمتطلبات الرأسمالية المستقبلية التى تقوم على أسـاس

خطة عمل الجمعية. وهذه الحصص والخطط يتم الإعلان عنها سنويا لكــل الأعضاء. ويتم توزيع الحصص طبقا للتصنيف الــوظيفى للوظــائف التــى يشغلها الأعضاء. وفى وقت الدراسة يتباين الدفع بحيــث يكــون مــن ١-٦، فالوظائف الأقل تحصل على سدس أجر الوظائف العليا[١].

ونظرا لأن جدول أجور مديرى هذه الجمعيات يقل كثيرا عن أجور نظرائهم فى الشركات الخاصة، فإنه يتم اختيارهم من بين الأعــضاء الــذين تعدت عضويتهم أربع سنوات حيث يتم استدعاؤهم. إن بنــاءات الحكومــة الداخلية الحكيمة توفر حرية المعلومات والمراجعات القوية والتــوازن فــى صنع القرارات. ويمتلك النظام التعاونى أيــضا نظامــا للرعايــة الــصحية والتقاعد، وهيئات أساسية للبحث وللتطوير، وبنكا تعاونيا رئيــسيا وأعــدادا كبيرة ومتنوعة من المدارس من المرحلة الابتدائية وحتى المستوى الجامعى.

وحتى يتم إعادة تنظيم وترتيب البناء ككل وتكوين شــركة تعاونيــة مستقلة عموما فى موندراجون، فإن جماعة فاجور **Fagor** التعاونية كانــت أكبر الجماعات التعاونية وأكثرها شهرة، والتى تضمنت المؤسسة التعاونيــة ألجور **Ulgor**. وقد اتخذ بحث الفعل مكانه داخل جماعة فاجور.

وبدأ المشروع عندما قرر ويليام فوت وايت **William Foote Whyte** الأستاذ الشهير لعلاقات العمل والصناعة بجامعة كورنيل كتابة التاريخ الشامل والتحليل البنائى للجمعيات التعاونية. وبعد زيارة بحثيــة عــام ١٩٨٢، لجمــع البيانات لهذا الكتاب، فقد نظم حلقة نقاشية (سمينار) عن رؤيته أمام حشد كبير من المهتمين. وقد عرض العديد من الملاحظات النقدية عن ممارسات محــددة داخل النظام، وقد أصابت وايت الدهشة عندما وقف المدير الإدارى لفــاجور جوزى لويس جونزالز **Jose Luis Gonzalez** وشكره ثم طلب منه تحديد كيف يستطيع أن يقدم لهم المساعدة لحل المشكلات التى حددها.

وعاد وايت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وانضم إلى ديفيد جرينوود، عالم الأنثروبولوجيا بكورنيل الذى يملك سنوات كثيرة من العمل الميداني وخبرة بحثية تاريخية فى إقليم الباسك، فى المشروع. وقام الاثنان معا بالتعاون مع جونزالز حيث وضع الثلاثة خطة تمويل مقترحة لمدة عامين.

وحدد جونزالز أهدافا من هذا التعاون، وقد أخذ القيادة فى تحقيق ذلك، وكان الهدف هو تكوين وتطوير وظيفة للبحث الاجتماعى الداخلى لجماعة فاجور، والبدء بذلك على مستوى المقارنات المعقدة لما تحقق بالفعل فى البحث الاقتصادى الداخلى. وقد جسد هذا النوع من التفكير الفهم الشخصى لجونزالز للتوازن الضرورى الذى يحافظ عليه هذه التعاونيات بين الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية. ومع ذلك فإن هذه الدوافع الأساسية للبحث، وهويات المشاركين المحليين، وخطة العمل الواقعية للأنشطة كانت غير واضحة بالنسبة للخارجيين.

وبدأت عملية بحث الفعل بمجموعة من الزيارات المتبادلة، التى تبعها عام ١٩٥٨ مقرر دراسى صيفى قام به جرينوود لحوالى ١٥ عضوا من جماعة فاجور. وقد انتهى هذا المقرر بالكتابة المشتركة عن الدراسة الأولية عن الأزمات على مدار تاريخ جماعة فيجور. وعلى أساس هذه الدراسة قررت جماعة فيجور وإدارتها استمرار المشروع. ومن ثم فقد تبع ذلك العديد من المقابلات المكثفة فى المشروع، ومقرر صيفى آخر، وسلسلة من الجماعات المحورية (البؤرية)، وعملية كتابات تعاونية مطولة والتى من خلالها تم تأليف كتابى نتائج المشروع **(Greenwood et al, 1990, 1992)**.

وتم سحب المشاركين التعاونيين أساسا من قسم العاملين المركزى لجماعة فيجور. إنهم لا يمثلون الجيل المؤسس، لكن يمثلون الجيل التالى من

الإدارة التعاونية. وقد عبر هؤلاء الناس عن اهتمامهم الأصيل والعميق بأن مستقبل الجمعيات التعاونية ليس له موارد مالية مضمونة. وبالتحديد فإنهم منزعجون من أن العديد من الأعضاء المشتركين الجدد غير ملتزمين بالقيم التعاونية، وتحت هذه الضغوط، لا يستطيع النظام أن يتوافق.

ولتحديد هذه الاهتمامات كون فريق بحث الفعل منظورا تحليليا، يركز على فهم الأنساق الثقافية كشبكات دينامية للمعانى والمقاصد التى تنتج كلا من معنى ومضامين الصراع والممارسات المعقدة وغالبا المتناقضة. لقد قرأنا الكتابين اللذين تم كتابتهما عن الجمعيات التعاونية بواسطة الخارجيين والداخليين وحددنا انتقاداتنا بدقة حولهما. وقد استكشفنا الاستخدام الثابت والمستمر للانقسامات الثنائية للنمط السلوكى الرغبة- الرفض فى الجمعيات التعاونية مقارنة بالجمعيات التعاونية ذات المشروعات المألوفة.

وبمرور الوقت وبالتدريب على التفكير، فقد قمنا بتكوين فريق يضع الأساليب التى تسمح للباحثين المتعاونين بالتواصل المباشر وبشكل أكبر مع الواقع الذى يتعايش معه ويدركه أعضاء الجمعيات التعاونية والارتباط بالصياغات الثقافية المجردة التى ترجع إلى البناءات المؤسسية فى سياقاتهم التنظيمية والتاريخية. وقد أصبح الهدف يتمثل فى الوصول إلى الفهم الدينامى المتمايز لوضع الجمعيات التعاونية وفعل ذلك من خلال الأدوات المستخدمة فى عملية البحث، مثل تلك التى كانت مفيدة للجمعيات التعاونية المغلقة والمفتوحة، والإدارة الذاتية. وقد بدأ المشروع بتحليل المخاوف من افتقاد القيم التعاونية، ولكن تطور بالتدريج إلى القياس الكلى الذى وجهه مشروع بحث الفعل إلى المخاوف العميقة للأعضاء وآمالهم عن مستقبلهم التعاونى (الجماعى).

وكانت عملية البحث التى أجريت ذات طبيعة فريدة. وكانت البداية فى شهر يوليو ١٩٨٥ بفتح حوار مع عدد هائل من التوقعات المتناقضة. وقد توقع

أعضاء جماعة فاجور بوضوح وفكروا فى أنهم يرغبــون فـــى محاضـــرات أكاديمية عن الثقافة التنظيمية. وقد جاء جرينوود معتقدا أن معظــم البحــوث الاجتماعية قد فشلت فى إنتاج معرفة جديدة نافعة، وأنه لو أن هذه الجمعيــات التعاونية هى تنظيمات تتسم بالإدارة الذاتية فإنها سوف تكــون جماعـــة إدارة ذاتية ناجحة، ومثل ذلك يجب أيضا أن تكون قادرة على الإدارة الذاتية لعمليات البحث والتعلم. ولذلك رفض جرينوود الإعداد لمقرر محدد، وقام بتحرير قلق الأعضاء من خلال استخدام مجموعة من الأدوات للتعامل مـــع هـــذا القلـــق. وعلى العكس من ذلك كان هدفه يتمثل فى تطوير بحـــث ذى توجـــه عقلـــى **Mindset**، والذى من خلاله يستطيع الأعضاء تعلم أشياء جديدة عن أنفـــسهم، وإيجاد المعلومات غير البديهية، وتطوير خطط الفعل التى تربط هذه النتـــائج بالأفعال المناسبة. وكان جرينوود غير راغب فـــى تـــدريس أدوات البحـــث الاجتماعى حتى تصبح الجماعة راغبة فى تحديد المشكلات والاهتمامات التى يفكرون فيها معا. ويعتقد جرينوود أن البحث الاجتماعى التقليدى بافتراضـــاته العملية واعتماده على الفلسفة الوضعية السطحية لا ينتج نتائج نافعة وسوف يتم تبديد موارد هذه الجمعيات التعاونية بهذه الطريقة. وقـــد اعتقـــد أن أعـــضاء جماعة فاجور هم بالفعل باحثون، ولكنه ربما يكون قادرا على مساعدتهم على تعلم الاتجاهات اللامعيارية غير البديهية **nonparametric counterintuitive** نحو البحث الاجتماعى وتعلم أن يكونوا باحثين مزيفين **Falsificationist**. وقد اهتم بوجه خاص بأنه منتبه لتعقيد وتنوع المشهد؛ نظرا لأنه كان مدركا بـــأن الأعضاء ينوون العمل على تحقيق النتائج.

ونتيجة لهذه المعتقدات، فقد جاء جرينوود إلـــى الـــسمينار بـــدون محاضرة معدة، وكان أعضاء جماعة فاجور قلقين فى أثنائها (فى حينهـــا). وكـــان تأثير هذه التوقعات غير المتكافئة **mismatch** قد أوجد مناخ "جماعة ت **T-Group**[٢]". ولم يكن جرينوود راغبا فى تعليم أساليب البحـــث حتـــى

تتحمل الجماعة مسئولية القضايا التى يجب أن تدرسها، واحترام الأبعاد الأخلاقية للبحث التعاونى داخل الجمعيات التعاونية التى يكون فيها الأعضاء متساوين من حيث المبدأ.

وبعد الكفاح فترة من الزمن مع ديناميات السلطة الموجودة، اقترح جرينوود أن تبدأ الجماعة بالكشف عما ترغب فى معرفته من خلال الكشف عن كيف يرى الآخرون التعاونيات. وقد انخرطت الجماعة فى قراءات نقدية فى أدبيات العلوم الاجتماعية المهنية وكتب المستفيدين الداخليين فى موندراجون. وقد كره الباحثون المتعاونون هذه الأدبيات؛ لأنهم يرون أنها لا تمثلهم ولا تمثل خبراتهم. وبناء على فكرة عدم التمثيل هذه نصحهم جرينوود بأن يتسموا بالتحكم فى آرائهم وتحمل المسئولية إذا كانوا يريدون الاستمرار فى جهودهم التى تحقق أغراضهم. وقد بدأ تطور المشروع من هنا.

وخلال مدة من الزمن تعلمت الجماعة العديد من أساليب البحث الاجتماعى وطوروا وجهة نظرهم حول التعاونيات. وكانت النقطة المركزية فى وجهة النظر هذه تتمثل فى رؤيتهم عن الثقافة كعملية معقدة وديناميــة. وفى هذا الخصوص ذهب الفريق إلى الاعتقاد بأن الثقافة التنظيمية فى فاجور وضعت مصطلحات الصراع والتناقض فى الجماعة، وأن قوة النسق لا توجد فى غياب الصراع، ولكن فى الأهداف الواضحة والعريضة وفى وضع قواعد المناقشة والحوار. ولا يوجد غياب لعدم الاتفاق الممتد (المستمر) عن كيفية تحقيق الأهداف المرغوبة بقوة.

وعندما كون الفريق بحثه وحدد تفسيراته، خضعت كل وجهة نظر جديدة لاختبار الواقعية من خلال البحث المستمر وجلسات التغذية العكسية مع أعضاء الجمعية التعاونية الآخرين. وقد أكد جرينوود وجونزالز على أن تكون الفرصة متاحة لإنهاء المشروع فى أى وقت يكون الإنهاء فيه مفيدا.

ونظرا لأن الجمعيات التعاونية كانت قصة ناجحة، وأصبح هذا النجاح مشهورا، فقد قرر الفريق تركيز اهتمامه على التنوع والاختلاف والجدل وعدم الاتفاق داخل هذه الجمعيات التعاونية. وطوال عملية إجراء المسوح من خلال سلسلة طويلة من المقابلات مع الأعضاء الذين شعروا بأنهم أكثر ابتعادا (اغترابا) فى النسق، ومن خلال الجماعات البؤرية **Focus**، ركز فريق البحث اهتمامه على عناصر الاختلاف فى وجهات النظر، والبحث عن الصراعات والتناقضات داخل النسق، ومحاولة عدم الإحجام عن التعامل مع معظم الأسئلة التهديدية عن المستقبل المحتمل لنسق التعاونيات. وقد اقتربت العملية البحثية بشدة من الجماعات البؤرية التى يقوم الفريق بإخضاع معظم قيمها المهمة عن الحياة التعاونية إلى الاستجواب المفتوح: المشاركة والتماسك وحرية المعلومات.

وبحثت هذه العملية البحثية عن الصراع ووجدته، ولكن اكتشفنا أيضا أن صفقة رائعة من المساندة داخل النسق، متضمنة الصفقات بين المتطوعين (المساهمين) الجدد. وبالتحديد فقد أصبح واضحا أنه لا توجد أزمات جوهرية للقيم التعاونية، وأن الافتراض الأولى للبحث نفسه كان خاطئا، وأن معظم تفسيرات العامة للمشكلات المدركة فى الجمعيات التعاونية كان ببساطة خاطئا. ومع ذلك فإن الشعور بالقلق عن المستقبل لا يزال باقيا، وأن البحث قدم العديد من المعلومات عن حالة عدم الرضا مع العديد من أبعاد العملية التعاونية. وقد بدأ الباحثون المتعاونون بذلك فى التطلع إلى العوامل الأخرى والتى يمكن أن تساعدهم فى فهم التوترات الواضحة داخل النسق. وقد بدعوا بوجه خاص فى أن يعكسوا أدوارهم الخاصة وممارساتهم كجزء من النسق الوظيفى التعاونى فى خلق ظروف سلبية.

واعترف أعضاء الجمعية التعاونية بأن صياغتهم الأولية لمشكلات الجمعيات التعاونية كنقص فى التزام الأعضاء الجدد بالقيم التعاونية كان

لخدمة أنفسهم. وقد أصبح واضحا أنهم قد أقاموا جسرا من عدم الثقة مع الأعضاء الجدد والذين لم يشعروا بالالتزام فى هذه الجمعيات التعاونية مثلما كان شعور الأعضاء القدامى بهذه الجمعيات.

ونظرا لأن القرار كان إجراء مقابلات شاملة مع الأعضاء المتمردين، فقد بدأ الفريق فى ملاحظة أن العديد من الشكاوى كانت تنصب على ممارسات أقسام الموظفين (الأقسام الإدارية). وقد أعطى الأعضاء المتمردون أمثلة عن المواقف التى كانت فيها أقسام العاملين مذنبة فى تطبيق القواعد والقوانين على نحو غير معروف على أعضاء الجمعية التعاونية بدلا من تجسيد المبادئ التعاونية والتعامل الشخصى المباشر مع الأطراف المتأثرة فى عملهم؛ لذلك بدأ أعضاء الفريق فى رؤية أنفسهم كجزء من المشكلة التى يرغبون فى حلها.

وتواصلت ردود الأفعال أيضا على مستوى أوسع. وكان لدى الباحثين المتعاونين مادة كافية عن الحالة وشعور كافٍ بالوقت الذى كانت فيه ديناميات (تفاعلات) سلبية مهمة فى النسق للبدء فى التفكير فى عملية كبرى فى النسق. وقد لاحظوا أنه عندما يكون هناك مشكلات يعانى منها الأعضاء فى مكان العمل وشكاوى مقدمة، فإن المديرين المحليين وأقسام الموظفين تقوم بتحويلها مباشرة إلى الأجهزة الحكومية بدلا من محاولة حلها فى مكان العمل. ونتيجة لتطور وجهة النظر هذه، فقد أدرك الباحثون المتعاونون الديناميات المؤسسية الخطيرة داخل نسق الجمعية التعاونية. وبدلا من تحقيق ديمقراطية مكان العمل، فإن النسق التعاونى قد كون ميلا قويًا لاستخراج واستخلاص كل الصراعات من علاقات العمل وعلاجها كحالات مثل قضايا الحكومة، وبالتعامل معها بواسطة النظام الحكومى (القواعد والتشريعات والإجراءات). وهذا ما يجعل الجمعيات التعاونية غير مستجيبة لمطالبة

الأفراد بالعدالة وتزداد البيروقراطية. ولعل المثال الأجمل كان نموذج السلوك التنظيمى و 1- Organizational Behavior O-1 لكل من أرجيرس وسكون (١٩٩٦)، والذى استجاب للخطأ من خلال إعادة تقديم الظروف التى جعلت الخطأ يتكرر. وكانت تتمثل إحدى النتائج فى بتر النمو المستمر وتطوير الديمقراطية فى مكان الغمل.

وقد وجدِ الدعم لوجهة النظر هذه من مقابلة إلى أخرى. وبدأ الباحثون المتعاونون فى فهم أفضل للشكاوى المقدمة من الأعضاء عن التوتر الموجود عند العمل فى بيئة عمل غير ديمقراطية، حتى يتم فى نفس الوقت التصويت على خطة العمل السنوية، وأن يكونوا قادرين على استدعاء الإدارة، والمشاركة فى الاجتماعات العامة لجماعة الجمعية التعاونية، التى غالبا ما تعيد بناء وتنظيم نظام الجمعية التعاونية ككل بأساليب أساسية. ولكى نضع ذلك بطريقة أخرى، فقد حدد الأعضاء بدقة التناقضات الموجودة بين معيشتهم كعاملين وبين معيشتهم كمديرين. وقد وجد الأعضاء الداخليون فى فريق البحث أن هذه النتيجة تعتبر مقنعة؛ نظرا لأن أعضاء الفريق قادرون على سرد عدد هائل من الأحداث من خلال خبرتهم التى من خلالها زادت هذه التناقضات من واسطة أفعالهم كمديرين للتوظيف.

وهناك بعد آخر أكثر تجريدا من رد الفعل (الانعكاس) يميز أيضا هذه المرحلة من البحث. وأحد الطرق الرئيسية أن أدبيات موندراجون أوضحت أن نجاح الجمعيات التعاونية يرجع إلى قيم المشاركة القوية التى وحدت الأعضاء. وكل من عناصر ثقافة الباسك (التماسك والمساواة بين الناس وغيرها) أو ببساطة الثقافة التنظيمية القوية التى فرضها مؤسس هذا النظام ومعاونوه قد استخدمت فى شرح وتفسير كيف ازدهرت المنظمات الصناعية الديمقراطية الرأسمالية الناجحة فى شمال إسبانيا ولم تزدهر فى

لندن وديترويت أو سنغافورة. وقد انتهى الباحثون المتعاونون من قراءة هذه التحليلات، وزاوجوها مع خبراتهم الشخصية وعملية البحث التى يقومون بتنفيذها، والتى أبطلت وجهات النظر هذه.

وأظهر تنفيذ بحوث الفعل فى الجمعيات التعاونية أن كل قيمة أساسية قد تمت مناقشتها والجدل حولها، وأن التوترات الجوهرية قد كثرت. ومع ذلك فقد أصبح واضحا أن أعضاء الجمعية التعاونية قد شاركوا مستوى عاليا من الموافقة على ما هو المستوى المثالى من الجمعية التعاونية الذى يحبونه، وما هو نوع قواعد العملية التى يجب أن تحكم حياة الجمعية التعاونية، لقد عانوا من توترات مهمة وشعور بخيبة الأمل من الفشل اليومى للنظام فى الوصول إلى مستوى هذه القيم. وكان لديهم أيضا العديد من الأساليب المتنوعة التى يتبعونها لحل هذه المشكلات. لذلك، فإن الثقافة التنظيمية لهذه الجمعيات التعاونية كانت قوية بحق، ولكن قوتها هذه لم تكن موجودة بشكل منتظم. إن ثقافة الجمعيات التعاونية هى ثقافة النقاش والمنافسة والحوار حول مجموعة أساسية من المبادئ التنظيمية والنماذج الأخلاقية. ولقد جاء الباحثون المتعاونون لصياغة مفهومهم الخاص عن الثقافة التنظيمية القوية، التى تعتبر واحدة من الثقافات التى لا تضع الأفراد معا فى قالب موحد، ولكنها هى التى توفر حوارا مستمرا ومناقشة للوسائل التى تجسد قيما مهمة ومشتركة. وهذه النظرة للثقافة التنظيمية تعتبر جديدة تماما فى الأدبيات الأكاديمية والتوجيهية (الإرشادية) عن هذا الموضوع فى ذلك الوقت وكانت نتيجة مباشرة لمشروع بحث الفعل.

وعند الوصول لهذه النقطة اقترح جرينوود على فريق بحث الفعل أن يكتبوا كتابا ليخبروا الآخرين عن نتائجهم. وتعتبر هذه عملية طويلة وشاقة، سواء بسبب صعوبة كتابة الفريق، وبسبب أيضا أن كتابة هذا الكتاب تمثل

فكرة تهدد معظم أعضاء الفريق. وعلى الرغم مما اكتسبوه من كفاءة وثقة كفريق بحث، فإن أعضاء الفريق الداخليين ليسوا مؤهلين للكتابة للمستمعين الخارجيين. وفى كل نهاية للعملية وأثناء الجلسة الأخيرة لردود الأفعال، وافق المؤلفون (Greenwood et al., 1990, 1992) على أن عملية رد الفعل التى تم من خلالها كتابة المطالب، تعتبر الجزء الأكثر ثراء فى خبرة التعلم ككل.

وبالتوازى مع الكتابة، فقد كان اتجاه بحث الفعل نحو حل المشكلة أيضا مؤسسيا وبطريقة محدودة داخل جماعة فاجور. وقد تلقى حوالى ٤٠ فردا تدريبا على هذه الاتجاهات طوال ثلاث سنوات فى المشروع. وقد تم البدء فى خمسة مشروعات تجريبية فى جمعيات تعاونية محددة مع أعضاء من فريق بحث الفعل حيث الذين يعملون كقادة لفريق بحث الفعل فى مواقع جديدة. وقد تم تحميل عدد من أعضاء الفريق بسرعة مسؤوليات الإدارة داخل النسق، وقد أصبح ثلاثة منهم مديرين عموم للجمعيات التعاونية فى السنوات التى أعقبت المشروع مباشرة، وأصبح اثنان آخران مدربين رئيسيين فى نظام التدريب التعاونى للأعضاء الجدد وإعادة التدريب للأعضاء القدامى. ويستخدم الكتاب الذى نبع من المشروع (Greenwood et al., 1990) الآن فى مقررات التدريب. وقد أثمر أحد المشروعات التجريبية عن إعادة التنظيم الجوهرى لإحدى الجمعيات التعاونية التى أصبحت الآن الأكثر نجاحا بين جميع الجمعيات فى النسق.

وبشكل عام فقد أظهرت هذه الحالة أن بحوث الفعل تستطيع الارتباط برد الفعل التنظيمى، وتدريب الداخليين التنظيميين، وجهود التطوير التنظيمى، بينما تستطيع أيضا الوصول إلى الأهداف العقلانية التى تذهب أبعد من حدود حالة معينة.

Research and Extension

سعت برامج نظم التوظيف وأماكن العمل أثناء إحدى مراحلها التاريخية (PEWS) بقسمها الممتد فى مدرسة علاقات العمل والصناعية بجامعة كورنيل إلى تعزيز اتصالاتها وسمعتها بين أعضاء هيئة التدريس فى الأقسام الأكاديمية. لقد كانت تملك نجاحا محدودا بسبب الاعتقادات العميقة بين أعضاء هيئة التدريس بأن العمل "التطبيقى" غير مشوق فكريا. وقد انضم جرينوود إلى برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل (PEWS) بفضل جهود أحد مؤسسيها وهو وليام فوت وايت **William Foote Whyte**. وعندما شارك فى مناقشات البرنامج لاقى هجوما عنيفا من أعضاء البرامج من مختلف التوجهات الفكرية، ومن أعضاء هيئة التدريس بجامعة كورنيل. فأعضاء برامج أنساق التوظيف وأماكن العمل مهتمون بحاجات التنظيمات التى يتعاملون معها ومنقادون لها، بينما يهتم أعضاء هيئة التدريس بجامعة كورنيل بالكفاح نحو الحصول على قبول مجتمعات البحث المهنية التى ينتمون إليها والنماذج الخاصة بها. ونتيجة لذلك كان هناك انحدار فى كفالة العمل. ولم يكن متوقعا من أعضاء البرامج أن يكتبوا كثيرا أو يفكروا على أسس نظرية، ولم يكن متوقعا من الأكاديميين أن يكتبوا أو يفكروا فى إطار مصطلحات تطبيق المعرفة.

وأثناء المرحلة التى عمل فيها جرينوود مع برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل (PEWS) فقد اقترح أن تحاول هذه البرامج إعادة توفيق أوضاعها من خلال محاولة دمج عمليات تركيزها على عملائها مع أبعاد البحث العلمى، والتى يمكن أن تحقق الاستفادة بخبرات أعضاء هيئة التدريس واهتماماتهم. وعند تجريب بحث الفعل لنمذجة هذا الاتجاه، نفذت **PEWS**

مشروعا تجريبيا بجوار إحدى المؤسسات الصناعية. وهذه المؤسسة واجهت مشكلات فى تطبيق نظم صناعية جديدة (الوحدات الصناعية، والجودة الشاملة، وعمليات الضبط والتحكم الإحصائى، والإنتاج فى الوقت المحدد).

وكتجربة لزيادة فعالية برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل **PEWS**، فقد زود المشاركون المراحل المبكرة من عملية الإرشاد النموذجى بمنظور البحث. أولا كسبت التعاقد مع المصنع. والجميل فى هذه العملية أن جرينوود عمل كباحث اجتماعى مهنى، وقد رافقه إلى المصنع فريق من **PEWS** (بيتر **Peter** ولازيس **Lazes** وآن مارتين **An Martin**) وذلك لمدة يومين كملاحظ مشارك. وأثناء هذا الوقت وبعد كتابة التحليل، فقد وضع تساؤلات وتتبع القضايا التى برزت من خلال هذه الملاحظات. وقد ساعد ذلك فى عمل عملية تدخل قادرة على الوصول إلى الآخرين غير المنضمين مباشرة.

وبعد ذلك ارتبط جرينوود وفريق العمل بالأعضاء الآخرين لبرامج نظم التوظيف ونظم العمل **PEWS** بالإضافة إلى جان أرجينز كارلسين والذى كان زائرا لمدرسة علاقات العمل والصناعة وذلك لتتبع القضايا البحثية المرتبطة بالمصنع. وهذا أتاح الفرصة لموظفى **PEWS** لإعلام الآخرين عن مشكلات المصنع وعرض التساؤلات. وقد ساهمت الأسئلة والإجابات فى تنقيح القضايا المثارة. وقد ظهر عدد هائل من التساؤلات البحثية بالتزامن مع قائمة من المعلومات الإضافية عن المصنع، والتى تحتاجها **PEWS**.

وأفادت هذه العملية فى اتجاهين، أولا مساعدة خبراء المصنع مع جرينوود وكارلسون على تحديد القضايا النظرية الكبرى التى جسدتها أحداث المصنع. وقد ظهرت مجموعتان كبيرتان من القضايا وهما: الأثر التنظيمى للأنساق الصناعية الجديدة، ونماذج التغيير التنظيمى المتضمنة فى الخلايا

الصناعية المخلقة. وفى المقابل ظهرت القضايا المرتبطة بالمعنى الاجتماعى الكبير للتصنيع الجديد. وقد أشارت إلى الصعوبات التنظيمية التى واجهت عملية نمذجة التغيير التنظيمى.

ثانيا حدد جرينوود وكارلسين ما هى محتويات أدبيات البحث حول هذه القضايا، والتى يمكن أن تفيد المصنع. وقد تضمنت هذا المحاولات داخل الأدبيات عن التعلم التنظيمى، ونماذج التنظيم، ونظم التصنيع الحديثة. وثالثا وقد اقترحوا أن يطور فريق **PEWS** البيانات الأساسية المطلوبة لتحديد هذه الأسئلة بواسطة فرق الدراسة والفعل لتهيئة العاملين فى المصنع. وقد أظهرت خبرة العمل من مثل هذه الفرق أن تكون واسعة الاطلاع بسرعة. وفى الغالب يصبحون طرفا إيجابيا فى عملية التغيير.

وأخيرا فقد قاموا بفحص وتنظيم مواد البحث المطلوبة. وهذه توفر عددًا من وجهات النظر النظرية والمنهجية الجيدة لفريق **PEWS** لنشرها فى المصنع. وكما كانت قضايا البحث واضحة لجماعة بحوث الفعل كانت أيضا واضحة لحاجات العميل. وقد كان نشر البحوث المقارنة بالمكتبة ومجال العمل والمرتبطة بعناصر نظم التصنيع الحديثة ممكنا. وكان هذا النوع من البحث مشوقا للأعضاء الأكاديميين سواء للقيم التى يتضمنها البحث، أو تقديمه للمواد اللازمة للتعلم. وفى الواقع فإن برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل **PEWS** والبرامج المرتبطة بها استمرت فى مواجهة المشكلات فى آخر ما توصلوا إليه حيثما كان يعيش العملاء. وقد ساهم الجزء الأساسى الذى بنى على أساس هذه الخبرات كأداة يتبعها طلاب المجتمعات الصناعية. ولكن توقفت المبادرة عند هذه النقطة.

ما الذى يمنع من التقدم إلى الأمام؟ تنظيميا فإنها تحتاج إلى تغييرات كبرى سواء فى برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل **PEWS** أو فى مدرسة

علاقات العمل والصناعة. فيجب أن يحقق أعضاء **PEWS** التوازن بين كل من التزاماتهم نحو العملاء مع متطلبات البحث من خــلال تكــريس وقــت مناسب للقراءة والكتابة والاتصال بأعضاء هيئة التــدريس المقيمــين. أمــا أعضاء هيئة التدريس المقيمون فيجب أن يكونوا قادرين على استثمار الوقت من اكتشاف القضايا الكبرى فى الحالة وتتبعها، وتنظيم الأدبيات ذات العلاقة بهذه القضايا، وربط أنفسهم بالمشروعات التى يعتبر الفعــل فيهــا عنــصرا أساسيا. وعلى الرغم من نقص الحوافز المقدمة لأعــضاء هيئــة التــدريس الأكاديميين لبذل هذه الجهود كانت واضحة، فإنه من غير الواضح لماذا لــم يتمن المسئولون عن الفعل تغيير البناء الذى يعملون به.

لذلك كان مشروع بحث الفعل الناجح الذى تم نشره داخل المنظمــة، والذى قدم نتائج متميزة ومفيدة، كان قابلا لإعادة تطبيقه مع حالات أخــرى، ولم يتم نشره بسبب التوزيع المشترك للعمل بين الأعضاء الأكاديميين وفريق العمل بجامعة كورنيل (وأى مكان آخر) وأن بحث الفعل جعل وظيفة الفريق الإضافية أكثر صعوبة واستغراقا للوقت من نمط السلوك المعيارى(٣).

وبعد مرور عدد من السنوات ونتيجة لهذه العملية تحــرك أعــضاء هيئة التدريس بعنف نحو التخلص تماما من برامج نظم التوظيف وعلاقــات العمل **PEWS**، وقد تركه الكثير من الموظفين الرئيــسيين بــه، وقــد زاد التصدع بعمق بين البحث امتداداتــه **Extension**. وبينمــا اســتمر **PEWS** بتوجهه الفكرى، فقد كان واضحا ومؤكدا أنه أنجز شيئًا صــحيحًا، وأنجــزه بشكل جيد وحصل على المصداقية والثقة الخارجية ولا يضمنون نجــاح أو بقاء بحوث الفعل فى الكثير من المواقع الأكاديمية التى تكون فيها للبحــوث الاجتماعية التقليدية ومفاهيمها سيطرتها وسيادتها.

الخلاصة:

على الرغم من أن ثراء الخبرات الثلاث لم تستدع فـــى مثــل هـــذه العروض المختصرة، فإننا نستهدف تحديد خصائص ما يدور فـــى عقولنـــا عندما نستخدم مصطلح بحوث الفعل. وألقت هذه الحالات الثلاث الضوء على بعض التنوعات القائمة لبحوث الفعل. وتوجد اختلافات واضحة فى تركيـــز بحوث الفعل فى هذه الحالات. وقد بدأت حالة ستونجفجوردين من نقطة فعل، بينما قامت حالة موندراجون على أساس تصميم بحث تحليلى أكثر تجريـــدا. أما حالة برامج نظم التوظيف وعلاقـــات العمـــل PEWS فقد نبعـــت مـــن احتياجات ملموسة داخل جماعة ممتدة للجامعـــة لزيـــادة براعتهـــا العقليـــة والفكرية وإرساء وتدعيم عملها فى الأدبيات النظرية والمنهجية ذات العلاقة بها. والنقطة المهمة هنا هى كيف شكل الحوار بـــين البـــاحثين وأعـــضاء الجماعات المحلية بالتدريج مواقف تعليمية متبادلة أثرت فى كل من البحـــث والأفعال. وقد انتقلت ستونجفجوردين من مجتمع فعال إلى مجتمع تعلم كيف يستطيع الوصول إلى القضايا التى ترتبط بتعبئة الموارد بفعالية، بينما تحولت موندراجون من بحث قوى يركز على الثقافة التنظيمية إلى تضمين الأفعـــال التى تحل التحديات التى تواجه جماعة فاجور. وقد حاولـــت بـــرامج نظـــم التوظيف وعلاقات العمل PEWS تعديل الظروف السياسية، والتى تعمل فى إطارها من خلال إظهار نجاح عملية التكامل بـــين الأكـــاديميين وعناصـــر الممارسة.

وبحوث الفعل هى أنشطة معقدة وديناميية تتضمن أفضل الجهود لكل من أعضاء المجتمعات أو التنظيمات والبحثين المهنيين. وهى فى نفس الوقت تتضمن الإنتاج التعاونى للمعلومات الجديدة وتحليلها معا مع الأفعـــال التـــى تستهدف تحويل الموقف إلى الوجهات الديمقراطية. وبحوث الفعـــل تعتبـــر

متكاملة وأيضا سياقا قويا، تنتج حلولا عملية ومعارف جديدة كجـزء مـن مجموعة متكاملة من الأنشطة. ونحن نأمل أن نكون قد أوصلنا الفهـم بـأن بحوث الفعل ليست طريقة مثل الطريقة كما تكون مفهومة بشكل تقليدى. إن بحوث الفعل هى وسيلة لإنتاج نتائج ملموسة ومرغوبة للنـاس المتـضمنين فيها، وأنها عملية إنتاج معرفة والتى تنتج الفهم العميق لكل مـن البـاحثين والمشاركين المحليين. إنها عملية معقـدة لإنتـاج معرفـة فعـل -Action knowledge. وفى الحالات الثلاث التى عرضناها فـإن الأهميـة الكبيـرة للمعارف والمبادرات الداخلية تميز بوضوح بحوث الفعـل عـن البحـوث التقليدية التى ترتاب علميا فى المعرفة المحلية كاختيار Co-opt.

الهوامش

١) إنه من الصعب تمييز هذا البعد من الجمعيات التعاونية بدقة الآن. ولسنوات عدة كان الاختلاف من ١ إلى ٣ وبالتدريج امتد ليصبح ١ إلى ٦، على الرغم من أنـــه أحـــد الموضوعات الشائكة التى يناقشها الأعضاء. وفى الوقت الحاضر فقد تبنت الجمعيات التعاونية المتنوعة مقاييس (تدرجات) مختلفة. فالقليل من هذه الجمعيات سمح بمقدار ١ إلى ٢٠ اختلافا، بينما البعض الآخر يتمسكون بالخط من ١ إلى ٦.

٢) إن أسلوب جماعة- ت **T Group Technique** قد تطور لتعزيز التعلم الـــديناميى للجماعة. وتتمثل الفكرة فى تدريب الأعضاء على تحمل مسئولية تعلمهم الشخـــصى وتنمية علاقاتهم الاجتماعية. وقد تم عرض مفهوم جماعات- ت فى الفصل الثانى.

٣) هذه الخبرة قد كتبها جرينوود (١٩٨٩)

الجزء الثانى

العلم والمعرفة والممارسة فى بحوث الفعل

Science, Epistemology, and practice in Action Research

تنتمى بحوث الفعل إلى فئة عمليات بناء المعرفة التى يجب تعريفها على أنها جيل المعرفة العلمية. ويتركز جوهر مناقشتنا هنا على أن بحوث الفعل هـــى أقوى إستراتيجية بحثية مقارنة بالعلوم الاجتماعية التقليدية الأخرى. وتستفيد بحوث الفعل من جميع طرق ومناهج العلوم الاجتماعية ولكن هــذه الطـــرق والمناهج تتكامل فى إطار إستراتيجية كبرى يلعب من خلالهـــا المـــستفيدون المحليون دورا كبيرا ومهمًا فى الوصول إلى المعرفة الجديـــدة، والتفـــاوض على مغزاها واختبار صدقها فى مواقف الفعل الواقعية. ويتم اختيار مشكلات بحوث الفعل على أساس القضايا وثيقة الصلة بالسياقات المحلية، حيث تبذل الجهود لحل هذه المشكلات مباشرة بواقعية، ولتقييم مـــدى كفـــاءة النتـــائج والتفاهمات التحليلية التى تم الوصول إليها.

إن بحوث الفعل ليست مجرد بحوث سهلة أو كيفية، ولكنها تمثل منـــاهج بحثية متعددة ومركبة يتم اختبار صدقها فى الواقع أو فى أثناء الفعل. وبالمقارنـــة مع العلوم الاجتماعية التقليدية نجد أن بحوث الفعل ترفض سيطرة معرفة وعلـــم الباحثين المهنيين (المحترفين) علـــى المعرفـــة العمليـــة **practical knowledge** للمستفيدين المحليين. وتؤكد بحوث الفعل على قيمة وأهمية كـــلا النـــوعين مـــن المعرفة والحاجة الماسة إلى وجودهما وتوافرهما معا. وتقوم بحوث الفعل علـــى أساس رفض الوضع المتميز لـــ (معرفة أن **knowing that**) وتميز بدلا من ذلك (معرفة كيف **knowing how**) كطريق للمعرفة الصادقة والفعل الحكيم والسليم.

وبحوث الفعل بالضرورة متعددة التخصصات **multidisciplinary** متعددة المناهج والطرق، وتتسم بالشمول والتكامل لأنها تضع فى اعتبارها المشكلات المعقدة ومتعددة الأبعاد التى يواجهها الناس فى حياتهم اليومية. وفيما يتعلق بذلك فإن بحوث الفعل تعمل على تنسيق وتجميع أنساق المعرفة المتنوعة بحيث تزيد من قدرة الجماعات المتنوعة فى المجتمع على العمل بأساليب سريعة وفعالة تختلف عن تلك الأساليب التقليدية التى كانوا يستخدمونها عندما كانوا يفضلون المعرفة المهنية عن معرفة المستفيدين المحليين، أو عندما كان يعمل المستفيدون المحليون دون الاستفادة من التدريب على إجراء البحوث العلمية. وتركز بحوث الفعل أيضا على تكوين معرفة التضامنية **Collaborative knowledge**، وعلى أهمية تطوير فهم متبادل لعمليات الاتصال بين العناصر الأساسية لأى مشروع أو خبرة.

وتقوم بحوث الفعل على أساس مقولة أن الواقع دينامى ومترابط ومتنوع، وعادة ما يكون أكثر تعقيدا من النماذج والمناهج المتعارف عليها. إن بحوث الفعل لا تميز المعارف المجردة على المعارف القائمة على أساس الأفعال والواقع. ففى بحوث الفعل فإن معرفة "كيف" **knowing how** أكثر أهمية من "معرفة أن"**knowing that** حتى لو كانت "معرفة أن" تتخذ مكانا فى "معرفة كيف". وتؤكد بحوث الفعل على أن الوسيلة الوحيدة لفهم شىء ما تكون من خلال محاولة تعاونية وشاملة لتغيير هذا الشيء، ووضعه بقوة داخل اتجاه برجماتى وعملى جديد.

وتعتبر بحوث الفعل أقرب الاتجاهات العلمية الاجتماعية إلى تفعيل المناهج العلمية. وتتضمن بحوث الفعل صياغة المشكلة وتحليل البيانات وتصميم الفعل وتقييمه وإعادة صياغة الفروض، والتفسيرات، واتخاذ الإجراءات والأفعال فى حلقة متصلة. وفيما يتعلق بذلك فإن المعارف

المرتبطة ببحوث الفعل يتم اختبارها فى إطار الفعل وفى السياق الاجتماعى المحيط، وبذلك فإن التوافق مع معايير المنهج العلمى فى إطار بحوث الفعل أكثر فعالية من الأعمال التى يتم تنفيذها فى العلوم الاجتماعية التقليدية فـــى المكتبات وفى قواعد البيانات أو التفسيرات التى يقــدمها جميــع المهنيــين للمواقف موضع الدراسة.

وبناء على هذا الوضع فإننا نربط بحوث الفعل بالمناقشات الجاريـــة حول مستقبل العلوم الاجتماعية التى ترى أن تميز خلق المعرفة يقوم علـــى أساس السياقات التطبيقية والعملية.

(Mode 2 in the model of Gibbons, Limoges, Nowotny, Schwartzman, Scott, and Trow, 1994)

ويعتبر نمط ٢ "Mode 2" من التفكير حجر الزاوية فى بحوث الفعل والذى يتضمن الربط بين جهود الباحثين وأصحاب المشكلات لإيجاد أفكـــار جديدة، والبحث عن حلول للمشكلات الواقعية. إن الباحثين فى بحوث الفعـــل لا يعملون بمفردهم، ولكن يرتبطون بالمستفيدين المحليين فى بحث يقوم على أساس الفريق.

ولا يعنى العمل بالتضامن مع المستفيدين المحليين أن الباحثين فـــى بحوث الفعل هم مجرد أفراد عاديين مثل هؤلاء المستفيدين. حيث يجـــب أن يكون لدى باحثى الفعل قيمة أساسية مرتبطة بمكـــانتهم المتميـــزة كخبـــراء خارجيين، سواء قادمين جددا على جماعات المستفيدين، أو لما يتمتعون بـــه من خبرات وتدريبات مهنية وعلمية تميزهم عن هذه الجماعـــات. وتـــضع بحوث الفعل تركيزها الأقوى على التنوعات وعلى ربط القدرات المتنوعـــة لجميع المشاركين واحتياجاتهم بالنتائج التى تتعلق باحتياجـــاتهم ورغبـــاتهم اجتماعيا وسياسيا وأخلاقيا. ويظهر باحثو الفعل تجاوبهم والتزامهم برعايـــة

المستفيدين المحليين، ولكن أيضا من الواجب عليهم مساعدتهم علـــى تعلـــيم أنفسهم كيفية إدارة البحث الاجتماعى، وكيفية استخدام طرق وأساليب معينة، وكيفية تحديد أحكامهم واستنتاجاتهم فى سياق العالم الواقعى.

لقد رفعنا هذه القضايا من الترتيب القادم. وسوف نتناول فى الفصل الرابع الأسس المعرفية لبحوث الفعل، ومن ثم ربط ذلك مع استخدام الطرق العلمية لبحوث الفعل فى الفصل الخامس. وسوف نطور فى الفصل السادس أكثر من مناقشة عامة عن طرق البحث العلمى الاجتمـــاعى وخاصـــة فـــى علاقتها ببحوث الفعل. ومن هنا ننتقل فى الفصل السابع إلى أهمية المعرفـــة المحلية، والتضامن، وكيف يرتبط ذلك بالاستخدام القوى للنماذج القصـــصية فى بحوث الفعل. وأخيرا نحاول فى الفصل الثامن الكشف عن مكانة ووضع باحثى الفعل سواء كانوا باحثين خارجيين أو مشاركين فى عمليات بحـــوث الفعل المحلية.

الفصل الرابع

الأساس المعرفى لبحوث الفعل

An Epistemological Foundation for Action Research

ماذا نعنى أن البحث الاجتماعى علمى؟ نعرض فـى هـذا الفـصل الأسباب والمبررات التى تؤكد اعتقادنا بأن بحوث الفعل تمثل اتجاها علميـا قويا فى البحث الاجتماعى. لذلك تلمسنا بعض القضايا التى تتناول الفلـسفة العامة للعلم ومن ثم الآراء الوضعية المتباينة فى العلم مع الأشكال المعاصرة للفلسفات البرجماتية والتفسيرية. ثم أتبعنا ذلـك بوضـع خريطـة مبـسطة لمجموعة واسعة من القضايا. وهدفنا من ذلك هو توفير منظور كاف عـن هذه القضايا لإلقاء الضوء على الأوضاع التى تشكل الأساس العلمى لبحوث الفعل من وجهة نظرنا.

وقد بدأنا بمراجعة العلاقة بين بحوث الفعل وبين النظريـة العامـة للأنساق. ثم تناولنا مساهمات الفلسفة البرجماتية فى بحوث الفعـل وعمـل بعض الارتباطات مع فلسفة ويتجينستينين **Wittgensteinian (Monk,1990)** أيضا. وقد استنتجنا من خلال وضع مناقشاتنا فى سياق الاقتصاد الـسياسى والرجوع إلى ادعاءاتنا الأصلية أن لدى بحوث الفعل إمكانيات كبيرة لكـى تكون أكثر علمية من البحث الاجتماعى، وأن البحوث الاجتماعية التقليدية لا تتشابه مع البحوث العلمية فى معظم المواضع والمواقف المهمة.

وافترضنا من خلال هذا العرض أن معظم القراء الـذين يهتمـون ببحوث الفعل لا يملكون الفهم القائم على الخبرة للعلم كـشكل مـن أشـكال

الممارسة. وهذا يخلق نوعا من الصعوبة فى فهم المناقشات التى تقف مع أو ضد بحوث الفعل كشكل من أشكال الاستقصاء العلمى S Inquiry. ولا توجد حلول بسيطة للمشكلات الناتجة اجتماعيا، ولكن من الأمور الحيوية للمهتمين ببحوث الفعل وكذلك للممارسين لها أن ينموا من فهم المتنوع والواقعى للعلم وللممارسة العلمية.

تعريف البحث العلمى Defining Scientific Research:

ولتعزيز مناقشاتنا فى هذا الفصل من المهم أن نعرف البحث العلمى على أنه النشاط البحثى القادر على اكتشاف أن العالم منظم أو غير وفقا لمدركاتنا، مما يقودنا إلى توقع واقتراح وسائل أساسية لفهم هذا العالم والعمل من أجله. ويوثق البحث العلمى كلا من عمليات الفحص أو الدراسة والاستنتاجات التى تظهر من هذه العمليات بتفاصيل وافية لكل الجوانب والأجزاء المهمة بحيث تصبح قادرة على تقييم المعلومات المتوفرة وتفسيرها، وفحص النتائج والعواقب المترتبة على تعاقب الأفعال والإجراءات التى تتخذ. إن المعرفة العلمية ليست كيانا أو وجودا ثابتا، ولكن يجب فهمها على أنها معالجة مستمرة بين الباحثين الذين يكافحون من أجل إعطاء معنى للعالم الذى نعيشه. إن المعرفة العلمية فى حالتها المستمرة من التحول والانتقال تبحث عن تحقيق أفضل إدارة وفهم ممكن لظواهر أو عمليات نوعية.

ونستخدم فى مناقشتنا التالية مصطلحات الوضعية المنطقية Logical Positivism والتأويلية Hermeneutics. ولتحقيق الوضوح فمن المهم أن نحدد ماذا نعنى بهذين المفهومين:

- الوضعية المنطقية Logical Positivism تقوم على أساس المناقشة أو الحجة الوجودية Ontological argument بأن العالم قائم على افتراض

موضوعى Objectively given: وتقوم الجهود القائمة علـــى المعرفـــة بتطبيق أساليب وتكنيكات موضوعية من أجل الوصول إلى الحقيقة.

- التأويل أو التفسير Hermeneutics يقوم على أساس الوضع الوجـــودى ontological position بـــأن العـــالم يقـــوم علـــى افتـــراض ذاتـــى subjectively، ويحاول مشروع المعرفة التفاوض حول تفسيرات هـــذا العالم الذاتى (غير الموضوعى).

وتتمثل المشكلة الإستراتيجية المركزية التى نواجهها فى هذا العـــرض فى أن النصوص التقديمية فى معظم المجالات (متضمنة العلـــوم الطبيعيـــة والعلوم الاجتماعية والإنسانيات) لا تعكس بدقة أفضل الممارسات أو الآراء الفكرية فى هذه المجالات. وفى أغلب الأحيان تؤدى المحـــاولات والجهـــود المضللة التى تستهدف تبسيط الآراء ووجهات النظر العلميـــة لكـــى تكـــون مناسبة للدارسين المبتدئين والعروض التى تقدم فى الفصول الدراســـية إلـــى تشويه وتحريف الأطر العلمية والممارسات المختلفة فـــى هـــذه المجـــالات بأساليب تصبح غير مقبولة لإكساب الخبرات للممارسين المهنيين. ويبدو هذا بوضوح فى حقيقة أن القليل من العلماء الاجتماعيين الممارسين يرجعون إلى الكتب الدراسية المبتدئة للحصول على الإرشادات اللازمة للممارســـة فـــى مجالات عملهم. وهذا ليس بسبب أن هذه الكتب تعتبر بدائية فقط، ولكن أيضا وهذا هو السبب الأهم، لأنها نادرا ما تعكـــس أفـــضل الممارســـات التـــى يحتاجونها.

وهذه المشكلة ليست مقصورة على العلماء فى العلوم الاجتماعية فقط ولكن أيضا يعانى منها العلماء فى العلوم الطبيعية. وعمومـــا فـــإن التعلـــيم المبدئى introductory instruction فى العلوم يوفـــر للطلاب آراء مثاليـــة وتاريخية للعلوم وآراء غير عملية Nonbehavioral سواء مجموعة الحقائق

العلمية أو مجموعة من الوسائل والطرق الأقل مشكلات. وغالبا ما تفتقد وجهات النظر هذه الاختلافات والتنوعات بين العلوم والأبعاد التاريخية والاجتماعية لها، ومن ثم المثيرات والأحداث السلوكية والإنسانية التى تتضمنها. ويمثل العلماء على أنهم عقول منفصلة عن الواقع تبحث عن الحقائق فى عالم يتسم بالمظاهر المشوشة والخادعة، مع ممارسة العديد من المهام والأعمال التى تتسم بالتعقيد والإثارة عديمة الفائدة. وبكلمات أخرى فإن تطبيقات ومضامين البحث غائبة وخارج نطاق الاهتمام.

وبالإضافة إلى ذلك يتم تقديم القوانين والمبادئ على أنها حقائق محققة (مؤكدة). ولدى التدريبات المعملية والمشكلات المتنوعة نوع أو اثنان فقط من الحلول. وعلى العكس من ذلك نجد فى الممارسة العلمية للعلوم الطبيعية والأساسية أن لكل القضايا المعملية أو الفصلية حلا واضحا ومحددا. إن بيئة الفصل أو المعمل الدراسى تجعل العلماء عارفين وملمين بهذه الإجابات، وكذلك الطلاب الذين سوف يصبحون علماء يأتون لكى يعرفوا ذلك أيضا. وبالطبع فإن هذا لا يعتبر نوعا من الهراء. إن احترام مبادئ العمل العلمى المنظم، وعمل التقارير المادية والتعامل معها، وفهم القوانين التى تكون نتائجها مفهومة على نحو معقول، تعتبر كلها أجزاء مهمة من العلم. ولكن ممارسة العلماء بوجه عام لا تجعل العلم يعيش فقط فى هذه الوسيلة الضيقة.

إن إنجاز العمل العلمى ليس طبعات منهجية مصورة ومكتوبة فى كتاب دراسى، ولكنه عبارة عن تطبيق طرق البحث فى المواضع المعقدة فى العالم الاجتماعى (**Latour, 1987**). وكما أشار أحد علماء الكيمياء فى المحاضرة التى نعرض لها بالتفصيل فى الفصل التالى إلى أن العلماء يعيشون فى عالم مركب ومعقد اجتماعيا ملىء بالظواهر الديناميية مع وجود نقص وعدم كفاءة فى الأدوات وطاقات وموازنات محدودة.

وقد عرفنا البحث العلمى على أنه نشاط استقصائى قادر على اكتشاف أن العالم غير منظم وفقا لتصوراتنا، بحيث يؤدى بنا إلـــى توقـــع واقتـــراح وسائل بديلة لفهمه. ويقوم البحث العلمى بتوثيق كل من عمليات الاستقـــصاء والمستخلصات والنتائج التى تظهر منها بتفصيل كـــاف لجميـــع الأطـــراف المهمة الأخرى لكى تكون قادرة على تقييم المعلومات وإعطاء التفـسيرات المناسبة لها. إن الصروح المؤسسية الضخمة لما يطلق عليه "العلم" لا يمكن أن تؤدى إلى علاقة قوية بهذا التعريف للبحث العلمى.

النظرية العامة للأنساق General System Theory (GST):

ارتبطت بحوث الفعل بأحد التيارات العلمية التى تضمنت مجموعـــة الأفكار والمفاهيم، والتى جاءت من اتجاه فكرى واسع ومتكامل يطلق عليـــه النظرية العامة للأنساق، والذى تم تعليمه بدرجات قليلة للطلاب الجـــامعيين خريجى كليات العلوم والهندسة. وتتبع أصول هذا التيار من علوم الفيزيـــاء والكيمياء والبيولوجى والهندسة عام ١٩٢٠، وارتبط أخيرًا بتطور نظم توجيه وإرشاد التصحيح الذاتى **Self-correcting guidance systems** للاستخدامات العسكرية، وقد أثرت النظرية العامة للأنساق تأثيرا فعالا على العالم المحيط بنا. وعلى الرغم من ذلك لم تكن هذه النظرية مألوفة للعالم. ذلك لأن هـــذه النظرية مثل بحوث الفعل لم تكن نتاجا لنظام أكاديمى معين فى الجامعات أو المعاهد العلمية. إنها مجموعة من الآراء التى اشترك فى صياغتها عدد كبير من العلماء والإصلاحيين الاجتماعيين ذوى الخلفيات المتنوعـــة والتيـــارات والأفكار السياسية المتعددة.

ويتضمن جوهر النظرية العامة للأنساق مجموعة من المفاهيم العامة والشاملة عن الطريقة التى ينتظم بها العالم. وبدلا من قبول فكـــرة تجزئـــة

الكون إلى ذرات وجزيئات وغيرها بحيث ترتبط ببعضها فى تركيبات وبناءات أعلى ترى النظرية العامة للأنساق العالم (عضوى وغير عضوى، وثقافى واجتماعى) على أنه مركب من أنساق متفاعلة تتكامل عملياتها بشكل مختلف عن نفس الحالة الأساسية للكون لإنتاج عدد هائل من الأشياء التى نواجهها فى مجال خبراتنا. وتنصب وجهة نظر النظرية العامة للأنساق على أن الاختلافات بين الأنساق العضوية وغير العضوية والثقافية الاجتماعية يمكن فهمها على أنها نتاج الاختلافات فى الطريقة التى تتبعها أو تنتظم بها هذه الأنساق- الأنواع والنتائج واستقرار العمليات التى تتخذ مكانا داخل هذه الأنساق (العمليات التى تقوم بها هذه الأنساق)

ومع ذلك تتضمن النظرية العامة للأنساق مفاهيم متمايزة ومركبة، فالممارسون يقومون بعمل تمييز أساسى بين الأنساق المغلقة **Closed Systems** والأنساق المفتوحة **Open Systems**. ويعتبر هذان النوعان من الأنساق طبقتين واسعتين تعملان بشكل متمايز. ويتم حفظ وصيانة التوازن بين الأنساق المغلقة والأنساق المفتوحة بواسطة أنواع مختلفة من العمليات داخل هذين النوعين من الأنساق، وهذه الأنساق تستجيب بشكل مختلف ومتباين للاضطرابات والأحداث المقلقة فى البيئة. ويتم تفسير النسق فى النظرية العامة للأنساق على أنه مركب أو مزيج من المكونات والخصائص المغلقة أو المفتوحة وكذلك من خلال تاريخ العمليات التى تحدث داخله أو تؤثر فيه من الخارج.

وتختلف وجهة النظر هذه بشكل جذرى عن وجهة النظر الجزئية التى تعتبر رئيسية بشكل كبير فى الفكر الغربى حتى الوقت الحاضر. لا يوجد نسق يعمل منعزلا، ولكنه يوجد ويتجدد بواسطة البناءات والعمليات التى ترتبط بالأنساق الأخرى المشاركة له. ونجد أن وحدات التحليل فى النظرية العامة

للأنساق هى الأنساق وليست الأفراد. فالأنساق تعمل ككل متكامل وليست تنظيمات أو مؤسسات منفصلة. فالأفراد يعملون داخل أنساق وهذه الأنساق تخلق البيئات العملية التى تؤثر على أنماط سلوك الأفراد بوسائل وأساليب معقدة. إن العالم ليس خريطة طبقية مصورة دقيقة تبدأ بالحالة غير العضوية مرورا بالحالة العضوية ومن ثم تتأثر بالقوى الثقافية الاجتماعية. وبدلا من ذلك فإن العالم يتكون من مجموعة من الأنساق المتعددة المركبة والمتفاعلة والعمليات المتعددة لكل نسق، والتى تلتقى وتتفاعل مع بعضها بأساليب ووسائل متعددة. وتتأثر العلاقات الاجتماعية والعمليات الاجتماعية بالعالم الفسيولوجى الذى بدوره يتحول ويتغير بواسطة الأنشطة الاجتماعية. إن الأمل الوحيد فى فهم أى شيء يكون من خلال وضعه فى سياق النسق الملائم له وتتبع العمليات التى يعمل ويتفاعل بواسطتها. وهذا بالضبط ما ناقشه سينج **Senge (1990)** تحت مسمى النظام الخامس **Fifth discipline**، وهو القدرة على فهم كيفية تفاعل العناصر والأنساق الفرعية المكونة للموقف الكلى.

وقد استخدمت النظرية العامة للأنساق فى تفسير وشرح العلاقة بين الحالة العضوية وغير العضوية وتطور الحياة. وفى هذا الإطار يعتبر عمل لودينج فون بيرتالانفى **Ludwig Von Bertalanffy (1966, 1968)** أساسيا فى هذا الخصوص. ومن خلال تطبيق هذه الآراء ووجهات النظر على الأنساق الاجتماعية بنيت العديد من النظريات المتنوعة عن الصراعات القومية **(Rapoport, 1974)** وجميع أساليب تحليل السلوك التنظيمى (انظر **Argyris, 1985; Argyris & Schon 1996; Flood & Romm, 1996**) حول هذه الأفكار. وأخيرا إسهامات جيريجورى باتيسون **(Gregory Bateson 1979)** عن العلاقة بين العقل والطبيعة المعتمدة على هذا الاتجاه. ويرى باتيسون أن مشكلة الثقافة- والطبيعة قد تحولت جذريا عندما فهمنا العلاقة على أنها تعبير

عن العمليات الموجودة فى كل مكان فى الطبيعة. ويرى باتيسون أن العقل جزء من الطبيعة ويعمل بالضرورة طبقا لمجموعة من العمليات التنظيمية الموجودة فى الطبيعة، ولكنها تمتزج بوسائل معينة فى النشاط العقلى. لذلك فالعقل جزء تام من الطبيعة وفريد ومتميز كنسق.

لماذا ترتبط النظرية العامة للأنساق ببحوث الفعل؟ فعندما نبدأ بنظرة النظرية العامة للأنساق للعالم نجدها تختلف مع ما يطلق عليه حاليا بالعلم الاجتماعى. فالعلوم الاجتماعية التقليدية ما زالت تقوم على تصورات علمية تتضمن مصطلحات العالم المقسم إلى أجزاء وطبقات تقوم على أساس تصورات العلماء للحقائق الاجتماعية وآرائهم حولها. وفى هذا الخصوص نرى كيف اختزلت التيارات المعاصرة لنظريات الاختيار المنطقى **Rational choice** فى بعض أنواع الأفكار السائدة لدى فلاسفة العلوم الاجتماعية عن أيديولوجيات الفردية والسوق الحرة. لذلك تمثل النظرية العامة للأنساق الانتقاد الأساسى لوجهات النظر هذه، ومن ثم للباحثين الاجتماعيين التقليديين الذين ينتمون إلى هذه الآراء والفلسفات.

والأكثر أهمية فإن اتجاه الأنساق يرتكز بالضرورة على بحوث الفعل فى جميع مظاهره وأشكاله. ويعتمد كل منهما بقوة على النظرة الترابطية والشمولية للعالم. ويمكن فهم الناس عندما توجد فقط داخل الأنساق الاجتماعية، وتملك هذه الأنساق الخصائص والعمليات التى تحدد وتقيد السلوك الإنسانى، وفى نفس الوقت تتحدد وتتقيد بواسطة السلوك الإنسانى. فالأنساق الاجتماعية ليست مجرد بناءات ولكنها عمليات فى حركة مستمرة. إنها تتسم بالديناميكية والتاريخية. إنها تعمل داخل حدود ملموسة وواضحة وقادرة على تحويل وتغيير ظروف الحياة المادية. وهى أيضا تربط بين البناءات الاجتماعية الفردية والأنساق البيئية الأكبر داخل نسق كبير متفاعل ومركب **Macro System**.

ويمكن ملاحظة العلاقة بين النظرية العامة للأنساق وبحوث الفعل نظرا لأنه يمكن فهم بحوث الفعل على أنها تمثل جهود تحويل المجتمع إلى أنساق أكثر انفتاحا، وأيضا نظرا لأن النظرية العامة للأنساق تحدد العلاقة بين أجزاء النسق كعناصر أساسية يعمل من خلالها النسق ككل. حقيقة يحاول بعض باحثى الفعل الموازنة بين زيادة الانفتاح وبين تحقيق الديمقراطية. (Flood& Romm, 1996) لذلك يعتبر أحد الاتجاهات أو المسارات فى اتجاه تعزيز أو تدعيم بحوث الفعل هو النظرية العامة للأنساق. والمسار الآخر الذى يمثل الحركات الفلسفية الواسعة للبرجماتية والبرجماتية الجديدة.

الفلسفة البرجماتية وبحوث الفعل

Pragmatic Philosophy and Action Research

لا تعنى هذه النظرة النمطية للعلم التى تسود بين غير العلماء nonscientist أن العالم غير مدرك أو ليس لديه إدراك للمنظورات أو الآراء التى نوضحها هنا. إن كل العناصر فى أكثر وجهات النظر تعقيدا وإنسانية للعلم معروفة جيدا وتم توضيحها بفعالية بواسطة جون ديوى John Dewey (1976) وتشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce (1950) ووليم جيمس William James (1948, 1995) وكورت ليفين Kurt Lewin (1935, 1948) والعلماء الأكثر معاصرة مثل إستيفين تولمن وبجورن جوستافسن Stephen Toulmin and Gustavsen (1996) وجميع الكتاب فى البرجماتية التقليدية. وبكلمات أخرى فإن أسس بحوث الفعل أصبحت معروفة منذ بداية القرن العشرين.

وتعتبر وجهة نظر جون ديوى بوجه خاص مهمة جدا فى عرضنا هذا؛ نظرا لأن فلسفته البرجماتية تضع اتجاه الفعل نحو العلم كنوع من الاستقصاء الإنسانى Human Inquiry وتجديد ارتباطاته الأصلية والفطرية

بالديمقراطية بطريقة تتفق مع آرائنا حول بحوث الفعل. ولد جون ديوى عام ١٨٥٩ ومات عام ١٩٥٢. وقد تبلورت إسهاماته الفكرية منذ عام ١٨٨٠ واستمرت حتى وفاته. وينظر إلى ديوى على أنه المؤثر الرئيسى فى التعليم العام بالولايات المتحدة الأمريكية وكذلك المحرك الرئيسى وراء واحدة من المساهمات الأمريكية المتميزة فى الثقافة الغربية. ومع ذلك رأى المؤرخ والمفكر روبرت ويستبروك **Robert Westbrook (1991)** جون ديوى على أنه كان دائما وما زال يمثل وجهة نظر الأقلية **Minority View**. ولا يوجد دليل قوى على أن هؤلاء الذين استشهدوا بأفكار ديوى قد عملوا بناء على هذه الأفكار. حقا إنه من الصعب أن نصدق أن الكثير منهم قد قرءوا ما كتبه.

ما هى إذن هذه الأفكار؟ ويعتبر تلخيص كتابة سبعين عاما من العمل الفكرى (أعماله المتكاملة التى تم وضعها فى أكثر من ثلاثين مجلدا) فى فقرات أو كلمات أمرا غير ممكن. ولكننا نحدد فقط القليل من النقاط الأساسية لاتجاهه التى ترتبط ببحوث الفعل وبالعلاقة بين البحث الاجتماعى والإصلاح الاجتماعى.

وكان ديوى يؤمن بقوة بالديمقراطية كعملية جماعية مستمرة للإصلاح الاجتماعى، والتى شاركت فيها كل المجتمعات على اختلاف مستوياتها. وقد وضعت هذه المناقشات كمقدمة لكتابه الجمهور ومشكلاته **The public and its problems (1927/1991)**. ومن خلال وجهة النظر هذه كان دور التعليم يتمثل فى توفير التدريب الكافى لكل شخص فى المجتمع حتى يستطيع أن يسهم بوجهات نظره وخبراته فى عملية الديمقراطية الجماعية. وفى كتاب المدرسة والمجتمع **School and Society (1900)**، وفى كتاب الطفل والمنهج **Child and Curriculum (1902)** قدم ديوى مناقشاته على أساس العلاقة بين نظرية الديمقراطية والأفكار التربوية. وكانت النقطة المهمة هنا تدور حول أن الديمقراطية يجب أن تتطور من خلال المشاركة الفعالة للناس فى فهم وإدراك عالمهم وليس من خلال الحلول الموجهة إليهم من قوى خارجية.

ولعل أكثر سمة مميزة لاتجاه ديوى كانت تتمثل فى الرفض الراسخ والأكيد لفصل الأفكار عن الأفعال. فبالنسبة لديوى فإن أى شىء يتم صياغته فى فعل. لقد رأى الديمقراطية نفسها على أنها شكل مستمر من العمل الاجتماعى **social action**، ومزيج من الأشكال التنظيمية أو المؤسسية والالتزامات الأخلاقية التى تعمل تجاه زيادة قدرة جميع أعضاء المجتمع على الإسهام بأفكارهم وعقلهم فى تحقيق البصيرة والفهم والتطلع والوعى للجميع. وأعتقد أن المصادر الحقيقية للمعرفة هى فقط التى تؤسس الفعل وليس التفكير أو التأمل النظرى. فبالنسبة له فإن كل أشكال المعرفة التى تم اختبارها والبرهنة عليها كانت مثل الديمقراطية نفسها عبارة عن أنشطة تجريبية. وكان هذا الوضع واضحا فى آرائه هذه، والقائم على المنطق الذى تناوله فى نظريته عن الاستقصاء **Theory of Inquiry**.

وكانت إحدى نتائج ذلك تتضمن أن المدارس يجب أن تخلق البيئة التى يستطيع من خلالها الطلاب أن يواجهوا بأمن وحرية مشكلاتهم التى يمكن حلها فقط من خلال استخدام المهارات التى تم اكتسابها من خلال العلم والتاريخ والفنون. فلا يجب أن تكون المدارس عبارة عن مواقع أو أماكن يكون الطلاب فيها عبارة عن أوعية فارغة يتم ملؤها بأجزاء من المعرفة. وهذا يتطابق وينسجم مع رأى ديوى بأن الحكم أو التقدير العلمى ليس قائما على المعرفة المحدودة. ويعتقد ديوى أن كل الناس قادرون على الحكم والتقدير العلمى وأن المجتمع قادر على تحسين هذه القدرات وزيادتها بين جميع أعضاء المجتمع. وبالاتساق مع ذلك فقد عارض ديوى بقوة تقسيم التعليم العام إلى تعليم مهنى وتعليم أكاديمى، ورأى أن ذلك يمثل التمسك والحفاظ على عدم المساواة الذى يؤدى فى النهاية إلى إضعاف الديمقراطية ككل. إن كل شخص يستطيع أن يكون مشاركا فعالا فى إيجاد المعرفة

التجريبية. إنه يعتقد أن حرمان أى شخص من التعلم أو تقليله هو فى النهاية تحديد ونقص لقدرات المجتمع ككل.

وترتبط هذه الأفكار بوجهة نظر ديوى عن المدارس كبيئات للـتعلم وكعملية للفعل والتى من خلالهما يجب أن يصبح الدارس متعلما فعالا وليس مستمعا سلبيا. وعلى الرغم من ارتباط الكثيرين بأفكار ديوى فإن قليلا مـن الطلاب وصفوا حجم خبراتهم التعليمية وفقا لهذه الأفكار. وعموما فإن ديوى يعتبر نموذجا فكريا مقبولا ومرفوضا فى نفس الوقـت. إن أفـضل وسـيلة لتخفيف حدة الإصلاح هى فى اختياره والحصول على الموافقة على القيـام به، والعمل بطريقة مختلفة. وكان هذا هو قدر ديوى.

ولعل أهم سمات أفكار ديوى العزم والتصميم على التركيـز علـى التنوع والصراع كعناصر أساسية فى المجتمـع الـديمقراطى. إنـه يـرى الديمقراطية على أنها عملية العمل من خلال الصراع وليست نحـو الحـل النهائى، ولكن نحو تحسين وتغيير الموقف. إنه ليس تواقا لتقليل الصراع فى المجتمع لأنه يحترم بصدق تنوع الناس وتنوع خبراتهم. إن هدفه يتمثل فـى بناء زخم وعزم نحو الإصلاح الاجتمـاعى الـديمقراطى وذلـك بواسـطة استحضار خبرات الصراع هذه جنبا إلى جنـب مـع العمـل الـديمقراطى للتخفيف أو الحد من المواقف الصعبة أو المشكلة. ويعتقد أن المجتمعات (بما فيها مجتمع المدرسة) كانت تعتبر مركزية وأساسية فى هذه العملية نظرا لأن المجتمعات تنقسم وتتنوع. إن مـصلحتهم المـشتركة فـى إيجـاد الحلـول والإصلاح يمكن أن تسمح لهم بالعمل معا للتعامل مع هذه المشكلات

وقد ارتبطت آراء ديوى حول العلم ارتباطا أساسـيا بآرائـه حـول المجتمع الديمقراطى. ويرى ديوى أن البحث العلمى ليس عملية منفصلة عن الفعل الاجتماعى الديمقراطى. إن المعرفة العلمية شأنها شـأن كـل أشـكال

المعرفة هي نتاج دوائر مستمرة مـــن الفعـــل وانعكاســـاته (ورد الفعـــل). (Dewey, 1991/1927) إن مركز الجذب يكون دائما فى المحاولـــة الفعالـــة للمتعلم للفهم من خلال نشاط حل القضية أو المعضلة فى ضوء المـــوارد أو المواد المتوفرة. وتعتبر الحلول التى تم تحقيقها هى فقـــط أفـــضل الوســـائل الممكنة فى ذلك التوقيت فى ضوء الموارد أو المواد المتاحة فى اليد، لـــذلك يطلق على هذه الفلسفة البرجماتية.

وقد أبقى ديوى الجوانب السياسية التى ارتبطت بمختلف الحركـــات الديمقراطية خلال حياته. لقد كان واقعيا وصادقا حول المواقف التى واجهها. لقد فهم ديوى أن بناءات القوة الكائنة تفضل أن تملك الحكم والسيطرة وتنفيذ المهام الأساسية والاقتصار على التعليم المهنى للشعب أو للعامة للعمل فـــى خدمة هذه الطبقة وذلك فى إيقاع طائش وغير متوازن. لقد أصـــبح يـــدرك الفصل الراديكالى بين المؤسسات الأكاديمية والمواقف الإنسانية التـــى كـــان يرغب فى أن تتغير. وعلى الرغم من تأكيده على أن الخبرة هى كيان حيوى متكامل فقد عرف أن الممارسة التعليمية قسمتها إلى أجـــزاء صـــغيرة جـــدا وحزمة من التخصصات، وقد أضعفت هذه العملية من قدرة المواطنين على قيادة الديمقراطية والدفاع عنها. وبناء على ذلك كله فقد عـــرف أن العلـــوم الاجتماعية التقليدية أصبحت مرفوضة فى توجهه نحو الفعل؛ نظرا لأن هذه العلوم قد جاءت لفصل الفكر عن الفعل، ولذلك أوجدت باحثين اجتماعيين أى علاجا أو تعمل مع ترتيبات القوة القائمة.

وملخص ذلك أن ديوى اعتقد أن كل الناس علماء، وأنـــه لا يجـــب فصل الفكر عن الفعل، وأن تنوع المجتمعات الإنسانية يعتبر واحدا من أكثر مظاهر القوة لديها (لو استخدمت فى العملية الديمقراطية)، وأن المؤســـسات التعليمية بشكل عام وبأسلوب البحث التقليدى بها نادرا ما ترتقـــى بـــالعلم أو العمل الاجتماعى الديمقراطى.

وتقريبا تعتبر جميع الكتابات التى تناولت هذا الموضوع تتسق مع افتراضات النظرية العامة للأنساق، لأنها ركزت على الفرد فى المجتمع، وعلى المجتمعات فى بيئاتها كأنساق اجتماعية وديناميكية. إن تركيزه الصارم على العمليات بدلا من تركيزه على النتائج، وإن الطريقة أو الوسيلة التى يستطيع أن يستجيب بها المجتمع للتغييرات المستمرة والمتلاحقة سواء من الداخل أو من الخارج أيضا تربطه بالنظرية العامة للأنساق. إن برجماتية ديوى والتى تربط بين الفكر والفعل، وربطها أيضا بين المعرفة والفعل والمجتمع والديمقراطية يبقيها الأكثر أهمية بالنسبة لبحوث الفعل.

الأسس المعرفية لبحوث الفعل

Epistemological Foundations of A R

ترتبط المقدمة السابقة عن كل من النظرية العامة للأنساق والفلسفة البرجماتية بشكل مباشر لبحوث الفعل. وتستهدف بحوث الفعل حل المشكلات المرتبطة بالسياقات الاجتماعية من خلال الديمقراطية حيث يتعاون الباحثون الاجتماعيون مع المشاركين المحليين من المواطنين فى جهود البحث عن الحلول المناسبة للمشكلات التى تهمهم والتعامل معها. ولتحقيق ذلك تعتمد بحوث الفعل على معطيات النظرية العامة للأنساق والعلوم الاجتماعية البرجماتية. وتستوجب التحديات التى تواجه بحوث الفعل القيام بالممارسة القائمة على أساس العلوم المتقدمة ومزج الأفضل من الممارسة العلمية مع الالتزام بعمليات التحول الديمقراطى فى المجتمع. وعموما فإن بحوث الفعل ينظر إليها بعدم الاحترام من قبل العلماء الاجتماعيين التقليديين، الذين يرونها على أنها عرض غير علمى وغير منظم للقصص. ونحن بالطبع ننظر على هذه الانتقادات على أنها ذات طبيعة مرضية وتهدف على خدمة الذات **self-serving**.

ولنبدأ بتركيز بحوث الفعل على المشكلات الأكثر تعقيدا مقارنة بما تقوم به العلوم الاجتماعية التقليدية. إن بحوث الفعل تركز على سياقات محددة ويتطلب ذلك ألا يكون هناك انفصال بين النظرية والتطبيق (الفعل)، وأنها تلتزم بفكرة أن اختبار أى نظرية يجب أن يكون فى قدرتها على حل المشكلات فى مواقف الحياة الواقعية. إن هذا التركيز على عالم الخبرة مع تعقيدها وتاريخيتها وديناميتها يعنى أن بحوث الفعل تحاول أن تنأى بنفسها عن العالم المثالى للبحوث الاجتماعية التقليدية باحتكاكها الحر **Friction- free** ومعلوماتها الكاملة (ص.٦٢) ويبدو لنا أن الباحثين الاجتماعيين التقليديين يحاولون تجزئة الواقع لكى يصبح سهل التناول أو التعامل معه، وأكثر مناسبة للمعالجة النظرية أو العلمية وأكثر مناسبة للإدارة المسيطرة، ولأن يجعل حياة العلماء الاجتماعيين أكثر سهولة ويسر لإدارتها.

إن بحوث الفعل لا تتقبل هذه الحلول الوسط. ونتيجة لذلك ووفقا لما قدمناه عن النظرية العامة للأنساق والبرجماتية فإننا نؤكد أن بحوث الفعل كشكل من البحوث العلمية تتسم بالخصائص الأساسية التالية.

- تعتبر بحوث الفعل سياقات تحدد وتحصر مشكلات الحياة الواقعية.
- بحوث الفعل هى استقصاء يتم من خلاله إنتاج الباحثين والمشاركين فى المعرفة مستخدمين عمليات اتصال تعاونية من خلالها تؤخذ كل مساهمات المشاركين بعين الجدية والاهتمام.
- تتعامل بحوث الفعل مع الخبرات والقدرات المتنوعة فى الجماعة المحلية كفرص جيدة ومتاحة لإثراء عملية البحث.
- إن بناء المعنى فى عملية الاستقصاء يؤدى إلى الفعل أو الإجراء الاجتماعى، أو أن انعكاسات الفعل تقود إلى إعادة بناء معانٍ أو مدلولات جديدة.

- إن صدق المعرفة التى تعتمد عليها بحوث الفعل يتم قياسه طبقا لمدى قدرة الأفعال التى نبعت منها فى حل المشكلات (العملية **workability**) وفى زيادة تحكم المشاركين والمستفيدين فى مواقفهم الخاصة.

وبتناولنا للإطار النظرى لبحوث الفعل تظهر العديد من التساؤلات المهمة. ما منطق الاستقصاءات التى تبنى هذه الوسيلة؟ ما معايير الحكم على مصداقية المعرفة فى بحوث الفعل؟ كيف يمكن توصيل المعرفة المحددة بفعالية إلى الأكاديميين وغيرهم من الجماعات ذات العلاقة؟ لذلك يتمثل الهدف من المناقشة التالية فى تقديم الموقف أو الوضع المعرفى الذى يعزز مناقشاتنا حول أهمية بحوث الفعل.

الاستقصاء السياقى المحدد لأهمية المشكلات المحلية:

Context- bound inquiry on important local problems

تركز بحوث الفعل على حل مشكلات الحياة الواقعية. ويتحدد تركيز الاستقصاء بناء على ما يعتبره المشاركون مهما بالنسبة لهم، وما يؤثر على حياتهم اليومية. لذلك ترتبط عملية الاستقصاء بالأفعال التى يمكن اتخاذها وتوفر الحل للمشكلة التى يتم دراستها. وبالطبع فإن الاستقصاء يسبق الأفعال. وتعتبر هذه وسيلة للحصول على المعلومات والمعارف الضرورية لتصميم الأفعال وإجراءات حل المشكلات والقضايا المرتبطة. ويعتبر الاستقصاء وسيلة لتطوير ردود الأفعال القائمة على أساس الخبرات القائمة عن الأفعال السابقة والتى يمكن فهمها وتوظيفها بأساليب ووسائل جديدة. وبالطبع ففى معظم مواقف حياتنا الواقعية فإن أى محاولة لحل المشكلات المهمة تتضمن بناءات وخبرات سابقة ولاحقة.

ونركز على أن عملية الاستقصاء ترتبط ارتباطا وثيقا بحل المشكلات العملية. ولكن على الرغم من آراء وأفكار المنظرين الأكاديميين

فإن المشكلات العملية ليست بالضرورة بسيطة أو سهلة. إن التنمية الاقتصادية للمجتمع وتطوير بناءات تنظيمية جديدة فى المنظمة، وتوفير المساكن لسكان المحليات، أو الجهود التعاونية لتقليل العنف فى المجتمع المحلى تعتبر كلها مشكلات عملية، ولكنها فى الغالب تتسم فى معظمها بدرجة عالية من التعقيد وتصعب من عملية إدارتها.

وسواء كانت المشكلة ذات طابع اجتماعى أو مادى فإن نتائج بحوث الفعل يجب أن تكون واضحة وملموسة بالدرجة التى يستطيع أن يحدد من خلالها المشاركون أى الحلول الواقعية التى حددوها بأنفسهم مناسبة للمشكلات التى يعانون منها. وهنا فإننا نعود ونرتبط مباشرة بالفلسفة البرجماتية. إن النتائج التى يتم الوصول إليها من خلال بحوث الفعل يجب الحكم عليها فى إطار مصطلحات إيجابية الحلول التى تم التوصل إليها. وتعنى الإيجابية **workability** أن الحل الذى أمكن تحديده هو الحل المناسب أو الواقعى للمشكلة الأساسية، وما الذى نحتاجه من مراجعة التفسيرات أو إعادة تصميم الأفعال. وهذه لا تعتبر حالة من التجربة العمياء المزدوجة التى تحدد عينات عشوائية ومستويات من الدلالة. ولكنها حالة من الحكم الاجتماعى الجماعى بواسطة المشاركين المزودين بالمعرفة على نتائج الفعل الاجتماعى الجماعى. إن الحكم الاجتماعى فى حد ذاته هو نتيجة لنوع من ديمقراطية الحوار، والتى يعتبر من خلالها الباحث الاجتماعى فقط أحد المصوتين (له صوت واحد).

عمليات الاستقصاء الديمقراطى تربط المشاركين والمهنيين:

Democratic Inquiry Processes Linking Participants and Professionals:

إننا نضع بحوث الفعل فى إطار العمليات الديمقراطية التى تعزز وتسهم فى إيجاد معرفة جديدة كانت كامنة، وأمكن تحريرها وإطلاقها.

وبوضوح فإن عملية الاستقصاء تستهدف حل المشكلات المهمة للمشاركين المحليين، وأن المعرفة التى يتم إنتاجها من خلال عملية الاستقصاء يجب أن تزيد من ضبط المشاركين لمواقف حياتهم الخاصة. ويتسق ذلك مع مفهوم فرير **(1970) Freire** عن الضميرية **Conscientization** والذى يحدد عملية الاستقصاء على أنها تستهدف تشكيل المعرفة ذات العلاقة ببناء الفعل على أساس الفهم الحاسم والواضح للسياقات التاريخية والسياسية التى يتفاعل من خلالها المشاركون أو المستفيدون. ويجب أن يكون المشاركين قادرين على استخدام المعرفة، ويجب أن تدعم هذه المعرفة أهداف المشاركون.

ويشير العنصر الديمقراطى فى عملية الاستقصاء إلى أن التبادلية والمشاركة بين الباحثين الخارجيين والمشاركين الداخليين لا بد أن تكون موجودة. إن بحوث الفعل هى عمليات اتصال يتعاون من خلالها كل من الجانبين للوصول إلى المعرفة من خلال عملية الاستقصاء. إن المعرفة المحلية والوعى التاريخى للمشاركين وخبرات حياتهم اليومية تتكامل مع مهارات الباحثين الخارجيين فى تيسير عمليات التعليم والتعلم، والمهارات الفنية لإجراء البحث العلمى، والمعرفة المقارنة والتاريخية للموضوعات تحت الدراسة. وفى نفس الوقت فإننا نتفق مع رأى ديوى **(1976) Dewey** أن "فى كل هذا لا يوجد فرق فى النوع بين منهجيات العلم وبين تلك التى تتسم بالبساطة. ولكن الفرق هو فى التحكم الكبير للعلم فى تحديد المشكلة والمواد ذات الصلة بها سواء كانت محسوسة أو غير محسوسة (نظرية)"

إن ربط الباحثين الخارجيين بالمشاركين الداخليين فى عملية الاستقصاء المترابطة يقلل من احتمالية اعتقاد فريجين **Fregian (1918/1956)** ومنطق روسيليان **(1903) Russellian** من ضرورة وجود بعض الأنواع من المحكات الموضوعية الخارجية لتحديد ما نستطيع أن نعتبره حقيقيا أو أنه معارف ذات صلة. ويتمثل منطق الاستقصاء فى

الارتباط بعملية الاستقصاء نفسها، لمحاولة الوصول إلى حل غير محدود يتسم بالضبط أو التحكم الإيجابى من خلال عملية الاستقصاء ويرتبط من خلالها الفعل ورد الفعل بشكل مباشر. ومن هنا يصبح الباحث الخارجى حتميا مشاركاً مع المستفيدين الخارجيين.

ومنذ سنوات مضت أجرى أحد الفلاسفة النرويجيين رسالة ماجستير بعنوان "الموضوعية ودراسة الإنسان **"Objectivity and the study of man"** **(Skjervheim, 1974)**. تناولت أسس العلوم الاجتماعية. وطبقا لوجهة نظر سكجيرفهيم **Skjervheim** فإنه لا يوجد فى بحوث الفعل شك فى أن الباحث هو مشارك فعال فى عملية الاستقصاء. إن الاستخدام المقبول والنشط والواعى لهذا الوضع يميز بحوث الفعل عن العلوم الاجتماعية التقليدية التى تجعل دور الباحث الاجتماعى مبهما بشكل عمدى. ويتم الاعتراف فى بحوث الفعل بحالة المشاركة الواضحة التى يمتلكها أى عالم اجتماعى فى أى عملية بحثية ويتم التعامل معها كمصدر ومورد مهم فى العملية البحثية. ويبنى تكوين معرفة جديدة على أساس هذه العلاقة المتبادلة. ومن جانب آخر تظهر المشاركة الفعالة للباحث العديد من التحديات المهمة للتكامل وردود الفعل المهمة. إن بحث الفعل ليس نمطا من البحوث التى يتقبل من خلالها بعض الباحثين التعاون الاختيارى مع المشاركين المحليين الفاعلين أو المسيطرين على القوة. إن العلاقة الفعالة المتوازنة والتكامل وردود الفعل المهمة تعتبر من أهم أسس عملية بحوث الفعل.

التنوع كفرصة Diversity as An Opportunity:

يخلق إدماج المشاركين والمستفيدين فى عمليات البحث فرصة حقيقية للاستفادة من قدرات الأفراد. إننا نملك القناعة بأن البحث يتضمن الإبداع

الإنسانى والحلول المناسبة للمشكلات والقضايا، وكذلك الكشف عنها. إن المناقشات العقلية التى تؤيد تنوع الجماعات المتعاونة فى البحث من الباحثين والمشاركين ترى أن المجموعات الواسعة من خبرات واتجاهات المشاركين فى عملية البحث يمكن أن تسمح بتطوير الكثير من الحلول المبتكرة. وهناك العديد من الأمثلة التى يمكن الاطلاع عليها فى هذا الموضوع

(See, for example, Amabile, 1996)

والقضية الثانية والتى لا تقل أهمية عن السابقة تتمثل فى أهمية الوضع الأخلاقى فى تدعيم التنوع كحق سياسى فى حد ذاته. ومن الضرورى بناء بحوث الفعل للوصول إلى القوة من الإبداع الكائن فى تنوع جماعات المشاركين، وليس إيجاد الحلول للمشكلات التى تقلل التنوع.

عملية الاستقصاء فى بحوث الفعل

The action research inquiry process

هل ترتبط الحتمية بالفعل

Is thus Inevitability Linked to Action

تظهر المعرفة ويتم تقييمها من خلال الفعل أو كنتيجة للأفعال. إن عملية الاستكشاف ليست عملية عقلية خالصة، ولكنها تتراجع إلى نطاق فكرى يبتعد عن الأفعال الإنسانية. وبالنسبة لديوى فإننا نقتنع بأن نفهم عملية الاستقصاء على أنها عملية ربط بين الأفعال وردود الأفعال فى عملية موحدة لخلق معرفة جديدة. وهذا يعنى أن منطق عملية الاستقصاء يعتبر فى حد ذاته قاعدة حقيقية ترتكز عليها المعرفة الإنسانية **(Burke, 1944)**.

ومن خلال ربط الاستقصاء بالأفعال فى البيئات المحددة فإن بحوث الفعل تفهم المتطلبات الإنسانية كموضوعات ممثلة فـــى موقــف كلـــى. إن الاستقصاء ليس أجزاء أو منفصلا، بل يتم التعامل معه كميـــدان اجتمــاعى متماسك. وقد حدده ديوى (1976) **Dewey** على هذا الأساس أنه نسق بيئـــى منظم يصور الموقف الكلى **Holistic**. ومـــن وجهـــة النظـــر هـــذه يعتبـــر المستقصى (المستعلم- الباحث) **inquirer** دائما جزءا أساسيا مـــن عمليـــة الحصول على المعرفة. وتتشكك بحوث الفعل فى الأبحاث التقليديـــة حيـــث يتخذ المستقصى (الباحث) حالة الحياد الزائف أو الموضوعية الزائفـــة فـــى السؤال أو الأسئلة تحت الدراسة.

إن عمليات بحوث الفعل لا تطالب بمعرفة حرية السياق. إن المفهوم التقليدى للتعميم **Generalizability** يسوى بين العام بما هو حقيقـــة شـــاملة، والسياق الذى لا يقاوم. وتقوم بحوث الفعل علـــى أســـاس فكـــرة أن كـــل الاستقصاءات الدالة هى محددة السياق، إنها تختلف اختلافا كبيرا عن مفهوم المعرفة العامة، وإن ما نعتقده هو الأكثر قوة وأكثر فائدة بالتأكيد.

إننا مقتنعون بأن المعرفة التى تتكون فى بحوث الفعل يمكن أن تكون أكثر أهمية وقيمة فى سياقات أخرى عن تلك التى تطورت، ولكننا نـــرفض فكرة أن تحقيق عملية تحويل المعرفة من موقع إلى موقع آخر يتم من خلال التعميم المجرد لهذه المعرفة. إن المعرفة المحولة من سياق إلى سياق آخـــر تعتمد على فهم العوامل المرتبطة بهذه السياقات فى الموقف الذى يتخذ فيـــه الاستقصاء مكانا، والحكم على السياق الجديـــد الـــذى يفتـــرض أن تطبـــق فيه المعرفة، وإجراء تقييم أو تقدير مهم عن أى الـــسياقين لديـــه البنـــاءات والعمليات الكافية، بحيث يصبح جديرا للارتباط بهم. وسوف نعود إلى هـــذه القضية فيما بعد.

ويرتبط المشاركون الداخليون والباحثون الخارجيون فى بحوث الفعل فى عملية تعلم تبادلية. ولعل عملية الاتصال هى الممكن الرئيسى لهذه العملية. إن أشكال الفهم الجديدة يتم إيجادها من خلال الحوارات والمناقشات التى تحدث بين الناس المشاركين فى عملية الاستقصاء. ولكى يحدث ذلك فإننا نحتاج إلى العديد من المناقشات والحوارات المتبادلة التى يتم تحقيقها من خلال المعايشة الكاملة طوال الوقت، والمشاركة فى الخبرات وتبادلها، والمشاركة فى اتخاذ المواقف والأفعال. إن هذه الحوارات والمناقشات التى تعزز عملية الاتصال تتشابه كثيرا مع وصف ويتجينستين (1953) **Wittgenstein** ذلك على أنها عملية "ممارسة" أن اللغة تخلق المعنى نظرا لأنها تحدد الأفعال المفهومة لدى جميع المشاركين أو اللاعبين. إن المعرفة الجديدة التى حددناها على أنها ظهرت نتيجة عملية الفعل ورد الفعل هى التى تشكل تبعا لتلك اللغة ذات العلاقة بوصف الأفعال وعمليات التعلم التى نبعت منها. لذلك خلقت بحوث الفعل اللغة المشتركة بين الباحثين الخارجيين والمشاركين الداخليين، والتى حددت المعنى الذى تم بناؤه من خلال عملية الاستقصاء.

وتقودنا هذه المناقشات ليس فقط إلى فهم الوسيلة التى أوجدت بها عملية الاتصال معنى ودلالات مدعمة للفعل، ولكن أيضا لفهم العمليات المضادة. وفى بعض المواقف فإن النتائج أو الخبرات التى تظهر نتيجة الأفعال تبدأ فى عمليات رد فعل جماعية والتى بالضرورة توجد معانى جديدة.

المصداقية والجدارة فى استقصاءات بحوث الفعل

credibility and Validity in action research Inquiry

تعتبر المصداقية والجدارة فى بحوث العلوم الاجتماعية التقليدية بمثابة أيقونة أو تعويذة للباحثين. وقد يعتقد هؤلاء الباحثون أنهم يجدون

ضالتهم وراحتهم وهم يتعاملون مع هذا الخضم الهائل من المعلومات المتناثرة والمتعددة في هذه الأداة المنهجية الدقيقة والتي يفترض أن تحل هذه المشكلات المعقدة بدقة.

من المهم لفهم ما المتطلبات الضرورية لكي يعتقد أي شخص في المعاني التي تم بناؤها من خلال بحوث الفعل. ونعرف الجدارة (Credibility) على أنها الأدلة والعمليات الضرورية والتي تزيد من ثقة شخص ما في نتائج البحوث. ونستطيع أن نميز هنا بين نوعين من المعلومات والمعارف الصادقة (الجديرة). النوع الأول وهو المعارف ذات الصدق الداخلي **Internal Credibility** للجماعات التي كونتها . ويعتبر هذا النوع من المعرفة ذا أهمية بالغة وأساسية لبحوث الفعل نظرا للسمة الجمعية والتعاونية لعملية البحث. وتشكل نتائجه المباشرة في تعديل أنماط الفعل اختبارا واضحا للصدق، وهذا الاختبار الذي تفتقده الكثير من أطر العلوم الاجتماعية التجريدية. ومن غير المحتمل أن يتقبل أعضاء المجتمعات أو المنظمات صدق النظريات الموضوعية للباحثين الخارجيين إذا لم يعترفوا بارتباطها بالمواقف المحلية أو بسبب أن المعرفة المحلية توضح أن هذه الأطر النظرية إما أن تكون مجردة أو أنها خاطئة في سياق معين.

ويتضمن النوع الثاني من الصدق الأحكام الخارجية **External judgment**. والصدق الخارجي هو المعرفة القادرة على إقناع شخص ما لم يشارك في الاستقصاء بأن النتائج قابلة للتصديق **believable**. وتعتبر هذه حالة معقدة. ونظرا لاعتماد بحوث الفعل على عملية الاقتران بين الأفعال وردود الأفعال، والتعاون في إيجاد معرفة جديدة في سياقات متنوعة فإن إقناع المشاركين الخارجيين بصدق هذه المعرفة يمثل تحديا صعبا. وغالبا ما يطلق على تقارير بحوث الفعل "مجرد إخبار قصصي

Storytelling" وذلك كمحاولة يائسة للتقليل من أهمية المعرفة العامة التى تم الحصول عليها فى الحالة الخاصة لبحوث الفعل. حقا إن القـصص تعتبـر أساسية بالنسبة لبحوث الفعل. ويتركز التعامل الأكبر معها فى فهم قـصص الحالات الفردية بوسائل يجب أن تملك تـأثيرات عامـة قويـة. إن روايـة القصص لا يتعارض مع إجراء العلوم الاجتماعية، إنها أساسية بالنسبة لها.

ونريد أن نركز على أن منطق الفكر العلمى يحتاج إلى أن أى حالة بحث فعل فردية تعارض النظرية الاجتماعية العامة يضعف من النظريـة، ويحتاج إلى تطوير نظرية الجديدة بحيث يتم وضـعها فـى الحـسبان. إن النظريات الحيوية (القابلة للاستمرار) لا تتضمن استثناءات، إذ يجب إعـادة صياغتها وتكوينها لكى تتضمن الاستثناءات بأسلوب متماسك. لـذلك فـإن الحالات الفردية والقصص والكثير من كتاب بحوث الفعل لديهم قوة هائلـة لتغيير وتبديل النظريات، بصرف النظر عن درجة تعقيدها أو الأهمية البالغة للفئة التى تنتسب إليها.

وهذا هو جوهر قضية الصدق والجدارة فى بحوث الفعـل. ويعتقـد مجتمع البحوث الاجتماعية التقليدية بأنه يتم الوصول إلى الصدق من خـلال التعميم والاقتراحات العامة والفروض العلمية وغيرها من الأنماط العامـة، بينما تعتقد بحوث الفعل بأن المعرفة الصادقة هى التى يتم تكوينها وتشكيلها واختبارها من خلال الممارسة. وتعتقد البحوث الاجتماعيـة التقليديـة بـأن الباحثين والمهنيين المدربين هم فقط الذين يملكون الكفاءة فى اتخاذ القـرار بشأن قضية الصدق أو المصداقية، بينما تركز بحـوث الفعـل علـى إرادة المستفيدين فى قبول النتائج التى تم الوصول إليها والعمل من أجلها وتحديـد خصائص الصدق والجدارة.

الإيجابية Workability:

يرتبط التحدى الأول للمصداقية أو الجدارة فى عمليات بحوث الفعل بحل مشكلات بحوث الفعل فى إطار الظروف المحلية. وهنا يعتبر اختبار الإيجابية رئيسيا وضروريا. ويجب أن نقرر ما إذا كانت الأفعال التى يتم اتخاذها فى بحوث الفعل تنتج حلولاً للمشكلات. وهذا يتسق مع الخط الفكرى لديوى (Dewey's 1976) عن عملية الاستقصاء حيث يتم خلق المعرفة وبناء المعانى من خلال العمل فى البيئة والتفاعل معها. وقد طور جوهانسين Johannesen (1994) مفهوما مشابها عندما حدد معايير الصدق فى بحوث الفعل. لذلك استعاره من الفكر البرجماتى مباشرة (Diggins, 1994). ونحن نفهم أن عملية الاستقصاء نوع من التكامل بين الفعل ورد الفعل وأن اختبار النتائج الحقيقية الملموسة نوع من الإيجابية.

تكوين المعنى Making Sense:

والعملية الثانية والمكملة فى الاستقصاء تتمثل فى تكوين مفهوم أو معنى نتيجة النتائج الملموسة أو الحقيقية. كيف تستطيع النتائج أن تتكامل فى عملية بناء مفاهيمى (ذات معنى) والتى تخلق معرفة جديدة؟ وهنا نركز على كيفية بناء المعنى من خلال عملية تفكير مدروسة. وقد قدم كل من بيرجر لوكمان Berger and Luckmann (1966) فى مرحلة مبكرة من هذه المناقشات فكرة أن المعرفة يتم بناؤها اجتماعيا. ولم يعكس موقفهما البنائى هذا بالقدر الكافى مدى جودة هذه المعرفة المكونة اجتماعيا، نظرا لعدم محاولتهما التدقيق أو الدراسة المتفحصة للنتائج التى تم الوصول إليها. ومن وجهة نظرهم فإن أى بناء يعتبر صحيحا أو خاطئًا مثل أى بناء آخر، وهذا الوضع يتناقض مع بحوث الفعل(١). ففى بحوث الفعل نستخدم العمليات التى من خلالها مرت المناقشات والبراهين ببعض أنواع طرق القياس. ونستطيع أن نصف عمليتين

محتملتين للمناقشة هما موقف الخطاب (الكلام) المثالى لهابيرماس Habermas (1984) والأسلوب التفسيرى (التأويلى) لجادمر Gadamer (1982).

يميز موقف الخطاب (الكلام) المثالى لهابيرماس Habermas (1984) العملية بالتحرر من السيطرة والتسلط، حيث يقوم الفاعلون Actors بالمشاركة فى مناقشات وحوارات بناء المعانى والمفاهيم بدون أى إكراه أو إجبار. وفى هذا الموقف المثالى يقوم كل مشارك بجدية وأمانة بالحكم على المناقشات التى تعرض أمامه ثم يقوم بعد ذلك باستنتاج أفضل حكم من وجهة نظره نتيجة لهذه المناقشات. وتؤدى هذه العملية إلى فهم أن هذا الأمر يصبح حقيقة تشريعية عندما لا توجد مناقشات أخرى تقوم بالانقلاب على ما تم الاستقرار عليه.

وتبدو مصداقية هذا الخط من الحوارات والنقاشات كنتيجة لهذا الموقف المثالى عندما لا يوجد تفسير أفضل يمكن تقديمه. وهذا لا يعتبر أمرا واحدا أو شأنا واحدا، ولكنه عملية أكثر استمرارية، والتى من خلالها تتحدى باستمرار الخبرات والمناقشات الحديثة الأفكار المتعددة حول المعرفة الصادقة. ويمكن فهم المعرفة العلمية ببساطة على أنها المعالجة المستمرة الباحثة عن أفضل تفسير لظاهرة معينة. صحيح أن موقف الخطاب (الكلام) المثالى لهابيرماس يغرى الكثيرين بمنطقه الصارم والدقيق وتفكيره العقلانى، إلا أنه يتجاهل الانفعالات والقوى والتباينات كمحددات أساسية لجميع عمليات الاتصال، وهذا هو الانتقاد الذى كان واسع الانتشار.

(see, for example, Flood and Romm, 1996)

وقد قاوم جادمر Gadamer (1982) فى إنتاجه الرئيسى الحقيقة والمنهج **truth and method** هذه التركيبات والأفكار البارعة لهابيرماس. لقد عالج موقف الخطاب (الكلام) المثالى لهابيرماس على أنه جزء من مثالية ساذجة. ودافع بدلا من ذلك عن حوار يتسم بمزيج أكثر تعقيدا وتفسيرات

متبادلة، وأخيرا (وليس آخرا) آفاقا واسعة. ويحترم جادمر تاريخية المعرفـة (المعرفة التاريخية) والتفسيرات (التفسيرات التاريخية) والخبرات التى يأتى بها المشاركون. وعلى العكس من هؤلاء الذين حاولوا أن يتحولوا من التأويل أو التفسير إلى مجرد لعبة منزلية أكاديمية ركز جادمر على أن التفسير هـو شكل ونموذج للعمل ككل وليس مجرد منهج للتفكير.

مصداقية التحول السياقى Transcontextual:

ما زالت توجد على مستوى واسع إمكانية نمذجة التحـول الـسياقى للموقف، وهذا يمكن شرحه تاريخيا وسببيا. ويعتبر ذلك مهمًا جدا بسبب أنه يكون دقيقا هنا ذلك أن العلماء الاجتماعيين التقليـديين يستـشهدون بقـانون التعميم، ويحاول نقل البحث الاجتماعى إلى نحو ما يرونه على أنـه يتـسم بالموضوعية، وبعيدا عما نفهمه على أنه بحث علمى.

وتتشابه وجهة نظرنا مع وجهة نظر فرنكويس جـاكوب Francois Jacob (1982) عن الممكن والحقيق، والذى يرى أن كل موقف يحتوى على احتمالات كثيرة أكثر من تلك التى يتم العمل بها. ونحن نفهم أن كل المواقف الجارية يمكن أن تكون مختلفة أو لا تكون. ويتم تحقيق نتيجة معينـة مـن خلال نقطة تقاطع الظروف البيئية، وجماعة من الناس والأحداث التاريخيـة المتنوعة، والتى تتضمن الفعل والمشاركين[٢].

ومن خلال وجهة النظر هذه فإن كل تفسيرات المواقف الحالية تضع فى اعتبارها بشكل واقعى اللحظات التاريخية، والأسباب الخاصة التى تعمل فى منظمات خاصة، فى سياقات محددة. وبهذه الطريقة مـن التفكيـر فـإن النظرية لا تستطيع التنبؤ بالنتائج فى موقف معين. إن النظريـة تـستهدف

تفسير أن ما حدث كان ممكنا وقد وقع، وتصميم السيناريو الممكن للمستقبل، وإعطاء أسباب جيدة لبعض الأشياء التى يبدو أنها ستكون محتملة فى النتائج التالية. وهذه النقلة الأخير بالطبع تعتمد بدقة على مناظرة **analogize** النتائج عن الحالات والسياقات الأخرى بوسيلة مترابطة منطقيا.

وهذه الممارسات تمثل العلم فى أفضل حالاته، وكان مثالنا السابق مأخوذا من نظرية النشوء والارتقاء البيولوجى. هل توجد هناك أمثلة فى العلوم الاجتماعية؟ ونحن نعتقد أنه يوجد مثل هذه الأمثلة، ولكنهم يتجاهلونها بوجه عام. وأحد هذه الأمثلة هو بناء التفكير على أساس العمل لماكس فيبر **Max Weber**. لقد قام ببناء العديد من النماذج الفكرية (المثالية) للتعامل مع القضايا المتنوعة والمعقدة التى درسها وهى: البيروقراطية والكاريزما والشرعية **legitimacy** والسلطة والدين والتحضر(٣). وقد خلق فى كل حالة قائمة مجردة من خصائص التحول السياقى بعد دراسة جادة للعديد من الحالات التاريخية. ومن ثم فقد استخدم هذه الخصائص فى تطوير إستراتيجيات تفسيرية.

ونادرا ما استشهد فيبر بعمله عن المدن، والذى يمثل مثالا نوعيا واضحا. لقد جمع كل الأدلة التى استطاع جمعها من كل أنحال العالم عن ظاهرة المدن. وعلى أساس هذه القراءات الواسعة، قام بتكوين (بتطوير) مزيج من الخصائص والمميزات التى وجدها فى كل مثال للمدن فى أماكن مختلفة. ومن ثم فقد أخذ هذه القائمة من الخصائص والمميزات ورتبها معا حتى أصبح لديه قائمة بكل الخصائص والمميزات التى وجدها فى المدن حول العالم. وقد وضعت هذه القائمة الكلية من الخصائص أساس نموذجه المثالى للمدينة.

وهذه كانت فقط البداية، ومع ذلك فبتسلحه بهذه القائمة عاد فيبر إلى كل منطقة فى العالم فى كل سياق وذلك لاختبار أى من هـذه الخـصائص موجود وأيها غائب فى كل موقف. وعندما وجـد تركيبـات معينـة مـن الخصائص موجودة أو غائبة فى الموقع، قام بإعادة فحـص تـاريخ هـذه المنطقة لشرح وتفسير سبب الحضور أو الغياب. وبالتدريج قام بتطوير مـا أسماه "التفسير السببى للتاريخ"، والذى ساعده فى فهـم أسـباب غيـاب أو حضور خصائص معينة فى مواقف معينة، وبنى فوق خلفية للمعرفة العامـة لظاهرة التحضر.

إن طريقة فيبر فى فحص واختبار مواقف وبيئات معينة من خـلال جمع الخصائص من هذه المواقف، وكذلك وضع هذه الخصائص فى قـوائم وتحليلها ومن ثم العودة إلى مواقف معينة، قد ساعدته فى فهم لماذا حضرت خصائص معينة أو غابت. وهذا هو كيف أن تطور المعرفة فى أحد مواقف بحوث الفعل يمكن نقله إلى المواقف الأخرى. إن بحوث الفعل لا تعمم مـن خلال التجريد وافتقاد التاريخ والسياق. إن المعانى التى تم خلقها فـى أحـد السياقات قد تم اختبار جدارتها فى موقف آخر من خلال رد الفعل الشعورى على الاختلافات والتشابهات بين الخصائص السياقية والعوامل التاريخية. إنها تنتقل من السياق الذى يكون الفهم فيه قد تحقق من خلال التحليل التعـاونى للموقف الذى ربما تم تطبيق المعرفة فيه. وبناء علـى التحليـل التـاريخى والسياقى، تتم أحكام بحوث الفعل عن إمكانية تطبيق المعرفة من موقف إلى آخر. وهذه أيضا تعتبر طريقة مناسبة لتطوير اتجاهات بحوث الفعـل مـن خلال التحليل العميق باستخدام الأساليب المتنوعة والعمليات فـى سـياقات متعـددة.

لذلك فإننا نعتقد بأن الاهتمام المتزايد بالحالات والسياقات والتــاريخ تعتبر جوهرية فى تطور العلم بوجه عام. إنها تعتبر أكثر الطرق أهمية للتقدم نحو تطوير العلوم الاجتماعية التى تحترم تنوعات المواقف، بينما تعمل أيضا على تطوير فهم العمليات التى توجد فى الكثير من المواقف والتى يمكــن أن تستخدم فى شرح وتفسير ما يحدث فى كل حالة.

إعادة تصنيف عمليات بحوث الفعل

Readdressing the AR processes:

ونود أن نشير إلى أن الأفعال المرتبطة بحل المشكلات التى نتناولها هى النتيجة الأولى لعمليات بحوث الفعل. ونركز أيضا على أن عملية بنـــاء المعنى ترتبط بحل المشكلات العملية تعتبر العنصر الرئيسى لتوليد المعرفـــة فى بحوث الفعل. وأخيرا فقد ناقشنا المواقف التى يتحول فيها التعلم من سياق إلى آخر، وكيفية تطوير التفسيراتِ السببية والتاريخية لما يحدث فـــى كـــل موقف محدد (معين).

ولكى نعكس لماذا لا يعتبر ذلك واضحا كما هو عادى، فإننا نعـــود إلى المناقشة المعرفية الواسعة والتى شكلت الستارة الخلفية. وعلى الرغم من ذلك فقد ركزنا على ديوى، فإنه من المهم أن ندرك ونفهم أن أفكار ديوى قد تطورت من خلال المناقشات والمعالجات مع الكثير مـــن زملائـــه ومـــنهم تشارلز ساندرز بيرس **Charles Sanders Peirce** ووليم جـــيمس **William James** اللذان كانا يعملان أيضا فى الإطار البرجمـــاتى للفلـــسفة (الفلـــسفة البرجماتية). وكانا يتمتعان بشهرة واحترام كبيرين لوقت طويل من الـــزمن، ومن ثم اختفيا تمامًا. إن اختفاء البرجماتية كان موضوع العمل المهم والمثير

للجدل لريتشارد رورتـــى (1980) **Richard Rorty** "الفلـــسفة وانعكاســات الطبيعـــة" **"Philosophy and Mirror of Nature"**، وقــد وجــدت هــذه التفسيرات المتعمقة لهذه القضية فى أعمال جــون ديجينـــز **John Diggins** **(1994)** "عهد البرجماتيـــة" **"Promise of Pragmatism"** وتــستحق هــذه الأعمال اهتمام أى شخص يهتم ببحوث الفعل لأن تحليلاتها توفر بناء تحليليًا وتاريخيا للتحولات والتقلبات التى تعانى منها بحوث الفعل.

وبالنسبة لرورتى **(1980)** **Rorty** وعلماء البرجماتيـــة والتفـــسيرية المعاصرة **Contemporary hermeneuticians** (على سبيل المثال جـــادمر **Gadamer (1982)** وتيلور **Taylor (1985)**) وفلاسفة اللغة أمثـــال ويـــلارد كوين **Wilard Quine** بمدرسة فرانكفـــورت وويتجنـــستين **Wittgenstein** ومورتين هيدجر **Mortin Heidegger** وبعض الوجـــوديين **Existentialists** وبعض زملاء رورتى استهدفوا التبرؤ (إنكار) مما دعوه "المشروع المعرفى" **Epistemological project**. مع أن رورتى حدد هـــذا المـــشروع بوســـائل متعددة وفى الأساس كان يعنى نقد مزاعم الفلسفة الحديثة لخلق (لإيجاد) نسق للتحليل يسمح للفلاسفة بالتمييز بين المعرفـــة الـــصحيحة وبـــين المعرفـــة الخاطئة- وجهة نظر الفلسفة كنوع من التجهيز (الإعداد) الذاتى لمحكمة عليا للمعرفة، والتى يجب أن يستسلم لها كل فرد.

وقد واجه رورتى المشروع المعرفى بواسطة التمييز بـــين الفلـــسفة المنظمة **Systematic** كبحث عن الواقعية المطلقة المحـــددة وبـــين خبـــراء الفلسفة والفلاسفة المثقفين، والتى رآها على أنها حوار مستمر يتضمن طرقا ومناهج ومناقشات تحاول جذب الناس إلى حالـــة أو نـــوع مـــن الاتـــصال الواضح. وقد دافع رورتى بوضوح عن ملاحظـــة أن الفلاســـفة المثقفـــين (التنويريين) يحيطون بالفلسفة المعاصرة وبالتحديـــد ديـــوى وويتجنـــستين

Wittgenstein وموررتين هيدجر **Mortin Heidegger** على سـبيل المثـال. **(Rorty, 1980, p.p.367-368)**

وفى محاولته لتمجيد وتخليد كل من ديوى وويتجنستين وهيدجر أوضح رورتى أنهم أعطوا الصورة الكلاسيكية للإنسان نوعا من الهزل (المزاح)، هذه الصورة التى تضمنت فلسفة منظمة حيث بحثوا عن تصور شامل يتضمن مصطلحا نهائيا. إنهم كرروا نقطة أن

> **تأخذ الكلمات معناها من الكلمات الأخرى وليس بفضل الحروف المكونة لها، والاستدلال بأن المصطلحات اللغوية تحصل على أفضليتها من الشخص الذى يستخدمها وليس من تصويرها للواقع.. إن موضوع تهذيب الفلسفة هو الحفاظ على استمرارية الحوار بدلا من إيجاد الحقيقة الموضوعية. إن مثل هذه الحقيقة.... هو النتيجة الطبيعية للمحادثة الطبيعية.** (Rorty, 1980, pp. 368, 277)

وتعتبر هذه المناقشات أساسية لبناء بحوث الفعل كما نراها. إن بحوث الفعل هى الوسيلة الأولى والرئيسية للحفاظ على "استمرار الحوار". وتستهدف طرق بحوث الفعل فتح آفاقا للمناقشة، لخلق مساحات واسعة لردود الفعل (الانعكاسات) الجمعية والتى من خلالها يتم تطوير مواصفات وتحليلات جديدة للمواقف المهمة، كأساس لأفعال جديدة. وهذا ما نعنى به بالإنتاج التعاونى للتعلم.

وهذا يرتبط مباشرة بالمشروع الاجتماعى والفكرى الذى أعلنه هانز جورج جادامر **Hans Georg Gadamer (1982)**، وأيضا تركيزه على خصائص كل أنواع المعرفة الإنسانية الموجهة بالممارسة التفسيرية والحوارية، والتى تتضمن الدليل القوى على أن هذه الأبعاد تقدم فى كل العلوم مثل العلوم الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية، وبالطبع أيضا الإنسانيات

والفنون. وقد شدد على السمة الشرطية والمستمرة للتفسيرات وأشار إلـــى أن التفسير hermeneutics هو نوع من الفعل، واستخدام لغـــة رورتـــى (١٩٨٠) بعيدا عن الاحتفاظ باستمرار المحادثة. ذلك أن ممارسى بحـــوث الفعـــل لـــم يفحصوا بعناية عمل جادامر وكان من الصعب أن يفهم المفسرون المعاصرون الآخرون وأن يسهموا بحساسيتهم المفرطة للنقد غير اللائق بل القـــوى مـــن الباحثين الاجتماعيين التقليديين الذين يختفون فى مخابئهم الأكاديمية.

وقد ارتبطت بقوة أيضا عناصر البرجماتية والانتقـــادات الـــسياسية الديمقراطية فى الترتيبات الاجتماعية Social arrangements الكائنة. وأحد أهم الموضوعات المهمة التى نبعت من تحليل ديجنز Diggins (1994) هـــو ارتباطه مع هنرى أدامز Henry Adams والانتقادات القاسية من جون ديوى للتعليم. ومن خلال استشهاده بخطاب أدامز إلى كـــانليف R. Cunliffe عـــام ١٨٧٥، فقد أعاد ديجنز إنتاج كلمات أدامز فى وصـــف الأســـتاذ بجامعـــة هارفارد وتلاميذه:

> **إنهم يتخمون أنفسهم بالحقائق والنظريات الثانويـــة (الهامـــشية) حتـــى ينفجروا ومن ثم يحاضرون فى كلية هارفارد ويعتقدون أنهم أصبحوا هم الطبقة الأرستقراطية فى الفكر والعقل وينجزون أعمالا بطولية من خـــلال تفجير أنفسهم فى كل العصور الأصغر، ويواجهون مجموعة جديدة مـــن أنواع التعصب الفكرية وغير الضارة والأصيلة.**
>
> (Henry Adams, quoted in Diggins, 1994, p. 307)

وكان ينظر إلى المؤسسات الأكاديمية على أنهـــا مراكـــز للارتقـــاء بالمعرفة بدون الفعل، وردود الفعل بدون التزام. وهذا ما يتوازى مع انتقادات أدامز وديوى، ويربط الخلف بما هو متفق عليه بين البرجماتية وبحوث الفعل فى تأكيدهما بأن الحقيقة ليست شيئا نحصل عليه، ولكنها عبارة عن هـــدف عملية لانهائية من الاستقصاء الاجتماعى التضامنى.

وقد قام ديجنز (١٩٩٤) أيضا بتكوين ارتباط مقنع بين البرجماتية والتفسيرية والفلسفة اللغوية ومدرسة فرانكفورت والتحليلية Deconstruction. وعلى الرغم من أن هذا التجمع يبدو شاذا فإنه لو أن أحدهم اتخذ موقف الناقد للمشروع المعرفى كعنصر أساسى، فإن جميعهم يسهمون بالعناصر الأساسية له. والأكثر أهمية بالنسبة لنا هو أن هذه المدارس تعتبر أيضا مصدرا رئيسيا لكمية مهمة من الأساس الفكرى والمعرفى لبحوث الفعل. لذلك فإن بحوث الفعل ليس بمفردها على جانب الطريق. إن بحوث الفعل تمثل البرجماتية الحديثة فى البحث الاجتماعى، وهى محاولة للحفاظ على استمرار الحوار، وتحقيق الديمقراطية إلى أبعد مدى فى المجتمع. وارتباطا بالبرجماتية فإن بحوث الفعل قد قوبلت بمقاومة عنيفة من العلوم الاجتماعية الوضعية التى اتخذت البرجماتية بجدية والتى سببت نهاية العالم الأكاديمى كما هم عرفوه.

الاقتصاد السياسى والبناء الاجتماعى للعلم:

ويقع تحت ما قلناه مجموعة الأفكار عن علاقات القوة فى مجتمعنا. وبحوث الفعل على وشك تحويل علاقات القوة فى اتجاه الديمقراطية الكبرى. وعلاوة على ذلك فإن معظم الخبرات التى لدينا عن العالم هى عن السلطوية نظم الضبط والأوامر والبيروقراطيات والتخصصات الضيقة والفصل بين الفعل ورد الفعل والجزاءات ضد من يعارضون هذه النظم. وقد طرح جون ديوى القضية جيدا عندما أكد على أن الحياة والتفكير والفعل تعتبر كلها جزءا من كل كبير، ولكن الخبرة التى نمر بها يوميا تجعل العلم يبدو وكأنه مزيج من الذات الأنانية والمستقلة والتى تحطم بعضها بعضا باستمرار.

ما الذى يجعل النسق الكلى المتكامل يبدو وكأنه يتكون من مجموعة من القطع الصغيرة المستقلة؟ والإجابة تقدمها بحوث الفعل وهى أن السبب

هو علاقات القوة، ولذلك فإنه بدون تحليل لعلاقات القوة فإن بحـوث الفعـل تعتبر غير ممكنة. إن الاقتصاد السياسى فى المجتمعات الرأسمالية، والعلـم كنشاط، والمؤسسات الأكاديمية تعتبر كلها عناصر ضرورية فى أى محاولة لفهم المعضلات التى تسعى بحوث الفعل إلى التغلب عليها. إنها تفسر أيـضا الجهود المستمرة التى تقوم بها نخب القوة لتهميش أنشطة بحوث الفعل فـى المجالات الاجتماعية.

وتسعى بحوث الفعل بوضوح إلى تعطيل علاقات القوة الكائنة بغرض تحقيق الديمقراطية فى المجتمع. إنها تسعى أيضا إلى دمج التنوعات الكبيـرة من المعرفة والخبرة التى يتمتع بها أعضاء المجتمع فى عمليات حل المشكلات الجماعية. وتؤكد بحوث الفعل على أن المجتمعات بـسبب الـنظم الـسلطوية السائدة فيها تستخدم فقط القدر الضئيل من معارفهم وقـدراتهم فـى مواجهـة مشكلاتهم المهمة. والسبب فى ذلك يرجع إلى أن رغبات القلـة التـى تملـك مفاتيح الضبط والتحكم فى الاحتفاظ بهذا الضبط والتحكم، الفقدان النخب الكبير لاحترام قدرات أفراد المجتمع العاديين. وبوضع هذه الاهتمامـات والمـوارد تحت تصرفهم، تقوم هذه النخب بتكوين بيروقراطيات موالية لهم ويحـافظون عليها، والتى تعمل على تصنيف المواطنين فـى تـصنيفات غيـر محـدودة (مؤهلين وغير مؤهلين، مجرمين وعاديين، شواذ جنسيا وغير شواذ، ذكـور وإناث، بيض وسود وصفر وحمر،.. وغير ذلك) وطبقا لهذه التصنيفات يـتم التحكم فى الموارد بواسطة النخب، ومن ثم يتصدقون ببعضها علـى الفئـات الذين يتقبلونها، والتى تقبل سيطرتهم علـيهم. وهـذا النـوع مـن التوزيـع البيروقراطى فيما يطلق عليه زيفا الرعاية يخلق نوعا من العلاقة التزاوجيـة بين الأفراد التابعين أو المرؤوسين وبناءات القوة، بحيث تعيق أى عصيان أو تضامن بين هؤلاء التابعين الذين يحصلون على هذه الموارد بسخاء.

ويؤثر الاقتصاد السياسي على العلم والأنشطة الأكاديمية. ويحـصل العلم الآن على أموال طائلة من الحكومات والشركات الكبرى، ويمكـن أن تنتهى العلوم الاجتماعية التقليدية وتموت بدون الموازنات والتمويل الحكومى. وكما يريد الممولون فإنهم يقررون الموضوعات وطرق البحـث ويخلقـون عملية سياسية تتضمن المراجع الزميل الذى يضمن أن هـذه الموضـوعات تتوافق مع متلقى الرعاية، وأنه من المستبعد أن العلماء يتضامنون لتحقيـق أغراض خاصة لهم. وهذا النوع من التمويل فى العلوم الاجتماعيـة يخلـق نوعا من التفكك الاجتماعي والعلوم ذات التوجه الإحصائى. ونتيجة لذلك فإن هذه النظم العلمية ينتهى بها المطاف إلـى توثيـق عمـل بنـاءات الـتحكم البيروقراطى. ونادرا ما ترتقى هذه التخصصات أو على الأقل تتخيل وجود عملية فعالة للتغير الاجتماعى، كما أنهم يهدءون من شعورهم بواسطة التأكيد على فكرة خدمة الذات **Self-serving** التى ينجزون بهـا العلـم وأن الفعـل الاجتماعى أو حتى التطبيق المتواضع لهذه المعرفة ليس مسئوليتهم. وعندما يقومون بالارتقاء بعملية الإصلاح، فإنهم فى الغالب يتلقون ثمنا سياسيا قاسيا وعسيرا. (انظر **Price, 2004**)

لذلك يوجد فصل حاد بين التغير الاجتماعى والإصلاح الاجتماعى وفقا لهذه الميكانيزمات، وأن كل جيل جديد من الطلاب الذين يلتحقون بالجامعة بعـد تنافسهم الحاد مع الآخرين أمثالهم، فإنهم يتعلمون بسرعة قبول هـذا الفـصل. ونتيجة أيديولوجية الاحتفاظ بالقوة فى أياد قوية، بينما يتم توظيف عدد ضخم من الموظفين البيروقراطيين الذى يحملون الحد الأدنى من الشهادات الجامعية، كان ذلك ناجحا بشكل ملحوظ. فالموظفون المشاركون يفرضون النظام على أنفـسهم والأيادى الممسكة بالقوة نادرا ما ترى.

وفى هذا السياق فقد تم تصنيف بحوث الفعل على أنها غير علميـة، بسبب ارتباطاتها الاجتماعية والأخلاقية؛ لذلك تم حرمانها من التمويل والدعم

المؤسسى. وأيضا تم تجاهلها أكاديميا ومن البناءات البيروقراطية الأخـرى لأنها نشاط جزئى يدخل أساسا ضمن أنشطة التخصصات الأساسية المتعددة. ومن خلال تقسيم هذه التخصصات وخلق اهتمامات بناءة تعتبر حارسا ضـد أى غارات إقليمية أو مدارس وجامعات وغيرها من البيروقراطيات الأخرى التى تقتل المشروع الاجتماعى لتحقيق الديمقراطية، والذى يعتبر قلب بحوث الفعل. وأخير من خلال المطالبة بأن يكون البحث الاجتماعى منفصلاً عـن السياق التطبيقى، فإن مالكى القوة متأكدون بـأن العلمـاء الاجتمـاعيين لا يدرسون شيئا مهمًا يثير الجدل أو الخلاف فى المجتمع. وفى النهايـة فـإن الإجابة عن سؤال لماذا تعتبر بحوث الفعل مهمشة جدا تكون موجـودة فـى النقص العام فى الالتزام بالتغيير الاجتماعى الـديمقراطى فـى مجتمعاتنـا وجامعاتنا وليست فى ضعف بحوث الفعل كشكل من الاستقصاء العلمى.

الخلاصة:

سوف نشرح بالتفصيل فى الفـصول التاليـة مـن الجـزء الثـانى الإستراتيجيات المتنوعة لاستخدامات بحوث الفعل للحفاظ علـى الحـوارات المستمرة، ونلخص فى مصطلحات عامة الخريطة التى تتوافق مـع بحـوث الفعل. ومن وجهة نظرنا فإن بحوث الفعل تقع فى مركز الحياة الإنـسانية. إنها تتكون بواسطة الأفعال الاتصالية، والتى تتخذ مكانها فى بيئات الحـوار التى تخلقها المجتمعات والتنظيمات الأخرى بغرض الإنتاج التعاونى للمعرفة الجديدة وتطوير خطط الفعل وتطبيقها، وتحقيق الديمقراطية فـى المجتمـع. وعلى خلاف المشروع المعرفى، فإن بحوث الفعل ترفض كلا من الـسلطة

غير المبررة والوضعية الواقعية كاتجاهات مناسبة للتعلم الاجتماعى والتغير الاجتماعى. وعلى العكس من الفعالية المحلية فإنها ترفض أيضا النسبية الخالصة والالتزامات غير المنتقدة نحو الجماعات التى تعمل. إنه شكل من المناقشة والاتصال المهم الذى ينتج معرفة جديدة وفى الغالب شاقة.

وتخلق بحوث الفعل المجال الذى من خلاله تلتقى كل قوى السلطة والمجتمع الواقعية والنسبية فى مواقف اتصال يتم بناؤها لفتح كل المواقف والأوضاع للفحص والتدقيق، وأيضا للمساهمات الإيجابية الفعالة من الجميع. إن بحوث الفعل تفتح المجال لكل الحوارات وتحافظ على استمرارها.

الهوامش

١) للمزيد عن النظريات الوجودية والمعرفية والمنهجية انظر
Guba and Lincoln, (2005)

٢) انظر الفصل الثامن لمزيد من المناقشة الكاملة.

٣) إن مصطلح النموذج (النمط) المثالى لم يتم معالجتها بطريقة فعالة فى معظم أدبيات العلوم الاجتماعية. وطبقا لوجهة النظر المسيطرة فإن الأنماط المثالية هى شكل من النمذجة الأولية، والتى تكون فيها المتغيرات غير مصاغة فى علاقة دينامية ببعضها البعض. ولعل المساهمة الأكبر للعلوم الاجتماعية الحالية قد وصلت افتراضيا إلى ما وراء الأنماط المثالية لخلق نماذج من المتغيرات التى ترتبط ببعضها ديناميا، والتى من ثم تنتج تنبؤات يمكن اختبارها. وليس فقط أننا لم نر دليلا على تفوق هذه الطرق فإننا نعتقد أيضا أن هدم ارتباطات وعلاقات العلوم الاجتماعية بالبيئة والتاريخ يعتبر جزءا من الترويض المعاصر لتحليل العلوم الاجتماعية.

الفصل الخامس
المنهج العلمى وبحوث الفعل
Scientific Method and Action Research

لقد لاقى التوهج العلمى خلال العقود المعاصرة اهتماما واسعا لـدى الباحثين الاجتماعيين(١). ولقد أصبح بالنسبة لهؤلاء الذين ينشدونه يعتقدون أن مصطلح العلم يمنحهم الدعم الأيديولوجى والمالى ويمـنح المكانـة والنفـوذ الاجتماعى للنظريات والنتائج والتوصيات النابعة من البحث. إن نشأة هـذا الموقف "والثقة فى الأرقام" (Porter, 1966) والتى غالبا ما تدعمه والانفصال طويل المدى بين الأبعـاد الوضـعية (اليقينيـة) Positivistic والمعياريـة Normative فى البحث الاجتماعى تعتبر مشهورة (معروفة جيدا). ونتيجـة لهذا الموقف فإنه إذا تم تصنيف بحوث الفعل (AR) على أنها غير علمية أو "ضعيفة Soft" فإن القوى المسيطرة، سواء على المستويات الأكاديمية أو فى المجتمع سوف تشعر بحرية فى إهمال نتائج هذه البحوث. وبالطبع يكون ذلك ملائما عندما تتعلق هذه النتائج على وجه الخصوص بانتقاد علاقـات القـوة الكائنة (الحالية)، وعندما تتطلب منهجية البحث تجاهـل أو عـدم الاهتمـام بوظائفهم ومناصبهم ومكتباتهم، والارتباط من خلال التعاون البناء بعالم مـا وراء مؤسساتهم ومعاهدهم.

وفقا لأهدافنا فى هذا الكتاب فإننـا نتنـاول الظـروف الاقتـصادية والسياسية والثقافية التى تمنح المكانة الاجتماعية للعلم كما نتداولها. وتتطلب فكرة سيطرة العلم فى حد ذاتها الشرح والتوضيح، ولكن تحديدها يأخذنا بعيدا

عن أغراض هذا الفصل والكتاب ككل. ونرغب فى توضيح أنه لا يوجد لدينا أى شىء ضد العلم، إنه يستطيع أن يستمر ويتواصل كنشاط يستهدف إنتاج معرفة جديدة ويمكن أن يعمل كأساس للعمليات التحررية. وعلى أى حال فإن ذلك يعتمد على كيفية تجسيد العلم للواقع الاجتماعى وانتشاره.

ونقوم فى هذا الفصل والفصل التالى بعمل مطالبة بسيطة، ولكنها جريئة. ونحن نؤكد على أن بحوث الفعل أكثر قربا من ممارسات العلوم الطبيعية والبيولوجية أكثر من كل الاتجاهات السائدة فى البحوث التقليدية. ونؤكد على أن ذلك ليس بسبب أننا نريد أن نقر أو نضع بحوث الفعل تحت اسم العلم، ولكن بسبب أننا نريد أن نبين أن بحوث الفعل أكثر من كل أشكال البحوث التقليدية فى إنتاج معلومات صادقة وتفسيرات للظواهر الاجتماعية، وأن هذه المعلومات توجه مباشرة لأداء الفعل. وقد وضعت العلوم الاجتماعية التقليدية (علوم الاقتصاد والنفس والاجتماع، والسياسة، والأقل درجة منها علم الأنثروبولوجى) نفسها تحت الهيمنة الأكاديمية كعلوم اجتماعية. وقد تعاملت مع كل الأشكال الأخرى للبحث الاجتماعى على أنها شىء ما وشىء ما أقل، على سبيل المثال دراسات الإدارة والتخطيط وبحوث الفعل وغيرها. لذلك وبناء على هذه الحركة القوية، فإنهم ينظرون إلى هذه الممارسات الأخرى مثل بحوث الفعل على أنها بالضرورة غير علمية.

ونحن نوافق على أن تطبيقات بحوث الفعل تختلف جوهريا عن تلك الموجودة فى البحوث الاجتماعية التقليدية، ولكننا نرى أن بحوث الفعل تعمل وتتواصل بواسطة طرق وأساليب تقترب تماما من الوصول إلى نتائج بحث صادقة وقابلة للتطبيق، بينما نادرا ما تصل البحوث الاجتماعية التقليدية إلى نتائج صادقة يمكن اختبارها فى الواقع العملي[٢]. وسوف نشرح فى الفصول السابع والسادس عشر والسابع عشر أسباب وجود البحوث الاجتماعية التقليدية فى المؤسسات الأكاديمية وتهميشها لبحوث الفعل فى هذه المؤسسات.

هل تستطيع بحوث الفعل الوصول إلى نتائج ذات دلالة علمية؟

وهنا نبدأ بمراجعة الانتقاد الأساسى بأن بحوث الفعل ليست علميـــة. وقد وجه بعض زملائنا فى بحوث الفعل اهتمامهم إلى هذه القضية من خلال تقبلهم فكرة أن العلم فى حد ذاتـــه غيـــر إنـــسانى **Inhumane** واغترابـــى **Alienating**، وبذلك فهم فخورون بوصفهم غير علميين. ونحن لا نتفق معهم بشكل قوى ونرى بدلا من ذلك أن بحوثا الفعل تستطيع، وتعمل ويجـــب أن تصل إلى نتائج بحث اجتماعى صادقة وذات دلالة.

ومن وجهة نظر الدوائر الأكاديمية فإن بحـــوث الفعـــل، والبحـــوث التطبيقية، ومعظم البحوث الكمية تعتبر بوجه عام بحوثا غير علمية. وعلـــى الرغم من أن الباحثين فى العلوم الاجتماعية التقليدية أحيانا ما يعترفون بـــأن بعض بحوث الفعل تعتبر مفيدة، فإنهم يرون بوجه عام أن نتائج بحوث الفعل عبارة عن حكايات نادرة، تقوم على أساس الحكايات والروايات القصـــصية بدلا من الوصول إليها على أساس علمى. حقا فإن معظم الباحثين التقليـــديين يتصرفون كما لو كانوا يعتقدون أن العمل المفيد يعتبر تافهـــا مـــن الناحيـــة العلمية. ومن وجهة نظر هذه الدوائر العلمية فإن العمل العلمى هـــو الـــذى يوازى الموضوعية والدقة، واستخدام الاختبارات الإحـــصائية، واســـتخدام التصميمات شبة التجريبية على الأقل والمكوث بعيدا عن العـــالم التطبيقـــى والواقعى. وفيما يتعلق بذلك فقد ألقوا كل ثقلهم وراء ما أطلق عليه كل مـــن ناوتنى وسكوت وجيبونس **Nowotny, Scott, and Gibbons (2001)** نموذج ١ لإنتاج المعرفة **Model1 Knowledge Production** – "المعرفة الموثوق بها **Reliable Knowledge**" عندما تنتج بحوث الفعـــل المعرفـــة فـــى الـــسياق التطبيقى أو نموذج ٢ المعرفة **Model 2 Knowledge** والذى يعتبر قويا من الناحية الاجتماعية.

ونحن هنا لا نلفق الانتقادات التى تقلل من شأن العلوم الاجتماعيــة. وقد وضعت العلوم الاجتماعية التقليدية لسنوات طويلة وخاصة فيما يتعلــق بممارساتها العلمية موضع التساؤل. وتم توجيه النقد أيضا للعلوم الاجتماعية المعاصرة عن خطأ هذه العلوم فى تقبل أن تكون علوم الكيميــاء والطبيعــة كنماذج للعلم (Clifford & Marcus, 1985; Geertz, 1973; Porter, 1995; Rabinow & Sullivan, 1987). ولمواجهة بعض هــذه الانتقــادات، فــإن الاستجابة الملائمة لها تتمثل فى إنكار العلم، والدفاع عن وجهات النظر التى تتحدى وجود المعرفة القابلة للتعميم. وقد حث البعض الآخر علــى إعــادة هيكلة ممارسات العلوم الاجتماعية وتنويعها، مثال ذلك إجراء بحوث أكثــر ارتباط بالواقع، ولكن بدون فهم أن الارتباط بهذا الواقع يحتاج إلى حــدوث تغييرات جوهرية فى اتجاهات البحث الاجتماعى.

وقد ادعت الكثير من الانتقادات أن العلوم الاجتماعية أسيرة بعــض الأخطاء التقنية والطقوسية فى إطارها النظرى. (علــى ســبيل المثـــال: Barnes & Shapin, 1979; Mills, 1995) وعلاجها بالأدوية التى تتــراوح بين التفسيرات أو التــأويلات Hermeneutics، والبنائيـــة Structuralism والتحليلية Deconstruction. وطبقا لوجهة النظر هذه فقد خرجــت العلــوم الاجتماعية عن الطرق والمناهج المناسبة لها. وتعتبر هذه قــصة مأســاوية، وأنها عادة ما ترى أنه ليس لدى العلوم الاجتماعية اهتمــام كــاف بأبعــاد الظاهرة الاجتماعية والتى لا توجد فى العلوم (مثال ذلك: الذاتيـــة التفاعليـــة Intersubjective والتفاهمات Understandings واللغة). وبالطبع فقد نبعت الخطط والبرامج الأكاديمية من هذه الانتقادات، والتى تتضمن الكفاح من أجل القوة والتأثير فى المجال الأكاديمى، وهذا الكفاح الذى يزيد فى الــشدة كمــا نرى فى المعارك بين الاختيار المنطقى لأصحاب الفلسفة الوضــعية وبــين القائمين بالدراسات الثقافية فى العلوم الاجتماعية.

ونحن لا نشكك أو نجادل فى الحاجة إلى تغيير الأجندة (الخطط وبرامج العمل) ولكن هذا التاريخ المتصور **Imagined** للعلوم الاجتماعية لم يتطابق مع نتائج البحث فى فروع العلوم الاجتماعية التقليدية ولا المواقف التى نمر بها. وهذا ليس مكانا لتبرئة أعمال إعادة الإصلاح والربط فى العلوم الاجتماعية (انظر **Maddoo Lengermann & Niemrugge-Brantley, 1998; Messer-Davidow, 2002; Ross, 1991)** وانسحابهم بلغة غير مفهومة وغير ذى صلة، ولكن يعتبر جزءًا مهما من القصة. والجزء الآخر من المناقشة الذى نرغب فى التركيز عليه هو النابع من عدم فهم العلم نفسه.

إن البحث فى العلوم الطبيعية والبيولوجية لم يتوافق مع الرأى الشائع فى البحث العلمى بأن هذه الانتقادات تستخدم بغير علم. والأكثر من ذلك أننا نعتقد أنه يمكن تحقيق أفضل فهم للبحث فى العلوم كشكل ناجح ومنظم من الحلقات المتكررة للاختبار وإعادة الصياغة وللعلاقة الواضحة والصريحة بين التفكير والفعل. وبمعنى آخر فإن العلوم الطبيعية تختلف بحق اختلافا جذريا عن العلوم الاجتماعية المعاصرة، ولكن فقط بسبب أن لدى ممارسات العلوم الاجتماعية القليل الذى تفعله على أسس علمية.

وأحد الأفكار الخاطئة والتى تم استعارتها بشكل خاطئ من العلوم، هى أنه يجب أن يكون العلماء الاجتماعيون غير مرتبطين أو غير منخرطين (واقعيا وعمديا) تماما فى الظاهرة التى يدرسونها. إن المعادلة التى تتضمن عدم الارتباط مع الموضوعية والتجريد ومتطلبات الممارسة العلمية تؤدى إلى إبعاد الباحثين أنفسهم بشكل منظم عن مجتمع بحثهم (المجال البشرى لبحوثهم). إن تحقيق هذا الابتعاد والانفصال يجعل من الصعب، بل من المستحيل فهم الأفعال الإنسانية، ومن ثم فهم يركزون أكثر على فصل العلم عن الفعل. وهذه الحركة تفصل الارتباط بين التفكير والفعل الذى يتيح الفرصة لقياس النتائج، وجعل العلوم الاجتماعية التقليدية مختلفة تماما عن العلوم البيولوجية والطبيعية، ومختلفة تماما عن بحوث الفعل.

إننا لم نتناول القضايا الكبرى عن معنى العلم فى حد ذاته، وافترضنا ببساطة أنه من المفيد اعتبار أن العلوم الطبيعية والبيولوجية هى بالفعل علمية بالمعنى الدال للمصطلح[٣]. وتركيزنا هنا ينصب على متابعة التفاعلات المنظمة والمستقرة بين التفكير والفعل والتى تتشابه مع البحث فى العلوم الطبيعية والبيولوجية، والتى تبتعد كثيرا عن ما يتم من ممارسات فى العلوم الاجتماعية التقليدية.

ويتمثل جوهر المشكلة فى التركيز الكبير والهائل للعلوم الاجتماعية التقليدية على ادعائها بأنه لكى تكون علمية فإنها تحتاج إلى أن يفصل الباحثون بين كل العلاقات مع كل ما هو ملاحظ، وتجنب الاختيار Co-opted بواسطة تحيزاتهم الشخصية. ويوازن مثل هؤلاء العلماء الاجتماعيين بين الموضوعية والانفصال عن الظاهرة موضوع دراستهم وبين إظهار الافتخار بقدراتهم على فهم الكيانات الإنسانية الأخرى، وعن عجز مفردات مجتمعات البحث التى يقومون بدراستها عن تقديم التحليل العلمى لأنماط سلوكهم ومواقف حياتهم. وهذا الاعتقاد والممارسة يضعف من الدليل بأن العلوم الاجتماعية التقليدية تمارس المنهج العلمى بدقة نظرا لأن العلماء فى مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية لا يفصلون أنفسهم عن الظاهرة التى يدرسونها لكى يكونوا موضوعيين. إن الطريقة التجريبية تحتاج العكس تماما- إنها تحتاج إلى الارتباط وإن كان على أساس مصطلحات محددة. إن المنهج العلمى وأدواته التجريبية تعتبر شكلا من التطبيق على العالم وداخله، على الرغم من أنه لم يوجه نحو التغير الاجتماعى الديمقراطى.

إن النظر إلى التغير الاجتماعى بهذه الطريقة ليس فكرة جديدة، وإنما تم حظره، كما تحولت الاهتمامات الاجتماعية للعلماء الاجتماعيين وأنشطتهم العلمية بعيدا عن الإصلاح الاجتماعى. ويعتبر كورت ليفين عالم النفس الذى

تحدثنا عنه سابقا (الفصل الثانى)، والذى اقترح مبكرا بحوث الفعل، هو الذى تعامل مع النظرة إلى البحث الاجتماعى على أنه مرتبط علميا واجتماعيـــا. وكما حددنا سابقا فإن وجهة نظره عن الحالة أو الموقف تتلخص غالبا فـــى عبارتين متكررتين هما "لا يوجد شيء عملى مثل النظرية الجيدة" و"أفـضل وسيلة لفهم شيء ما هى محاولة تغييره". وقد بين بوضوح وجهتـــى النظـــر هاتين خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى، استجابة للأفكـــار المبكرة لأشهر الفلاسفة البرجماتيين فى المجالات الديمقراطيـــة والتعليميـــة، وهو جون ديوى.

ونقدم عرضا متكاملا لهذه المناقشة فى الفصل السادس. إن ما يهمنا عن ليفين وديوى فى السياق الحالى هو اتجاههما نحو البحث الاجتماعى الذى يتفق مع الوسيلة التى يفكر ويتصرف بها العلماء المعاصرون حيث فهم ليفين بوضوح العلاقة بين بحوث الفعل والطريقة العلمية.

وبدلا من الجدل حول بحوث الفعل والمنهج العلمـــى فـــى بأســـلوب مناقشات نموذجى (وهذا يكون من خلال آراء متعددة) فإننا نتعامل مع هـــذه الحالة من خلال السرد المتسلسل الذى يقدم الأمثلة على ما ندعيـــه وننـــادى به[٤]. وغرضنا من ذلك هو توضيح المعانى المتضمنة فى مناقـــشاتنا بـــأن بحوث الفعل هى أكثر قدرة على الوصول إلى نتائج صادقة مقارنة بتلك التى تتوصل إليها البحوث الاجتماعية التقليدية[٥] ومن ثم دراسة لمـــاذا انحرفـــت البحوث الاجتماعية التقليدية عن هذا الطريق.

العلوم الطبيعية والبيولوجية كحلقات متكررة من التفكير والفعل:

إن التسلسل الذى نسرده هنا حدث لجرينوود منذ ٢٥ عاما مـــضت. إن إعادة حكايته للقصة فى الغالب كان كافيا بأن وسيلة القصص، وتذكره لها كان أكثر ارتباطا بإعادتها مقارنة بتسلسلها الأصلى. إنه لم يوثق هذا التسلسل

مع أى شيء آخر عن تدوين المحاضرة، نظرا لأن ردود الفعل طوال السنين هى التى تجعل فقط المعانى الكبيرة أكثر وضوحا. وما زال جرينوود يشعر بأنه أصبح حقيقة فى السلسلة التى شارك فيها.

وقد حدث فى هذا التوقيت أن أصبح جرينوود رئيسا لقسم البيولوجى والمجتمع بجامعة كورنيل. وكان البرنامج يدرسه الطلاب خلال الأربع سنوات الجامعية الأولى فى نظام التعليم العالى بالولايات المتحدة، وكان هذا التخصص متعدد الفروع والكليات قد تم تصميمه للربط بين العلوم البيولوجية والطبيعية مع العلوم الاجتماعية والإنسانية. لقد أتاح الفرص للطلاب ذوى الاهتمام الأكبر بالعلوم الأساسية (البحتة) باكتشاف العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل علمى منظم. وقد كان جرينوود مسئولا عن المقررات الرئيسية وذات المستويات المرتفعة، والتى تضمنت مراجعة العلاقة بين البيولوجى والمجتمع وأيضا مناقشة العلم والمنهج العلمى.

وبتدريس هذه المقررات مرات عدة، اكتشف جرينوود أن طلاب الدراسات العليا المتميزين، والذين لديهم خلفيات علمية قوية فى الرياضيات والطبيعة والكيمياء والبيولوجى لديهم القليل جدا عن وسيلة الفهم السلوكى والواقعى للمنهج العلمى. إنهم يكونون معقدين بشكل كاف فى استخدامهم اللغة المناسبة لوصف قواعد المنهج العلمى، ولكنهم لم يفهموا المنهج العلمى كشكل من إنتاج المعرفة وكسلوك انعكاسى. وبدلا من ذلك فقد استخدموا أفكارهم عن المنهج العلمى أساسا على أنه وسيلة للدفاع عن القيم العلمية التى تتمثل فى الحقيقة والموضوعية والتعميم.

وانعكاسا لذلك فقد أدرك جرينوود أن ذلك ليس مفاجأة بحق نظرا لأنه من خلال السنة الثالثة فى الجامعة وجد أن الطلاب يقومون بعمل علمى روتينى فقط فى المقررات التمهيدية الأساسية التى درسوها. فقد كان لديهم خبرات قليلة جدا فى العلم كشكل من الاكتشاف والتفسير فى الجلسات المعملية.

وعلى الرغم من أن هذا الموقف قابل للفهم، فإن جرينوود وجده غير مقبول من المتخصصين في البيولوجي والمجتمع. ومعظم هؤلاء المتخصصين الذين يتم إعدادهم للعمل في مجال الطب أو أي تخصص آخر في مجال الرعاية الصحية، والتي يقتصر فهمهم فيها للمنهج العلمي على أنه نوع من السلوك الذي يجب أن يكون له نتائج موجهة إلى الآلاف من المرضى. وقد نظر حوله لإيجاد وسيلة ما للتعامل مع المشكلة. لقد عرف أنه على الرغم من العلاقة الجيدة مع الطلاب، كعالم أنثروبولوجيا ثقافية، فإن آراءه حول المنهج العلمي لم تجد إلا مصداقية قليلة جدا لدى الطلاب. لذلك قرر دعوة عالم الكيمياء الفائز بجائزة نوبل من كورنيل لإلقاء محاضرة في الفصل الدراسي عن المنهج العلمي. وقد قام بتنفيذ هذا الاختيار بسبب أنه يعرف هذا العالم ومن جانب آخر بسبب أن هذا الأستاذ كان معروفا عنه أكثر الأساتذة علما والتزاما(٦).

وقد استغرقت المحاضرة التي ألقاها هذا العالم الكيميائي حوالي ٥٠ دقيقة، وكان الطلاب جالسين على حافة مقاعدهم طوال المحاضرة. ولعل مكانة هذا العالم وقدرته على مخاطبة الطلاب بما يناسب مستواهم جعل الدرس ذات فعالية لدى الغالبية العظمى من الحاضرين. وكان من الواضح في البداية أن الطلاب يتوقعون محاضرة نظرية وعالية التجريد من هذا العالم البارز علميا وفكريا. وكانوا يوازنون بوضوح بين العلم العظيم والتجريدات العظيمة، والقوانين العامة والنظريات الكبرى. وأن ما حصلوا عليه من هذه المحاضرة كان شيئا مختلفا. وقد اختار هذا الكيميائي أن يصف أنشطته كعالم، وأن يجذب الطلاب إلى عالمه من خلال المنظور السلوكي، وخاصة من خلال مبادئ الباحث في تغيير مشروع البحث العلمي.

وقد بدأ محاضرته بتحديد أن أول قضية في أي بحث علمي ترتبط بتحديد مشكلة الدراسة. وقد شرح أن هذه ليست عملية بسيطة. وكان واضحا

من استجابات الطلاب أنهم لم يطلب منهم من قبل أن يفكروا فى كيــف يجــد العلماء حلا للأسئلة التى توجه إليهم، ومن المحتمل أن يكون ذلــك بــسبب أن الطلاب قد أعطوا بوجه عام مجموعة من الأسئلة الممكن فهمها لكى يتناولوها فى النشاط الفصلى. وقد أوضح الكيميائى أن هناك العديد من المشكلات فــى العالم، وأن هناك العديد من المقترحات الكثيرة فى الأدبيات والكتابات العلمية. وبعض منها يدخل فى اهتمامات وتساؤلات الباحثين والبعض الآخر لا يدخل. وقد رأى أن ما يهتم به الباحثون فى جــزء منــه لــه مرجعيتــه الشخــصية والتاريخية. وأيضا هناك بعض المشكلات التى تحتاج إلى أدوات وموازنــات غير متاحة، والبعض الآخر يتعلق بعناصر الخبرة السابقة التى تجعــل هــذه المشكلات جذابة أو غير جذابة. وأحيانا الإتيان بشيء شاذ من خلال الملاحظة التى تولد عملية تساؤليه ومراجعة للأدبيات تتسبب في النهاية فى قيام مجموعة من الناس باتخاذ قرار بأن هذه المشكلة جديرة بالدراسة.

وكان واضحا أيضا فى هذه النقطة أن الطلاب قد استمعوا إلى أفكار جديدة عليهم. ولم يأخذ معظمهم بعين الاعتبار مصفوفة الأفكار والخبــرات والبناءات التنظيمية والتاريخية التى تقدم السياق الذى يسأل من خلاله العلمــاء الأسئلة. ومع ذلك فقد تطابقت عبارات العالم الكيميائى جيدا مع الدراسات التى قام بها العديد من العلماء فى فلسفة العلــم **(Kuhn, 1962)** ومــع الدراســات الاجتماعية فى العلم **(Barnes, 1977; Barnes & Shapin, 1979; Latour & Woolgar, 1979; Rabinow, 1996; Traweek, 1992; Zabusky, 1995)**، وتوجد بعض الاعتبارات القليلة المقنعة لعملية التحديد العلمى لمشكلة البحث. وكان الاستثناء يتمثل فى الدراسة التى أجراها باول رابينو **Paul Rabinow** **(1996)**، والتى حددت قضيتها الرئيسية فى العلاقة بأحد الاكتشافات المهمــة الخاصة بعنصر **DNA**. وهذا الموضوع قد اتخذ الآن الاهتمام المركزى فى مجال الدراسات العلمية والتكنولوجية.

وتميل عملية اختيار المشكلة إلى أن تتبلور في تصنيفات تحت عناوين الإبداع الفردى والنبوغ وغيرها، محولا العلم إلى قصة من البطولات Heroes الإنسانية، والتى، كما لاحظنا، هى عبارة عن قصة تتضمن التسلسلات الهرمية والأخلاقيات السلطوية، وقصة لعدد قليل من القادة والكثير من الأتباع. وقد حدد المحاضر أن هذه العملية تفجر الإبداع فى الفرد أو الفريق فى التفكير التقدمى للمشكلة وتحديدها بشكل كافٍ لذلك يستطيعون دراستها. فالفرد والفريق يعملان فى سياق اجتماعى محلى، ومن خلال الحوارات العلمية والاتصالات والاحتكاكات المستمرة حول العالم، والتى تضع المشكلات فى شبكة معقدة من الجوانب الاجتماعية والعقلية والمكانية.

وقد سأل الكيميائى الطلاب عن كيفية معرفة أى شخص أن المشكلة المختارة جديرة بالدراسة. ومرة أخرى ارتبك الطلاب. وقد حدد أن هناك الكثير من الاختبارات العقلية والموضوعية للنتائج التى تظهر من أشخاص معينين (عينة مجتمع البحث)، ولكن لا يوجد ضامنون بأن المشكلة فى حد ذاتها جديرة ببذل الجهد نحوها. وعلى أى حال يصبح الباحثون أو فريق العمل ملتزمين نحو دراسة المشكلة كحالة تتسم بخصائص الأولويات الفردية والبديهية والمفهومة بعمق والموارد المتاحة المطلوبة، والتى تشمل الأموال. وفى الغالب توجد أيضا نتيجة سلسلة من الأعمال السابقة، والتى تشكل من خلاله نشاط معين للارتباط.

وعندما يتم تحديد المشكلة وتقرير أن هناك أهمية كافية لدراستها، فإن القضية الثانية التى تشغل الباحثين تتمثل فى تصور كيفية دراستها. ويجب أن تسأل الجماعة نفسها حول البيانات التى يجب أن تتوفر لدراسة المشكلة المختارة. وقد حدد الأستاذ بدقة صعوبات تحديد البيانات من خلال إظهاره أنه ليس من الواضح تحديد ما هى البيانات التى ربما تكون مرتبطة

بالمشكلة موضوع الدراسة. ومن وجهة نظره فإن هناك العديد من الجهود القيمة التي تذهب نحو محاولة تقرير ما هي البيانات التي ترتبط بشكل مناسب بالمشكلة والتي يقتنع بها الباحثون الآخرون.

ومرة أخرى بدت الدهشة على الطلاب. فالغموض الذي يحيط عملية تكوين البيانات، وكمية المعالجة الاجتماعية التي تعتمد على فريق البحث العلمي، واعتماد الباحثين المحليين على شبكة واسعة من العلاقات ومحددات الأدوات والتمويل المحلي، كل هذه الأبعاد العلمية لم تبينها لهم المقررات العلمية الأساسية التي يدرسونها. لقد درسوا النظر إلى المنهج العلمي أساسا على أنه المواجهة الفردية لعالم من الحقائق، والصياغات الفردية للفروض وإستراتيجيات البحث والتجريب والتقارير. إنهم استمعوا إلى وجهة نظر فردية وراديكالية وبطولية حول للعلم، وأنهم استمعوا إلى البطل العلمي الذي أعطاهم قصة غير بطولية عن العلم، ومع ذلك فإنه مليء بالاحترام العميق لنشاط العلم.

وقد بدا عليهم أنهم مبهورون ومندهشون من فكرة أن البيانات يتم تحديدها أيضا، إلى أي مدى، بواسطة نوع من التجهيزات والمعدات المتاحة في موقع البحث. إن ما في متناول اليد يلعب دورا ما في تحديد ما هي البيانات التي يعتقد أن ذات صلة والطريقة التي يمكن بها جمع هذه البيانات. وقد رأى أن الطلاب غير مرتاحين بهذا، كما لو كان شكلا من الخداع بسبب مثالية العمليات العلمية التي يألفونها.

وقد ركز عالم الكيمياء أيضا على عدد كبير من القرارات عن كيفية توثيق المعلومات التي تم جمعها وتنظيم الأنشطة بين فريق الباحثين لجعلها أكثر كفاية ومعقولية. والفكرة أن عالم الكيمياء الحاصل على جائزة نوبل كان يعمل كقائد فريق، وحصل على منح وموازنات ككاتب ومؤلف، وناشط

اجتماعى فعال فى جماعات تنظيمية وتحريضية، كــان مدهــشا ومفاجــأة للفصل. وهذا التفاهم الذى يتم لتصميم النشاط الذى لا يتــسبب فــى انتهــاء جماعة الباحثين من الموارد قبل أن يتم الانتهاء من جمع البيانـــات، والتـــى يجب أن تكون أيضا جديدة. وبالطبع فإن هذا ليس خطأ الطلاب بسبب أنـــه دائما ما يلبى عدد قليل جدا الحاجة إلى كتابة المنحة أو الموازنة المطلوبـــة، وجمع الموارد وإدارة التجارب فى إطار الموازنة.

ومن خلال تأكيده على التماسك الفكرى والاجتماعى لجميـــع عناصـــر العملية العلمية، فقد رأى عالم الكيمياء أنه من الصعب تقرير متى تكتمل عمليـــة جمع البيانات. وقد حدد أن تقرير كمية المعلومات الكافية غالبا ما يكون موقفـــا برجماتيا وليس دائما ما يكون قابلا للتبرير فى مصطلحات مجردة. وربما يكون هذا القرار قائما على جهد وتعب، والبحث عن الموارد المالية والمادية والمؤقتة، أو الشعور بـــأن هناك بيانات كافية لقول أشياء أخرى يعتقد أنها عن المـــشكلة. وقد أدرك الطلاب أن وجهة النظر هذه أكثر غموضا عن عملية الانتهـــاء مـــن جمع البيانات فى العملية العلمية أكثر مما يتوقعون.

وعند هذه النقطة انتقل عالم الكيمياء إلى المرحلة الثانيـــة لـــصياغة الفروض أو التساؤلات. وقد أشار إلى أنه على الرغم من أن هـــذا النـــشاط يسترشد أساسا بمدى الإحساس بمشكلة معينة وربما بالفروض، وعندما يـــتم جمع البيانات وفحصها، وتصبح القضية كيف يمكـــن حـــساب مـــصفوفة أو توزيع أو بناء البيانات التى فى المتناول. وفى العلوم الطبيعية والبيولوجيـــة فغالبا ما يتم هذا الجزء من العملية من خلال النشاط الجماعى. ويـــتم غالبـــا صياغة العديد من الفروض المتنوعة من خلال نشاط العصف الـــذهنى مـــن خلال التفاعل الذى يتأثر بقـــراءة الأدبيـــات والمناقـــشات خـــلال البريـــد الإلكترونى، العلاقات التفاعلية بين الأشخاص والوحدات المتنوعة، وغيرهـــا من التفاعلات الأخرى.

ومن ثم سأل عالم الكيمياء الطلاب بالفصل كيف سيعرفون أنهم قد قاموا بصياغة فروض كافية. وقد ارتبك الطلاب لأن صياغة الفروض كشكل من السلوك كان واضحا أنهم لم يناقشوها فى مقرراتهم العلمية. وكانت الإجابة الواقعية والهادئة لعالم الكيمياء فى أن صياغة الفروض تكون زائدة over عندما لا تفكروا فى أى فروض كثيرة أو عندما تكونون متعبين جدا عند القيام بها. وقد اعتقد الطلاب فى البداية أنه يمزج، ولكن أصبح واضحا أنه لا يمزح. إنه كان يرغب فى أن يفهم الطلاب إن العلم ليس هو النشاط الذى يتخذ مكانه فى العالم المثالى الميتافيزيقى مع معلومات كاملة وتامة، وموارد لانهائية يتم الصرف منها، وجود كيانات إنسانية كاملة العقل والمنطق. إن العلم هو نوع من النشاط الإنسانى الذى يمزج مجموعة من التفاهمات البرجماتية بين كل العناصر الموجودة فى لحظة محددة.

فقد أراد عالم الكيمياء من وراء الجوانب البرجماتية فى الموقف أن يعمق الموضوع. ونحن نعتقد أنه رأى أنه لا يوجد وسيلة عقلية أو منطقية لمعرفة متى يكون أى شخص أنواعا بديلة من التفسيرات لتنظيم المعلومات فى تساؤل أو قضية. إن العالم أكثر تعقيدا مما نستطيع أن ندركه، ولذلك فإننا دائما ما نحاول أن نقترب من هذا التعقيد من خلال سلسلة من التسويات غير الكاملة. وعندما تكون متدربا فى معهد متخصص بواسطة مجموعة من العلماء فإن ذلك يزيد من احتمال أن يكون لديك تأثير قوى فى الحكم على كم عدد الفروض التى تعتبر كافية. إن الميل نحو التعقيد والخصائص الأخرى لهذه المجموعة، من المحتمل أن تربى عالما صغيرا على مستوى قياسى معين. ومهما يكن هذا الحدوث، فقد أشار عالم الكيمياء إلى أن هناك من لا يعرف كيف يرتبط كل ذلك، والوسائل الممكنة لكيفية حساب البيانات التى تم صياغتها. إن العلم مهما بلغت قوته فإنه لا يمكنه أن يتفوق على الظروف الإنسانية.

ومن خلال كلامه المحير تماما انتقل عالم الكيميــاء إلــى الخطــوة التالية، وهى اختبار الفروض أو التــساؤلات مقابــل البيانــات. إن إجــراء التجارب قبل البنائية **Restructured** مع وجود حلول ضعيفة ومحدودة فــى المعمل لم تعد الطلاب بشكل جيد لما قاله. ومن خلال خبرة الطلاب، كــان لكل الألغاز إجابات محددة، وقد حصلوا على درجات لحلهم هذه الألغاز مــع مجموعة من الموارد وفى كمية محدودة من الزمن. لقد عرفوا أن الإجابــة كانت موجودة، وأنهم اكتشفوها ببساطة. إن ممارسات التدريبات العلمية لــم تعدهم لأقل من النظرة المحددة لعالم الكيمياء.

وقد أشار إلى أن ترجمة الفروض إلى افتراضات قابلة للاختبار ومطابقة البيانات بالفروض تعتبر أنشطة معقدة وغامضة وخلاقة. وتحتاج سلسلة التعريفات والافتراضات إلى ربط المعلومات والفروض، وهذه السلسلة التى يتم بناؤها تعتبر قادرة على إقناع الآخرين بأن عمليات البحث والتفكير العلمى تعتبر ملموسة وواقعية ولذلك يتم تقبل نتائجها. وإجراء ذلك فى المواقف المعملية غالبا ما يكون من خلال عمليات جماعية مع عصف ذهنى سريع مع كثير من الأخطاء وخاصة الأنشطة[٢].

وعندما تقوم الجماعة بوضع التساؤلات أو الفروض فى قوائم وتصنيفات، فإنها تستطيع التفكير فى المقابل فى جمع البيانات وتنظيمها، وقد قال المحاضر إن أفضل نتيجة ممكنة هو أن لا تلغى الجماعة كل التوضيحات أو التفسيرات التى وضعتها فى صورة مبدئية. والأمل هو أن يكون هناك على الأقل واحد متروكا. وفى الغالب فإن ذلك لا يحدث وأن الجماعة يجب أن تتعود على عملية صياغة الفروض بسبب أنه لا يوجد أى من الفروض متروك واقفا. وبديلا لذلك فربما لا تقدم البيانات الأساس للاختيار من بين التفسيرات البديلة، وأن التجربة تحتاج إلى إعادة صياغتها.

وفى هذه النقطة فقد أظهر الطلاب ارتياحهم بسبب أن هذه البداية تبدو أنها مثل نوع العلم الذى حددوه معه. وفى نهاية هذه العملية كان للجماعة تفسيرات صحيحة وصادقة. ولكن لم يكن عالم الكيمياء من بينهم. وقد شرح لهم أنه إلغاء بعض الفروض لا يعنى أن الفروض المتبقية يمكن البرهنة عليها.

ولعمل هذه المناقشة فلم يبدُ عليه أنه معارض لهم. وقد أشار إلى أن هذه العملية الأولية لصياغة الفروض تعتبر غير محددة، وإن الإحساس بأنه يوجد دائما إمكانية لوجود فروض لم تفكر الجماعة فيها وفى أن الموارد المالية والبشرية محدودة، وهنا أصبح متوافقا. ولو تم ترك أحد الفروض بعد الانتهاء من تطبيق عملية الاختبار، فإنه من الممكن أن يقول شخص ما إن التفكير فى الافتراضات على الأقل أحدهم ضعيف. وربما يكون ضعيفا أو غير صحيح فى المستقبل، وربما يتم صياغة الفروض الأفضل للأخذ فى الاعتبار البيانات مستقبلا. لذلك فلا نستطيع القول إن التوضيح أو التفسير المتبقى صحيحا، ولكنه يعتبر ببساطة واحدا من هؤلاء الذين يتم التفكير فيها.

وقد انتهت الخمسون دقيقة. وقد بدا فصل جرينوود مشرقا، وكان هناك تقدير واحترام للمحاضرة، وبدلا من السرعة المألوفة فى الخروج والصخب والضوضاء فقد غادر الطلاب الفصل بهدوء وصمت. وقد قدم عالم الكيمياء محاضرة رئيسية، ولكن الأكثر أهمية أنه نقل رأيه عن العلم كشكل من الفعل الإنسانى، والذى يتضمن التعقيد والغموض وديناميات الجماعة وبعض الامتيازات Concessions البرجماتية لبعض الحدود التى يفرضها الوقت والموارد المتاحة. وبدلا من التقليل من العلم أو التقليل من غموضه، فقد ساعدتنا وجهة نظره على فهم أن العلم هو وسيلة للتصرف ووسيلة للعمل والتفاعل ترتبط بالعالم الإنسانى والعالم المادى، والذى ينتج عنه تحسينات

ملحوظة فى فهمنا لكيفية عمـــل هذه العوالم وفى قدرتنـــا على تغييـــر حالة هذه العوالم. وتتركز الممارسات العلمية الجيدة على الدوائر الراسخة من التفكير والعمل.

وإلى حد بعيد لم يذكر عالم الكيمياء عند أى موضوع أنه كان يتنبـــأ. وعلى الرغم من أنه كان واضحا أن التفسير أو الشرح الجيد يمكن أن يستخدم فى توليد فكرة مسبقة عن الوسيلة التى يجب أن يتم بها تنظيم البيانات لو كان الشرح مفهوما، إنه لم يركز على التنبؤ فى حد ذاته كعنصر أساسى فى العلم، ولكنه بالأحرى ركز على الشرح. ولكن وجهة نظره المتعقلة كانت فى الغالب تعادل بين العلم وبين التنبؤ. ونحن نعتقد أن عالم الكيمياء كان صادقا عنـــدما ركز بعمق على أن التنبؤ يعتبر محكا أساسيا للعلم.

وقد سعى عالم الكيمياء إلى توضيح مجموعات أو منظومـــات مـــن البيانات. ويعتبر التنبؤ بمنظومة متوقعة من البيانات تحت ظـــروف معينـــة وسيلة قوية لاختبار التفسيرات، ولكن الهدف هو عمل التفسير الذى يعطـــى فهما ومعقولية. والوسيلة الأخرى للتنبؤ، والتى تستخدم استخداما بناءً تكـــون عندما يصمم المهندسون، عند محاولتهم حل مشكلة معينـــة، جهـــازا أو أداة يتنبأون بأنه سوف يحل مشكلتهم. وهنا يكون التنبؤ عبارة عن رؤية يملكون من خلالها نتيجة نموذجية، والتى توجه عمليتهم التنموية.

والتنبؤ أداة تستخدم فى هذه الجهـــود، واســـتخداماتها تتنـــوع وفقـــا للظروف. وتحت بعض الظروف فإن التنبؤ فى الشعور العادى يعتبر خارج التساؤلات، كما فى الدراسات التاريخية فى النـــشوء والارتقـــاء[٨]. وتحـــت الظروف الأخرى فإن التنبؤ يتخذ شكل التعميمات الإحصائية عـــن قطـــاع ضخم من السكان، ولا يستطيع أن يصور بدقة ما يحدث فى أجزاء معينة من هذه القطاعات من السكان. وفى مواقف أخرى فإن النشاط التنبؤى يأخذ شكل

التدخل فى الظاهرة تحت الدراسة لتغيير حالتها فى اتجاه مرغوب. وهذا بالضبط ما تفعله الدراسات التجريبية فى العلم، وما تستهدف تحقيقه بحوث الفعل فى العالم الاجتماعى.

وقد تطابقت وجهة نظر العالم الكيميائى بشدة مع خبراتنا عن العلماء والمهندسين فى العمل. إنها وضعتهم كفاعلين إنسانيين، وكمركز فى أنشطة البحث الاجتماعى والتى تعتبر علما. وقد جعل من الواضح أن العلماء والمهندسين ليس لهم أدوار فى النظم المجردة والمثالية والمحددة تماما. وقد نقل عالم الكيمياء للطلاب أن المنهج العلمى هو شكل من السلوك الاجتماعى، شكل ليس سهلا ولا مضمونا، ولكنه شكل يستخدم القدرات الإنسانية لافتراض تساؤلات ومحاولة اختبار هذه التساؤلات من خلال استقصاء اجتماعى وعقلانى. وقد أكد على الحاجة إلى الاعتراف بالفجوات المهمة والعيوب فى أى عملية من هذا النوع، كما أكد أن الحكم الإنسانى والإبداع والتفاعل الاجتماعى يعتبرون جزءا جوهريا ومهما فى العملية.

وقد أكد مرارا وتكرارا على أن العلم هو نشاط جمعى يتم تنفيذه بواسطة أعضاء فرق البحث داخل مجتمع علمى كبير. وهذا المجتمع الكبير يقدم المادة العلمية التى يبنى على أساسها البحث بدرجة ما، وأيضا الموارد التى تستخدم فى تنفيذ البحث. ويقوم فريق البحث والمعمل بتكوين نسق اجتماعى معقد من الناس الذين يتفاعلون فى الظاهرة ويسهمون بأفكارهم فى الحدود البرجماتية بواسطة الموارد الأساسية المتاحة والعلاقات الإنسانية الدينامية المتضمنة.

العلم هو بشر فى فعل Science is Humans In Action:

هناك الكثير مما نتعلمه من خلال هذه القصة، ولكننا نريد أن نركز على الأبعاد الثقافية والاجتماعية للنشاط العلمى، والذى نظهره من خلال هذه

الوسيلة من عرض الأسلوب العلمى. فليس فقط ما يخرج به العلماء من نتائج ويحصلون على موازنات ومنح ويكتبون تقاريرهم على أساس تعاونى، ولكن أيضا المعامل الذين يعملون من خلالها تعتبر أنساقا اجتماعية تتضمن فريق عمل وتوزيع العمل على الأعضاء (**Adams, 2004; Latour,1987; Latour & Woolgar, 1979; Zabusky, 1995**). وتتميز أنشطة هؤلاء العلماء غالبا بالجهود التعاونية لحل المشكلة لأنهم يعملون فى جماعات ويستخدمون كلا من التسجيلات (السجلات) الحالية والتى تجعلهم أيضا يكتبون سجلات البيانات عن الآخرين. ويعتبر العصف الذهنى هو النشاط الشائع فى هذه الجلسات، وغالبا ما تكون عملية جمع البيانات أيضا نتاجا لجهود فريق العمل. وغالبا ما تتخذ عملية صياغة التساؤلات والفروض مكانا متميزا فى الجماعة مع الأشخاص الذين يسألونهم واحدا تلو الآخر. إن العلم الجيد هو عبارة عن نشاط اجتماعى بارز، كما يظهر ذلك بوضوح فى مجال الدراسات العلمية التكنولوجية.

وغالبا ما يكون العلم أيضا عبارة عن نشاط تدخلى **Interventionist activity**. ومعظم التجارب هى عبارة عن شكل ما من التدخل المصمم للكشف عن المبادئ والأسباب التى تقلقهم وتتسلط عليهم بوسيلة ما وتوقع كيف سيغيرونها كنتيجة لهذا التدخل.

والعلم هو نشاط استرجاعى **Iterative** ودينامى يتضمن دوائر الفعل وردود الفعل. إن كمية الوقت التى تستغرقها النتائج متعددة المرجعية **Cross-referencing** مع التوقعات، واختبار وإعادة اختبار ملائمتها أو كفاءتها، والتعامل مع البيانات للوصول إلى تأثيرات أفعال معينة فى علاقتها بالتوقعات عن كيفية التصرف فى البيانات يعتبر من أهم الخصائص السائدة للعلم. إن دوائر الفكر والفعل حول كل منهما يتكرر كما يحدث بشكل ضرورى فى بحوث الفعل.

وتتشابه بحوث الفعل بدرجة كبيرة فى استخدامها لدوائر الفعل والفكر واختبار التفاهمات التعاونية التى تتولد من خلال الأفعال التى تعتبر بالتالى جزءا من الدائرة التالية من التفكير والتخطيط. وفى المقابل فإن العلوم الاجتماعية التقليدية التى تنفصل عمديا عن عالم الفعل ليست مثل ذلك.

وهذه الأحوال ليست كما يتم عرضه، ولكن دعوة لإعادة التفكير فى تاريخ وتطور البحث الاجتماعى. إن خبراتنا فى الدوائر التعاونية للتفكير والفعل فى بحوث الفعل تتطابق مع عرض عالم الكيمياء لخبراته كعالم. ونحن نشجعك على أن تتوقف وتتعجب من سبب سيطرة العلوم الاجتماعية التقليدية على مجتمعنا، وادعائها بأنها غطاء العلم، ومع ذلك فإنها لا تشبه ما يفعله العلماء.

الخلاصة:

لقد طورنا فى هذا الفصل مقارنة علمية منظمة بين أسلوب المنهج العلمى الذى ينتشر فى العلوم البيولوجية والطبيعية والدوائر الاسترجاعية (المتكررة) للفعل ورد الفعل التى تميز بحوث الفعل، من خلال استخدام المحاضرة القصصية عن العلم كمحور مركزى **Centerpiece**. وقد أشرنا إلى أن العلوم الاجتماعية التقليدية لا تشبه العلوم البيولوجية والطبيعية ولا بحوث الفعل، حيث إنها تفصل بين العلاقة بين الفعل ورد الفعل. وفى الفصل التالى سوف ننتقل إلى المناقشات الفلسفية التفصيلية عن بحوث الفعل كشكل (كنموذج) من العلوم الاجتماعية.

الهوامش

١) ربما يكون موضوع أن الاتجاهات التفسيرية واتجاهات ما بعد الحداثة فى البحث الاجتماعى فى الجيل الحالى قد حولت خلفياتها على أساس مكانة العلم، ونحن نعتقد أن مثل هذه المحاولات قامت على أساس الفهم الفقير والنمطى للعلم، ولذلك بنت تراجعها على أساس وصفها بأنها متقدمة. وكانت بعض الاستثناءات لكل من **Fuller (2001); Latour & Woolgar (1979); Rabinow (1996); Zabusky (1995)**

٢) أحد ردود الفعل الشائعة على مناقشتنا من القراء المهتمين ببحوث الفعل كانت تتمثل فى رؤيتهم ذلك على أنه أخبار سيئة. وظاهريا كجزء من عملية بعدهم عن العلوم الاجتماعية التقليدية فقد أصبح بعض الممارسين بعيدين عن فكرة العلم أيضا. ونعتقد أن ذلك خطأ. فكونك علميا ليس معناه أنك تسير فى اتجاه غير إنسانى. ويكون الفعل الاجتماعى أقرب احتمالا لأن يكون غير إنسانى عندما يقوم على أساس ممارسات بحث فقيرة وفهم ضعيف للمواقف المحلية. ونحن نعتقد أن الصفات غير الإنسانية والسلطوية للبحوث الاجتماعية التقليدية تعتبر عناصر تعوقها عن الكشف عن معظم المشكلات الاجتماعية وإيجاد الحلول لها.

٣) إن القراء الذى يرفضون هذه النقطة يحتاجون إلى قراءة ليست أبعد **no farther** نظرا لأننا نرفض النسبية الراديكالية التى ترى أن كل المعرفة على حد السواء مخترقة وبها خلل.

٤) نظرا لأن أحد الانتقادات لبحوث الفعل من الباحثين الاجتماعيين التقليديين، والتى تتمثل فى أننا مجرد رواة للقصص فقط، فإننا نعتقد أن رواية القصة مع الأخلاقيات الحادة جدا للعلماء الاجتماعيين التقليديين تعتبر مناسبة هنا.

٥) وهذا الادعاء هو تكرار قريب للرأى الذى اعتنقه كل من كريس أرجيريس وروبرت بوتنام وديانا سميث (١٩٨٥) فى "علوم الفعل). ولهؤلاء الذين يهتمون بالآراء حول هذه القضايا النابعة من اتجاهات متنوعة عليهم أن يقرءوا الفصل الخامس عشر عن "علوم الفعل والتعلم التنظيمى" والكتابات المركزة لكريس أرجيريس.

٦) كان المحاضر هو روالد هوفمان Roald Hoffman، وهو أستاذ فـــى الخطـــاب الإنسانى بجامعة كورنيل. وقد تحمل جرينوود المسئولية الكاملة لأى ترجمــة غيــر دقيقة للخطابات التى عرضها هوفمان.

٧) أحد الأبعاد المرتبطة بالعلم كشكل من الفعل، والتى لم يتم تناولها فى المحاضرة هــو الكمية الواضحة من الأخطاء والصعوبات التجريبية والإصلاحات التى يجب القيــام بها فى أى عمل علمى. ويعلم معظم العلماء ذوو الخبرة أن العلم هو مزيج من قليــل من الفهم العميق والاكتشافات وكمية هائلة من الروتين والملل، وغالبا العمل المعملى المحبط. فالإصلاحات والإيجابيات أو السلبيات المضللة والارتباكات والفوضى تعتبر كلها جزءا من الروتين اليومى للعمل العلمى.

٨) أحيانا ما يستخدم مصطلح الأداء الاسترجاعى retrodiction ليشير إلى محاولات بناء التوقع عن العمليات الماضية خارج الصياغة النظرية، ومن ثم مقارنة النتيجــة المتوقعة مع ما حدث تاريخيا. وهذا يبدو لنا ببساطة على أنه معنى آخر للتنبؤ، وإن كان نوعا مفيدا.

الفصل السادس

البحث فى العلوم الاجتماعية الأساليب، ونماذج العمل، واستراتيجيات البحث فى بحوث الفعل.

يدور اتجاهنا الفكرى حول بحوث الفعل (AR) على فهمها كإستراتيجية بحثية تستفيد من العديد من الأساليب المستخدمة فى البحوث الاجتماعية التقليدية، ولكن مع اختلاف طريقة وعملية البحث ككل وتميزها. ولتحديد موقفنا بدقة فإننا نضع الآن بحوث الفعل داخل منظومة واسعة من ممارسات العلوم الاجتماعية بصفة عامة. وبالطبع فسوف ندعو باحثى الفعل الذين يعتقدون أن بحوث الفعل هى بحوث مختلفة تماما عن علوم البحث لتحديد آرائهم مكتوبة والاستجابة بطريقتنا لمناقشة هذه القضايا.

إن فكرة أن بحوث الفعل منفصلة عن كل اتجاهات البحث الاجتماعى المتاحة لا يمكن تبريرها عمليا، منذ أن أظهرت لنا الكتابات المتعددة فى أدبيات بحوث الفعل مدى تطور العديد من طرق وأدوات البحث العلمى التقليدى. ومفهوم بحوث الفعل كممارسة بحث مستقلة يعتبر أيضا مضللا من الناحية التاريخية. لقد بدأت العلوم الاجتماعية نفسها كنوع من الارتباط الاقتصادى السياسى، والذى استهدف الإصلاح الاجتماعى. ولكن عندما انقسمت العلوم الاجتماعية إلى مجموعة من العلوم والمعارف التقليدية المتنوعة الموجودة حاليا وتعرضت للمضايقات والتطهير **Purges**، نظرا لأن مذهب الفعالية الاجتماعية أدان بقوة ما فعلته العلوم الاجتماعية من انفصالها عن الفعل. لذلك تعتبر بحوث الفعل أكثر قربا من شكل العلوم الاجتماعية

الأصلية وتوجيهاتها من autopoietic العلوم الاجتماعية التقليدية. ونحن نرى هذه العلوم الاجتماعية التقليدية على أنها اشتقاق فقير، حتى وإن كانت علوم متطورة ومعقدة نظريا ومنهجيا، ونحن نعتقد أن بحوث الفعل هى الوريث الشرعى للعلوم الاجتماعية الأصلية.

والعيب الآخر الذى ظهر من اعتبار أن بحوث الفعل نوع منفصل عن البحث العلمى فى أنه سمح لباحثى الفعل الذين أكدوا على تميز وتفرد وعزلة بحوث الفعل بالادعاء بأنهم أصبحوا غير مؤهلين لاستخدام الطرق الكمية والكيفية الموجودة فى البحث العلمى بوجه عام. ونحن نعتقد أن هذا وضع خطير لأننا نعتقد أن باحثى الفعل يجب أن يكونوا على كفاءة عالية فى جميع أساليب البحث الاجتماعى الرئيسية، والنظريات وأيضا الطرق القليلة وأشكال Forms العمل (مثل المؤتمرات البحث، ومؤتمرات الحوار والمصفوفات المتنوعة)، والتى تترافق بقوة مدارس معينة فى بحوث الفعل. وقد أصبح لدى باحثى الفعل تدريبًا شاملاً أكثر من زملائهم الباحثين الاجتماعيين التقليديين. والتدريب على بحوث الفعل كاتجاه متميز للبحث يربك هذا المتطلب.

البحث الاجتماعى التقليدى وبحوث الفعل:

ولكى ننظم مناقشتنا نبدأ بالمقارنة بين البحوث الاجتماعية التقليدية وبحوث الفعل. ونحن نتحدث قليلا جدا عن البحوث الاجتماعية التقليدية على أساس أنها مألوفة لدى القراء، ولكننا نستخدم هذه المقارنة لإلقاء الضوء للتشابهات والاختلافات بين البحوث الاجتماعية التقليدية وبين بحوث الفعل.

وقد وجدنا أنه من المفيد الحديث عن التنوعات البحثية كإستراتيجيات بدلا من محاولة تقليصها فى مجموعة افتراضات وأساليب وأهداف معينة.

وكل أنواع البحث تتضمن حدا أدنى من التكنيكات الفردية، ونماذج العمل، وإستراتيجيات البحث الثابتة فى مجموعة من الافتراضات الأساسية (المسلمات) المعرفية والنظرية والمنهجية.

إن ما نناقشه فى الجزء التالى أمكن الوصول إليه من الكتب الأخرى التى تدخل تحت عنوان "الطريقة **Method**" أو "المنهجية **Methodology**". وهناك تعريف قياسى للمنهجية فى كتاب سكواندت **Schwandt (1997a)** على النحو التالى:

> **[المنهجية هى نظرية] كيفية التقدم أو السير فى البحث أو الاستقصاء. إنه يتضمن تحليل المبادئ والإجراءات فى مجال بحث (استقصاء) معين، والذى بالتالى يحكم استخدام طرق محددة. إن دراسة المنهجية تتضمن الموضوعات الرئيسية فى فلسفة العلوم الاجتماعية (مثل التحليل والتفسير والنظرية السببية وغيرها) والأنثروبولوجيا الفلسفية (دراسة الطبيعة الإنسانية). (p. 93)**

ومهما يكن فقد كانت مثل هذه التوجهات الفلسفية نحو المنهجية تتسم بالشمولية والغموض المبالغ فيه، والتى تفصل أيضا المنهجية عن القيم. لذلك فقد فضلنا الابتعاد عن هذه الأفكار حول المنهج **Method** والمنهجية **Methodology** ونقوم بتنظيم مناقشتنا بشكل مختلف.

ونعتمد هنا على ثلاثة مفاهيم نستخدمهم للمقارنة بين بحوث الفعل والبحوث الاجتماعية التقليدية وفى التحديد الدقيق للخصائص الرئيسية لبحوث الفعل. وقد اخترنا أن نعرف الممارسات الواقعية فى البحث الاجتماعى على أنها "أساليب **Techniques**" (على سبيل المثال الأساليب القياسية للعلوم الاجتماعية توجد فى كتب وأدلة المنهجية التقليدية)، إن الارتباط بهذه الأساليب فى بناء مجالات التعلم "كنماذج عمل **Work Forms**"، وإن العملية الشاملة لقيادة هذه الأساليب ونماذج العمل فى بحوث الفعل فى مشروعات

البحث تعتبر إستراتيجيه بحثية. وبذلك فإننا نستخدم مصطلح إستراتيجية البحث لتحديد الاتجاه الذى نتناوله ككل، والذى يتضمن التكنيكات والأوضاع المعرفية والقيم المدافعة أو المجسدة فى عملية البحث (الاستقصاء). وفى النهاية قمنا بعمل مقارنة مختصرة عن الأساليب ونماذج العمل وإستراتيجيات البحث فى البحوث الاجتماعية التقليدية وبحوث الفعل.

البحوث الاجتماعية التقليدية:

الأساليب Techniques:

تعتمد البحوث الاجتماعية التقليدية على الأساليب التى تتركز بطريقة أو بأخرى على المعارف التى تفترض الفصل الحاد بين الباحث وموضوع البحث. ومن المؤكد أن يكون هذا الفصل ممكنا بل مرغوبا. ويتم إعطاء الباحث المكانة الأعلى والأكبر على جميع مفردات البحث (الأشخاص موضوع البحث) من خلال تميزه بالتدريبات النظرية والعملية والتعليم الذى يسمح أيضا للباحث التقليدى بتفسير ما يذهب إليه فى الموقف بمستوى أكثر عمقا عن أى مستفيد خارجى يفترض استطاعته. وهذه الاستقلالية فى التفسير بالنسبة للباحث ليست أقل حقيقة فى الفلسفة البنائية الاجتماعية عنها فى الفلسفة الوضعية.

نماذج العمل Work Forms:

إن رؤية البحوث الاجتماعية التقليدية تخلق مجتمعات محكمة من الباحثين الاجتماعيين المهنيين ويحول بقية العالم إلى موضوعات للبحث. ويمكن رؤية هذه الأفكار بوضوح فى نماذج العمل التى تجسد هذا النوع من البحث. وليس من المفترض أن يكون للمستفيدين المحليين أى تأثير على اختيار موضوعات البحث وأساليبه ولا فى صياغة فروضه وجمع بياناته وتفسيراته أو عرض نتائجه بعد طباعتها. ويقود الباحثون التقليديون سواء

كانوا أفرادا أو فريقا، كل أبعاد العملية العلمية للبحث. ومن خلال إبعاد المستفيدين المحليين من نماذج العمل والنماذج المعرفية، فإن الباحثين التقليديين يملكون النتائج نظرا لأن البيانات قد تم انتزاعها من مجتمع البحث، ويكون فقط لهذه البيانات معنى ودلالة عندما يتم التعامل معها بواسطة المتخصصين المهنيين فى البحث.

إستراتيجيات البحث:

توجد ردود فعل مستمرة فى البحوث التقليدية بمقدار تقدم واستمرار العملية البحثية. ويتم توجيه هذه العمليات بشكل أساسى نحو الارتقاء بالحد الأقصى لكفاءة وفعالية عمليات جمع البيانات وتحليلها والدفاع بقوة عن هذه العمليات. ولو كان هناك مساهمة فى ردود الفعل هذه بين الجميع، فإن المساهمة تكون من نظرائهم من الباحثين المهنيين المدربين. وفى نهاية المشروع يقدم العلماء الاجتماعيون التقليديون رد فعلهم فى معان ومضامين كبرى يعتقدون أنه من الممكن استخلاصها من المشروع، وأيضا من خلال سياق مجتمع المهنيين المناظرين. ولا يوجد أى إلزام عليهم لعرض النتائج على مفردات مجتمع البحث ويفترضون بشكل عام أن معظم هؤلاء ليس لديهم اهتمام بهذه النتائج ولا قادرين على فهمها، ومن المهم بشكل خاص بالنسبة لنا أن العلماء الاجتماعيين البنائيين لا يوجد لديهم أى مشكلة فى اتخاذ العلاقة الفوقية على مفردات مجتمع البحث كأمر مسلم به.

إستراتيجيات بحوث الفعل:

الأساليب:

إن كل طرق العلوم الاجتماعية المعروفة قابلة للتطبيق فى كل مشروعات بحوث الفعل، ما دام أنها توضع فى سياق التوافق مع قيم البناء الديمقراطى والمشترك للمعرفة. وفى إطار وجهة النظر هذه فجميع الكتب فى

العلوم الاجتماعية التى تناولت المنهجية تعتبر مصدرا رئيسيا للأدوات التـــى يتم الاختيار منها.

نماذج العمل:

نشأت بحوث الفعل بواسطة كل من أساليب العلوم الاجتماعية ونمـــاذج العمل التى تزيد من القدرة على البناء التعاونى لساحات التعلم. ويرجـــع بـــاحثو الفعل بشكل منظم إلى الأدبيات والتطبيقات التى تناولت التغير والنمو التنظيمـــى (انظر: Cummins & Worley, 2001) وإلى ما حددناه بالفعل على أنه الأساليب التى تم إنتاجها فى بحوث الفعل نفسها (مثل مـــؤتمرات البحـــث، ومـــؤتمرات الحوار، والمصفوفات المتنوعة). وقد تم تحديد هذه الاتجاهات فى كتاب ليفـــين وكليف (٢٠٠٠) على أنها نماذج عمل لبناء ميادين التعلم. وفى بحـــوث الفعـــل فإننا نجعل نماذج العمل والطرق العلمية تتفاعل طوال مشروعات بحوث الفعـــل لخلق فرص تعلم طبيعية لكل من الداخليين والخـــارجيين. وتـــستخدم الطـــرق والأساليب الفنية للعلوم الاجتماعية فى تشكيل الخيارات فى بناء ميـــدان الـــتعلم، وتستخدم طرق البحث التحليلية فى فهم عملية التعلم التى تتبع من أنشطة التغيير الواقعية ولدعم عملية بناء المعنى. إن العملية الجدلية بين التغيير وانعكاساته التى تقوم على أساس منهجيـــة العلـــوم الاجتماعيـــة تمثـــل الديناميكيـــة الأساســـية لإستراتيجيات بحوث الفعل.

إستراتيجية البحث:

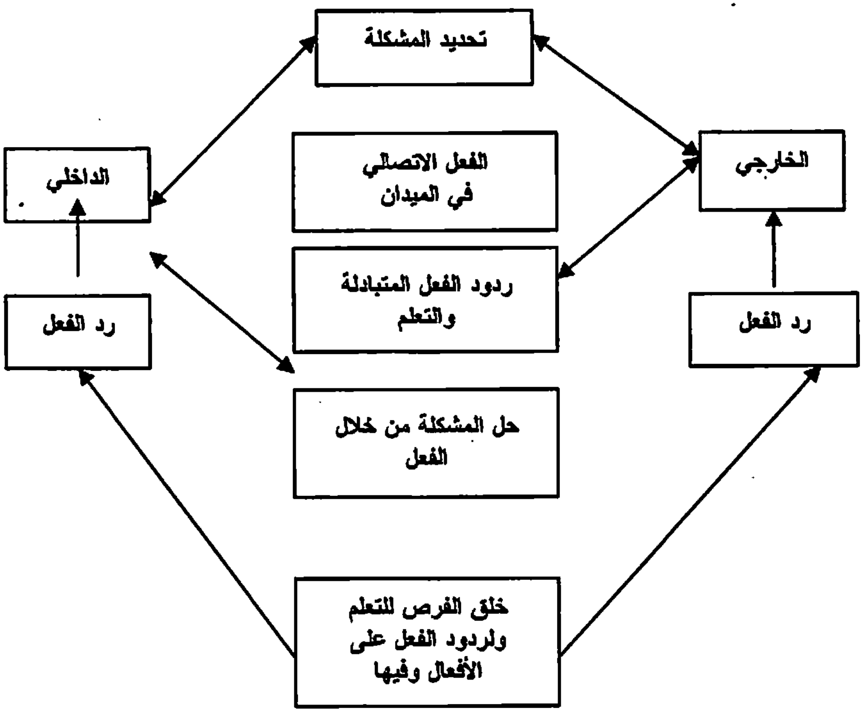
عندما نقوم بإنشاء مشروعات بحوث الفعل فإننا لا نختار فقط الطرق أو المناهج ولكننا يجب أيضا أن نخطط تخطيطا شموليا للتغيير الاجتمـــاعى ولعمليات التعلم التى تحدث طوال فترة المشروع. وتستهدف عمليات بحوث الفعل توفير بيئة تعليمية لكل من أصحاب المشكلات والباحثين المهنيين. إن بناء المعرفة، والذى من المتوقع أن يحقق مكاسب لكلا الجانبين، يقوم علـــى

أساس طرق البحث فى العلوم الاجتماعية المتاحة ككل وأيضا معارف وخبرات جميع المستفيدين فى عملية جيدة الإدارة للإنتاج التعاونى للتعلم. وهذه التبادلية تمثل قيمة ديمقراطية أساسية فى بحوث الفعل، وتعطى بشكل خاص صوتا للمشاركين وترسخ قيم حرية وحق وواجب المشاركين لتحمل جزءا من عملية بناء المعرفة. إنها تمنح الملكية والتمثيل المشترك فى تصميمات الفعل والمعرفة المشتركة.

نموذج الإنتاج التعاونى The Cogenerative Model:

يمكن التفكير فى بحوث الفعل على أساس أنها عملية تتكون على الأقل من مرحلتين منفصلتين تحليليا. تتضمن المرحلة الأولى توضيح قضية أو تساؤل البحث الأولى بينما تتضمن الثانية بدء عملية التغيير الاجتماعى وعملية بناء المعنى **Meaning** واستمرارهما. وهذا لا يعنى أن عملية تحديد المشكلة عملية نهائية، وفى الحقيقة فإن الإشارة الجيدة إلى التعلم الذى يتخذ مكانه فى مشروع بحوث الفعل يكون عندما يتم إعادة تشكيل التساؤلات الأولية لكى تتضمن أبعادا مكتشفة حديثا.

ويمكننا توضيح نموذج الإنتاج التعاونى من خلال الشكل رقم (٦-١)، والذى نتبعه بمناقشة العناصر التى تكون نموذج الإنتاج التعاونى.



شكل رقم (٦-١) نموذج الإنتاج التعاونى لبحوث الفعل

ويتضمن هذا النموذج جماعتين رئيسيتين فاعلتين. جماعة الداخليين وهما محور اهتمام أى مشروع لبحوث الفعل. إنهم أصحاب المشكلات ولكنهم غير متجانسين أو متساوين، وعلى أى حال ليسوا جماعة نموذجية. إنهم ببساطة أصحاب المشكلات. أما الخارجيون فهم الباحثون المهنيون الذين يسعون إلى عملية تعلم تعاونية تستهدف حل المشكلات المحلية، ويقدمون المساهمات إلى المحاضرات والمقالات العلمية. وكلا الخارجيين والداخليين متساوون ومختلفون. إنهم مختلفون نظرا لأن معظم الداخليين يتعايشون مباشرة مع نتائج أى نشاط تغيير فى المشروع، بينما يغادر معظم الخارجيين. والاختلاف الآخر يتمثل فى أن للخارجيين التأثير الرئيسى والمركزى على كل ما يركز عليه النشاط البحثى.

تحديد المشكلة Problem Definition:

يجب أن يكون لأى تساؤل أو مشكلة أهميـــة عظيمـــة للمـــشاركين أو للعملية التى سوف تذهب إلى أى مكان **nowhere**. وعندما يتحقق ذلـــك فإنه سوف يكون له قوة إضافية من خلال استخدام نمـــاذج مـــن المعـــارف المهنية ذات العلاقة فى المجال، كما فى حالة الثقافة التنظيمية فى مـــشروع موندراجون (انظر الفصل ٣).

ونحن هنا نناقش أن عمليات بحوث الفعل تتعامل مع حل المشكلات المرتبطة بالمشاركين. وفيما يتعلق بذلك فإن عملية البحث ككل تتبـــع مـــن المطالب التى تظهر خارج المجال الأكاديمى. وهذا ما يختلف مـــع العلـــوم الاجتماعية التقليدية، والتى من خلالها يتم تحديد مـــشكلة البحـــث بغـــرض إحداث التطورات فى فروع العلوم بقدر مـــا ترغبـــه القـــوى الاجتماعيـــة الرئيسية. ومع ذلك فإن المهنيين فى بحوث الفعل لا يقبلون تماما بنوع مـــن التهور أى صياغة للمشكلات يقدمها المشاركون المحليون. ونحن نـــرى أن عملية تحديد المشكلة هى أول خطوة فى عملية التعلم التبادلى بين الخارجيين والداخليين. ولتسهيل العملية التى من خلالها يتم توضيح معرفة الداخليين فى علاقتها بمعرفة المهنيين الخارجيين، ويجب أن تسمح إجـــراءات ووســـائل الاتصال بتنمية الاتفاق التبادلى بين الطرفين على المشكلة. وتـــشمل هـــذه الإجراءات قواعد الحوار الديمقراطى الذى يتضمن الانفتاح والدعم المتبادل واقتسام فترة البث **air time**. إن أول تعريف عامـــل **working definition** للمشكلة تحت الدراسة يأتى من الحوار، والذى من خلاله تنتج معارف كـــل من الداخليين والخارجيين فهم متبادل وجديد من خلال اتصال كلا الطرفين.

ميادين الاتصال Communication Arenas:

إن القدرة على إيجاد مجال لعمليات التعلم والتـــى تنـــتج تفـــسيرات وتصميمات للفعل يثق فيها المشاركون تعتبر أساسية لعملية الإنتاج التعاونى

فى بحوث الفعل. ولتحقيق هذا الهدف فإن ساحات الاتصال بين الجماعات الفاعلة يجب تصويرها بوضوح كما فى شكل (٦-١). وهناك العديد من المواقع التى يواجه فيها الفاعلون بعضهم البعض فى جلسات مادية بغرض إجراء بحوث الفعل. ويمكن من خلال الساحة إجراء المقابلة بين اثنين أو أكثر من الناس، وجلسة بناء الفريق، ومؤتمر البحث، ومقابلات قيادات تنفيذ المهام، واجتماعات قيادات الجماعات، أو مقابلة العامة فى المجتمع. والنقطة الرئيسية هنا هى أن ساحة إجراءات الاتصال تتخذ مكانها فى البيئة الإنتاج التعاونى للتعلم والبحث التى تم بناؤها.

إن التحدى الرئيسى الذى يواجه أى مشروع بحث فعل هو تصميم ساحات مناسبة للاتصال حول المشكلات الأكثر أهمية للمشاركين المحليين. ويجب تصميم الساحات بحيث تتلاءم مع الاحتياجات المطلوبة لموضوع المناقشة. ولا يوجد اتجاه لتحديد حجم واحد مناسب لكل الأغراض. فإذا كان الغرض هو اجتماع كل أعضاء المنظمة فى عملية تطور تنظيمية، فإنه من الذكاء بوجه عام جمع كل الأعضاء فى حجرة واحدة لوضع الخطط لمشروعات جديدة. ومن ناحية أخرى فإن التعامل مع الصراعات التى تحدث بين مديرى أى منظمة من الأفضل أن ينصب على شكل جماعة القيادة. ويعتمد اختيار أو بناء الساحة المناسبة على المهارات المهنية للميسرين فى بحوث الفعل وخبراتهم، وأن الاختيارات المناسبة والجيدة تعتبر حيوية لأى مشروع ناجح من مشروعات بحوث الفعل.

وفى هذه الساحات فإن الاتصال بين الداخليين والخارجيين يهدف إلى إنتاج التعلم وفتح عملية لعرض ردود الأفعال حول الأجزاء المتضمنة. وتعتبر هذه المناقشات وردود الأفعال هى المحرك لحلقات التعلم المستمرة. ويقترح التركيز المبدئى على المشكلة تصميم ساحة للحوارات والمناقشات. وتنتج عمليات الاتصالات المتتالية التفاهمات التى تساعد فى التحرك نحو حل المشكلة، وتكوين خبرات جديدة لكل من المشاركين الداخليين والباحثين المهنيين.

إن المحادثات والمناقشات التى تأخذ مكانها فى هذه الساحات ليست متوازنة. فالمشاركون الداخليون يملكون فهما واسعا لظروفهم المحلية أبعد كثيرا عن ما يستطيع أن يصل إليه أى خارجى، وخاصة إذا لم يكن يقيم فى مجتمع محلى معين أو منظمة معينة. وأيضا فإن الباحث الخارجى يأتى بمهاراته وآرائه التى غالبا ما تكون غير موجودة فى السياق المحلى، والتى تتضمن معارفه عن كيفية تصميم عملية التعلم وإجراءاتها وعملية إدارة ردود الفعل.

إن عدم التناسق فى المهارات والمعرفة المحلية يعتبر من القوى المهمة فى الإنتاج التعاونى لتفاهمات جديدة كنوع من الارتباط بين كل الأطراف لتكوين مفهوم واضح عن الموقف. وأيضا توفر النماذج الديمقراطية فى بحوث الفعل العملية التى من خلالها تطلق الحرية للخارجيين للضبط لذلك يستطيع الداخليون أن يتعلموا ضبط وتوجيه عملياتهم التنموية الخاصة بهم. وهذه النماذج ترتقى أيضا بتطور قدرات الداخليين للإبقاء على حواراتهم الداخلية الأكثر تعقيدا مع مجموعة أكثر تنوعا من المشاركين عن أن يكون لديهم الحالة بدون هذه المجموعة من خبرات التعلم.

إن مواقف عدم الاتساق بين الداخليين والخارجيين **(Markova & Foppa, 1991)** تقع فى مركز التبادلات الاجتماعية المعقدة. ويقوم الخارجى بتصميم جلسات التدريب التى تجعل إمكانية تحويل المعرفة ممكنة، ويستخدم تأثيره فى توجيه العملية التنموية. وعلى الرغم من عدم امتلاك الباحث الخارجى للوضع الرسمى فى الهرم التنظيمى، فإنه يبذل الجهود للتأثير من خلال توقعات المشاركين الذين يلعبون الدور الأكبر فى تصميم عمليات التغيير وإدارتها. إن التعامل بأمانة وانفتاح مع قوة هذه التوقعات الممنوحة للباحث تعتبر التحدى المركزى فى عمليات التغيير فى بحوث الفعل. ولهذا تأثير كبير على تطور عمليات التعلم المحلية، ومن السهل إساءة استعمال هذه القوة.

وفى بداية عملية البحث يتخذ الباحث الخارجى القرارات ويعلم المشاركين المحليين ويدربهم على أساليب التعامل مع المشكلات التى تعتبر مهمة بالنسبة لهم. وفى نفس الوقت يكون الباحث الخارجى مستجيبا لتشجيع المشاركين الداخليين على اتخاذ المواقف المناسبة لضبط العملية التنموية. إن التزام الباحث الخارجى نحو إطلاق الجماعة قريبا من النهاية، أحيانا يكون صعبا لتحقيق المتوقع منه، ولكن فى الغالب يكون ذلك أسهل فى تحقيقه من تنمية قدرات المشاركين المحليين على ضبط وتوجيه العملية التنموية المستمرة طبقا لاهتماماتهم.

ولكى يصبح المشاركون لاعبين فعالين فى عملية التغيير فلابد أن يتدربوا على القوة ويمارسوها. إن عدم الاتساق الأولى بين الباحثين الخارجيين والمشاركين الداخليين يمكن أن يصل إلى التوازن فقط عندما يتم تحويل المعرفة والمهارات من الباحثين المهنيين إلى المشاركين الداخليين ونقل المعلومات والمهارات من المشاركين الداخليين إلى الباحثين الخارجيين. وفى النهاية لتعزيز هذه العملية فلابد أن يضطلع بها المشاركون المحليون. ولا تستطيع عمليات بحوث الفعل تحقيق التزاماتها الديموقراطية إذا لم تزد القوة الدافعة لهذه العملية من ضبط وتحكم المشاركين الداخليين على الإنتاج المستمر للمعرفة وعلى الفعل. إن التدريب المعيارى فى بحوث العلوم الاجتماعية التقليدية ونظام المكافأة الأكاديمية ككل يركز بقوة على إعادة التدريب على ضبط التحكم فى كل من تصميم وتنفيذ أنشطة البحث، والتعامل مع هذا التحكم كسمة مميزة للكفاءة المهنية.

إن الكفاح من أجل حل المشكلات المحلية المهمة يشكل أرضية لتفاهمات جديدة، ومن هنا فإن حلقات التغذية العكسية المزدوجة تظهر فى الشكل (٦-١). ذلك يمكن القول إنه، من خلال الأفعال التى يتم اتخاذها كنتيجة لعمليات الإنتاج التعاونى، يتعلم المشاركون أشياء جديدة عن المشكلات

التى تواجههم، وغالبا ما يراجعون تفاهماتهم ويعدلونها بوسائل أساسـية. إن نتائج هذه العملية الجماعية للفعل وردود الفعل تدعم إيجاد تفاهمات مشتركة جديدة. ولعل أكبر هذه الأرضيات المشتركة هى الاتصالات المثمـرة فيمـا بينهم، والاحتمال الأقوى والأكبر هو أن إضافة مزيد من الفهم العميق يمكن أن ينمو من خلال الأفعال وردود الأفعال القائمة على أساس هـذه المعرفـة المشتركة. وهذا من الممكن أن يفتح تباعا أساليب جديدة لصياغة مـشكلات بحوث الفعل، وكذلك نتائج التعلم المستمر لكل الأطراف، والتـى تتـضمن الباحثين المهنيين.

التغذية العكسية Feedback:

تعتبر دوائر التغذية العكسية متشابه لكل من المـشاركين الـداخليين والباحثين الخارجيين، ولكن تختلف إلى حد بعيد اهتمامات كل منهما، وكذلك التأثيرات التى تحدث لهم **Experience** مـن عمليـة الاتـصال. بالنـسبة للمشاركين الداخليين فربما يكون مهما لهم أن يحسنوا من قدراتهم المعرفيـة وعلى أداء الفعل، بينما بالنسبة للباحثين الخارجيين تكون من خلال عمليـات ردود الفعل، والتى تنتج المعانى (نشرات وفهم عميق) لبحوث المجتمع. وكل من هذه العمليات الانعكاسية هى عبارة عن تغذيـة عكـسية فـى عمليـات الاتصال، وبالإضافة إلى أن تشكيل ساحات للحوارات الجديدة يستهدف إمـا إعادة تحديد المشكلة الأولية أو تحسين قدرات حل المشكلات المحلية. وكـل الدوائر مثل ذلك تستمر طوال حياة المشروع.

خلق الميادين Creating Arenas:

إن التحدى الأكبر لبحوث الفعل هو إيجاد أول سؤال جيـد، والـذى يشارك فيه على الأقل جزئيا جميع الأطراف المتضمنة، وخاصة فى البداية.

إن التدريب التقليدى للباحثين الأكاديميين يجعلهم مناقشين ومجادلين خبـــراء مـــع العديد من أشكال الممارسة فى إدارة النمـــاذج النظريـــة **Conceptual Models**. ويمكن أن يخلق هذا موقف من السيطرة على الاتصال، والذى يضعف عملية الإنتاج التعاونى. وهذا الموقف هو ما أطلق عليه بـــراثين **Brathen (1973)** "النموذج الاحتكارى **Model monopoly**". لقد حدد هـــذا الموقـــف وحللـــه، والذى يسيطر أحد جوانبه، خلال مهارات الاتصال وتناول أنواع معينة مـــن النماذج النظرية، والتى تزيد باستمرار من البعد بين الداخليين والخـــارجيين. وبالإضافة إلى ذلك فإن المكانة الاجتماعية المهنية وسنوات التدريب الرسمى ربما تقنع الناس على تقبل مجموعة من وجهات النظر بـــسهولة. وعنـــدما يحدث ذلك فإن هناك تهديدا خطيرا لعمليات بحوث الفعل بسبب أنها تصرف الانتباه عن وجهات النظر المحلية، والتى تعتبر مركزية ورئيسية للبدء فـــى أى عملية بحوث فعل. إن باحثى الفعل المهرة هم الذين يطورون من قدراتهم على التحديد الدقيق للنماذج المحلية وفهمها وأن يكونوا متأكدين مـــن أنهـــم مرتبطون بقوة فى عملية الاتصال.

لذلك فإن بحوث الفعل هى عبارة عن إستراتيجية لإدارة التنوعـــات المختلفة من الأساليب ونماذج العمل الموجهة نحو التغيير فى عملية تـــصميم مقصودة للإنتاج التعاونى للتعلم، والذى يكشف عن المـــشكلات الـــضاغطة، وتصميم إستراتيجيات الفعل التى تقوم على أساس البحث فى المشكلة، ومـــن ثم تطبيق النماذج الحرة للفعل التى تظهر وتقييمها. وبينما تتـــسم توجهـــات الباحثين الاجتماعيين التقليديين نحو حركة التنوير المهنى، فـــإن توجهـــات بحوث الفعل تتجه نحو تحقيق أهداف اجتماعية معينة، وليس إلى إنتاج معرفة التى تشبع فضول أو تقابل بعض الاحتياجات المهنية الأكاديمية.

ما بحوث الفعل التى ربما لا تنفذ What AR may not do:

على الرغم من تركيزنا علـــى أن أى نـــوع مـــن أســـاليب البحـــث الاجتماعى وعملياته قابلة للاستخدام فى بحوث الفعل، فإن هناك بعض القيـــود على كيفية تعامل باحثى الفعل معها. فبعض من الأساليب والطرق تعتبر غير مقبولة إذا تضمنت الحرمان المتعمد لجماعة ما من المستهدفين من الـــدعم أو المعلومات التى تؤثر عليهم بوسائل مهم. إن العمليات التى يتم ضبطها تمامـــا بغرض تحقيق التقدم فى العلوم الاجتماعية المهنية أو لإشباع فضول البـــاحثين الخارجيين بدون أى فائدة للمستفيدين المحليين، غير مسموح بها فـــى بحـــوث الفعل. وربما لا يطالب باحثى الفعل من المستفيدين المحليين بما لا يستطيعون تحقيقه لأنفسهم. ولو أن الكشف عن الاهتمامات والأهداف يعتبر جزءا من بناء الساحة أو الميدان، فيجب على البـــاحثين الخـــارجيين أيـــضا الكـــشف عـــن اهتماماتهم وأهدافهم فى الموقف. وربما لا يصادر باحثو الفعـــل أو ينتزعـــوا الملكية الفكرية التى تم إنجازها فى عمليات بحوث الفعل. إن كل النتائج عبارة عن ملكية مشتركة فى هذه العملية التعاونية، وأن أنـــواع التفـــاوض المعقـــدة (المركبة) حول تداول هذه النتائج التى تم إنتاجها، سواء فى المجالات العامـــة أو فى مجالات النشر تعتبر شرطا ضروريا فى بحوث الفعل.

بحوث الفعل ليست مجرد بحوث كيفية:

لقد أكدنا منذ البداية على أنه من الخطأ أن نفكر فى بحـــوث الفعـــل على أنها بحوث "كيفية Qualitative"، ومع ذلك يقع العديد من باحثى الفعل وغير باحثى الفعل فى هذا الخطأ. إنه من الواضح بالنسبة لنـــا أن حـــصر بحوث الفعل فى اتجاه البحوث الكيفية يعتبر غير مقبول تماما وغير متـــسق

مع طبيعة مشروعات بحوث الفعل نفسها. ويجب أن تستخدم بحوث الفعل البحوث الكيفية والبحوث الكمية أو مزيجا من الأساليب والطرق التي يتضمنها كلاهما حينما تسمح الظروف أو طبيعة موضوعات البحث التي يتناولها فريق باحثي الفعل حسب الحاجة. فإذا كانت المهمة التي يتم التعامل معها تتضمن العد والمعاينة والتحليل العاملي، وتحليل المسارات، أو تحليل الانحدار، فإن هذه الأساليب تستخدم. أما إذا كانت الموضوعات مرتبطة بقضايا الرأي وقصة أو تاريخ المجتمع أو المعاني المنطقية الكلية للحوارات والمعالجات، والبناءات الثقافية للمواقف الإنسانية محور اهتمام بحوث الفعل فإن البحث التعاوني هنا يتطلب استخدام الطرق الكيفية المناسبة. إن تحليل قواعد البيانات القائمة على أساس النصوص (الرسمية وغير الرسمية، وتكنولوجيا المعلومات المساعدة) وتحليل القصص، وتواريخ الحياة، والسير الذاتية، والجماعات البؤرية والمقابلات بكل أنواعها وتحليل الوثائق وغيرها من الأساليب التي يمكن استخدامها، والكثير منها يمكن تعلمه واستخدامه بواسطة الأعضاء غير الأكاديميين في فرق بحوث الفعل.

ولا يوجد أي منطق للادعاء بأن بحوث الفعل أكبر من مجرد كيان منهجي واحد أو آخر. إن بحوث الفعل هي عبارة عن إستراتيجيات بحث متعددة الطرق، وكما فهمنا منذ فترة بعيدة أنها مزيج من الطرق المتعددة قد تم تحديدها سياقيا. وبينما يبدو هذا الصوت كمبدأ، فإنه يضع باحثي الفعل في موقف صعب، بسبب أنه بينما يوجد تحسينات مهمة في عملية تطوير الإجراءات والدفاعات المعرفية عن البحوث متعددة الطرق، فإن المناقشات المعرفية والمنهجية للبحث متعدد الطرق مازالت غير مكتملة النمو.

لذلك تضع بحوث الفعل أعباء ثقيلة على الباحثين الاجتماعيين المهنيين. ولعل من السخف القول إنه يجب على باحثي الفعل أن يكونوا على

أعلى درجة من الكفاءة فى جميع طرق البحث الاجتماعى، وهذا دائما ما يكون مثاليا. إن أى شيء لا تعرفه، وأى نقص فى كفاءتك وعدم القدرة على التعلم بسهولة لا نستطيع نقله إلى المستفيدين المحليين لاستخدامه فى الميدان. لذلك يجب على باحثى الفعل الواقعيين الانفتاح على كل الطرق، وأن يبذلوا الجهد لتعلم الكثير عن هذه الطرق، وأن يتعلموا أن يكونوا مؤيدين لنشر هذه الطرق فى مشروعات بحوث الفعل كلما كان ذلك ضروريا.

إن الحياة مع الوعى بطبيعة حدودنا يعتبر واحدا من المظاهر الرئيسية لوجودنا كباحثين فعل مهنيين. إن المتاعب التى ربما نواجهها نجدها أفضل كثيرا من ثقافات الإشباع الذاتى للخبرة المهنية فى العلوم الاجتماعية التقليدية، والتى يكون فيها السيادة والتفوق البسيط يمنح المكانة والمكافآت المهنية. إن إجراء بحوث الفعل يعتبر ممارسة راسخة تتسم بالتواضع.

إن بحث الفعل هو بحث وليس بالضبط عملا "جيد **Good**"، وغالبا ما ينخرط الناس فى عمليات مشاركة وتغيير ديمقراطى، مدعين أنهم يقومون بإجراء بحوث فعل، ولكن البعض يتطلع باختيار عنصر البحث فى مشروعاتهم، فالمشاركة والتضامن فى الغالب موجودة، ولكن لا توجد أغراض محددة للبحث وراء عملية جمع البيانات وتحريك الجهود. إن الباحثين الاجتماعيين التقليديين ينظرون إلى تقارير ومشروعات بحوث الفعل وغالبا ما يدعون اهتمامهم بها. (انظر: **Sorensen, 1992**)

وليس مدهشا لو أطلق على شيء ما أنه بحث، ومن ثم فيجب أن نعتقد أنه بحث. إننا نتوقع أن المعرفة التى تم إنتاجها من خلال عمليات بحوث الفعل يكون لديها "بناء يعرض المادة الخام الكاملة داخل المناقشات والعمليات المحلية، والتى بواسطتها يتم إعادة ترتيب وتكثيف عملية الوصول إلى نتائج موثوق بها" (**Cronbach & Suppes, 1969**). وهذا يتضمن عملية

واضحة وشفافة لتحليل البيانات، والتى تؤدى فى النهاية إلى معرفة موثوق بها، وهدف أساسى من إنتاج المعرفة العلمية. ويجب أن تكون عملية البحث مقنعة للأشخاص الذين يدخلون فى اتصالات مع البحث. لذلك فإن العمل الجيد لا يجعل المشروع كمثال لبحوث الفعل. فلابد أن يكون هناك فعل وبحث فى علاقة قوية بين كل المشاركين فى ميدان (ساحة) إنتاج تعاونى لمشروع يستحق أن يطلق عليه بحث فعل.

وهنا يوجد توتر داخلى. فمشروعات الفعل تدين بولائها الأول للمستفيدين المحليين ولقضاياهم. ولكن لكى تستمر بحوث الفعل فى التطور وأن تستمر إستراتيجيات وعمليات التعلم لبحوث فعل فعالة فى النمو فلابد أن تتخذ العمليات والنتائج شكل المعرفة الموثوق بها، والتى يمكن أن يساهم فيها بفعالية الممارسين والباحثين والمستهدفين المحليين فى أى مكان.

وبينما قد يبدو ذلك غير ممكن، فإنه بالتأكيد لا يحدث. إن عدم الإمكانية الواضح لإعادة توفيق أو إصلاح هذه الأهداف هو أساسا نتاج للأساليب التى اتبعتها العلوم الاجتماعية التقليدية لعقود عديدة من الزمن. وفى الممارسة فإن موضوعات وتعقيدات وأساليب وتفسيرات وإستراتيجيات مشروعات بحوث الفعل تقترب من جميع القضايا الرئيسية فى العلوم الاجتماعية، والتى تتضمن القضايا المعرفية الكبرى والقضايا النظرية، والقضايا المنهجية، والتى يتم مناقشتها بانتظام. ولكن الفرق أن بحوث الفعل لا تتواصل مع هذه القضايا من خلال المجال الأكاديمى، ولكن تتعامل مع هذه القضايا فى السياق التطبيقى مع المستفيدين المحليين الذين يتسمون بحسن الاطلاع. إننا نوجد معرفة قوية اجتماعيا من النوع الدقيق، والتى تطالب النماذج والأشكال الكبرى فى العلوم الاجتماعية بأن تكون هدفا ضروريا لتحديث محاولات ومساعى العلوم الاجتماعية فى القرن الحادى والعشرين.

القدرة على التشغيل (الإيجابية) والشرح

Workability and Explanation

بينما تستخدم العديد من الأساليب فى بحوث الفعل، وبعض العمليات التى تتخذ مكانها أيضا فى بحوث الفعل وتعتبر مألوفة بالنسبة للباحثين الاجتماعيين ذوى الخبرة، فإن النهايات (الأهداف) تتشابه عندما تأتى إلى التشغيل- مثال ذلك فالحكم على كفاءة التفسير طبقا لكيفية عمله بشكل حسن عندما يعمل يكون وفقا للسياق المحلى. إن البحوث الاجتماعية التقليدية لا تظهر أى اهتمام لعملية التشغيل (الإيجابية) ككل. وبدلا من ذلك فإن الاختبارات المهنية المحكمة (الاحتمالات الإحصائية، والمدى والتكرارات) تستخدم للوصول إلى جودة النتائج. وهنا فإن الفجوات الواسعة بين بحوث الفعل والبحوث الاجتماعية التقليدية تكون بسبب تركيز بحوث الفعل على إنتاج معرفة جديرة بالثقة واستخدامها فى تصميم الأفعال وتوجيهها وتقييم النتائج. إن الإيجابية تعتبر هدفا رئيسيا فى أى مشروع لبحوث الفعل، وبصفة خاصة من وجهة نظر المستفيدين المحليين.

ويبدو التركيز على الإيجابية بالنسبة للبحوث الاجتماعية التقليدية يعتبر ضد العقلانية. ونعتقد أن ذلك على العكس تماما. فالافتراض بأن النظريات الكبرى وصقل الطرق المفضلة والبارعة، والتى ليس لكل منهما إيجابية (تشغيل) فإنها تبدو لنا بقوة على أنها إنجاز فكرى (عقلى). ولكن بنفس المعطيات فإن ما يعمل فى السياق لذلك ليس مفهوما، تماما. ولكن بطريقة أخرى فإن التشغيل (الإيجابية) الناجحة لا تخلق تلقائيا فهما معقولا عن لماذا يعمل شيئا ما: إنه يظهر فقط أنه فعل.

لذلك عندما يتم الوصول إلى حل ناجح (أو حل غير ناجح) لمشكلة معينة، فربما تتبقى مجموعة من الاضطرابات (الارتباكات) التفسيرية للحل

من أجل إعطاء معنى واضح (مفهوم) للنتائج القابلة للتطبيق والاستفادة منها سواء محليا أو لباحثى الفعل فى أى مكان. وبكلمات أخرى فـإن الإيجابيـة (التشغيلية) هى موضوع (نقطة) البيانات الأساسية، ولكنها ليـست النقطـة النهائية فى عمليات بحوث الفعل. ومع ذلك فإنها تظهر أنك تقدم حلا عمليـا لمشكلة معينة. ويحتاج الانتقال من الإيجابية (التشغيلية) إلى المعرفة الموثوق بها التى أمكن الإسهام فيها من خلال مشروعات بحوث الفعل إلى إخـضاع النتائج القابلة للتطبيق للتحليلات العاملية (Counterfactual) للبحـث عـن الأدبيات ومعرفة حالات الاتجاهات الأخرى التى أظهرت نفس النتائج. وفى الحالات الأخرى التى يمكن أن توجد- المسئولية الواضـحة للمهنيـين فـى بحوث الفعل- ومن ثم فإن التفسيرات المحلية لبحوث الفعل عن لمـاذا تـم اتخاذ الفعل ولماذا كانت التأثيرات التى قاموا بها تتعارض أو تتبـاين مـع التفسيرات الممكنة الأخرى التى ربما أخذت فى اعتبارها النتـائج. وبهـذه الوسيلة فإن التفاعلات بين الحالات التى تم إيجادها تعتبر المظهر الرئيـسى فى تطور الجانب المهنى فى بحوث الفعل.

ومع ذلك فربما يبدو أن هذا فقط يفيد باحثى الفعل، وليست هذه هى الحالة. وعندما يرتبط كل من المستفيدين المحليين والباحثين المهنيـين فـى انعكاسات متبادلة ومناقشات عن هذه المصداقية الواسعة، يكون لديهم الـدعم الكافى للعملية. ويحتاج الباحثون المهنيون إلى فهم ما يمكن تعلمـه، وكيـف يمكن توصيله إلى جميع السياقات المتنوعة فى المجتمع. ويحتاج المستفيدون المحليون إلى أن يكونوا قادرين على الدفاع عن نتائجهم، وتفاهمـاتهم مـع الأشخاص الخارجيين حول دعم مشروعاتهم، وتمويلها، أو أن التفاهم يكون ضروريا لاستمرار العملية التى انخرطوا فيها. وكل منهما يحتاج إلى مد هذه التفاهمات إلى ما وراء السياق الحالى.

الخلاصة:

لقد رأينا أن بحوث الفعل ليست طريقة، ولكنها وسيلة للقيادة التضامنية لعمليات البحث الاجتماعى لتعزيز عمليات التغير الاجتماعى التحررية. وقد أكدنا على أن بحوث الفعل تستطيع تقريبا أى أسلوب بحث يوجد فى أى من العلوم البحتة، والعلوم الاجتماعية والإنسانيات عندما يكون أى من هذه الأساليب مناسبا سياقيا للإدارة التضامنية لعمليات البحث. إن البحوث الكمية والبحوث الكيفية والطرق البحثية المختلطة والحوارات المحكمة كل ذلك من الممكن أن يكون جزءا من مشروعات بحوث الفعل. أما الأساليب البحثية التى لا تستخدم فقط فى مشروعات بحوث الفعل هى الأساليب هى التى لا تساعد بفعالية المستفيدين الداخليين أو تضرهم. ونحن نرى أن الوصول إلى بحوث فعل تتسم بالكفاءة يتضمن تعلم مجموعات كبيرة من أساليب البحث ونماذجه وتعلم كيفية إدارة وتسهيل عمليات البحث التعاونية والمساعدة فى عمليات توثيق وتركيب النتائج ومضامين الفعل. وأخيرا فإننا نشير إلى أن القابلية للتطبيق (الإيجابية) والمصداقية بين جميع عناصر السياق تعتبر مظهرا أساسيا لعمليات بحوث الفعل.

الهوامش

١) خصص كل من ليفين وكليف (٢٠٠٠) قسم كامل لهذه المناقشة.

الفصل السابع

إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل

أنواع الجدل بين المعرفة المحلية والمعرفة القائمة على البحث العلمي

يتناول هذا الفصل أكثر المناقشات تكاملا عن عملية توليد (إنتاج) المعرفة فى بحوث الفعل. وبالعودة إلى نموذج الإنتاج التعاونى فى الفصل السادس فإن القضية الحيوية والمهمة فى عملية إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل تتصادم بين المعتقدات **insights** المحلية وبين تلك التى تأتى من الخارج ودمج هذه المعتقدات فى فهم عام ومشترك يمكن أن يكون كأساس لحل المشكلات العملية. وهذان هما الشكلان الأساسيان للمعرفة، سواء كان كل منهما مرتبطين أو غير مرتبطين. إن إحدى الوسائل لفهم العلاقة بين المعرفة المحلية والمعرفة الخارجية هى إدراك الارتباط بينهما كحالة جدلية. إن اقتراح أو التأكيد على أحد هذين الشكلين (افتراض) يواجه بالعديد من التساؤلات والاقتراحات المضادة (افتراض عكسى)، ونتيجة لهذه المواجهة الودية بين وجهات النظر المتباينة يبدأ الفهم (دمج وجهتى النظر) فى الحدوث تدريجيا.

لذلك فمن المهم توصيف وتنظير العملية الجدلية لتكوين المعرفة كسياق محدد وارتباط قوى بعملية حل المشكلات العملية أو التطبيقية. وتواجه المعرفة المحلية بالمعرفة القائمة على أساس البحث العلمى، ويتم تقييم فهمها (إطارها) النظرى على أساس مدى قدرتها على تكوين المعنى والفهم للأحداث اليومية الجارية. ومن خلال منظور المعرفة محددة السياق **context-bound knowledge** فإن المعرفة المحلية تتشكل وتتكون بواسطة

الأفكار والاستبصارات القائمة على البحث العلمى والمعرفة النظرية. ولكن يجب أن يكون لهذا المنظور الخارجى القدرة على شرح وتفسير الظواهر المحلية المحددة، والتى تساهم فى رضا وإشباع سكان المجتمع المحليين (المستفيدين المحليين). وتكمن العملية الجدلية بالطبع هنا فى ما الذى يتخذ مكانه بقوة هنا فى بناءات التعلم. وهذه العملية تم تناولها فى الفصل السادس فى مناقشاتنا حول بناء النموذج.

وبهذه الخلفية فإننا نتحرك قدما لمناقشة أسس تكوين وبناء المعرفة فى بحوث الفعل. وعلى الرغم من الميل إلى افتراض أن المعرفة القائمة على بحوث الفعل تعكس الإجماع، فإنه فى بحوث الفعل لا توجد قاعدة تنادى بأن المعرفة القائمة يجب أن تعكس الإجماع بين الباحثين وبين المشاركين المحليين. وفى المقابل فإنه من الضرورى بناء معرفة جديدة تعكس التنوع المعرفى بين المشاركين المحليين والباحثين الخارجيين. وهذا بالضبط ما يجعلنا مدركين وواعين للطبيعة الجدلية والدينامية لهذه العلاقة. إن عملية الإنتاج التعاونى للتعلم هى معالجة متموجة وحلقة جدلية مستمرة.

وفى كل وجهة نظر يتم فهم الحقيقة لكى تكون أفضل معرفة منطقية ويمكن قبولها بواسطة جميع العناصر المكونة لمنطقة محددة فى العملية التعاونية، ودائما ما تكون مؤقتة ومشروطة بالخبرات الجديدة، والتى تغير وتبدل النتائج السابقة للجهود التى تم القيام بها. إن الأوضاع الجديدة التى تم اتخاذها بواسطة أفراد أو جماعات فاعلة يمكن أن تتحدى أو تدعم المعرفة القائمة بالفعل. وتستطيع أن تدفع هذه الحركة أكثر إلى هذه العملية الجدلية.

وللانتهاء من هذا الفصل، فإننا نتعامل مع كيفية التواصل أو الكتابة عن إنتاج المعرفة فى مشروعات بحوث الفعل. ونحن نرى أن معظم أو كل الكتاب قد وقعوا فى أخطاء فادحة مرتبطة بالعلاقة أو التفرقة بين المعرفة المحلية

والمجتمع العلمى. وغالبا ما نجد أيضا وصف الحالات بـدون الاعتمـاد علـى النظرية، أو إعطاء القليل سواء لمجتمع البحث أو لممارسة السكان المحليين، أو نجد النصوص المكتوبة بلهجة علمية تختفى فيها العناصر المرتبطـة ببحـوث الفعل. إن وجود الصوت الذى يحافظ على العناصر الأساسية لبحـوث الفعـل يعتبر نوعا من التحدى إلى حد بعيد. إن الاستخدام المتطور للقـصص يعتبـر جزءا من الحل، وأيضا يصف بالتفصيل دوائر التعلم التجريبية.

المعرفة المحلية والمعرفة القائمة على البحث العلمى الاجتماعى:

يتسم الباحثون الاجتماعيون المهنيون وأعضاء المجتمع وتنظيماتـه وشبكاته فى بحوث الفعل بالتعاون الفعال فى كل خطوات وعمليات البحـث. فكل منهم يساهم بالأنواع العديدة من المعرفة والأفعـال والإجـراءات فـى المشروعات التى تجمعهم وتربطهم. وليس لدى العلوم الاجتماعية التقليديـة أى مشكلة فى فكرة الباحثين الاجتماعيين الخبراء، ولكنهم يرفضون بوجـه فكرة أن الناس المحليين غير المدربين فى نظريات ومناهج العلوم الاجتماعية التقليدية يستطيعون تقديم مساهمات فعالة فى عمليات البحـث الاجتمـاعى، سواء على مستوى الشكل أو الجوهر. وتقوم بحوث الفعل على أساس تأكيـد أن جميع الناس لديهم معارف واسعة ومعقدة وذات قيمة عن حياتهم وبيئاتهم وأهدافهم. وهذه المعارف تختلف عن المعارف العلمية، ذلك لأن المعرفة التى يتم اكتسابها يوميا تتجسد فى أفعال الناس وتصرفاتهم وتواريخ حياة عميقـة فى أوضاع ومواقف متنوعة، والأساليب التى تنعكس عنها. وهذا النوع مـن المعرفة يختلف عن الكثير من المعارف العلمية التقليدية وذلـك بـسبب أن المعرفة العملية والتفكير العملى والمعرفة الضمنية **Tacit** تعتبر خـصائص مركزية ومهمة. **(Carr, & Kemmis, 1985; Schwandt, 1997b)**

إن بحوث الفعل تركز على المعرفة المنتجة على أساس تعاونى، والتى تقف بين المعرفة، القائمة على التفكير أو المنطق العلمى للعالم وبين المعرفة المبنية على أساس علمى. إننا نؤكد تفوق أو سيادة أى نوع من المعرفة، ولكننا نؤكد على أن المعرفة السائدة هى التى تجمع بين جميع أنماط المعرفة فى دراسة جميع المشكلات المعقدة وإيجاد الحلول المناسبة لها. وهذا ما أطلقنا عليه مصطلح العلاقة الجدلية **Dialectical relationship** بين المعرفة المحلية والمعرفة المهنية. وتسعى بحوث الفعل إلى إقامة جسر بين هذه المعارف من خلال التكامل بين الممارسين والمهنيين من العلماء فى نفس عملية إنتاج المعرفة والتى نطلق عليها مصطلح تعلم الإنتاج التعاونى **Cogenerative Learning**. ومن خلال هذه العمليات التعاونية فإن جودة البحث العلمى سوف تتعزز وتزداد نظرا لأن المشاركين المحليين يستطيعون أن يسهموا بمعارفهم المحلية وتحليلهم لها فى البحث، ويستطيعوا أن يلتزموا بفعالية بالأطر العلمية التفسيرية الخارجية. وبذلك يمكن أن يزداد التفكير العملى الذى يوجه أفعال المشاركين الداخليين أو المحليين ويعمل على إعادة تشكيل هذه الأفعال من خلال توصيل المعرفة العلمية وتحويلها للاستخدام فى التعامل مع مشكلات الحياة اليومية.

إننا لا نرى أى اختلافات جوهرية فى المعنى بين المعرفة المحلية والمعرفة العلمية، فكلاهما عبارة عن بناءات اجتماعية، ولكن كلا منهما وضع ضمن أنظمة مختلفة. إن النظرية المحلية هى سياق محدود وتقدم تفسيرات وخبرات ملموسة فى سنوات محدودة من العمليات المحلية. وهذه العمليات وصفها بشكل متكامل كل من بيرجر **Berger** ولوكمان **Luckmann** فى مؤلفهما البناء الاجتماعى للواقع **The social construction of reality** **(1966)**. وقد أظهر المؤلفان بوضوح أن عمليات البناء الاجتماعى تخلق الفهم على مستويات مختلفة من النظريات الأولية أو البدائية اليومية وحتى النظريات

العلمية المنهجية. وتتمايز هذه النماذج من المعرفة بواسطة بناء العمليات الاجتماعية ومحتواها، والتى شكلت الظروف التى ساهمت فى بنائها.

ويمثل الهدف الرئيسى لبحوث الفعل فى إنتاج معرفة تمثل الجسر بين هذين النوعين من المعرفة. هذا هو الوضع الذى يتطابق تماما مع ما صرح به جون ديوى بأنه لا توجد فروق جوهرية بين ما يطرحه الناس العاديين من معارف وأفكار لحل مشكلاتهم التى يعانون منها وبين ما يطرحه العلماء لحل مشكلاتهم العلمية.

ونحن نعتقد أن الناس المحليين يعملون بمهارة على أساس معرفة صادقة مناسبة، ذلك أن أنساق المعرفة المحلية تتسم بالتمايز والديناميية ولا تحتاج إلى تدريب رسمى أو منظم، إنه من المناسب للناس أن يقدموا المبررات والتراخيص اللازمة للفعل القائم على تحليل جيد. لذلك تعتبر مشاركة المستفيدين المحليين ضرورية فى أنشطة أى بحث اجتماعى. وقد رفضنا بوضوح فكرة أن المعرفة الصادقة يمكن إنتاجها فقط بواسطة الأشخاص الخارجيين الذين يتسمون بالموضوعية ويعتمدون على الطرق الموضوعية التى تقلل من عاملى الخطأ والتحيز.

فليس من الضرورى أن نشير إلى أنه عندما يتخذ المستفيدون فى المجتمع إجراء أو فعلا معينا فإن ذلك يؤدى إلى تحقيق النتائج المرغوبة لهم بنجاح. وبالنظر أو التفكير فى أى شخص باستثناء العلماء الاجتماعيين المدربين على أنه ممارس اجتماعى هاوٍ أو غير محترف فإنه يعتبر غير مقبول فى الفكر الأكاديمى العلمى. وبالتحديد بسبب أن المستفيدين المحليين يتخذون الأفعال والإجراءات الضرورية من وجهة نظرهم فى بيئاتهم، وبالتالى فإن الأخطاء المترتبة على ذلك تعتبر واضحة ومهمة بالنسبة لهم وغالبا ما تظهر بسرعة. وكذلك نجد أن الباحثين الاجتماعيين التقليديين الذين

يهتمون بالربط بين البحث والفعل فنادرا يعرفون ما إذا كانوا فـــى الموقـــف الصحيح أو الخطأ. كما أنه نادرا ما يكون للنتائج التى توصلوا إليها تأثيرات ملموسة، ونادرا ما يكون للنتائج العملية لبحوثهم تأثيرات مباشرة عليهم.

وعلى الرغم من أهمية المعرفة المحلية، فإن أدبيات بحوث الفعل لم توفر الكتابات الكافية عنها. وقد كرر بعض باحثى الفعل مصطلح المعرفـــة المحلية، حيث يرون أن هذا المصطلح يشير إلى المعرفـــة الحقيقيـــة علـــى العكس من المعرفة الزائفة والطبقية التى يفرضها الخارجيون المـــسيطرون. والبعض الآخر يتعامل مع المعرفة المحلية على أنها حقيبة تتضمن مزيجـــا من التحليلات والمعلومات بعضها مفيد والبعض الآخر غير مفيد، بعـــضها مساعد ومعين والبعض الآخر ربما يكون خاطئا وخطيرا. وتعتمـــد وجهـــة النظر المتاحة عن المعرفة المحلية جزئيا على نسق معتقدات وآراء بـــاحثى الفعل عن الطبيعة الإنسانية، والظروف الإنسانية التى تسبق بوجه عام أنشطة بحوث الفعل. وتعتمد أيضا بشكل جزئى على خبرات بـــاحثى الفعـــل فـــى الميدان على الاستفادة من المعرفة المحلية فى الفعل، ونتائج توظيفهـــا فـــى عمليات التغيير.

وتعنى المعرفة المحلية لبعض باحثى الفعل ببساطة المعرفة الداخلية، أى المعرفة التى يمتلكها الناس فى المجتمعات أو فـــى التنظيمـــات. ويفهـــم البعض الآخر المعرفة المحلية على أنها المعرفة المنظمة الأكثـــر تفـــصيلا وتعقيدا فى الموقف والمجتمعات المحلية. أما وجهة النظر الأخرى فترى أن المعرفة المحلية تنتمى أساسا إلى الناس داخل المجتمع أو المنظمـــة، ولكـــن يستطيع أيضا الناس الخارجيون عن المجتمع تطوير وتكوين أنواع مختلفـــة من المعرفة المحلية مـــن خـــلال البحـــوث الإثنوجرافيـــة **Ethnographic** الأنثروبولوجية القائمة على أساس الارتباطات والعلاقـــات المحليـــة خـــلال

مراحل زمنية طويلة نسبيا. ولكل وجهة نظر من وجهات النظر هذه نتـــائج مختلفة ومتباينة، سواء كانت أيديولوجية أو منهجية.

ويتركز فهمنا للمعرفة المحلية على النظر إليها على أنهـــا التفكيـــر العملى فى الفعل وردود الفعل المحلية للمشاركين المحليين نحـــو أفعـــالهم. ونستطيع القول إن هذا المفهوم عن المعرفة يعود إلـــى مفهـــوم **phronesis** لأريستوتل **Aristotle**، والذى يشير إلـــى القـــدرة علـــى اســـتدعاء الفعـــل أو الإجراء الذى يتطلبه أى موقف. **(Toulemin, 1996,p.207)** وكما حـــدد كل من إيكيلاند **(1992) Eikeland** وشـــواندت **(1997b) Schwandt** ذلـــك على أنه نمط مختلف من المعرفة يستخدم فى العصر الحالى لتطوير نظريات اجتماعية علمية. ولعل من أهـــم اهتمامـــات بحـــوث الفعـــل هـــو تـــوفير وإيجاد عملية بحثية تلقى الـــضوء علـــى التفكيـــر العلمـــى القـــائم علـــى التركيبات والتشكيلات المحلية والمعنى المبنـــى علـــى أســـاس اجتمـــاعى. **(Berger & Luckmann, 1996)** لذلك تحاول بحوث الفعل إقامة جسر بـــين المعرفة المحلية والمعرفة العلمية من خلال التعلم الإنتـــاجى التعـــاونى فـــى عملية تؤدى إلى تكوين معرفة محلية جديدة وتفاهمات علمية جديدة.

ليس من المهم أن نحدد أى وجهات النظر التى يتبناها باحث الفعل عن المعرفة المحلية، لأنه من الواضح بشكل عام أن للمعرفة المحلية يتم فهمها فـــى بحوث الفعل بشكل مختلف عن العلوم الاجتماعية التقليدية. وعلى الـــرغم مـــن ظهور العديد من الحركات المعاصـــرة مثـــــل البنائيـــــة الاجتماعيـــة **Social constructivism** وأشكال تحليـــل المقـــال أو الخطـــاب **Discourse analysis** والتركيز القوى على البحوث الكيفية، فإن سيطرة العلوم الاجتماعيـــة التقليديـــة حفظت للباحثين الحق والقوة لتكوين البناءات أينما وجدت المعرفة. ولم يطلـــب معظم الباحثين التقليديين هذه القدرة أو الحق فى تكوين وحدات منفـــصلة مـــن

المعرفة الموضوعية Objective Knowledge، والتى تتسم بأنها مترابطة وتخضع للمقارنات والمقارنات الرسمية والفرضيات والتركيبات العلمية والتنظير خارج سياق المعرفة المخلية. وحتي إذا كان العالم الاجتماعى التقليدى ليس منتميا إلى الوضعية المنطقية فإنه يحتفظ بحقه فى أى تكوين والتعبير عن ما يفكر فيه الناس، وكيفية تفكيرهم، وما يتضمنه هذا التفكير بدون التدقيق فى تصوراتهم ومفاهيمهم عن المعرفة المحلية للمستفيدين المحليين. إن تحديد ما هو صحيح أو مهم أو غير مهم يتم من خلال قرارات الباحثين الاجتماعيين المهنيين وليس لتخمينات الهواة قليلى الخبرة.

ويوجد هذا التصور عن إنتاج معرفة البحث الاجتماعى نوعا من التناقض بين إنتاج المعرفة فى البحث العلمى وإنتاج المعرفة المحلية، لأن المعرفة المحلية يتم بناؤها داخليا أى داخل المجتمع ويتم نقلها من خلال تنوعات واسعة من الوسائل المحلية ويتم ترجمتها وتوصيفها فى بناءات قصصية واسعة ومتنوعة. ونحن نعرف من خلال الإثنوجرافى والأنثروبولوجيا الوصفية وكذلك خبرات بحوث الفعل أن البناءات القصصية أو الروائية للمعرفة المحلية غالبا ما تكون هى العناصر الأساسية فى عمليات البناء والتعلم والتطبيق. ونظرا لأن بحوث الفعل تعطى اهتماما وتمييزا خاصا للمعرفة المحلية، فإنها تهتم بالدور الذى تلعبه التقارير القصصية فى عملية البحث تماما مثل تركيزها على كتابة نتائج البحث. إن معظم علماء الفلسفة الوضعية وكذلك هؤلاء الذين يعتمدون على أساليب البحوث الكمية يصفون التركيز القوى لبحوث الفعل على المنهج القصصى على أنه غير علمى وغير قادر على إنتاج المعرفة العلمية الصحيحة.

وقد ناقشنا بالفعل فى الفصل الرابع قضية الشرعية أو المصداقية validity question. وهنا نريد أن نركز على أن قضية الشرعية أو

المصداقية تحدث بعض المناقشات غير البناءة بين الباحثين في البحوث الاجتماعية التقليدية والباحثين في بحوث الفعل. فالكثير من علماء البحث الاجتماعي التقليدي يساوون بين المعرفة المحلية وبين المعلومات غير الصادقة أو على الأقل المعلومات الذاتية غير الموضوعية. إنهم يعتقدون أن الناس غير المدربين لا يستطيعون إنتاج معرفة صادقة بسبب افتقادهم للمنهجية والتدريب، وعدم التزامهم بالموضوعية بالإضافة إلى النزعة الشخصية في عمليات التفسير. وفي المقابل يميل بعض بحوث الفعل إلى مساواة المعرفة المحلية بالمعلومات الصادقة، ويعتقدون أن المواطنين غير الملوثين (المتأثرين) بالرأسمالية هم فقط الأقدر على رؤية الأشياء بوضوح. عموما لا يوجد رأى مقنع من كلا الرأيين. فلو اعتقد أى شخص أن الناس المحليين هم دائما على صواب أو على خطأ، أو ليس هناك حاجة إذن للنظريات والمناهج وغيرها- فإن هذا يشير بوضوح إلى التركيز على المناقشات الجدلية غير البناءة وليس على كيفية إجراء البحث الاجتماعي.

ونترك الآن جانبا هذه المناقشات الجدلية ونركز على المدى والوسائل التي تم من خلالها بناء المعرفة المحلية تاريخيا ومدى استطاعتها للتحرك قدما وما تعتمد عليه أو تؤثر فيه وقدرتها على التفسير، وتعلم كيف استطاعت نتائج البحث القائمة في جزء منها على المعرفة المحلية أن ترتبط أو تتصل بفعالية إلى ما هو أبعد من المواقف المحلية التي تم إنتاجها فيها. لقد تم إيجاد (خلق) معرفة جديدة من خلال مناقشة خطوط التباعد **fracture lines** بين المعرفة المحلية والمعرفة المهنية.

عملية إنتاج المعرفة:

إننا نعتقد أن بحوث الفعل بالإضافة إلى قدرتها على إنتاج المعرفة الصادقة والفعل الاجتماعي الفعال فإنها أيضا تعتبر تجسيدا للأفكار

الديمقراطية فى ممارساتها الأساسية. وتكمن هذه الممارسات الديمقراطية فى عمليات البحث ونتائجه. ففى بحوث الفعل يجب أن تكون عمليات البحث ديمقراطية بحيث تكون مفتوحة وتتسم بالمشاركة الفعالة والعدالة بين جميع المشاركين فيها. وبالإضافة إلى ذلك فإن نتائج بحوث الفعل يجب أن تؤيد وتعزز اهتمامات المشاركين لذلك تزيد المعرفة التى تم إنتاجها من قدرتهم على التحكم فى مواقف حياتهم الخاصة. ونحن نلخص هذا المعنى المزدوج للممارسة الديمقراطية بالإشارة إلى بحوث الفعل على أنها الإنتاج المشترك (التعاونى) للبحث **Cogenerative research**.

إن الجهود الرئيسية التى بذلت لجعل البحث ديمقراطيا أحدثت تغييرا فى دور البحث والباحثين. إن الديمقراطية مطلب لا يمكن الارتقاء به إذا لم يكن المشاركون – أيا كانت طريقة اختيارهم – قادرين على الإسهام فى عملية بناء المعنى. وفى نفس الوقت فإن الباحثين المدربين لا يستطيعون إعطاء معنى للحياة الاجتماعية المحلية بدون تأمين روابط اتصال مع المشاركين المحليين. إن التوتر الدينامى والمستمر بين المعرفة الداخلية والخارجية تعتبر أساسا لعملية الإنتاج التعاونى للمعرفة.

ونحن نعتقد فى بحوث الفعل أن عملية الاتصال ككل يمكن أن تكون أكبر وأعظم من مجموع الأجزاء. فالباحث الخارجى يتم مساعدته بشكل كبير فى تعلم أشياء لم يكن يعرفها من قبل، أو يتحقق له الإدراك بشكل مباشر من خلال الحوار مع الداخليين، وأيضا من خلال المشاركة فى ممارسة الأفعال والإجراءات وفهمها. وكذلك يعيد الداخليون تشكيل وتقييم معارفهم الخاصة كاستجابة لتساؤلات الباحثين الخارجيين. ويحقق كلا الجانبين الفهم المطلوب من خلال التفاعل فيما بينهم. وكلا الجانبين لديهم شبكة معقدة من الأهداف والاهتمامات والتفسيرات للبناءات والعمليات التى يرتبطون بها. ويمكن أن يكون كل ذلك متاحا أو على الأقل جزئيا لكل منهما من خلال عملية الإنتاج التعاونى.

الحفاظ على الاختلافات Maintaining Differences:

وفى بحوث الفعل يتم التعامل مع الباحثين الداخليين والخارجيين على أساس أنهم متكاملون بسبب أنه من المتوقع أن يتصرف كل منهم طبقا لخلفيات وأسس علمية ولكل حقوق متساوية للاستماع والإنصات إليهم. ومن المهم أيضا أن الباحثين المهنيين فى بحوث الفعل لا يحاولون أو لا يطالبون بأن يكونوا باحثين داخليين. فالباحث المهنى لابد أن يكون دائما باحثا خارجيا، حيث يشغل موقعه فى مواقع مؤسسية ومهنية تضع من ضمن متطلباتها معايير مهنية وأخلاقية للتصرف.

ويتمثل التحدى الذى يواجه عملية الإنتاج التعاونى للمعرفة فى هذا الموقف غير المتوازن فى اغتنام الفرصة من الاختلافات بين الجانبين. فالباحثون الخارجيون والداخليون يوجدون معا الأرضية المناسبة لتعلم جديد لكل المشاركين، حيث تعتبر الاختلافات بينهم واحدة من المساهمات الرئيسية التى تتضمنها العملية. ويعتبر تقليل الاختلافات أمرا ضارا وغير مرغوب فيه فى بحوث الفعل. إن عملية تعلم تقييم الاختلافات وبناء أفعال وإجراءات شاملة تأخذ فى الاعتبار الخلفيات أو الأرضيات المشتركة لدى المستفيدين يعتبر عملية مركزية فى بحوث الفعل. لذلك لا تستهدف التركيبات (الحوارات) synthesis فى العملية الجدلية التقليل الاختلافات بين المشاركين.

بحوث الفعل تأخذ وقتها AR Takes Time:

تبنى أى عملية لبحوث الفعل على الاتصالات والأفعال بين الأجزاء التى تتضمنها، ومن خلال أدبيات البحث وخبرات الحياة اليومية فكلنا يعرف أن الارتباط أو الانخراط فى حوارات شيقة متبادلة يتطلب وقتا لتعلم كل طرف وأيضا إيجاد لغة مشتركة ومقبولة لجميع الأطراف. وبناء على ذلك

فإن عمليات بحوث الفعل تتطلب استثمار الوقـت بـشكل يـدعم ويـشجع الاتصالات والتفاعلات، والتى تكون أرضية مشتركة من الفهم. لذلك لـيس هناك أى معنى لأى عملية فى بحوث الفعل تتسم بالسرعة، وأى اتجاه لبحوث الفعل يعد بنتائج سريعة يجب التعامل معه بدرجة كبيرة من الـشك. ووفقـا للمقولة الشائعة والقائلة إن أى شخص لا يعرف متى يبدأ أو ينتهى مـشروع بحث الفعل، فإنه يعتبر خارج العلاقات الاجتماعية، بل ويمكن اسـتنتاج أن العلاقات الاجتماعية قد تفككت أو انتهت.

حل المشكلة التطبيقى المحدد السياق

Practical context-bound problem solving

من المهم التركيز على أن إنتاج المعرفة فى عملية بحوث الفعل يتم من خلال محاولات شعورية أو واعية لحل مشكلات عملية واقعية. وعلـى ذلك فإن الإيجابية فى هذه الحلول توجد الجسر الذى من خلالـه يـتم بنـاء المعرفة. وفى هذا السياق لا توجـد أى إسـتراتيجية فـى بحـوث العلـوم الاجتماعية الأخرى ترتبط بقوة عملية إنتاج المعرفـة بالممارسـة اليوميـة للأشخاص الفاعلين الذين تتضمنهم عملية إنتاج المعرفة كما فى بحوث الفعل. ومن جانب آخر فعلى سبيل المثال نجد أن إنتاج المعرفـة فـى الهندسـة لا تختلف بشكل حاد وكبير، حيث لا تعتبر أى تطورات هندسية صحيحة إلا إذا ساهمت التكنولوجيا المبتكرة أو الخلاقة أغراضها بالكفاءة المطلوبة.

اختيار الأساليب الفنية ونماذج العمل

Choice of techniques and work forms

لا يوجد حجم واحد مناسب لكل بحوث الفعل، وعندما يتساوى فـى الأهمية كل من المعرفة المحلية، والقصصية واتجاه الإنتاج التعاونى للمعرفة

فلا يوجد خطة عمل لدمجهم فى نموذج واحد فى عمليات بحوث الفعل. فالمعرفة المنتجة فى بحوث الفعل ترتبط بسياق العمل. ويتم اختيار أساليب ونماذج العمل لكى تلائم المشكلات التى يتم التركيز عليها فى سياق معين. لذلك يعتبر الإنتاج التعاونى أو المشترك إطار عمل للتفكير فى كيفية اختيار الأساليب والنماذج الملائمة – وليست مجرد إجراء بسيط. ويجب أن تتوافق تماما وضروريا مع تطور التنوعات الكبيرة لأساليب وبرامج البحث.

إن تصميم مجالات الاتصال هذه (انظر الفصل السادس) واستخدام عمليات جماعة معينة يجب أن يكون ناتجا بشكل دائم عن تقدير (وتقييم) موقف معين. لذلك عندما يكون لدى الحى أو الجيرة اهتمام كبير بأمور حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، فإن الأساليب الفنية القائمة على بناء الإجماع أو الاتفاق العام ربما تكون هى الملائمة. إن استخدام منهجية مؤتمر البحث **Search conference methodology** (انظر الفصل التاسع: بحوث الفعل البرجماتية) ربما تكون مفيدة وملائمة. وبالمقابل فى الموقف الذى تظهر فيه الصراعات بين الجماعات الواضحة، سواء كانت هذه الصراعات ظاهرة أو كامنة، على سبيل المثال فيما يتعلق باستخدام الموارد الطبيعية فربما تكون إستراتيجية الصراع **Conflict- bridging strategy** هى الأكثر فائدة. إن الممارس الأكثر مهارة فى بحوث الفعل يجب أن يكون قادرا على قراءة المواقف المحددة أمامه وإعطاء معنى لها، واستخدام بصيرته ومهارته فى اقتراح طرق تصميم عملية بحوث الفعل فى كل حالة، حيث يوجد تآلفات أو مجموعات متحدة من المعرفة المحلية والعلمية، والفاعلين والعمليات المتنوعة. (ص.١٠٩)

ونحن نتعاطف مع أى رفض لفكرة تلائم اتجاها معينا لبحوث الفعل نظرا لأن إنجاز بحوث الفعل تعنى الارتباط بعملية متفق عليها تتضمن

الأفعال المتبادلة وردود أفعالها. ويفكر الممارس المهنى الماهر باستمرار فى الخبرات الميدانية ويبحث عن كل ما هو ضرورى للمساعدة فى عملية التغيير ويحتفظ بالتحرك نحو كل ما يمكن تعلمه وتعقبه. إن هذا المزيج (الخليط) من الأساليب ونماذج العمل والمستفيدين المحليين يعتمد على السياق بما يتلاءم مع العملية، والتى تتضمن سواء الانعكاسات وردود الأفعال على الفعل **Reflection-in-action**، أو الانعكاسات وردود الأفعال الناتجة عن الفعل **Reflection-on-action** : انظر أيضا الفصل رقم ١٥ علم الفعل والتعلم التنظيمى. وهذا هو الشكل الجوهرى فى تطبيق بحوث الفعل.

كتابة (تسجيل) بحوث الفعل Writing Up AR:

يتمثل التأثير الثانوى لتطبيق مفهوم الجدلية كأسلوب لوضع تصور لإنتاج المعرفة فى بحوث الفعل فى توضيح وتحديد ديناميات عملية إنتاج المعرفة. إن المعرفة لا يتم بناؤها مرة واحدة، ولكنها تنتج من تعاقب وتوالى المواجهات الجدلية (المناظرات العلمية، وجهات النظر المتعارضة للوصول إلى تركيبات جديدة)، حيث تنتج فى كل مرحلة المعرفة التى تعتبر أفضل ما هو متاح فى وقت معين، حيث تعتبر مفهومة ومتفقا عليها بين الباحثين الخارجيين والأشخاص الداخليين المشاركين فى عملية إنتاج تعاونية، ولكن تعتبر هذه المعرفة مؤقتة وقابلة للتطوير والتحسين وفقا بواسطة التحديات والمتغيرات الجديدة. وما دام يتم تشجيع عملية الارتباط أو الاندماج بين الأشخاص الفاعلين فإن الجدلية تعتبر العامل الرئيسى فى إنتاج المعرفة.

وبتناولنا لطبيعة عملية إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل نجد أن عملية الصياغة أو الوصف لا تتوافق مع أساليب العلم التقليدية. إن عملية التغيير التى تنهض بالمعرفة يجب أن تنقل جيدا وبشكل واضح من الداخل. ولفعل

ذلك يجب أن تنتقل المشاركة فى العملية والتصورات العلمية فى المشروع وتطورها بواسطة مختلف المستفيدين من أوضاع ومواقع الفاعلين فيها.

وتحتاج بحوث الفعل إلى نوع من الكتابة يعكس بصدق الطبيعة الدينامية والمتطورة لهذه البحوث، والتى تعيد للقارئ صياغة العناصر الأساسية فى دوائر التعلم التجريبى. فربما لا يكون القارئ فى حاجة إلى فهم كل نتائج التعلم، ولكنه يحتاج إلى توصيل واضح لمعظم تاريخ التعلم فى المشروع. وهذا يتطلب دمج النمط القصصى داخل دوائر التعلم التجريبية.

والقصص أو الروايات كما نراها بشكل عام هى أكثر الأساليب الواعدة لوصف التجارب والخبرات فى بحوث الفعل. وهذا لا يعنى بالطبع أن يقوم باحثو الفعل بصياغة القصص التى لا تدعم العلاقة بين النظرية والممارسة. حقا إن التحدى هنا يتمثل فى إيجاد علاقة ارتباطيه مقنعة بين النظرية والممارسة. إن أكثر الحلول وضوحا لهذه المشكلة يتمثل فى إيجاد نص مكتوب له معنى متفق عليه بين الممارسين والعلماء. وهذا لا يمنع أننا نحتاج إلى الكتابة فى النشرات والمقابلات المختلفة التى تتراوح بين الدوريات العلمية والجرائد العادية. والمهم هنا أن هذه النصوص يتم بناؤها بشكل عام فى صورة نموذج قصصى يتسم بالشفافية والوضوح عن المشروع الفعلى. وبالطبع فإن هذه النشرات أو المقابلة هى محل خلاف كما سنوضح ذلك لاحقا. ونتيجة لكل ذلك تتخذ كتابة بحوث الفعل فى الغالب شكل دراسات الحالة **Case Studies** مع عمل مناقشات مفصلة للعمليات التى قامت بها الجماعة لإنتاج المعرفة التى ارتبطت بها وعملت من خلالها. ونتيجة لذلك تتبع معظم بحوث الفعل الكتابات القصصية المتعددة الأساليب البيانية والبلاغية.

معظم العلماء الاجتماعيين فيما عدا أصحاب المذاهب البنائية وما بعد الحداثة، ينتمون إلى الفلسفة الوضعية ولديهم نظرة ضيقة هو ما يضع معايير

مهنية ذات معنى. ويرون أن القصص يصعب فهمها ويصعب التحكم فيها وربما تثير بعض المخاوف. وبكل أسف من وجهة نظرنا مع رواج وزيادة اســـتخدام نماذج الاختيار العقلانى أو المنطقى فإن دفاع ومقاومة العلماء الوضعيين قد أدت إلى زخم- صحيح بالتناغم مع عودة غير المحافظين إلى نظـــام العولمـــة- وأن بيئة العلوم الاجتماعية التقليدية غير مفضلة تماما للتحليل القصصى.

وقد حصلت بحوث الفعل على معظم قوتها من خلال القصص ذلـــك أن القصص بصفة خاصة تستدعى وتبـــوح بتـــواريخ محـــددة وعمليـــات والتزامات وكفاح ومعارك وهزائم وانتصارات، وهذا يعتبر جوهر الإنتـــاج الجدلى التعاونى. فمن خلال القصص ربما نصل إلى العديد مـــن الأنـــواع، وكل قصة تشير إلى موقف معين ومجموعة معينة مـــن الارتباطـــات بـــين العناصر (الناس والتنظيمات والأحداث). ولكن كتابة القصص لا تتعـــارض مع إنجاز المساهمات العلمية. وكما بذلنا جهدا كبيرا فى الفـــصلين الرابـــع والخامس فى القول إنه لو تطورت القصص فى مشروعات بحـــوث الفعـــل أخبرتنا القصة أنه عند الاختلاف مع معظم التعميمات فى العلوم الاجتماعية، فإن معظم التعميمات خاطئة أو يجب تعديلها لكى تغطى الحالة. والقـــصص تعتبر قوية علميا.

على سبيل المثال فإن عملية التعميم السائدة بين النظريات الاقتصادية هى أن التعاونية لا يمكن أن تتنافس بنجاح مع إدارة الأعمال غير التعاونية. وقد أظهرت دراسة مونـــدراجون **Mondragon (Greenwood et al, 1992)**

إن التعاونية تعتبر أكثر نجاحا من المتنافسين المباشرين فيها. وقـــد أكدت ذلك الأحداث المتلاحقة بوضوح. لذلك تعنى القصة لمونـــدراجون أن التعميم عن اللاتنافسية فى التعاونية كما تحددت غير صحيحة وغير صادقة.

وخلال الخمسة عشر عاما الماضية فإن إعادة تقييم القصـــصية قـــد تطورت من خلال الاعتراف بأن البحث الاجتمـــاعى هـــو مجموعـــة مـــن

التفاهمات المبنية على أساس اجتماعى نتج عنها عدد من البناءات المنطقية. وهذه البناءات لها خصائص قصصية، وهذه الخصائص القصصية نفسها يجب تحليلها لفهم كيفية أن تحليل هذه المقالات والمعالجات قد ساهم فى إيجاد معان محلية، وأصبح مقنعا وسائدا.

ولم يمر وقت طويل حتى أظهر ما كتبناه عن أنه اتجاه يتسم بالغموض الواضح وتم صرف النظر عنه. ولكن عانت العلوم الاجتماعية التقليدية من العديد من الأزمات فى أعمالها. ومن خلال حصولها على المنح فقد كان من الواضح أن جزءا كبيرا من الناس قد فقد الإيمان بالمحاولات التى قامت بها العلوم الاجتماعية التقليدية. حيث وجدوا أنها غير منطقية وتخدم نفسها، ويتم فهمها على أنها تافهة أو خاطئة. إن الجهود المزعجة التى قامت بها هيئة علماء الاجتماع الأمريكيين والهيئة الأمريكية الأنثروبولوجية فى السنوات السابقة للمطالبة بالقيم المدنية لنظمهم تعتبر رد فعل دفاعى عن فقد هذه العلاقة.

قصص التعلم التجريبى Narratives of experiential learning:

تعتبر القصص كما نراها وسيلة مهمة وقوية لتسجيل (بطريقة عميقة ومنظمة) الخبرات الناتجة عن الأنشطة التى تتم فى مشروعات بحوث الفعل. ولكنها تعتبر غير كافية وحدها فى صياغة نص جيد يربط بين الأفكار وأنواع الفهم المختلفة فى بحوث الفعل، فنحن نحتاج إلى أدوات أخرى. ودعنا نبدأ بتلخيص العناصر الحيوية والجوهرية فى بحوث الفعل. الأنشطة التى تدور فى دوائر حول التجريب الفعال، وانعكاسات النتائج، وإعطاء معنى لما تم لصنع أو إيجاد هذه النتائج. وهذه البناءات أو التركيبات للمعنى، والتى هى بالفعل تجسد التكامل بين أصحاب المشكلة من الداخل والباحثين

الخارجيين تقود إلى القيام بأفعال جديدة متاحة وممكنة، والتى تعتبر أفضل مقابلة أو إشباع ممكن لأهداف المشروع. وفى هذه الوسيلة يمكن تصور عمليات بحوث الفعل على أنها سلسلة من العمليات التى تختبر وتتعلم من النتائج وتوجد فهما عميقا يقود إلى أفعال جديدة. وهذه هى العملية التى من خلالها يتعاون الخارجيون والداخليون فى إنتاج المعرفة التى تقود إلى هذه الأفعال الجديدة. وعند تسجيل أو كتابة بحوث الفعل من المهم التركيز على هذه الحلقات المتعاقبة من التعلم. فبعض هذه الحلقات يعتبر قصيرا وبسيطا والبعض الآخر طويلا ومعقدا، والبعض له تأثير قليل على المشروع بينما للبعض الآخر تأثير مهم وجوهرى فى تحديد النتائج والوصول إليها.

وسوف تحدد عملية تسجيل بحوث الفعل من وجهة النظر هذه الحكم الواعى أى من سلسلة التعلم تضع محددات الحالة الجارية للمشروع وأيها لا تحدد. وفى النموذج القصصى يجب أن تكون هذه السلاسل هى الوسيلة التى من خلالها تتواصل الأحداث فى المشروع، بطريقة واضحة وشفافة ولديها بنية ومساحة كافية تمكن من القراءة المتعمقة والنقدية. ومن خلال وجهة النظر هذه يكون لدى القارئ الفرصة لكى يتخذ قراره أو حكمه الشخصى على عملية البحث، وعلى نتائجه الملموسة والعملية، بل ويساهم فى أدبيات البحث التى وردت فى هذا النص.

ومتابعة لهذه التوصية فإنه من الواضح أن نصوص بحوث الفعل تقع فى منطقة تتقاطع خط النشرات العلمية القائمة على أساس البحوث التقليدية. فالمعرفة التى تم إنتاجها فى المشروع يتم نقلها إلى القارئ بحيث تتبع نفس المنطق الأساسى الذى تحقق فى المشروع الحقيقى. وهذا يسمح للقارئ أن يرى كيفية مساهمة السياق السياسى والاقتصادى فى نتائج المشروع. ومن وجهة النظر هذه فإن هذا النوع من النص الملتوى (الحلزونى) هو الأقرب

لتطور الحياة الواقعية عن الكتابة الخطية، وسوف يشكل بالتالى فهما أكثر ثراء وفهما واضحا لبحوث الفعل.

النشرات التقليدية Conventional Publications

يمكن إنتاج النشرات البحثية التقليدية عن بحوث الفعل عندما يتعلم الباحث شيئا ما عن الاهتمام النسبى للمشاركين المحليين، ولكن ربما تكون هذه هى القضية الرئيسية فى أدبيات البحث. ومع ذلك فنحن نعتقد أن نتائج البحث التى تكونت على أساس صلب ومتين مقارنة بنتائج معظم العلوم الاجتماعية التقليدية بسبب الارتباط لمدة طويلة من الزمن وتنمية الفهم المشترك مع الداخليين فى بحوث الفعل.

الكتابة التفصيلية Joint Writing:

يمكن أن تحدث الاتصالات بالمجتمع العلمى من خلال التعاون بين الداخليين والخارجيين فى بحوث الفعل. (انظر؛ **Mondragon case in Chapter 3, and Levin, 1988, Levin et al.,1980a, 1980b)** وعلى الرغم من أن هذه العملية معقدة وتوجد العديد من القضايا الجديدة حول التأليف والخصائص العقلية وغيرها، فإنه لا خلاف على أن الداخليين والخارجيين يستطيعون أن يرتبطوا ويتصلوا معا مع مجتمع البحث المهنى.

وهناك خيارات عديدة فيما بينهم. أحيانا يتم إنتاج تقريرين أحدهما خاص بالمستفيدين والآخر لممارسى بحوث الفعل. وأحيانا يتم إنتاج تقرير للمستفيدين فقط وهكذا. وتعتمد هذه البدائل على سياق المستفيدين وأهدافهم فى المشروع.

ردود فعل الداخليين Insider Reflections:

يعتبر التعاون فى إنتاج التقارير مع الباحثين الخارجيين أحدث وسائل تقديم العلمانيين **Laypeople** لأسلوب لكتابة كأداة للتعلم الانعكاسى. إن عملية الكتابة، والتى تتضمن العديد من أدوات التفكير العلمى (العمل مع البيانـــات، والتحليلات، والاستنتاجات) يمكن أن تأتى بأبعاد جديـــدة لإنتـــاج المعرفـــة المحلية. وعلى الرغم من أن هذه الوسيلة لبناء العملية الانعكاسية أو عمليـــة ردود الأفعال لا يمكن أن تكون بديلا عن التفكير العملى (الواقعى) اليـــومى، فإنها يمكن أن تكون أداة مفيدة جدا للمجتمعات والتنظيمات المحلية فى ترتيب أمورهم. ويزيد الداخليون أيضا من تفكيرهم العملى من خـــلال مـــشاركتهم الخبرات وأنواع التعلم من الأفعال التى يقومون بها كأعضاء فى فريق بحث الفعل. وكل هذه العمليات تجرى بشكل مستقل عن جهود الباحثين الخارجيين، ومع ذلك تعتبر جزءا من عمليات بحوث الفعل.

How good is good enough to call project AR

نكون واعين فى عملية الكتابة هذه وفى خبراتنا الفصلية بأنه عنـــدما نؤكد على المثاليات فى بحوث الفعل فإننا نغالى فى الحالة ونجعلها تظهر أن هناك معايير عالية وفوقية يجب أن تخضع لها بحوث الفعل. إن بحوث الفعل ليست عمليات مثالية تحدث مثل الاقتصاديات الكلاسيكية الجديدة فى بيئة من المعلومات التامة، وكذلك الظروف والأوضاع الأخرى غير الموجودة، والتى لا يصدقها العقل. إنه عملية واقعية تحدث فى سياقات زمنية حقيقية مع ناس حقيقيين وبها كل الأحداث الطارئة والعيوب والإيجابيات والسلبيات الموجودة فى أى عملية إنسانية. وربما تكون الجدليات فى بعض الأحيان تعتبر صـوتا جذابا، ولكنها فى الغالب كخبرة قائمة تعتبر مجهدة ومنهكة ومضعفة.

وبالضرورة فإن معظم عمليات بحوث الفعل تبدأ مع تحديد دقيق لمشكلة معينة واهتمامات تعاونية محدودة، بدون وجود كل الأجزاء ذات العلاقة على مائدة واحدة. إن مفتاح نجاح الممارسة فى بحوث الفعل هو تصميم ومساندة عملية تستطيع أن تظهر ردود الفعل والانعكاسات المهمة من خلال عمليات الاتصال والقيام ببعض عمليات حل المشكلة الناجحة كوسيلة شاملة وواسعة كلما كان ممكنا. ومع تحقيق بعض النجاحات الأولية، فإن المشكلة فى صورتها الأولية يتم تنقيحها وإعادة تكوينها، تماما كما يحدث فى الفروض التى يتم تنقيحها وإعادة تكوينها فى البحوث المعملية (انظر الفصل الخامس)، ويمكن تغيير تركيب الجماعات الأولية كرد فعل أو نتيجة لمجموعة كبيرة من مشكلات أعضائها على نحو أكثر ملاءمة. إن المدى الذى تبتعد به عمليات بحوث الفعل عن المثالية يعتمد على الموارد والطاقات والمهارات وغيرها من عناصر الموقف الذى يتخذ المشروع مكانا فيه.

ونحن نركز على هذه النقطة بسبب أننا نجد فى الغالب باحثى الفعل وأولئك الذين يتوقون إلى إجراء هذه البحوث يكونون مدافعين بقوة عن مشروعاتهم. إننا لا نستطيع أن نحسب عدد الأوقات التى نتحدث فيها عن المشروع بمقدمة مثل "حسنا، مشروعنا ليس مشروع بحث فعل حقيقى ولكن........" "تعتقد أن هذا التوجه العقلى أو الفكرى هدام جدا" إن مشروعات بحوث الفعل تتسم بالتعقيد وبطول الوقت يتم بناؤها من خلال خطوات صبورة (متمهلة) فى عملية البناء التعاونى للمعرفة، وتنمية الوعى المتبادل، وتعتمد أيضا على العديد من الأحداث فى السياق المحلى والتى من خلالها يكون لدى المستفيدين درجة تحكم ضعيفة. ومن وجهة نظر النضج، فإن مشروعات بحوث الفعل لا تصل إلى درجة المثالية. ونحن غير آسفين عن ذلك بل ونسارع فى تحديد أننا لا نرى أن مشروعات البحوث الاجتماعية التقليدية غير مليئة بالأخطاء والتسويات. وكما يقولون "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر".

الخلاصة:

ناقش الموضوع الرئيسى في هذا الفصل عمليات إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل على مستوى نسق التعلم. وفى الفصل السادس من الكتاب قدمنا نموذج الإنتاج التعاونى، وناقشنا إيجاد (تكوين- خلق) المعرفة والتعلم على المستوى الاجتماعى والفاعلين، وقد انتقلنا فى هذا الفصل إلى المستوى التحليلى لمعرفة.

الفصل الثامن

الصديق الخارجي The friendly outsider

من بحوث الفعل كإستراتيجيات بحثية إلى المهارات التى نحتاجها لكى نصبح باحثى فعل

ركزت رؤيتنا فى الفصل السابق على المستفيدين المحليين، وهنا نركز أكثر على الباحثين المهنيين. وكما هو دائما فى بحوث الفعل، فكلاهما يرتبط معا خلال عمليات إنتاج التعلم التعاونى.

لا تحاول أن تقهر العالم الجامح العنيد

Not trying to overcome an Unruly World

كما حددنا سابقا فإن بحوث الفعل هى عملية إنتاج تعاونى، والتى من خلالها يفهم الباحثون المهنيون والأعضاء المهمون فى التنظيمات والمجتمعات المحلية، أو التنظيمات التى يتم تكوينها للمشاركة بوجه خاص فى بحوث الفعل المشكلات ذات الاهتمام المتبادل ويسعون إلى حلها. إن بحوث الفعل هى عملية اجتماعية، والتى تشكل من خلالها كل من المعارف المهنية والمعارف المحلية ومهارات العملية ومهارات البحث والقيم الديمقراطية الأساس لإنتاج المعرفة والتغيير الاجتماعى.

وقد حاول الباحثون التقليديون عمل فصل جاد بين تصميم البحث الذى حددوه بشكل مسبق من بداية البحث والسعى للتحكم أثناء البحث

(الملاحظة بعناية لأى انحرافات تخرج عن الخطة الأصلية) وتحليل نتـــائج البحث، والتى تم تكوينها ووضعها فى تقرير بعد الانتهـــاء مـــن إجـــراءات البحث. ونادرا ما يتحمل الباحثون التقليديون مسئولية الوصول إلــى نتـــائج بحث قابلة للتطبيق اجتماعيا، أو يصبحون ضمن عمليات تطبيـــق أبحـــاثهم. ويدعى بعضهم أن بحثهم مفيد بسبب أن كل التحـــسينات والمميـــزات فـــى المعرفة الاجتماعية تعتبر مفيدة، أو بسبب أن الموضوعات التـــى يقومـــون بدراستها تعتبر مهمة اجتماعيا.

وتقودنا هذه التصرفات إلى الاعتقاد بأن العالم يبدو أمـــام البـــاحثين التقليديين، وكأنه مكان جامح وعنيد يحاول أن يخدعهم ويضعهم فى معتقد ما هو غير حقيقى أو لا واقعى. وتتمثل الاستجابة لهذا العالم الجامح والعنيد فى القيام بكل ما يستطيعون للتحكم فى هذا الجموح من خلال الاعتمـــاد علـــى أساليب موضوعية لجمع البيانات ومعالجتها ومن خلال الانـــضباط الـــذاتى. وتعتبر أساليب البحث ذات أهمية كبيرة فى تحقيـــق الـــتحكم والموضـــوعية للباحثين لذلك يستطيع أى باحث آخر الوصول إلى نفس النتائج باستخدام نفس الأساليب.

ويرفض باحثو الفعل هذه النظرة القائمة على العديد من الخلفيـــات. وعلى الرغم من أن الكثير من باحثى الفعل يعترفون بأنه من السهل أن نعتقد بما هو أفضل للعالم فإننا لا نقبل فكرة أنه من الممكن فصل عملية البحث عن أبعادها الإنسانية، أو فصل العملية عن النتائج. إن بحوث الفعل تبحث عـــن وضع عمليات البحث ونتائجه فى علاقة قوية (قريبة) ممكنة، وبناء البحوث على أساس احترام القدرات الإنسانية والثقة التامة فيها. وتركز بحوث الفعل أيضا على القيم الديمقراطية وعمليات الإنتاج التعاونى للمعرفة الذى يتم من خلال جهود المستفيدين لزيادة ضبط مواقف حياتهم والتحكم فيها.

خلق الإمكانيات بدلا من تعزيز الحدود

Creating possibilities rather than reinforcing limits

جاءت الخيالات والأوهام المسيطرة على البحوث الاجتماعية التقليدية، لأسباب سياسية وتاريخية واقتصادية جيدة جدا، جاءت من لغة التنظيمات البيروقراطية. وهذه التنظيمات تبحث باستمرار عن الضبط والموضوعية والتصنيف والتكرارية، وكل هذه تعتبر مظاهر جوهرية للعقليات البيروقراطية والسلطوية. ولكن قبل أن نذهب بعيدا تحت هذا الخط فمن الجدير أن نذكر أن البيروقراطية- على الرغم من الأيديولوجيات المضادة للبيروقراطية فى المجتمعات والمحافل العلمى- تعتبر تجسيدا لمحاولات تشييد تنظيمات وبناءات عامة ومعايير لاتخاذ القرار على أساس فكرة أو عقيدة مجردة وهى العدالة الاجتماعية. وبدلا من اتخاذ القرارات الخاصة بتوزيع الموارد العامة على أساس خلفيات شخصية، افترضت البيروقراطية ضرورة وجود معيار موضوعى لتصنيف العملاء والمشكلات، والتى من خلالها يكون توزيع الثروات والموارد العامة أبعد من مجرد وصولها على أساس شخصى. ومن خلال تطوير وتكوين معايير وطرق موضوعية تفترض البيروقراطية اتخاذ القرارات التى تتسم بالعدالة الحيادية فى القضايا المهمة وتوزيع الموارد الاجتماعية بعدالة. ونتيجة للفشل الكبير لهذه المحاولة فقد أصبحت الحاجة ملحة للتركيز على الاحتكارات الدولية، ومستغلى الحروب، وسياسات توزيع الأموال الحكومية، ولكن مع ذلك تركت أثرا يصعب محوه من العلوم الاجتماعية التقليدية.

ويقع تحت الأيديولوجيات والممارسات البيروقراطية مجموعة من الأفكار التى تتسم بالخداع الذاتى للبشر، وأن هذا العالم الجامح العنيد يجب وضعه تحت الضبط العقلى. لقد تعلم البيروقراطيون أن يضعوا أنفسهم

بمعزل عن الآخرين، مستخدمين أفكارهم العقلانية فى حل المشكلات التى يتفاعل فيها الآخرون شخصيا وانفعاليا. وقد تقبلوا أيضا الاختلافات الراديكالية فى القوى الاجتماعية والقدرات العقلية، ومع البيروقراطيين الذين يملكون القوة والموارد، ويصبح عملاؤهم متفاعلين ونشطين فقط بقدر ما يقومون به من ضغط للمطالبة بمساعدتهم. وتعكس الأيديولوجية البيروقراطية نسق معتقدات أساسيا وممارسات مهنية للبحث الاجتماعى التقليدى.

ويرفض باحثو الفعل هذا الإطار بمختلف خلفياته النظرية والمنهجية والسياسية والأخلاقية. فبالنسبة للخلفيات النظرية، يؤكد باحثو الفعل على أن هؤلاء الذين يواجهون المشكلات الاجتماعية لديهم الكثير من المعلومات والقدرات التحليلية اللازمة لحل مشكلاتهم. ويرجع باحثو الفعل المعرفة الأكثر وزنا وقيمة إلى الناس المحليين أكثر من الباحثين التقليديين أو البيروقراطيين. ويتشكك باحثو الفعل بعمق فى تفوق وسيادة المعرفة المهنية عن جميع أشكال المعرفة وأن "الأب والأم يعرفان أفضل")

ومنهجيا يرى باحثو الفعل أن اتخاذ القرار المشترك حول طرق، وتحليل الحالة التعاونى وتعليم الأساليب التحليلية لجماعة المشاركين فى البحث يؤدى إلى نتائج بحث قوية، بناء على جودة وكمية البيانات التى تم جمعها وعمق تحليل هذه البيانات وجودته. وسياسيا يرى باحثو الفعل أنه يجب أن تكون نتائج البحث محققة للنفع والفائدة للمشاركين المحليين فى الوصول إلى ضبط المتزايد لمواقف حياتهم الخاصة، ويجب أن تتأثر تساؤلات البحث بكل الأطراف التى يتضمنها البحث. أما أخلاقيا فيرفض باحثو الفعل أن يكون البحث عبئا على الكائنات الإنسانية الأخرى. ونحن لا نعتقد أن البحث الاجتماعى هو حق مهنى. إننا نحاول ترقية وتعزيز طرق البحث، والتى تزيد من قدرة الباحثين غير المهنيين على تعزيز ضبطهم وتحكمهم فى حياتهم وفى مواقفهم الاجتماعية.

فبحوث الفعل إذن هى عمليات تدار بصورة تعاونية من الأطـــراف المهتمة بالموضوع وليست أسلوبا يطبقه الباحثون المهنيـــون علـــى النـــاس الآخرين. وهذا يعنى أن باحثى الفعل يصورون عمليات البحـــث بأســـاليب متفردة (فريدة) واستخدام هذه التصورات والمساعدة فـــى المحافظـــة علـــى استمرارية هذه العمليات فى التحرك فى اتجاهات مفيدة بدون فرض اتجـــاه معين من أعلى. وأحد هذه التصورات لهذا النوع من العمليات الذى يعكـــس أفضل تصور للخبرات الجماعية لبحوث الفعل قد تم وضعه بواسطة العـــالم الفرنسى فرانسوا جـــاكوب **François Jacob (1982)** فـــى كتابـــه الممكـــن والواقعى **The Possible and the Actual**.

ويعتبر جاكوب **Jacob (1982)** واحدا من البيولـــوجيين التطـــوريين الرئيسيين فى الجيل المعاصر، والذى لم يكتب عن بحوث الفعل. وقد حاول توصيل معنى واضح للخصائص التى تتسم بالانفتـــاح والتنـــوع والديناميـــة لعمليات التطور والنشوء **Evolutionary processes** وانتقد النزعة الحاليـــة لتقليص التطور إلى نوع ما من القدر أو عملية تفاؤلية موجهة. وقد كتبـــت هذه النهاية عن التطور كعملية تقوم على حوار متواصل بين الممكن والواقع.

وقد بنى تحليل جاكوب **Jacob (1982)** المجال الحيوى والكيميـــائى والفيزيقى على وجهة النظر القائلة إن كل ما هو موجود فى أى لحظة فـــى التاريخ دائما ما يحتوى على العديد من الأشياء الصغيرة جدا، ويصبح أكثر إمكانية مما كان موجودا. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تعتبر غريبة فإنها تبدو منطقية تماما، فقد لاحظ جاكوب أن الحالة العضوية والفيزيقية الكيميائية تعتبر قادرة على إنتاج عدد هائل من التركيبات المحتملة، **(P. 117)**

إن أسباب وجود تركيبات معينة أو عدم وجودها لها أساس تاريخى. وهنا يتدخل التاريخ بسبب أنه فى أى مرحلة من مراحل تطور الأرض توجد

شروط معينة. وخلال هذه المراحل وتحت هذه الشروط نجد فقط قدرات حيوية أو فيزيقية كيميائية معينة تعمل تاركة بعض الإمكانيات التى لا يمكن المساس بها أبدا فى عمليات التطور المستمرة. وبكلمات أخرى إن ما يحدث ببساطة هو الذى يحدث، وليس كل شيء يحدث. وعندما يمر الوقت تعمل فقط بعض الإمكانيات الجديدة التى تم إنتاجها فى المراحل التالية. (أو الأحداث المختارة، فى المحادثة البيولوجية)

وقد جاءت هذه المناقشة بالتوازى مع عمل لاتور **Latour (1987)**. ولعل من أهم ما دعا إليه لاتور أن الحقيقة تصبح حقيقة عندما يقرر الفاعلون أنها تعتبر واقعا. وقد تم نقل وتوصيل هذه الفكرة مجازا بالصندوق الأسود المغلق، والذى يعنى أن وقت وكيفية إغلاق الصندوق يعتمد على أهمية وقوة المشاركين الفاعلين والسياق الذى تم من خلاله إغلاق الصندوق. وعندما أغلق الصندوق فإن الحقيقة تصبح واقعا. ومع ظهور مجموعة جديدة من المشاركين الفاعلين يعاد فتح الصندوق، حيث يتم إنتاج حقائق وإمكانيات جديدة.

وتبين وجهة النظر هذه أن العلاقة بين الممكن والواقع (الحقيقى)، تعتبر علاقة تاريخية وطارئة، وأن تاريخ العملية فى حد ذاته يعتبر عاملا سببيا **Causal agent**. وطبقا لجاكوب **Jacob** والتطور البيولوجى فإن عالمنا ليس أفضل من كل العوالم الأخرى. ولكنه بالأحرى عالم محتمل أو ممكن ويعتبر أمرا واقعا تاريخيا: مبتعدا عن الآخرين غير الواقعيين. وهذا ما يعنيه بدقة مفهوم التطور على الرغم من المحاولات المتكررة لترويض الفكرة وجعلها عملية تكنولوجية مباشرة. (انظر: **Greenwood, 1985**)

ونحاول أن نناقش هنا ما يسمى بالعمليات التطورية المستترة أو العمياء، والتى لم تطرأ على الإدراك الذاتى. فعندما نتعامل مع الكائن الإنسانى يصبح الموقف أكثر تعقيدا لأن الحوار بين الممكن والواقعى

(الحقيقى) يستمر فى العمل، ولكن القدرة الإنسانية علــى تــصور البــدائل الماضية والمستقبلية تفتح مدى واسعا جدا من العلاقات بين الممكن والواقعى. ذلك أن العلاقة بين الماضى والمستقبل، فى الأمور الإنسانية تمثل خليطا من الإمكانيات الفيزيقية والكيميائية والحيوية والظروف التاريخية وتنــوع رؤى الماضى واحتمالات المستقبل التى تدرك الكائن الإنسانى على أنهم يحــددون أفعالهم التى يتخذونها.

ومثل القوى التكنولوجية وضد التطورية **Antievolutionary** حاولت نظم الضبط البيروقراطى وأصحاب القوى الكائنة الوصــول إلــى ضــبط العلاقات بين الماضى والمستقبل، والتى تم تصورها على أن تكــون قــادرة على تحديد الاتجاه الذى يتخذه المستقبل. ومقابل ذلك تهدف بحــوث الفعــل بالتحديد إلى إعادة فتح الحوار بين الممكن والواقع وتواجه محاولات أصحاب القوة وعوامل بيروقراطيتهم للادعاء بأن المستقبل محدد سلفا. لــذلك يكمــن الاعتقاد الجوهرى لبحوث الفعل فى أنه يوجد العديد من احتمالات المــستقبل أكثر من التى يتم فتحها فى البداية، لذلك توجد جهود مهمة فى كل عمليــات بحوث الفعل لإعادة تحليل الماضى وتصور ما يحدث ضد النتائج المحتملــة الأخرى، والانحرافات المتوقعة فى المستقبل والناتجة عن عدم القيام بالفعــل الذى يتسم بعدم الوعى الذاتى، وكذلك ما هى الأفعال الأخــرى المرغوبــة أكثر، لمستقبل قد يكون مفيدا ومتاحا.

ولكى تكون باحث فعل يجب أن تعتقد بأن هناك مواقف أخرى أفضل ممكنة أكثر من تلك الكائنة حاليا. ويهدف باحثو الفعــل إلــى إعــادة فــتح إمكانيات واحتمالات التغيير، وتعزيز الشعور بالمسئولية نحــو المــستقبل، والتركيز على أن المؤسسة الإنسانية ليست مجرد أنساق للــضبط والــتحكم، إنها تمثل محور التغيير. وتتمثل إحدى نتائج هذا المنظور فى أن باحثى الفعل

لا يطبقون أساليب فنية فى المواقف. وبالأحرى فإننا نقوم بإحضار المعرفة والمهارات لجماعة من الناس الذين يتعاونون فى إطلاق العنان لإمكانيات الإدارة الذاتية للتغيير. وبالتقريب تدور كل اتجاهات بحوث الفعل التى ناقشناها فى هذا الكتاب بطريقة أو بأخرى وبلغات شديدة الاختلاف حول الرؤية الأساسية.

الارتباط بالنظرية والفهم المحلى؛ كفاءة علمية وتقنية (فنية) وغير حدسية.

Linking theory and local understanding; Being scientific, counterintuitive and technically competent

تعتبر الخبرة المعرفية **expert knowledge** فى البحوث التقليدية هى أساس المكانة والمنزلة المرتفعة للباحث، وقدرته على فرض كل أشكال الضبط والطرق والأساليب فى موقف البحث. وكما أشرنا فى الفصلين السادس والسابع بأنه يجب أن يكون لدى باحثى الفعل الخبرة المعرفية، ولكن ليس على أساس التعامل معها كمصدر واحد فقط. ولكننا ننظر إليها على أنها مساهمة منا فى الموقف الاجتماعى، والذى نشارك من خلاله كقوى إنسانية مساهمة.

إن المعرفة المطلوبة فى باحث الفعل هى معرفة قوية وثرية. ولمساعدة جماعة المتعاونين لحل بعض أنواع المشكلات الاجتماعية التى تواجههم، يجب أن يكون لدى باحث الفعل بعض أنواع التقدير الأساسية والجوهرية لبعض القضايا النوعية المتضمنة. فلو كانت المشكلة تلوثا صناعيا، فيجب أن يتوفر لدى باحث الفعل المعلومات الكافية عن الصناعة، والتلوث، وبعض من الحلول الممكنة أو أن يتعلمها. وعلى العكس من حالة الباحث الاجتماعى التقليدى الذى يتشكك رسميا فى المعرفة المحلية، ومع

ذلك فإن هذه المعرفة البيئية أو المحلية ليست فقط المسئولية الوحيدة للخبيــر المهنى. ويستطيع باحث الفعل أو يجب عليه الاعتماد على المعرفة المحليــة بدرجة كبيرة.

إن لدى المشاركين المحليين المهمين تعاملا كبيــرا وواســعا مــع المعلومات (أو الوصول إلى تلك المعلومات) عن ما الذى يؤدى إلى استمرار المعاناة الطويلة من المواقف التى يمرون بها. ويحاول باحثو الفعل البحــث بفعالية عن هذه المعرفة كعنصر مهم فى عملية البحث. وهذا ما يتعــارض بقوة مع ادعاءات الباحثين الاجتماعيين التقليديين بأن قدرتهم علــى تطبيــق طرق وأساليب البحث يجعل هذا النوع من المعرفة غير مهم ويعتبــر غيــر صادق علميا ومصدرا اختياريا للمعرفة.

ونظرا لاحتمال تطبيق نتائج مشروعات بحوث الفعل فــى مواقــف إنسانية معينة، فيجب أن يتحكم ويسيطر (يخضع) باحثو الفعل على المــنهج العلمى. وربما يملك باحثو الفعل مستوى عاليا لمقابلة (تحقيق) ذلك، بــسبب أن الباحثين الاجتماعيين التقليديين نادرا ما يتحملون مسئولية تطبيق نتــائج بحوثهم فى المواقف الإنسانية.

ويجب أن يكون باحثو الفعل المهنيون خبراء فى اســتخدام المــنهج العلمى مع إصرارهم على المحاولات المنظمة لاكتشاف التفــسيرات غيــر المتوقعة، والتى غالبا ما تختفى عن الرؤية بواسطة الافتراضات والعناصــر الأخرى فى التوجيهات التعليمية والأنساق الاجتماعية. وتعتبر هذه واحدة من أهم المساهمات التى يقدمها باحثو الفعل لمواقف بحوث الفعل. إن القدرة على توجيه أسئلة غير بديهية لتقريب القضايا من الباحثين الخارجيين والسؤال عن التفسيرات الهادئة يعتبر الدور الذى يجب أن يجب أن يعرف باحــث الفعــل كيف يقوم به بشكل جيد.

وأيضا يجب أن يقوم باحثو الفعل بإعداد مجموعة من الأطر العملية التحليلية للعمليات التى يقومون بها بينهم- تضع فى اعتبارها وجهات النظر الاقتصادية السياسية والبناءات الاجتماعيـــة، والإســـتراتيجيات المنطقيـــة، وعمليات التغيير، والأيديولوجيات. ويعتبر هذا الإطار التحليل مهمًا جدا فى تصور العلاقة بين الماضى وكل أشكال المستقبل المتوقعة. وقد تم فى العلوم الاجتماعية تطوير وبناء وجهات نظر علمية ومناهج يمكن أن تـــساعد فـــى جعل هذه البناءات واضحة بحيث يجب على باحثى الفعل الاطلاع عليها.

إن لكل الناس وجهات نظرهم عن كل الأحـــداث والقـــضايا التـــى ذكرت، وتعتبر مثل هذه الآراء أدوات ضرورية للحياة، وتشكل جزءا مهمًـــا من المعرفة المحلية. ويضيف البحث فى العلوم الاجتماعية بعض الأســـاليب الفنية وهياكل للمقارنة، والتى تعتبر بوجه عام غير متاحة أو غير مرغوبـــة غالبا فى أنساق المعرفة المحلية. وبتحليلنا هذه القضايا حول العالم وخـــلال مراحل زمنية طويلة، فقد طور باحثو الفعل وعيهم وإدراكهم حول إلى أيـــن تتوافق أنساق المعرفة داخل مدى واسع من التنوعات. ويفيد هـــذا الـــسياق الواسع **Contextualization** بحوث الفعل بسبب أن العديد مـــن الجماعـــات التى تعانى من مشكلات حادة وخطيرة تشعر بالحيرة بوجهة نظر معينة حول هذا الموقف، ولديها وقت صعب وخطير لتطوير عدد من الأفعـــال البديلـــة. وبوضع الموقف أو الوضع المحلى فى سياق هذه المقارنات الواسعة، يستطيع باحثو الفعل مساعدة الجماعات المحلية لتوسيع وعيهـــا وإدراكهـــا للموقـــف وبعض الاختيارات الملائمة له فى المستقبل.

ومن خلال اعتقادنا القوى بأن وجهات النظر القائمة على الاقتـــصاد السياسى والبناء الاجتماعى والأنساق الأيديولوجية، والتى يأتى بهـــا بـــاحثو الفعل إلى مواقف المحلية تعتبر ذات أهمية بالغة، فنحن لا نعتقد بأنه لا يوجد

اتجاه واحد صحيح لكل هذه الموضوعات يحتكره المهنيــون. ولنـــا، نحــن المؤلفين، وجهات نظرنا حول هذه القضايا والأحوال ولكننا ندرك بأنه يوجد العديد من الأنواع المختلفة من تحليلات الاقتــصاد الــسياسى (الماركــسية، والماركسية الجديدة، والكلاســيكية الجديــدة، والإصــلاحية، والتطوريـــة، والنقابات المهنية، وغيرها) وتماما كما فـــى حالـــة البنـــاءات الاجتماعيـــة (البارسونية، والبنائية الوظيفية، وغيرها) والأنساق الأيديولوجية (البنائية).

لذلك لا يوجد نظام واحد صحيح للتحليل، فبعض الاتجاهات لا تقدم أى مساهمات ذات معنى أو دلالة فى بحوث الفعل. إن جميع الأطر التى لا تظهــر دور القوى الاقتصادية والاجتماعية أو الاتجاه النفعى العام للتاريخ ليس لها مكان فى بحوث الفعل. إن تحليل علاقات القوة، ودور الأيديولوجية واتجــاه التــاريخ يعتبر ضروريا ومنشطا حيويا لكل مشروعات بحوث الفعل، ويجب أن يكــون على رأس أى أجندة بحثية كظاهرة إشكالية يجب التعامل معها.

ممارسات ومهارات باحثى الفعل

Practice and Skills of Action Researcher

ومن هنا نقوم الآن بوصف موقف بــاحثى الفعــل المهنيــين فــى مصطلحات واضحة حتى نصبح أكثر تحديدا.

المعرفة الآن Knowing Now ، والمعرفة الــضمنية Tacit Knowledge، وانعكاسات الفعــل Reflection-in-Action ، والانعكاســات علـــى الفعــل Reflection-on-Action

تتاجر الدراسات الأكاديمية بفكرة ضيقة عن الكفاءة والخبرة، والتـــى تحد من القدرات العقلية والتدريبية. وتتحدى بحوث الفعل هذا الوضع القـــائم

على أفكار ومقالات فلسفية تقليدية طويلة عن المهارات والكفاءة والمعرفـــة. وقد اقترح جيلبرت ريل **Gilbert Ryle (1949)** أن هناك تميزا وفرقا مهمـــا بين أن نعرف ماذا **Knowing what** ومعرفة كيف **Knowing How**، فمعرفة ماذا هى النشاط الرئيسى فى الحياة العقلية التقليدية فى الأكاديميات، والتركيز على القدرة على معرفة لماذا توجد قضية معينة وما هو تعريفهـــا. فـــالخبير الكفء هو الذى يعرف ما الذى يعبر به شخص ما عن أفكاره، وليست فـــى معرفة كيف فعل أى شىء بالتفصيل.

وقد رفض ريل **Ryle (1949)** هذا الإطار وحث على أن الذكاء يكون أكثر ظهورا من خلال الطريقة التى نعمل بها وليس الطريقة التى نفكر بها. إن "معرفة كيف" تظهر بوضوح– فى الأفعال العقلية التى تطبق– القـــدرات والإمكانيات التى يمتلكها شخص ما: إنها تظهر من خلال تطبيق المعرفة فى السياق المتاح. إن تحديد (تعريف) الكفاءة والخبرة هى معرفة كيفيـــة عمـــل شىء ما بطريقة مناسبة.

وقد توقع ريل **Ryle (1949)** الجهود الأخيرة التى قامت على أساس موضوع الكفاءة. على سبيل المثال أظهر الفيلسوف ميشيل بولانى **Michael Polanyi (1964)** أن الكفاءة يتم الوصول إليها من خلال الأبعـــاد الـــضمنية للسلوك الإنسانى. إن معرفة الكيان الإنسانى يساعد فى أكبر ممـــا نـــستطيع حصره فى كلمات، والمعرفة الضمنية (غير المعبر عنها) تعتبـــر المفتـــاح الأساسى فى الفعل الإنسانى الكفء.

وقد ركز بولانى **Polanyi (1964, 1966)** على كيف يكون الأطفـــال قادرين على تعلم الكلام. فإذا حددنا أنفسنا فى وجهة النظر بأن المعرفة هى فقط القادرة على تعبير عن اللغة، ومن ثم وبالتحديد فـــإن الأطفـــال ســـوف يصبحون غير قادرين على تعلم الكلام. وقد حل بولانى هذه المـــشكلة مـــن

خلال برهنته على أن اللغة تنقل فقط جزءا مما ندركه ونعرفه أما الأجــزاء الأخرى من معرفتنا، وهى تمثل الجزء الأعظم (الأكبر) فنعبر عنهــا مــن خلال أفعالنا. لذلك يتعلم الأطفال أساسا من خلال المعرفة الضمنية، والتــى فى النهاية تسمح لهم بالارتباط بمجتمع متحدثى اللغة لذلك فهم دائما يحتفظون بالبعد الضمنى أيضا.

وبناء على هذا الإطار فإننا نتصور الأنشطة المعقدة التى تقع تحــت الأفعال العقلية مثل المهارات الإنسانية والتركيبات المعقدة من معرفة كيــف، والمعرفة الضمنية وغيرها من أنواع المعرفــة الأخــرى (معرفــة مــاذا، واللغة... وغيرها) إننا نعتقد أن المعرفة الأكاديمية التقليدية (معرفة ماذا) عن بحوث الفعل تعتبر ذات أهمية فى الممارسات المستقبلية، ولكننا نؤكد على أن المعرفة ليست كافية لتدريب الممارسين فى بحوث الفعل.

ومن خلال هذا الإطار فإننا نلح على أن المهارات تعتبــر عنــصرا أساسيا وجوهريا فى بحوث الفعل، وأنها تظهر فقط خلال الأفعال العقليــة، وليست فقط من التصورات العقلانية السلبية أو المجردة. وفى نفس الوقــت فإننا ركز على أنه يجب بناء المهارات وتطويرهــا. ولا نعتقــد بــأن كــل المهارات هى ذات خصائص فطرية إنسانية. فمن خلال الحياة يطــور كــل الناس مهارات جديدة وتدعيمها. إن الهدف الرئيسى لهذا الكتاب يتمثل فــى تعزيز وتشجيع تكوين المهارات لممارسى بحوث الفعل. وتقوم المهارات فى بحوث الفعل بالتأكيد على السيادة العقلية للمفاهيم (التى تقــول بهــا بعــض النظريات) ولكن المهارات تعبر عن نفسها فى الأفعــال المتاحــة لتعزيــز عمليات بحوث الفعل، وإن التركيز على العمليات والمهارات يعتبر عنــصرا جوهريا من تعلم بحوث الفعل. (ص. ١٢٢)

وفيما يتعلق بهذا الموضوع فإننا نؤيد بقوة وجهات النظر عن الممارسة الانعكاسية التى طورها دونالد سكون **Donald Schon (1983, 1987, 1991)**. وقد قدم سكون فى عمله هذا مفهوم الممارسة الانعكاسية **Reflection Practice** لتحليل الوسيلة التى بواسطتها تتكون الكفاءة وتتطور بواسطة التدريب. وبالتركيز على تحليل عدد من التفاعلات بين المدرس والتلميذ فقد كون (طور) إطارا تصوريا يلقى الضوء على الانعكاس الارتباطى وتطبيقاته فى تطوير وبناء المهارات المهنية. فالمهارات لا تنقل ببساطة خلال مجموعة من المفاهيم تقدم من الأستاذ إلى التلميذ، ولكن بالأحرى خلال التفاعلات بينهما وجهودهم التعاونية لحل مشكلات معينة معا خلال أفعالهم.

وقد جاءت مناقشات سكون **Schon (1983, 1987, 1991)** مباشرة على نفس الخط مع أفكار بولانى **Polanyi (1964, 1966)** عن المعرفة الضمنية، ولكن ذهب أبعد من ذلك حيث ركز على كيفية تعليم هؤلاء الممارسين المهنيين. وقد تأثرت اهتمامات كل منهما بقراءاتهما لجون ديوى ونظرية التحليل النفسى وخبرتهما الطويلة فى الاستشارة (الإرشاد) المؤسسية. وقد تمثلت استجابة سكون فى تحديد عمليتين انعكاسيتين، الأولى هى الانعكاس – فى– الفعل **Reflection-in-action** وهى القدرة على ارتداد **(mirror)** العملية الانعكاسية فى الفعل نفسه، والتى تعتبر وسيلة لتقدير (تقييم) الأفعال فى عملية الأداء **(acting)**. أما الثانية فهى الانعكاس على الفعل **Reflection-on-action**، والتى تتكون من العمل خلال الخبرات التى تم الوصول إليها من الأفعال بعد وقوعها. وتتعزز كلتا هاتين العمليتين عندما يرتبط المهنيون مع الناس الآخرين فى التفاعلات التى تستخدم فيها الانعكاسات التبادلية لتعزيز الفهم. وقد طور سكون مناقشاته حول الانعكاس – فى– الفعل **Reflection-in-action** أكثر شمولا عن آرائه عن الانعكاس على الفعل **Reflection-on-action**.

ونتيجة لذلك فعند تقديم سكون وتطويره لإطاره هذا، فقد ميز العلاقة بين المدرب والمتدرب **Master- apprentice relationship** كوسيلة رئيسية لتحسين المهارات المهنية. إن العمل مع مدرب خبير واتباعه خلال العمليات اليومية والارتباط معا فى عملية انعكاسية، يستطيع المتدرب الوصول إلى مهارات المدرب، كما يتم تجسيدها وتفسيرها من خلال الأفعال. وهذا يتم من خلال عمليات الحوار التى تتم بين المدرب والمتدرب.

وإحدى النتائج هى الأفعال المهارية التى لا تتكون بشكل منفصل. ونحن نتفق على أن الخطوة الأولى المنطقية فى اكتساب المهارات هى جمع المعرفة العقلية من خلال قراءة المحاضرات والقراءات الفصلية، والطريق عادة ما يكون مفتوحا لطلاب الجامعة. ولكن تعتبر هذه مرحلة أولية فقط من عمليات طويلة ومتعددة. إن تكوين مهارات الخبرة فى بحوث الفعل هى عملية تتضمن مراحل عديدة.

وخلال العديد من السنوات أجرى ليفين العديد من برامج الدكتوراه لتدريب طلاب الدراسات العليا على بحوث الفعل. وقد تمحورت الفكرة فى كل هذه البرامج التدريبية على الدمج بين المعرفة النظرية ومهارات الممارسة فى معرفة كيف. والوسيلة الملائمة لتحقيق ذلك كانت فى عمل الطلاب مع الباحثين الخبراء. وقد تم إجراء هذه المشروعات مع الطلاب فى مرحلة التخرج فى كلياتهم الجامعية. لقد شاركوا فى تحمل مسئولية وارتبطوا معا بقضايا البحث. وقد أضافت هذه المزاوجات بين المدرسين والطلاب واتحادات وتجمعات إضافية فى بناء الجماعة التى تخلق (توجد) مجتمعا من باحثى الفعل الذين يتعاونون معا فى عمليات التعلم وتطوير المهارات.

وتعتبر هذه العلاقات أكثر تعقيدا من المزاوجة بين المدرب والمتدرب **Master-apprentice dyad**. وقد حدد دريفوس ودريفوس

Dreyfus and Dreyfus (1986) خمس مراحل فى تطور مهارات الخبيـــر، المبتـــدئ novice والمبتـــدئ المتقـــدم advanced beginner والكـــفء competent والبارع proficient والخبير expert. ويتم اكتساب المهـــارات الإنسانية تدريجيا من خلال مستويات متنوعة، ويعمل الممارســـون بـــشكل متميز فى كل مستوى من هذه المستويات. ويتبع المبتدئ القواعد التحليليـــة التى تطبق بدون الاعتراف الكافى بالسياق، وكما هو الحال بالباحث التقليدى يشعر المبتدئ بالانفصال عن العملية. وبالتدريج تنتقل القدرة علـــى قـــراءة السياق (البيئة) وفهم التطبيقات المحتملة للأفعال من مستوى المبتـــدئ إلـــى مستوى المبتدئ المتقدم. وبناء على خبرة التى يمتلكها الشخص كأساس لهذا التطور فإن تاريخ الأفعال يعتبر أكثر أهمية كمصدر للـــتعلم مـــن أشـــكال الاتصال الواضح والتحليلى الذى يتم فى الدراسة الأكاديمية.

إن لدى الممارسة الكفء القدرة على التحول والانتقال بين الـــسياق الحر (على سبيل المثال التحليل) والمكونات السياقية فى مواقف تدخل نوعية (معينة)، ولكن نجد أن اشتراكه فى النشاط محدد بمحاولته التأثير فى النتائج. وأخيرا يؤسس الخبير نشاطه المهنى على أساس الاشتراك الكامل فى الموقف المحلى وتقديم العديد من الاقتراحات على أساس المعلومات التـــى اكتـــسبها بالخبرة عن الاختيارات المناسبة القائمة للأعمال السابقة، تخمين أو معرفـــة كيف، كما نفهمه نحن، لا يكون نتاج لتخمين واسع أو طموح غير طبيعـــى، ولكنه نوع من القدرة التى نستخدمها جميعا فى كل الأوقات مثل المهام التى نؤديها بشكل يومي (Dreyfus and Dreyfus, 1986, p.29). هذا وقد وضـــع دريفوس ودريفوس Dreyfus and Dreyfus(1986) مخططا تم تلخيصه فى جدول (٨-١).

وسواء قبلنا أو لم نقبل النماذج النوعية لتنمية المهارات لسكون Schon (1983, 1987, 1991) أو لدريفوس ودريفوس Dreyfus and Dreyfus (1986) فإننا نريد أن نوضح أن كل المهارات تعتبر عنصرا أو مكونا مهمًا وعظيما فى معيار الكفاءة الضرورى لكى يصبح الباحثون ممارسى فعل جيدين. وتتضمن الممارسة المهنية أكثر من مجرد القواعد الواضحة والمحددة التى يتم نقلها بتجريد من الجلسات الأكاديمية. إن المعرفة هى عبارة عن سياق محدد تلعب فيه المعرفة الضمنية والتخمينية أدوارا مهمة، وإن الوصول إلى(اكتساب) المهارة يتحقق أساسا من خلال الانعكاسات من وعلى الفعل. إن التعلم من خلال الخبرة الشخصية يعتبر عنصرا جوهريا فى تنمية مهارات ممارسى بحوث الفعل ولا يوجد بديل عنها.

جدول (٨-١): مرحل اكتساب المهارات

مستوى المهارة	المكونات	المنظور	القرار	الالتزام
مبتدئ	السياق الحر	لا يوجد	تحليلي	منفصل
مبتدئ متقدم	السياق الحر وموقفي	لا يوجد	تحليلي	منفصل
كفء	السياق الحر وموقفي	مختار	تحليلي	فهم منفصل وقرار الانضمام إلى النتائج
ماهر/بارع	السياق الحر وموقفي	التمرس	تحليلي	فهم شامل وقرار منفصل
خبير	السياق الحر وموقفي	التمرس	تخميني	منضم

الصديق الخارجى Friendly outsider:

وبالإضافة إلى التوجهات العامة لتكوين المهارة التى حددناها، فإننا نأمل فى أن نحدد باختصار مهارات معينة محددة يجب أن يجيدها بفعالية

باحثو الفعل. ويجب أن يعرف كيف أن يكون خارجيا صديقا. ويعتبر هــذا الدور حيويا فى بحوث الفعل نظرا لأن المنظور الخارجى يعتبــر عنــصرا أساسيا فى البدء فى عمليات الجماعة المحلية نحو التغيير. ولكن يعتبر هــذا الخارجى شخصا ودودا وصديقا. فيجب أن يكون قــادرا علـــى أن يعكــس للجماعات المحلية الأشياء والأمور المهمة المرتبطة بهم، والتى تتضمن نقــد وجهات نظرهم أو عاداتهم بأساليب وطرق داعمة لهم وليست إنتقادات سلبية أو مستبدة. إن باحثى الفعل الجيدين هم الذين يحققون التــوازن بــين النقــد والتأييد من خلال أفعال وإجراءات متنوعة، تتضمن التغذية العكسية المباشرة وردود الفعل أو الانعكاسات المكتوبة، وإجراء المقارنـــات بــين الحـــالات والاستشهاد بحالات من الأدبيات المهنية عندما يكون هناك حالات أو فرص متشابهة أو عمليات حدثت.

ويجب أن يكون الصديق الخارجى أيضا خبيرا فـــى فـــتح خطــوط وقنوات للمناقشة، كنوع من التعليم الأرسطى. وغالبا ما تكون التنظيمات أو الجماعات المحلية إما مرتبطة بمواقف تتــسم بالقــسوة، أو أنهــم يتــسمون بالتشاؤم من إمكانية التغيير. وتستخدم العديد من الوسائل التى ناقشناها فـــى الجزء الثالث لإعادة فتح إمكانية التغيير. إن مرونة عملية التغيير والفــرص المتاحة له يتم تحديدها وشرحها للناس المحليين، بالتزامن مع تشجيعهم بنوع من الدعم الأخلاقى وتقديم المعلومات من الحالات الأخرى، والتى تتشابه فى المشكلات الكائنة لهؤلاء الناس، بحيث يصبح التغيير عندهم أمرا ممكنا.

ومن الأدوار الرئيسية الأخرى للصديق الخارجى تحديــد المعرفــة الضمنية التى توجه السلوكيات والتصرفات المحلية بوضوح تام. وقد يكــون ذلك فى شكل ردود فعل نقدية أو تعليقات تدعيمية عن مدى وحدود الكفاءات المحلية. إن الخارجى غير المتعود على الجماعات أو الأحداث المحلية، فإنه

يتخذ مكانا مثاليا لملاحظة هذا النوع من المعرفة الضمنية وغالبا ما يكـون غير مرئى للداخليين. وغالبا ما يتخذ ذلك شكل تشجيع الناس المحليين علـى إدراك أن لديهم مستودعا مهمّا وقيما من المعرفة التى ترتبط بحل المشكلات التى يواجهونها. وأحيانا ما تتخذ شكل النقد لبعض طرق التفكيـر المحليـة، والتى تجعل الجماعات تغلق أو تدور فى حلقة غير منتجة نحو القضايا التى يعانون منها بدون حلها.

ويرتبط بهذا الدور دور آخر، وهو الحـديث مـع المحليـين غيـر القادرين على الكلام. وبسبب تاريخ هؤلاء المحليين معـا وبـسبب بنـائهم الاجتماعى وعلاقتهم الاقتصادية، أو ببساطة بسبب القـيم والآداب العامـة لديهم، فإنهم يكونون فى الغالب غير قادرين على الحديث إلى بعضهم بعضا بالأشياء غير المريحة التى يدركونها بوضوح. وهذا هو حـال الجماعـات الإنسانية فى أى مكان (Argyris & Schon, 1996). ولا تعطى أى جماعـة إنسانية تعمل مع أى عضو أى تغذية عكسية واضحة وأمينة مـع أى مـن الأعضاء الآخرين، ولكن تحتاج عمليات التغيير تنمية تغذية عكسية مفتوحة وكثيرة لإنتاج إمكانيات الفعل فى مناطق اجتماعية معينة.

وفى هذا السياق لا يتحدث الصديق الخارجى فى كل حالة عدم قدرة على الكلام. فالجهود لابد أن تركز فى البحـث عـن الاتفاقـات الـضمنية وفحصها وليس مناقشة أشياء بعينها، فأنواع الصمت المحلى هى التى تكون معوقات التغيير الإيجابى فى القضايا التى فى المتناول. وهذا الحكم يجب أن يتخذه باحث الفعل بعناية. فالتغذية العكسية الكثيرة جـدا يمكـن أن نعـوق الجماعة؛ والقليل جدا يمكن أن يمنع الجماعة من التقدم إلى الأمام.

ومن الأدوار الأخرى للصديق الخارجى مساعدة الناس المحليين على الوصول إلى الموارد المحلية المتاحة لمشروع التغيير وتخزينهـا. وعلـى

الرغم من أن الناس المحليين أكثر خبرة عن الباحث الخارجي بالمشهد المحلى، فإن تاريخهم يوضح أنهم قد يغفلون عن بعض الموارد المهمة اللازمة للتغيير. وربما تكون هذه ببساطة حالة من عدم تقديرهم بأنهم يملكون مخزونا من المعرفة، والتى تقريبا لم يفكروا فى استخدامها. وربما يكون ذلك حالة من التأكيد على أن الشخص المحلى أو الجماعة المحلية يجب أن يكونوا متضمنين داخل العملية على الرغم من تاريخهم الذى يتسم بالعلاقات السيئة أو عدم الثقة. وأحيانا ما تتخذ هذه شكلا من تركيز الخارجى على وجود شكل من أشكال المعارضة السياسية الحزبية أو أنواع أخرى من الجماعات الأيديولوجية. أو ربما تحتاج إلى أن يركز الخارجى على التوازن فى النوع والعرق والطبقة فى جماعات العمل.

ويعتبر أحد الموارد الرئيسية للخارجى للقيام بكل هذه الأدوار يتمثل فى أن يصبح خارجيا تماما. إن الخارجى يرتبط بالعالم الخارجى- الجامعات، والولايات، والمؤسسات القومية والدولية؛ الاتحادات، والجماعات الإنسانية، والخبراء المهنيين- ربما يعطى قيمة عملية مهمة للمشروع المحلى. وفيما يتعلق بذلك يعتبر الخارجى أيضا موردا للمشروع المحلى، ويجب عليه أن يوزع هذه العلاقات بفعالية. وهذه الارتباطات الخارجية تضيف شرعية أكيدة إلى آراء الباحث الخارجى، ومن ناحية أخرى يمكن إدارة وتوجيه هذه الشرعية بدقة نحو تعزيز فرص وإمكانيات التغيير المحلى.

مهارات عملية الصديق الخارجى

The friendly outsider's process skills

يعتبر الصديق الخارجى مدربا أو مديرا فنيا وليس مديرا أو رئيسا. إن الجماعات المحلية التى تواجه بالصعوبات والمعوقات تحتاج إلى شخص ما يخبرها بما يجب أن تفعله. فالمدرب يعتمد على أناس محليين لديهم

الموهبة ويساعدهم على تحسين مهاراتهم وإستراتيجياتهم. والرئيس يتــولى التوجيه والإدارة والتحكم فى الجماعات المحلية التابعة والعمل من أجلهم، هذا بالإضافة إلى أنه يضعفهم فى معظم الحالات وعادة ضمان أن أى تغييــرات تم حدوثها لن تستمر فى إنتاج تغييرات محلية جديدة على المدى البعيد.

الثقة بالذات والتكاملية Self-confidence and integrity:

يجب أن يكون لدى الباحث الخــارجى ثقــة بــالنفس فــى المواقــف الاجتماعية، ويجب عليه أن يظهر التكامل فى الفعل ورد الفعل. وربما يحتــاج الخارجى إلى أن يعبر عن شكوكه عن ما يجب فعله وكيفية فعله، ولكن يجب أن يكون لدى الخارجى نوع من التفاؤل عن نفسه وعن المتعاونين أو المــشاركين معه. وبدون أى شكل من الغطرسة أو التكبر يتم التعبير عن هذه الثقــة بعقــل مفتوح، وعدم الاهتمام بالحفاظ على مظاهر السيطرة على الــسكان المحليــين، والاستعداد للاحتفال والتمجيد بقدرات وأفعال الناس المحليين، وتقدير إمكانيــات التغيير المتاحة محليا. ويتضمن هذا أيضا القدرة على تقــدير وتقيــيم مهــارات الآخرين لتوضيح هذا التقدير بمهارة. ويهتم الخارجى بنجاح المشروع المحلــى ويجب أن يكون المجتمع واثقا من ذلك. ويكون الناس المحليــون جيــدين جــدا عندما يشعرون بإخلاص هؤلاء الذين جاءوا إليهم من الخارج.

إن الباحث الخارجى لا يتمنى أن يكون محليا أو وطنيــا. إن بنــاء عملية التعلم التعاونى لا تتضمن أن يفقد شخص ما بصيرته المهنية وقيمــه الأخلاقية. إن فى عملية إنتاج التعلم التعاونى فى المجتمع من المهــم إدراك الحاجة إلى التكاملية، نظرا لأن التكاملية تعتبر الأساس الذى نــستطيع مــن خلاله بناء التعاون. إن استبعاد شخص ما لا يعتبــر إســتراتيجية ملائمــة للتعاون، والتى تبنى على أساس التنوع والقدرة على التعلم والعمــل معــا.

وللتكاملية بالطبع أهمية بالغة للناس الـداخليين كمـا هـو الحـال بالنـسبة للخارجيين. ويمكن أن يحتل التعلم التعاونى مكانا مهما فقط عندما يقوم على أساس التكامل بين المشاركين والعمليات الارتباطية بينهم.

المخاطرة Risk taking:

يجب أن يكون الباحث الخارجى أيضا متخذا للمخاطرة. وإذا لم يكن الخارجى غير قادر على المخاطرة بالفشل الشخـصى بتعزيـز الجماعـات المحلية التى ربما تفشل أو تنجح، فإنه يصبح غير قادر على تقـديم الـدعم الأخلاقى الضرورى والثقة للناس الذين يحـاولون إقنـاع أنفـسهم بالقيـام بالمخاطرة أيضا. لقد تدرب معظم الأكاديميين والبيروقراطيين على تجنـب المخاطرات، ويحاولون دائما النظر إلى الأفضل، فليس المهم مـا يحـدث. ولابد أن باحث الفعل مستعد على الانخراط (مشارك فى مسئولية) نجـاح أو فشل المشروعات المحلية، ككيان إنسانى وكمهنى يتحمل بعض المسئولية عن حياة الكيانات الإنسانية الأخرى.

التجاهل أو السخرية Irony:

وأخيرا يعتبر المزاح أداة مهمة لباحث الفعل المهنى. فالشخص الذى يتسم بالصرامة الدائمة والقسوة ويحمل كل هموم العالم على كاهله لا يزيـد من قوة أى شخص آخر. إن للدعابة والمزاح دورا مهمًا فى عمليات التغيير الاجتماعى. وذلك نظرا لأن مشروعات بحوث الفعل تحاول أن ترجئ بعض الأعمال والمعاملات الاقتصادية المعتادة خلال فترة معينة، وتحاول أن تصل

إلى نتائج قد تكون غير مرغوبة، ولكنها إيجابية. وفى مثل هــذه الــسياقات والأحوال فإن قوة هذه الدعابات والضحكات تعتبر جديرة بالاهتمــام نظــرا لأنها تسبب توقف الفكر التقليدى والمألوف فى أى لحظة وتستطيع أن تتجاوز هذا الفكر إلى فكر يتسم بالانفتاح نحو التغيير فى جو يتسم بالمرح والدعابة.

إن الأحاديث الصارمة والعبارات المازحة تركز على التأكيــد فــى كلمات على الحقائق أو المواقف، والتى تكون بالضبط عكــس مــا يفهمــه المستمعون عن هذه المواقف والحقائق. إن المزاح أو الدعابــة نــوع مــن الإحلال أو التحول، النظر إلى العالم على العكس أو على النقيض فــى أنــه غالبا ما يحث على الفكاهة، ولكنه فى نفس الوقت قادر على فتح أنماط مــن التفكير لإمكانيات جديد.

ويستدعى المزاح والفكاهة أيضا المعرفة الضمنية؛ لأنها تحث الناس إلى الاستجابة الإيجابية وأن يكونوا نشطاء فعالين. إنها تستطيع أن تــسوى أيضا بين الأوضاع والطبقات، من خــلال اســتعادة المــشاركين كمعلقــين ومعقبين على الواقع المحلى بدلا من الاحتفاظ بحق إصدار الأحكام للمهنيين الخارجيين وأصحاب القوى الداخليين.

ويوجد ارتباط قوى بين الدعابة والمزاح وبين تحقيق وعى جــاكوب Jacob's (1986) عن عالم الممكن مقابل عالم الواقع: إن الدعابة والمزاح يتطلــع إلى العالم من تفضيل الممكن، وجعل الواقع فقط واحدا من النتائج الممكنــة. إن استخدام الباحثين الخارجيين للدعابة والأشكال الأخرى من إحلال المزاح والتعليق أو التعقيب يمكن أن يقنع جماعات المــشاركين المحليــين بالقيــام بعمليات العصف الذهنى ومناقشة الأفكار التى تعتبر جزءا مهمًا جــدا فــى التنبؤ باحتمالات المستقبل الجديدة.

الأمن والحماية Security:

وبالإضافة إلى إرادة مواجهة تعقيدات التعلم فإن العدد الكبير من اتجاهات البحث الاجتماعى، يجب أن يكون لدى باحثى الفعل شخصية مميزة وتوجهات فكرية، والقدرة على أن يمثلوا أنفسهم (يكون لهم شخصياتهم المميزة) فى سياق الجماعات أو المستفيدين المحليين. ويجب على باحث الفعل أن يؤمن نفسه بشكل كافٍ من التجاهل والشك، وأيضا يكون قادرا على الدفاع عن جوانب فهمه وآماله. ويجب أن يحدث ذلك بدقة ويحتاج إلى القدرة على التجاوب والتكامل والشمول.

ويتضمن القيام بهذه الوسيلة العقل المفتوح والتطلع بشكل محترم إلى خبرات ومعارف الآخرين، وإلى درجة معينة من الدعابة التى تسمح بتطوير العمليات بدون أى ضغوط. ويحتاج أيضا القدرة على الانفتاح الحقيقى على الآخرين بالطريقة التى رأى الأكاديميون أنها صعبة.

الصبر Patience

إن التعامل مع المجهول أو غير المؤكد بأسلوب يتسم بالصبر والأمن يعتبر واحدا من أهم مميزات باحثى الفعل. إن المشروعات المعقدة مع تنوع المستفيدين فى مواقف صعبة بدرجة كبيرة لا تخضع لتعديلات أو تدخلات سريعة أو وصفات سحرية. وفى كثير من مراحل ونقاط بحوث الفعل لا يكون واضحا إلى أين يذهب المشروع، وإذا ذهب إلى أى مدى أو لو ذهب إلى النجاح بأى وسيلة. ولا يجب أن يكون باحثو الفعل قادرين فقط على تحمل هذه الشكوك، ولكن يجب أن يكون قادرا على مساعدة المستفيدين المحليين على مقاومة هذه الشكوك والإحساس بالخطورة والارتباك التى غالبا ما ترتبط بها.

لذلك تعتبر مستويات باحثى الفعل عالية تماما. فباحثو الفعل يجتازون العديد من التدريبات فى البحث الاجتماعى ويملكون الثقة والالتزام بالديمقراطية، والاستعداد للعيش بدرجة من الشك، والإحساس الواضح للحدود المهنية للباحث، والأسباب الشخصية الجيدة لكى يصبحوا مرتبطين بالمستفيدين المحليين فى مشروعات معينة. إن تكوين العلاقات التى تتسم بالثقة مع الناس فى الميدان لا يمكن أن تتم إذا لم تحضر الشخصية الحقيقية **"Real" Person**.

باحث الفعل اللائق Becoming action researcher:

تناولنا فى الجزء الرابع من هذا الكتاب تعليم باحثى الفعل بالتفصيل. وهنا نركز باختصار على الجوانب المركزية والمهمة.

المهارات الاجتماعية Social Skills:

تولى العلوم الاجتماعية التقليدية اهتماما قليلا نسبيا للمهارات الاجتماعية للباحث. وهذا ما يتطابق مع سيطرة أفكار الفلسفة الوضعية بأن المعلومات مستقلة عن الباحث. وقد اتخذت الكثير من البحوث الوضعية مكانا بدون أى نوع من العلاقة الاجتماعية بين الباحثين والمستجيبين (المبحوثين) أثناء عملية المسح أو جمع البيانات. وكل ما هو مطلوب من الباحثين هو إتقان المهارات الفنية (التقنية) لكى يصبحوا قادرين على إعداد أدوات جمع البيانات وتوزيعها أو إدارتها وجمع البيانات، واستخدام الأساليب الإحصائية، واستخدام الأساليب المنهجية للقيام بعمليات التحليل الضرورية، وكذلك كتابة تقرير البحث.

ويستطيع الطلاب التدريب على كل هذه المهارات مستقلين عـــن أى علاقة بالميدان. وفى الحقيقة فإنه من الشائع أن يترك الأساتذة الطلاب الجدد للتعامل مع مجموعة البيانات التى جمعها الأساتذة، وتوجيه نشاط الطلاب فى نفـــس اتجـــاه اهتمامـــات الأســـتاذ. ويعتبـــر كـــل ذلـــك خـــارج ســـياق البحث وخارج سياق التدريب **Decontextualized**.

وفى ميدان البحوث الكيفية يحتاج تدريب الطـــلاب علـــى إجـــراء المقابلات أو المشاركة فى البحوث الإثنوجرافية (الأنثروبولوجيا الوصـــفية) العميقة توجيه بعض الاهتمام إلى الارتباط بالناس فى بيئاتهم وحيـــاتهم. ولا يمكن أن تصبح قائما بمقابلة كيفية بدون مهارات التجاوب وبدون القدرة على الاستماع وربط الشخص المتقابل بالعملية الانعكاســـية (رد الفعـــل). ففـــى الأعمال الإثنوجرافية كما فى بحوث الفعل هناك حاجة ماســـة وضـــرورية للارتباط مع الناس المحليين والعيش معهم.

التخطيط والتلقائية **Planning and Spontaneity**:

يعتبر تخطيط التدخل فى بحوث الفعل مهما جدا ويجـــب أن يكـــون تفصيلا كلما كان ذلك ممكنا. وهذا يعطى للباحث الفرصة لكى يصبح معـــدا للطريقة أو الوسيلة التى تتطور أو تسير بها عملية البحث. ولا يوجـــد أى مبـــرر لعدم وجود أى تفكير حقيقى أو واقعى خلال عملية البحث والتخطيط لها.

ولكن نادرا ما تتناسب الخطط مع العملية الواقعية كما تتطور. ودائما ما تصعد (تسير) المشروعات فى اتجاهات غير متوقعة، ويجب على الباحث التوافق معها فى صعودها أو سيرها. فلو انسحب المشاركون من المـــشروع أو ظهر الصراع بين المشاركين وبعضهم أو بينهم وبين الباحثين، أو تغيرت

الميزانية، أو أن القوانين والتنظيمات الرسمية أعاقت النمو فـــى الاتجاهـــات المرغوبة، فإن العملية تحتاج إلى إعادة تقييمها وتعديلها أحيانا بصورة أقـــل وأحيانا بتعامل أكبر. ويكمن التحدى لباحث الفعل فى قدرتـــه علـــى قـــراءة الموقف الواقعى أو الحقيقى من أجل فهم ما يمكن التضحية به، وكيف يمكن مساعدة الجماعة من خلال اتخاذ أفعال جديدة ملائمة.

وكثير من هذه القرارات يتم اتخاذها بشكل فورى، ونظرا لأن هـــذه الأفعال يلزم القيام بها فى الوقت الحقيقى والمناسب، فإن تكوين المفهـــوم أو الإدراك وإيجاد الاستجابات المناسبة يبنى على أســـاس المعرفـــة الـــضمنية والمهارات المرتجلة **Improvisation**. ويمكن بل يجب أن تحدث ردود الفعل على الأفعال التى تم اتخاذها، ولكن لم يحدث أى تفكير مباشر بشكل فورى. إن الناس الذين لا يتسمون بصفات أو لم يتدربوا على تحمل هذه المواقـــف بالتحديد لا يجب أن يرتبطوا ببحوث الفعل.

الخلاصة:

بينما مستويات ومعايير باحثى الفعل تعتبر عاليـــة وتعـــدد أشـــكال المعرفة الأساسية، ونحتاج إلى المهارات بشكل كبير، فـــإن نفـــس النظـــرة التفاؤلية للقدرات الإنسانية تجعل واضحا لنا أن الناس يستطيعون التـــدريب على أن يصبحوا باحثى فعل أكفاء.

الهوامش

١) السخرية (التجاهل) هو الاعتراف المتزايد بوصفه عنصرا أساسيا في إعمال الفكـر، انظر: **Rorty (1980) and Flood and Romn (1996)**

الجزء الثالث

التطبيقات المتنوعة لبحوث الفعل

تحرير الوجود الإنسانى

نقدم فى هذا الجزء من الكتاب عرضا تفصيليا لاتجاهنا حول بحوث الفعل (بحوث الفعل البرجماتية) ثم نـصنفه (Contextualize) مـن خـلال سلسلة الفصول وطرح بعض التنوعات الكثيرة الأخرى لبحـوث الفعـل. لا يعنى ذلك أننا نقوم بوضع خريطة كاملة عـن ممارسـات بحـوث الفعـل، ونستخدم اتجاهنا لبحوث الفعل كنقطة مرجعية للمقارنة وبيان الفروق. ومـع ذلك يؤكد الجزء الثالث على أن مصطلح بحوث الفعل يمثل مظلـة تغطـى تنوعات واسعة من الممارسات والمواقف الأيديولوجية. وبعد مناقشة اتجاهنا فى الفصل التاسع نقوم بمراجعة الاتجاهات الليبرالية فى بحوث الفعـل فـى الفصل العاشر، وبحوث الفعل التعليمية فى الفصل الحادى عـشر؛ والتقيـيم التشاركى (التعاونى) فى الفصل الثانى عشر؛ والتقييم الريفى التشاركى فـى الفصل الثالث عشر؛ والاستقصاء الإنسانى والاستقصاء التعاونى والاستقصاء فى بحوث الفعل فى الفصل الرابع عشر؛ وأخيرا نعرض لعلوم الفعل والتعلم التنظيمى فى الفصل الخامس عشر. وكما هو الحال دائما فالخريطة ليـست جغرافية. ويوجد العديد من الاتجاهات أكثر مما قدمنا؛ فحدود المساحة فـى هذا الكتاب، وكذلك خطة العمل به فى المقدمة جعلت هذه العروض أقل مـا يمكن أن يقدم للقارئ عن الاتجاهات التى يرى أنها مهمة وشيقة بالنسبة له.

الفصل التاسع

بحوث الفعل البرجماتية

Pragmatic Action Research

يقدم هذا الفصل عرضا أكثر تنظيما لاتجاهنا، بحوث الفعل البرجماتية، والذى يتضمن ثلاث حالات تعرضنا لها فى الفصل الثالث "بحوث الفعل الخبرات والطرق". وعلى الرغم من أن عرض هذا الحالات تضمن وصفا لبعض ممارساتنا، فإن لم تشرح أو تفسر كيفية فهم اتجاهنا فى بحوث الفعل أو تقدم معلومات كافية تسمح للقارئ بمقارنة كيف نعمل بالمقارنة بالاتجاهات الأخرى فى الفصول من العاشر وحتى الخامس عشر. نحن لا ندعى أى تفضيل أو تمييز لممارستنا. وكما تلاحظ من قراءاتك للفصل الثالث أن الحالات تضمنت عناصر النجاح وعناصر الفشل. ونظرا لأن الوسيلة التى مورست بها أبحاث الفعل والمعارف القيمة تم الوصول إليها بصورة تعاونية، بينما الحلول المحددة لحل جميع المشكلات لم نستطع تحقيقها.

وقد تضمنت الحالات الثلاث التى تناولناها فى الفصل الثالث- نمو القرية فى غرب النرويج، والنقابات الصناعية فى مونـدراجون بإسبانيا، وتقسيم علاقات العلم والصناعة فى جامعة كورنيل- تنوعات واسعة فى أشكال ونماذج العمل وأساليبه. وفى كل سياق مختلف بالتركيز على مشكلاته الخاصة فقد طورنا بحوث فعل مختلفة تتناسب وطبيعة هذه المشكلات فى السياقات المختلفة. ولا يوجد فى الحالات الثلاث توافق تام بين الصياغات الأساسية وبين تطور المشروع، أحيانا يكون ذلك حقيقيا فى كل مواقف

البحث والتدخل، ولكن ليس تماما فى بحوث الفعل. ومع ذلك ففــى بحــوث الفعل البرجماتية فإن إعادة التصميم المــستمرة والمقــصودة للمــشروعات لتعزيز التعلم التعاونى خلال استمرار العملية يعتبر المبدأ الأساسى للممارسة. ويتمثل التصور الذى يحكم ممارستنا فى أن تفاعل الباحث الخارجى الصديق مع الجماعات المعقدة والمتنوعة والمشكلات المحلية التى يعانون منها فــى اللقاءات والاجتماعات متعددة الجوانب والأبعاد ينتج عنـــه إنتاجـــا تعاونيـــا وواضحا للأفكار والاختيارات والأفعال. ومثل هذه المشروعات لا يمكن أن تحدث أو أن تكون منتجة فى ظل الإجماع الفردى أو المتطرف الذى يخضع له كل فرد. وعلى العكس من ذلك وتبعا لوجهة نظر رورتى **Rorty (1980)** عن البرجماتية الحديثة، فإننا نهدف إلى الحفاظ على المناقشات المستمرة بين الأطراف ذات العلاقة.

ونجد أنه فى كل المواقف التى نصفها ومع كل المشاركين معنا، فإن الباحثين والمشاركين المحليين يطورون معا فهم عام حول إلى أين يسيرون وما هى الأفعال التى يجب أن يقوموا بها. ونحن كباحثى فعل نقاوم وضـــع هذه الصياغات الأولية فى خطط صارمة. وتعتبر عمليات بحوث الفعل ككل، من وجهة نظرنا، عمليات طارئة حتى يتم حل المشكلات على الأقـــل بمـــا يرضى المشاركين المحليين، أو تكون الموارد المالية والطاقة قد اســـتنزفت، أو تدخلت بعض الأحداث لتغيير اتجاه العملية، أو إنهائها.

وهذا لا يعنى القول إن العملية تفتقد المنطق والدقة، فبحوث الفعـــل كما نراها تتخذ شكل مجموعة منطقية ومنظمة من الأنشطة التى تـــستهدف الوصول إلى نتائج مرغوبة وقابلة للقياس فى الفعل، وبناء الخطط فى ميادين التعلم، والاختيار المنظم للأساليب الموجهة بواســـطة جميـــع إســـتراتيجيات بحوث الفعل. ويتم توجيه اتجاه مشروعات بحوث الفعل بواسطة التعلم الذى

يتم الوصول إليه من خلال العملية، وليس بواسطة مجموعة المعايير ذات الأولوية أو التوقعات المفروضة على الموقف أو على الفاعلين فيه. ومن خلال نظرتنا للحالات النابعة من خبراتنا، فإننا نشعر بأن هذا الاتجاه البرجماتي ينتج مجموعات من الخصائص العامة الشائعة في معظم المواقف والتي تتضمن.

- بناء ميادين وساحات للحوار والتعلم المتبادل كنموذج للعمل. فقد جاهدنا خلال عملنا على بناء الميادين التي يستطيع فيها كل من الباحثين والمشاركين الاتصال من خلال علاقات حوارية. وهذه الميادين تخلق المساحة التي يتخذ فيها التعلم المتبادل مكانا متميزا.
- الإنتاج التعاوني للبحث. تظهر عملية البحث كنتيجة لامتزاج الخبرات وردود الفعل المتبادلة عن هذه الخبرات المشتركة بين المشاركين المحليين والباحثين، والتي تقود إلى معرفة جديدة مؤكدة.
- الاستخدام المتعدد للطرق والأساليب ونماذج العمل. وكما أوضحنا سابقا أننا نرفض فكرة أن بحوث الفعل هي عبارة عن نظرية خاصة أو مجموعة محددة من الأساليب. إن الأعداد الكبيرة من النظريات والأساليب والنماذج التي تطورت في العلوم الاجتماعية والإنسانية يمكن استخدامها في عمليات بحوث الفعل، لو أن المشاركين رأوا أنه من المناسب اكتساب المهارات الضرورية التي يحتاجونها معا.

وتمثل هذه العناصر الثلاثة المركز الرئيسي في ممارستنا لبحوث الفعل البرجماتية. إن الخطط والأساليب ونماذج العمل وعمليات التعلم التعاونية تعتمد على الحكم الذي يصدره المشاركون في كل موقف من المواقف الملموسة لبحوث الفعل. وهذا ما ينسجم مع المناقشات المعرفية والعلمية لبحوث الفعل، والتي استنبطناها من الفلسفة البرجماتية (الجزء الثاني

من هذا الكتاب)، ومن هنا فإننا نعتقد أن بحوث الفعل تمثــل أفــضل فهــم وممارسة كما هو مستخدم فى المواقف الفلسفية للبرجماتيــة (أو البرجماتيــة الجديدة) فى البحث الاجتماعى.

ويخلق لنا هذا الاتجاه العديد من المشكلات عنــدما يــأتى لوصــف ممارستنا فى فصل واحد. ولأنه يعتبر مناسبا للمواقــف المحليــة، فإننــا لا نستطيع أن نصوره فى مصطلحات وصفية. وبالإضافة إلى ذلك فإن القارئ يحتاج إلى مدخل أو مقدمة للعناصر والمكونات التى نضعها فــى اعتبارنــا وبعض الأساليب التى نستخدمها، ونمــاذج العمــل التــى نفــضلها، وكــل إستراتيجيات بحوث الفعل المتوفرة. وما يتبع ذلك من مراجعة بعض المفاهيم الرئيسية والأدوات ونماذج العمل، والتى تنتشر فى عمليات بحــوث الفعــل البرجماتية. ونظرا لأننا ناقشنا بالفعل بالتفصيل الــتعلم التعــاونى والاتجــاه البرجماتى لاختيار الأساليب فى الفصول من السادس، وحتى الثــامن فإننــا نركز هنا على اتجاهنا لبناء ميادين الحوار.

بناء ميادين الحوار Constructing Arenas of Dialogue:

يعتبر العنصر الرئيسى والجوهرى بالنسبة لنا فــى بحــوث الفعــل البرجماتية هو إيجاد الميادين التى تسهل وتيسر المناقشة والبحث التعــاونى والإنتاج التعاونى للتعلم. وتعتبر المواجهة بين المستفيدين المحليين والباحثين هى حجر الزاوية التى يبنى على أساسها التعلم المتبادل. ونظرا لأننا لم نبدأ بأسلوب محدد الأولوية، ونحاول أن نجعل اتجاهنا ملائما للمواقف المحليــة والفاعلين فيها، فإن عمليات بحوث الفعل بوجه عام تمتلك مرحلــة حــوار مفتوحة مكثفة وبطيئة. وفى بداية هذا الحــوار مــع المناقــشات التمهيديــة الصبورة فإن اتجاهنا يختلف عن كل اتجاهات بحوث الفعل الأخرى.

ونعتقد أن واجباتنا كباحثين مهنيين تتمثل فى مساعدة الجماعات على اختيار الأساليب والنظريات المناسبة للعمليات التى يهتمون بها. إننا لا نعتمد على وصفات معينة يجب أن نتبعها دائما. ومثل هذه الوصفات تقلل من ثقة الباحثين المهنيين فيما يجب أن يفعلوه، وتعرقل بوجه عام نمو القوى وتطورها لدى جماعات المستفيدين المحليين.

إننا نواجه المشكلات المحلية بكل ما نملكه من مهارات ومعارف. إن ما لا نعرفه وما ينقصنا من مهارات يعتبر ضارا لمشروع معين، ونتمنى دائما أن نكون أذكياء وأكثر مهارة وأفضل متدربين. ولكننا ندافع فى مواجهة هذه الشكوك المعرفية والوجودية كباحثى فعل مهنيين بشكل مباشر، وبدلا من ذلك نلتزم بمجموعة محددة من الصيغ التى تضعف من متطلبات شخصياتنا. ويعتبر ذلك جزءا ضروريا فى تكاملنا كباحثين.

وفى نفس الوقت، فإننا لا ندافع دفاعا أعمى عن الأسلوب الذى نعمل به. إننا نعتقد أن المهارات الأساسية فى بحوث الفعل تدور حول القدرة على فهم السياقات المادية والاجتماعية وتفسيرها، لاتخاذ القرار حول تحديد الميادين المناسبة للحوار، والتى تقود العمليات التفاعلية، وتساعد المشاركين على اختبار معارفهم فى الفعل، والتى تنعكس فى النتائج. لذلك يجب أن يكون لدى باحثى الفعل القدرة على التفسير والتفكير حول عمليات التعلم التعاونى، والتى تتضمن الاختبار الفعال للمعارف الناتجة.

ويتمثل الهدف السياسى والأخلاقى لبحوث الفعل فى تحقيق نتائج ليبرالية. فليس من السهل التدقيق حول ما إذا النتيجة الليبرالية ربما كما نحب، ولكننا لا ندافع عن تقليل هذه المسئولية بصيغ أخرى. إن تحديد النتائج الليبرالية فى ممارستنا لبحوث الفعل تعتبر جزءا واضحا فى عملية الإنتاج التعاونى للتعلم.

وكنقطة انطلاق فمن الممكن أن نبدأ المناقشة حول النتائج الليبرالية من خلال تقديم تعريف مبدئى لها على أنها " النتائج التى يتم الوصول إليها عندما يحقق المشاركون تحكما أكبر فى المواقف التى يمرون بها كجماعة" إننا لا نشير إلى الحرية الشخصية أو الوصول إلى القوة الفردية بواسطة الجماعة، ولكن إلى زيادة قدرة المشاركين المحليين على تحديد موقفهم الجمعى الخاص بهم وإدارته.

إن هذا النوع من الحرية ليس نتيجة قابلة للقياس المجرد. ففى المواقف شديدة الإجبار ربما يكون المكسب أو الربح البسيط هو تحرير القوى، بينما فى المواقف المفتوحة فربما لا تكون التغييرات الكبيرة ذات أهمية بالنسبة للمشاركين المحليين. إننا نعتقد أن التغييرات ينبغى أن تكون حقيقية وواقعية وذات معنى بالنسبة للمشاركين المحليين كجماعات. ولا ينبغى على باحثى الفعل أن يقرروا ما إذا كان الناس لديهم الخبرة فى النتائج الليبرالية، بل يجب علينا أن نطرح هذه القضية للمناقشة بين جماعة بحوث الفعل والحفاظ على استمرارية الحوار حولها.

البحث Searching:

على الرغم من أننا ندفع بقوة نحو البرجماتية والأساليب والطرق المتعددة ونماذج العمل، ونوظف العديد من الأساليب المتنوعة ونماذج العمل فى ممارستنا، فإن هناك اتجاها واضحا ومحددا بشكل جيد نحو الإنتاج التعاونى للمعرفة يعتبر مناسبا تماما لاتجاهنا البرجماتى لبحوث الفعل. ويسمى البحث **Searching**. ونعرضه هنا بشكل تفصيلى، ليس لأننا نعتقد بأنه يجب استخدامه فى كل مواقف بحوث الفعل، ولكن لأنه اتجاه قوى ولديه قدرة مثبتة ومبرهنة على إنتاج نتائج مهمة، ولأن عرضه بالتفصيل يعطى للقارئ وجهة نظر أكثر واقعية لأسلوبنا فى التفكير حول بحوث الفعل.

ويشير البحث إلى نوع محدد من عملية الإنتاج التعاوني للتعلم. وتتمثل الفكرة الرئيسية والجوهرية في البحث في إيجاد الموقف الذي من خلاله يرتبط الأشخاص العاديون بعملية إنتاج المعرفة المنظمة (من وضع الخطط وحتى تنفيذها) القائمة على التجريب العلمي المنظم. ويتم مساعدة المشاركين على التعلم بواسطة الفعل وبواسطة البحث وتجريب وسائل جديدة للتفكير والعمل.

مؤتمرات البحث Search Conferences:

يتمثل مؤتمر البحث في العمل من أجل التخطيط والتصميم المشترك. والهدف من أساليب وتكنيكات مؤتمر البحث هي السماح للتخطيط التعاوني وتصميم الأفعال الهادفة إلى حل المشكلات التي ترتبط مباشرة بالمشاركين. إنها عملية تعاونية للاستقصاء وإيجاد خيارات تعليمية لهؤلاء المشاركين، والانتقال من الخطة إلى تنفيذ الأفعال.

وفي الغالب يكون مؤتمر البحث عبارة عن مقابلات متعددة الأيام لجماعة كبيرة نسبيا من الناس (١٥-٤٠) في نوع ما من الجلسات مفتوحة حرة (Retreating Setting). ويسبق الحدث التخطيط لمؤتمر البحث الذي يبدأ بتحديد المشكلة بواسطة جماعة التخطيط مع الاختيار الواعي للمشاركين وإعدادهم. وعند بداية الانعقاد يبدأ المؤتمر بمناقشة الباحثين لوجهات نظرهم حول تاريخ الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه. ثم يحددون المشكلات التي اتفقوا عليها من خلال عملية خلاقة تنتج العديد من خطط الفعل المتنوعة لحل هذه المشكلات. وفي المرحلة النهائية في البحث يختار المشاركون من بين خطط الفعل البديلة، ويتخذون قرارات جماعية حول ما يجب أن يفعلوه. لذلك يحدث مؤتمر البحث نوعا من التكامل بين التخطيط وحل المشكلة الخلاقة،

والأفعال الملموسة والواقعية فى نفس العملية. وهذا التكامل لــه خـصائص فريدة، وهو عبارة عن منهجية مميزة لتنفيذ وتطبيق بحوث الفعل.

وتخلق مؤتمرات الفعل العديد من ميادين الحوار المتنوعة. إن بنـاء الأحداث طوال الوقت الذى يستغرقه البحث تعتبر محددة بوضـوح مـسبقا. وتسير العملية قدما طبقا لمنطقها الداخلى وبالتوجيه والإرشاد المستمر مـن القائمين على إدارة البحث. ودائما ما ينجح مؤتمر البحث من خلال اسـتنفار واستثارة طاقات وقدرات المشاركين على تحديد مشكلاتهم وحلها، وإلى حـد بعيد يعتبر عملية تيسير البحث مهارة. إن إحضار الناس معا وتوفير الفرصة لهم للتفكير فى مستقبلهم ووضع الخطط المناسبة له يحرر بشكل أكيد وحتمى طاقاتهم الإبداعية والخلاقة، والتى تصبح قنوات وعناصر بناءة فى عمليـة مؤتمر البحث. وإلى هذا الحد لم نشارك أو نتحمل مـسئولية فـشل مـؤتمر البحث، وفى الغالب فإننا نرى أن أفعال وإجراءات التتبع لا توفى بمجموعة التوقعات المرتفعة فى مؤتمر البحث.

وتتكامل خمس عمليات أساسية فى مؤتمر البحث. الأولى أنه يخلـق مناقشات تستهدف إسهام مختلف المستفيدين فى تفسير التاريخ. والثانى أنهـا تطور وتكون رؤية عامة للمستقبل وما سوف يحدث لو أن المستقبل لم يوجه أو يخطط تخطيطا خلاقا. والثالثة أنه يدمج المشاركين فى نشاط مبدع وخلاق بوصفهم باحثين عن خطط عمل للوصول إلى النتائج المرغوبة. والرابعة أنه يسهل الاتفاق على أولويات حول القضايا المطروحة. والخامسة أنـه يـربط التخطيط لجماعات الفعل وبين أفعال نوعية محددة. إن نتيجة مؤتمر البحـث الناجح تتمثل فى مجموعة من قضايا الفعل والخطط التى يرغب المشاركون فى النضال الجماعى لتحقيقها.

الجذور التاريخية للبحث Historical Roots of Searching:

نبعت مؤتمرات البحث من التقاليد الديمقراطية الصناعية فى المملكة المتحدة والدول الإسكندينافية وأستراليا. ويرجع التطور النظرى والمنهجى للبحث إلى الباحثين الرئيسيين فى معهد تافيستوك **Tavistock** بلندن، وهما فريد إيمرى **Fred Emery** وفيليب هيربست **Philip Herbst** (انظر الفصل الثانى). وقد تشابهت كثيرا خلفياتهما المهنية مع علماء النفس الاجتماعى المدربين إكلينيكيا، حيث عملا داخل نفس شبكة البحث الدولية. وقد استقر أحدهما فى جنوب هيميسفير **Hemisphere** والآخر استقر فى الشمال، حيث شكلا معا فكر وممارسة البحث بشكل متوازٍ. وفى المشهد الأسترالى لعب مارلين إيمرى دورا حاسما فى وضع الإطار المفاهيمى لعملية البحث وتطويرها **(Emery, 1082, 1993)**.

وتتمثل الطريقة الأخرى لوصف كيفية تطور البحث فى أنه نشأ من الشبكات الدولية التى ركزت على حركة الديمقراطية الصناعية. وكان الاهتمام الأعظم خلال تشكيل الديمقراطية الصناعية منصبا على كيفية تكامل الخطط المشتركة فى أفعال جماعية للتغيير. وكانت العقبة الرئيسية لمعظم نماذج بحوث الفعل فى ذلك الوقت تتمثل فى سيطرة العمليات التى يقوم بها الخبراء، وهى المشكلة التى ألمحنا إليها فى مناقشتنا لكورت ليفين فى الفصل الثانى. وغالبا ما يتم التخطيط لعمليات التغيير وتنفيذها بواسطة باحثى الفعل. وأن المشاركة الفعلية للمشاركين المحليين كانت محدودة.

وكانت القضية الأخرى التى ظهرت خلال هذا الوقت تتعلق بفشل التحديثات الاجتماعية **Social Innovations** فى الانتشار الفعال للجماعات الواسعة. فمعظم التجارب لإحداث التغييرات الاجتماعية المحلية كانت ناجحة، ولكن فى معظم الأحيان كان هذا النجاح مقتصرا على الموقع أو

البيئة المحلية التى طبقت فيها. إنها لم تنتشر بشكل تلقائى بواسطة المميزات التى أضافها التحقيق الفعال للنتائج المرجوة. وقد أدى ذلك إلى الاهتمام بوسائل انتشار عمليات مشاركة نطاق واسع من طبقات المجتمع.

وكان أول إعلان أو تصريح لكل من إيمرى وأوسير Emery and Oeser (1958) عن اهتماماتهم جاء فى دراسة عن انتشار إعادة الهيكلة الزراعية بأستراليا. وبعد وقت طويل تبعها كتابان منشوران آخران، والتى نبع من خلالهما مؤتمر البحث كفكرة. وقد قدم هيربست Herbst (1980) فى مجلة المستقبل الإنسانى Human Futures تصورا عن اتجاه مؤتمر الفعل وتوصيل ونقل الخبرات من أول مؤتمر بحث عقد فى جزيرة سكجيرفوى Skjervoy شمال النرويج (Engelstad & Haugen, 1972 & Herbst, 1980). وقد أصبح لهذا البحث أهمية بالغة نظرا لأن قدم الخبرات والمنهج الملائم لجماعة واسعة من الباحثين فى معهد البحث فى أوسلو، ولأنه أيضا حقق نتائج إيجابية فى المجتمع المحلى.

وكان إسهام كل من مارلين إيمرى وفريد فى البحث كانت أول ورقة عمل تم نشرها فى جامعة أستراليا القومية عام ١٩٧٤. وقد أصبحت منشورات إيمرى وهيربست هى المحاور التى تطورت من خلالها مؤتمرات البحث، والتى قدمت خطا مفتوحا من التطور نتج عنه الانتشار الواسع والممارسة الجيدة لمؤتمرات البحث فى الوقت الحالى. (Emery, 1998, Martin, Hemlock, & Rich, 1994; Martin & Rich, 1994; Weisbord, 1992)

الخبرات النرويجية Norwegian Experiences.

لاقى الفكر العام لمؤتمر البحث المكان الملائم فى البيئة النرويجية عام ١٩٧٤. وكانت هناك مناقشة عامة حول مشاركة العاملين فى

الديمقراطية الاجتماعية. وقد خلق الظهـور المميـز لبحـوث الفعـل فـى الديمقراطية الصناعية أرضا خصبة لاتجاهـات المـشاركة فـى التغييـر الاجتماعى. وفى هذا السياق فقد تطابق الفكر المرتبط بمؤتمرات البحث مـع قضايا التخطيط المشترك ونشر عمليات التغيير.

على سبيل المثال فى هذا التوقيت ترك باحثو الفعـل الـذين كـانوا يعملون فى معهد البحث بأوسلو نموذج الخبرة للتغيير الاجتمـاعى التقنـى **Sociotechnical Change (Elden, 1979)** وحاولوا بدلا منه تجريب نماذج مؤتمر البحث لتعزيز جهود التغيير فى الشركات والجماعات المتعـددة فـى نفس الوقت. وقد أصبح مؤتمر البحث أكثر ملاءمة فى هذا الموقف وأدى إلى أول محاولة عظيمة لاستخدام أسلوب تخطيط الجهود فـى بلديـة جزيـرة سكجيرفوى **Skjervoy**. ويعتبر فيليب هيربست واحدا من أكبر النـرويجيين الذين ارتبطوا بالشبكات الدولية، قد أثر بثقله فى هذا البحث الأول. وقد ركز هذا البحث على تحديات التنمية الاقتصادية وتنمية البلدية، وكان يرتكز على الأسلوب الراديكالى فى البيئة النرويجية، بسبب أنه أسس الأنشطة التنمويـة على المشاركة الشعبية الواسعة.

وقد أصبح تطبيق مؤتمر البحث فى مشروعات تنمية المجتمع المحلى واحدا من أهم أساليب التنمية التى استخدمت فى النرويج، وأصبح البحث هو العنصر الرئيسى والجوهرى فى بعض برامج تنمية المجتمع المحلى المدعمة حكوميا. وفى هذه النقطة بالتحديد انضم أكثر من ٦٠ مجلسا بلديا إلى جهود تنمية المجتمع، وغالبا ما يبدأ العمل فى هذه المشروعات بمـؤتمر البحـث. وكان النجاح فى الوصول للنتائج كافيا لكى يكتب قسم المفوضـية الداخليـة دليلا لكيفية إجراء الأبحاث **(Brokhaug, Levin, & Nilssen, 1986)**. وعلى الرغم من عدم اتباع كل المتخصصين لبرنامج العمل المقترح فى الدليل، فإن

كل عناصر منهجية البحث قد انتشرت وصورت مؤتمر البحث علـــى أنـــه طريقة مقنعة للكثير من المشاركين.

وبينما يستمر انتشار البحث فى مؤسسات المجتمع كان هناك تطـــور مواز فى المؤسسات الصناعية. وقد تم تبنى مؤتمر البحث كأداة للبـــدء فـــى عمليات التغيير فى الصناعة. وقد حقق تبنى هذه المنهجية نجاحا فى مختلف المؤسسات الصناعية. وقد ارتبط الباحثون والمستشارون بوجه خاص بمعهد البحث بأوسلو لتركيز مزيد من الاهتمام على البحث كوســيلة للبـــدء فـــى عمليات التغيير **(Hanssen Bauer& Aslaksen, 1991, p.202)**. وقـــد زادت هذه الخبرات النرويجية من طموح مارفين ويـــسبورد **Marvin Weisbord** المستشار الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية، والذى قضى جزءا من عـــام ١٩٨٧ فى تعلم البحث من الممارسين النرويجيين. وأخيرا فقـــد أخـــذ هـــذه المعرفة وتبناها بأسلوبه الخاص فى الاستخدام بإدارة الأعمال والإدارة العامة بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد طور معهد البحث بأوسلو نموذج عمل يقوم على أساس مـــؤتمر البحث، والذى يتخلص من معظم البناءات الصارمة فى مؤتمر البحث وأيضا يغير دور الميسرين. وبناء على التفكيـــر اللغـــوى النمـــوذجى لهابيرمـــاس **Habermas (1984)** فقد كونوا ممارسة ميسرة تتشابه كثيـــرا مـــع الحـــوار الديمقراطى **(Gustavsen, 1985; Palshugen, 2000, 2002)**. وهذا النمط من المؤتمر قد منح مصطلح حوار المؤتمرات **Dialogue Conferences**، وهـــذا الاسم يشير إلى أن العنصر الحيوى يتمثل فى الكفاح من أجل فتح اتصالات بين المشاركين. وقد استخدم هذا النموذج بقوة فى الصناعة النرويجية، والتى يرتبط فيها العمال والإدارة فى أنشطة تنموية متبادلة.

الخبرات الأسترالية Australian Experiences:

لعب كل من فريد ومارلين إيمرى دورا رئيسيا فى تطور مؤتمرات البحث فى أستراليا، حيث كانت تستخدم مؤتمرات البحث بشكل كبير. ويعتبر فريد إيمرى اللاعب الرئيسى والمحورى فى تطور اتجاه مؤتمر البحث بالتوازى مع دوره فى تطور حركة الديمقراطية الصناعية (التى ناقشناها فى الفصل الثانى). وقد لعبت أيضا زوجته مارلين إيمرى فى البيئة الأسترالية دورا لا يقل أهمية، وبمرور السنين قدمت كتابات رائعة عن البحث أكثر مما قدم فريد.

وقد تم مواجهة العديد من التحديات فى أستراليا بالتوازى مع تلك الموجودة فى النرويج. ولم تتم بالفعالية المطلوبة عمليات تنمية التغيير الاجتماعى ومن ثم انتشارها. وعندما كانت تتم عملية التطوير، فقد مالت أشكال العمل الديمقراطى الجديد إلى القليل أو الكثير من التباطؤ والكل فى أى مكان توجد فيه. وقد نشرت مارلين إيمرى دراستها المهمة عن البحث عام ١٩٨٢، والتى تضمنت العديد من المناقشات التفصيلية عن عمليات تعلم المشاركين. وقد ناقشت أيضا الأبحاث المتعددة الجوانب كوسيلة لاكتساب زخم كبير من المعلومات للتخطيط التعاونى (المشترك). وهذه الإستراتيجية بالغة الأهمية وتم تجسيدها فيما سمى فيما بعد بالبحث الأسترالى Searching Australia ، خطة طموحة لجعل البحث جهدا قوميا واسعا للتغيير الاجتماعى (Emery& Emery, 1974).

وفى عام ١٩٨٩ نظم الباحثون الأستراليون مؤتمرا دوليا سمى "وضع العمل فى أستراليا" "Work Place Australia" وكان واحدا من أهم مقومات نجاح هذا الحدث قضاء المشاركين أسبوعا داخل مؤتمر البحث. وقد تم تنظيم مؤتمرات بحث متعددة (٢٠ مؤتمرا) شملت الأجانب والمحليين معا. ومع

ذلك فإننا لا نستطيع أن نحكم على فعالية برنامج البحث المتعدد هذا، فهذه الجهود أوجدت وعيا دوليا عن البحث كمنهج للتصميم التعاونى. حقا فقد ظهرت نتائج نجاح هذا المؤتمر فى الأنشطة اللاحقة التى قام بها الباحثون الأستراليون الذين سافروا خلال القطار المهنى إلى دول أخرى بأساليب مؤتمر البحث. على سبيل المثال فقد قدمت مارلين إيمرى بناء وتنظيما فى الولايات المتحدة الأمريكية لتعليم الناس كيفية إجراء مؤتمرات البحث.

استخدام مؤتمرات البحث فى الولايات المتحدة الأمريكية:

كان أول من أدخل البحث فى الولايات المتحدة الأمريكية الباحثين بمعهد تافيستوك. ففى البدايات المبكرة من مرحلة الثمانينيات من القرن الماضى انضم كل من فريد إيمرى وإيريك تريست إلى مدرسة وارتن لإدارة الأعمال بجامعة بنسلفانيا. وخلال هذه المرحلة عمل تريست فى مشروع بحث فعل كبير فى جيمس تاون بنيويورك، وقد دعى إيمرى للعمل مع جماعات الأمريكيين الأصليين فى مناطق نائية بنيويورك. وقد نتج عن هذا النشاط الأخير بحث يركز على مستقبل الهنود الحمر.

وقد جاء التأثير الأقوى فى الولايات المتحدة من خلال استشارة مارفن ويسبورد **Marvin Weisbord**. وفى أحد كتبه "أماكن العمل المنتجة **Productive Workplace (1987)**" قام بجمع العديد من الأمثلة العملية لمؤتمرات البحث التى تم تنفيذها فى مدى واسع من الثقافات والمؤسسات. وقد أوجد ويسبورد استشارات مهمة فى إدارة الأعمال وذلك بتركيز اهتمامه على تدريب المستشارين على عمل مؤتمرات البحث. وبين جهوده التدريبية وكتاباته أصبح له تأثير مسيطر فى الولايات المتحدة الأمريكية على تنمية التفكير عن مناهج وطرق البحث. ويمثل مؤتمر البحث لويسبورد (١٩٩٢) أسلوبا خاصا فى البحث تم وضعه ليتناسب مع بناءات القوة الموجودة فى إدارة الأعمال بالولايات المتحدة الأمريكية. وأحد الجوانب الرئيسية التى

يتميز بها اتجاه ويسبورد عن تلك التى ناقشناها سابقا تتمثل فى قبوله عوامل ثبات معينة Certain parameters مسبقا، ويوافق على الدفع بمناطق معينة من عدم الاتفاق إلى الخلفية. لذلك فهو يستخدم البحث بصفة أساسية كمنهج لتشكيل رؤية مشتركة واستخراج بعض القدرات الخلاقة للمشاركين. وهناك أيضا تركيز أقل فى اتجاهه على كيفية مساندة الأفعال التنموية الأساسية خلال عملية البحث. وبينما بعض من هذا نبعت من الممارسات الخاصة بويسبورد، ومع أن مناقشة القوة والبحث قد تم تناولها فى رسالة الدكتوراه لآن مارتين Ann Martin (2000) فإن تحديات التصميم التنظيمى وبناءات القوة تميل إلى إلغاء البحث من الولايات المتحدة الأمريكية عموما.

ويدور التيار الآخر من الأنشطة القائمة على البحث حول جامعة كورنيل. وقد اكتشف البرنامج الذى قامت به مدرسة علاقات العمل والصناعة بجامعة كورنيل، والذى يسمى أنساق التوظيف ومكان العمل" "Employment and Workplace Systems"، والذى وضعه أساسا وليم فوت هويت William Foote Whyte الباحث الذى استخدم الاتصالات مع مورتين ليفين وجامعة النرويج للعلوم والتكنولوجيا بمدينة تروندهيم Trondheim (Whyte, 1994, P.307)، وبتناول اتجاه هذا الاتصال نجد أن اتجاه جامعة كورنيل ارتبط تماما بالاتجاه النرويجى وجسد ذلك ارتباطا قويا بين التقاليد النرويجية وبين الأكاديميات الأمريكية أكثر مما فعل ويسبورد.

مؤتمرات الفعل كعمليات تغيير بنائية

Search Conferences as structured Change Processes :

على الرغم من أن لدينا تفضيلات واضحة، فإننا نركز على أنه لا يجب أن يتساوى البحث مع أسلوب واحد فقط؛ فلا توجد وسيلة واحدة صحيحة لإجراء مؤتمر البحث. فالممارسون يختلفون فيما بينهم وفقا

لاتجاهاتهم ومهاراتهم. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن الباحثين الجيدين هم الذين يطورون باستمرار اتجاهاتهم ويبدلونها كلما تعلموا أكثر عن العملية التى ينخرطون فيها ويكتسبون مهارات أكثر. ولا يجب أن نمنح أيا من الممولين لهذا المنهج شرف فرض الاتجاه الذين يرونه صحيحا من وجهة نظرهم. وبالتأكيد نحن لا نتفق مع مارلين إيمرى (١٩٩٣) بأنه يوجد وسيلة واحدة لإجراء مؤتمرات البحث.

الاختيار التعاونى Co- Option:

يعتبر الاختيار التعاونى للبحث مشكلة حقيقية. إن البحث مثل بحث الفعل لليفين وبحث الأنساق الاجتماعية التقنية من قبله كان هو النمط السائد. وإلى حد بعيد وضعت بعض العمليات فى الوقت الحالى تحت عنوان مؤتمرات البحث، والتى أغفلت التركيز المهم والضرورى على التغيير الاجتماعى الليبرالى التشاركى. وكان بعض من هذا نتيجة التخطيط الفقير والنقص فى فهم ما هى حقيقة البحث. ومع ذلك جاء بعض من هذه أيضا بسبب التكرار المتزايد لاستخدام مؤتمرات البحث لخلق "فترات سحرية" للمشاركة بواسطة إيهامهم بالمشاركة فى عمليات التغيير الواقعية، بينما يتركز الاهتمام الرئيسى للعملية على تقليل الضغوط الداخلية من أجل التغيير. ولمساعدة باحثى الفعل للكفاح من أجل التعامل مع هذه المشكلة وأيضا لمد القارئ بإرشادات تفصيلية كثيرة عن عمليات البحث فإننا نناقش الآن العناصر الرئيسية لمؤتمر البحث كاتجاه نابع من ممارستنا الخاصة.

متى تصبح العملية بحثا When is A Process A Research:

من وجهة نظرنا يجب أن تتوفر ستة عناصر رئيسية لكى تتخذ عملية الجماعة خصائصها على أنها بحث:

١) خلق تاريخ مشترك وترك كل مشارك يفهم كيف يبدو للعالم طبقا لجماعة المشاركين الآخرين.

٢) خلق رؤية مشتركة حول ما هو المستقبل المرغوب أو الحلول المناسبة للمشكلات المحورية للجماعة.

٣) خلق وجهة نظر حول ما يمكن أن يكون عليه المستقبل لو لم يتم فعل أى شيء؛ وأحيانا ما يتكامل هذا المنظور داخل العمل نحو المستقبل المرغوب.

٤) خلق خطط العمل المنصبة على المشكلات المحورية.

٥) خلق عملية تحديد أولويات جماعية والتى من خلالها يختار المشاركون بين البدائل المتاحة لخطط العمل.

٦) البدء بأنشطة تغيير واقعية وبناء عملية متابعة تستهدف متابعة ما تم المشاركة فى تحقيقه وتعلمه.

وهذه العناصر الستة تختلف فى المحتوى والبناء. إن العمل على تطوير التاريخ يعتبر مختلفا كثيرا جدا عن استخدام الإبداع الضرورى لتطوير أفكار جديدة لخطط الفعل. وبالإضافة إلى ذلك فمن خلال البحث يوجد تفاعل منظم بين الجلسات المكتملة **Plenary Sessions** وجماعة العمل الصغيرة التى تشيد بناء اجتماعيا جديدا. ومن الخصائص المهمة الأخرى فى البحوث هى كيف يخلق البناء الصارم والقواعد العادلة العملية التى تساعد فى تشكيل مناطق ذات قيمة للحوار.

وقد شبة هيربست **Herbst (1980)** عملية البحث على أنها مزدوجة الطريق **Dual Track**. وينقل الشكل رقم (٩-١) التصور العام للبحث كعملية إنتاجية وخلاقة (تبنى تاريخ ورؤى مشتركة، وتنتج إمكانيات فعل خلاقة، وتعكس مدى جدوى إمكانيات الفعل، وأخيرا تضع أولويات الاختيار بين عناصر الفعل المتاحة.

وتتضمن عملية العمل فى مؤتمر البحث كل من العروض التكاملية والمناقشات وجماعات العمل الصغيرة. وهذه الجماعات الصغيرة إما أن تكون متجانسة أو أن تكون خليطا من الاهتمامات والخلفيات، وتستخدم فى إعداد الأفكار والمواد اللازمة للمناقشات المتكاملة، وبالتالى فهى تعبر عن نفسها كجماعة مشاركين كلما كان ذلك ممكنا.

تصميم المؤتمر

مراجعة		تحديد المشكلة		الخطوط المحتملة للعمل من الآن وحتى المستقبل	
الماضي الحاضر	الحاضر للمستقبل				
ما التغيرات التي حدثت في المجتمع من الماضي إلى الحاضر؟ هل هي إيجابية أم سلبية؟	ما التغيرات المتوقعة في المستقبل؟ هل هي إيجابية أم سلبية؟	صياغة المشكلات الرئيسية بواسطة فريق البحث على أساس المعلومات التي حصلوا عليها.	مراجعة صياغة المشاركين للمشكلات الرئيسية	تصنيف المشكلات الرئيسية	العمل والأفعال التي نحتاجها والتي تبدو ممكنة التنفيذ
حيز الجماعة	حيز الجماعة		حيز الجماعة	حيز الجماعة	الحيز الممتلئ

اليوم الأول	**اليوم الثانى**
الجماعة المتجانسة	**الجماعة المتجانسة**

شكل (٩-١) عمليات بحث الطريق المزدوج لهيربست

الإعداد للبحث Preparing for Search:

تؤدى الكثير من الطرق إلى مؤتمر البحث. فى بعض الحالات يكون لدى الفاعلين المحليين الألفة بمؤتمرات البحث وبالتالى توقع تحقيق ما يتطلعون إليه. وفى هذه الحالة تكون المهمة البدء فى اختيار شخص لتولى وظيفة الميسر. ويتطلب المنهج البيروقراطى المعيارى ببساطة المقترحات من مختلف مديرى مؤتمر البحث المهنيين. ونحن نعتقد أن البحث كنوع من بحوث الفعل يتطلب المهارات والإدارة التى تصل وراء أنماط العمل لمعظم المستشارين التقليديين، ومع ذلك فإن التعاقد على مؤتمر البحث نفسه يعتبر حالة معقدة.

والطريق الآخر لمؤتمر البحث يتعلق بالخارجيين العاملين فى عمليات التنمية المحلية لإقناع الفاعلين المحليين بأن البحث ملائم لهم. وفى هذه الحالة ربما لم يفهم الفاعلون المحليون ما هو البحث. إن التحدى الذى يواجه الخارجيون يتمثل فى كيفية نقل وتوصيل الفهم بعملية البحث، ورؤية أن ذلك يمكن أن يساعد الفاعلين المحليين. وعلى الرغم من ذلك تعتمد عملية البدء فى البحث على الثقة المتبادلة لأنه من الصعب نقل صورة واضحة وعادلة عن ما يكون عليه البحث إذا لم يكن للناس خبرة أو رأوا نتائج إيجابية للبحث على جماعات أخرى.

التخطيط للبحث وتنفيذه

Planning and Executing a Search

التفويض بمؤتمر البحث

Commissioning the Search Conference

تتمثل أول خطوة فى البحث فى العمل مع الفاعلين المحليين الذين يريدون أن يكونوا مفوضين فى البحث. وهذه المناقشة مهمة جدا للعديد من

الأسباب. فالسؤال أو الطلب الأولى الذى يحفز المحليين ربما لا يكون هو أكثر جوهرية أو أهمية للجماعات التى يمثلونها، أو ربما لا يكون محددا بطريقة يمكن أن تؤدى إلى بحث بناء. ونظرا لأن البحث يعتبر شكلا من إنتاج التعلم التعاونى، فلابد أن يخصص متسع من الوقت للمناقشة مع هؤلاء المفوضين للبحث، لذلك يتكون لدى كل شخص فكرة واضحة عن ماهية العملية ككل.

ونظرا لأن العملية تستهدف إيجاد فرص تعليمية متبادلة، فلابد أن يتحدى ويناقش الميسر التحديد المبدئى للمشكلة محور الاهتمام، ومن ثم يناقش التعريفات المحلية لها التى يتم تداولها. ويؤدى الفهم المتبادل الناتج من خلال هذا الحوار إلى تحديد مشكلة البحث التى تستخدم فى التخطيط لمؤتمر البحث. ومن المفضل جدا أن يكون لدينا نوعان من الناس يعملون إما ميسرين مساعدين أو فى إدارة مؤتمر البحث.

تحديد المشاركين Identifying the Participants:

وتتمثل الخطة الثانية فى تحديد المشاركين المحتملين. وفى الأبحاث بوجه عام يكون الحجم المثالى بين ٢٠ و ٤٠ شخصًا، ولكن يمكن إجراء البحوث بنجاح بأكثر من ٧٠ مشاركا، وحاليا تضمنت بعض البحوث المرتبطة عددا من الجماعات المهتمة بنفس القضايا عددها مئات من المشاركين.

(Robert Rich, 1998, Personal communication; Pelletier, Kraak, & Asher, 2003; Peters, Hittleman, & Pelletier, 2005)

ويعتبر التحديد المناسب من المستفيدين ذوى العلاقة من الأمور الحيوية والضرورية. ويمثل تحديدهم دلالة على تركيز اهتمام البحث عليهم. إن كل جهد يتم يكون لوضع الجماعات والأفراد التى لديها اهتمامات شرعية

أو أقوال موضع الاهتمام. ويعتبر ذلك إجراء معقدا ذلك أننا عادة ما نبدأ بوجهات نظر هؤلاء الذين يفوضون فى البحث. ولكن نادرا ما تكون هذه الجماعات ممثلة تماما للمستفيدين ذوى العلاقة. ويجب أن يبحث الميسر عن طريقة لإدارة العملية بشكل يتأكد من خلاله أنه تم عرض الكثير من اهتمامات المستفيدين بأقصى درجة ممكنة.

وهذا يبدأ بمناقشات مع هؤلاء المفوضين فى البحث، ولكن بسرعة تصبح عملية إيجاد ودعوة المشاركين ذوى العلاقة شكل من تحليل الشبكة. ومع البدء بأسماء الأفراد والجماعات التى قدمتها جماعة البداية أو التفويض، يتم أيضا سؤال كل مشارك جديد تم الاتصال به عن توصياته ومقترحاته عن أشخاص آخرين أو جماعات أخرى يجب دعوتها للمشاركة فى البحث. وبالسير فى جميع هذه الخطوط يتم تحقيق الاختيار المناسب للمشاركين. وفى الغالب فإن الغرض من كل ذلك هذه الحوارات والاتفاقات مع هؤلاء تحقيق التوازن المقبول فى وقت قصير.

دعوة المشاركين Inviting Participants:

عندما يتأكد الميسر بأنه تم تحديد جماعة الناس المناسبة كمشاركين وأن المستفيدين المحليين قد وافقوا، فلابد من تقديم الدعوة لهم. ومن وجهة نظرنا فإن أفضل وسيلة لعمل ذلك هى المزج بين الدعوة والمقابلة. وإذا تم تقديم الدعوات بواسطة الميسر فإنه يستطيع من خلال المقابلة اكتساب مزيد من المعرفة عن المشاركين، مثل خلفياتهم وسياقاتهم التنظيمية، والتى تساعد ميسر البحث لكى يكون أكثر فعالية. وتوفر المقابلة للميسر الفرصة لفهم الأشخاص والمواقف، والذى يزيد من قدرته على اتخاذ القرارات القائمة على أساس المعرفة فيما يتعلق ببناء وعملية البحث. وفى نفس الوقت تعتبر المقابلة التى

يتم فيها تقديم الدعوة وسيلة ذات قيمة كبيرة حيث يتم إعلام المشاركين عن ما هو مؤتمر البحث. ويعتبر ذلك نوعا من الإعلام والدافع للمشاركين المحتملين. وأحيانا ما تتطلب بعض الصعوبات والقيود تفويض هـذه المهمـة لجماعـة التخطيط. وعندما يتم إنجاز هذه المهمة يتم دعوة المشاركين على أقل تقـدير بواسطة الأشخاص الذين يعرفونهم وأن يكون لديهم الفرصة لتوجيه الأسـئلة عن العملية فى بيئة مريحة. وفى كل الأحوال فإن الإعداد الأفـضل للميـسر وللمشاركين يزيد من فرص احتمال نجاح البحث.

الدعم اللوجستى Logistical Support:

لا نقدم هنا تفصيلات عن بناءات الدعم المادى المقدم للبحوث، مـا عدا القول بأن المحيط الجيد والدعم اللوجستى مهمان بشكل كبيـر. ويعتمـد البحث على تعلم الجماعة عن نفسها، لذلك يجب أن يسمح الوضـع القـائم للمشاركين بالانفصال عن حياتهم اليومية والتركيز بقوة علـى الأشـخاص الآخرين والمشكلة التى يتناولونها. وهذا يتيح الفرصة للمشاركين للتعـرف على بعضهم البعض اجتماعيا أثناء اللحظات التى لم يتم فيها إجراء البحث، وكذلك يتيح الفرصة للبعد عن الحياة اليومية مما يعزز من فرص التركيـز على قضايا البحث المطروحة.

ومن المهم جدا أن نجد مكانا يوجد به العديد من الغرف الكبيرة التى تسمح بالمناقشات الوافية. والحجرة يجب أن تكون كبيرة بدرجة كافية تسمح بحرية الحركة للمشاركين، ويجب أن تملأ الحـوائط الرسـوم التوضـيحية والإحصائية التى تعرض مدى التقدم فى العمل. ويجب أيضا أن يتاح فى هذا المكان مساحات واسعة لممارسة أنشطة الجماعات الصغيرة. وكـذلك مـن المهم أيضا أن تتوفر فى هذا المكان منطقة يتم فيها جمع المـوارد الماديـة المطلوبة والحفاظ عليها وصيانتها.

وعند الإعداد للبحث فإن التعاون الوثيق مع جماعة المشاركين المحليين يعتبر من المتطلبات الضرورية. وهذا يوفر أساسا جيدا لدعوة الأعضاء وأيضا يساعد أعضاء جماعة التخطيط فى تقديم خدماتها كميسر متعاون. ويكون لذلك تأثير كبير فى تدريب المشاركين المحليين على تناول بحوث المستقبل بأنفسهم، ولكن أيضا له تأثير ديمقراطى مهم من خلال إعطاء المشاركين الفرصة لإبداء رأيهم عن القرارات التى تتعلق بتصميم مؤتمر البحث وإدارته.

مراحل مؤتمر البحث:

تستغرق عملية البحث النموذجية حوالى يومين، وهذه الفترة من الزمن تتسم بدرجة من المرونة. وقد دارت المناقشات حول هذا الوقت الكثير على أساس أن البحث يعتمد على عمليات تعلم جماعية، وهذه العمليات لا تتحرك بشكل سريع. وربما نجد أن البحث القصير يقع فى شرك عدم التركيز ويهدد الهدف الرئيسى وهو إيجاد عملية تعلم مدعومة.

ويبدأ البحث بالمشاركة الكاملة فى تحديد المشكلة التى يتم التعامل معها، ويتبع ذلك الجلسات التى تركز على جوانب المستقبل النموذجية المحتملة. وينتهى هذا عادة فى اليوم الأول. ويبدأ اليوم الثانى بتكوين إستراتيجيات الفعل، وخلق بناءات القوى وينتهى البحث بالتخطيط للمقابلات المستقبلية.

إيجاد التاريخ المشترك Shared History:

تتمثل الخطوة الأولى فى البحث فى تكوين التاريخ المشترك. ولا يعنى هذا القول إن الفهم الموحد للجذور التاريخية للجماعة يجب أن

يستبعد. وعلى العكس من ذلك فإن التركيز هنا يكون على أنه يجب أن يدرك ويعى كل المشاركين فهم كل طرف من الآخرين للتاريخ ذى العلاقة. وتتمثل الفكرة الرئيسية فى كيفية أن يكــون التــاريخ متعــدد المظــاهر ومتنــوع الخصائص، وهذا لابد أن يكون واضحا بعد ســماع كــل وجهــات النظــر المتنوعة. وبالفعل فإن معظم الجماعات فى البحث يكون لديها تاريخ مشترك، ولكن إنتاج التاريخ فى البحث يختلف، لأنه يبحث بفاعليــة عــن الخبــرات ووجهات النظر، والتى غالبا يتم إغفالها أو قمعها فى الحياة اليومية.

ومن الطرق الشائعة للبدء فى البحث أن يكون لدينا عضو أكثر احتراما فى الجماعة يقوم بوضع تصور تاريخى واسع الرؤية. ومن ثم تعطى الفرصة لكل المشاركين فى الجماعة لعرض رؤيتها الخاصة عن التاريخ. ويتم ضم كل ذلك فى جلسات متكاملة حتى تستطيع الجماعة ككل تكوين وضع متجانس **heterogeneous** يرضيها ككل.

ومن الوسائل الأخرى لتكوين تاريخ مشترك تقــوم علــى أســاس الاستخدام الخلاق للرسم والكتابة. ففى الغرفة المتكاملة يتم تغطية الجــدران للورق المعد للرسم والكتابة. ويمكن أن نضع خطا من الأوراق المنفصلة أو صفحة طويلة من الورق **(Martin & Rich, 1994)**. وعلى سطح هذا الورق يتم رسم خط عريض للزمن يبدأ من اليسار بنقطة البدايــة ويــستمر حتــى الحاضر. ومن ثم يتم إعطاء الفرصة للمشاركين إضافة رسوم أو أحداث فى أى مكان لديهم فيه ما يساهمون به. بعد ذلك تستمع الجماعــة ككــل لكــل شخص أضاف شيئا ما حيث يقوم بشرحه. ومن خلال هذا الاتجاه يــستطيع المشاركون تعلم تفسير التاريخ من كل شخص والبناء عليه، وفــى النهايــة يتمخض عن هذه العملية ككل إنتاج تاريخ جديد.

إنتاج رؤية مشتركة Creating A Shared Vision:

يتمثل الهدف العام من عملية البحث فى إيجاد موقف مشترك عن مستقبل مرغوب ومحتمل. ويكون ذلك بناء على التباين بين المستقبل المثالى والمستقبل الحقيقى. ويمكن أن يكون المستقبل المثالى فى رؤية كيف يتطلع المجتمع المحلى أو المنظمة بنهاية العقد القادم. وتتمثل القضايا الجوهرية هنا فى أن يكون لدينا سقف لوجهات نظر المشاركين، ووعيهم المشترك حول ما يجب أن يكون عليه المستقبل المرغوب. ومرة أخرى تعتبر هذه عملية جماعية، والتى من خلالها يرتبط المشاركون فى حوار يستخدم الجماعات الصغيرة واللقاءات الجماعية المتكاملة للوصول إلى نوع من الإجماع. وأن كل ما ينشأ أو يظهر نتيجة، كل ذلك يعتبر اتفاقا عاما يسمح بتخصيص الغرفة لتفسيرات الأفراد وأفعالهم.

وعلى الرغم من أن الإجماع المطلق ليس ضروريا أو مرغوبا، فإنه يجب أن يكون هناك مستوى مقبول من الفهم والاتفاق المتبادل. ويمكن أن يحقق مؤتمر البحث نتائج مفيدة فقط عندما يكون هناك حد أدنى من الفهم العام للأهداف والإجماع عليها. وقد ناقش مارتن الخط القاسى **Harder Line** ورأى أن الاختلافات القوية حول المستقبل المثالى تقلل من احتمال وصول مؤتمر البحث إلى نتائج عملية.

ومن وسائل تنفيذ عملية تحديد المجتمع المثالى البدء بالجماعات الصغيرة والمتجانسة نسبيا، والطلب من كل جماعة أن تحدد من ٥- ١٠ أهداف مهمة للوصول إلى قضية البحث. ومن ثم تقدم كل جماعة وجهة نظرها بشكل متكامل، وهذا يضع أساسا للمناقشة بين جميع المشاركين. ويجب أن ينظر الميسرون لهذه الخطوة على أن المناقشة المتكاملة تركز بشكل تدريجى على القضايا التى اتفق عليها المشاركون. وهذا العمل القائم

على الإجماع له أهمية بالغة نظرا لأنه سيكون نقطة مرجعية لفــرق الفعــل Action Teams فيما بعد.

ويتم الوصول إلى المستقبل المحتمل بنفس الأسلوب. حيث يطلب من الجماعات أن تحدد إدراكها بما سوف يحدث إذا لــم يتخــذوا الإجــراءات المناسبة لتحسين مستقبلهم. ويعتبر هذا الجزء من العملية حساسا جدا نظــرا لأن النظرة السلبية للمستقبل عادة ما يكون من السهل توضيحها، وغالبا مــا تتطابق مع المخاوف الانهزامية للمشاركين. ونحن نعتقد أن الجماعات يجب أن تتعامل بانفتاح مع مخاوفهم الانهزامية، نظرا لأن تحديد وتسمية مخاوفهم السيئة تساهم فى تنمية وعيهم وإحساسهم بالحاجة إلى تغيير حقيقى.

وعندما تحدد جماعة البحث المستقبل المحتمل، فإن طاقة الوهم التى غالبا ما ترتبط بالتاريخ والمستقبل المثالى تبدو فى التلاشى. وتعتبر مراجعة الواقع جزءا من العملية ويجب علــى الميــسرين أن لا يفعلــوا أى شــىء ليجعلوها سهلة أو مقبولة. حقا نحن نعتقد أنه من المهم لكل مشارك أن يختبر مباشرة المواقف الصعبة أو المطبات الناتجة عن عدم اتخاذ الفعل. ويعتبــر ذلك أساسا لصنع التزام بالفعل. ولتعزيز ذلك فإن اليوم ينتهــى عنــد هــذه النقطة، مع ترك المشاركين لتأملهم الذاتى عن المستقبل المثالى والمحتمــل. والنهايات البديلة الممكنة. إن الوقت المتــاح وأنــواع القــضايا وديناميــات الجماعة غالبا ما توحى بتعديلات فى تقسيم الوقت.

تحديد خطط العمل Identifying Action Plans:

وفى ضوء المعطيات الخاصة بفهم الأهداف المرغوبة، ونتائج عــدم اتخاذ الفعل، فإن المهمة هنا تكمن فى تطوير وتكوين الأفكار المتعلقة بالفعل والإستراتيجيات اللازمة للوصول إلى الأهداف المرغوبة. وتبنى العملية على

القدرات الخلاقة للمشاركين. ومن المهم هنا تشجيع المشاركين على أن يتركوا العنان لقدراتهم الخلاقة للخروج إلى الواقع. وفى معظم الأحيان كل يوم من أيام حياتنا نعانى من مطالبنا المنخفضة جدا لإبداعاتنا الشخصية؛ وفى البحث يعتبر ذلك استثمارا جيدا أن نكرس جزءا كبيرا من الوقت لتشجيع هذا النوع من الإبداع.

ولفعل ذلك فلابد من ملاحظة بعض القواعد. فغير مسموح نقد أفكار الآخرين. وربما يطلب المشاركون من بعضهم البعض التوضيح، ولكن كل الأفكار يتم التعامل معها على أنها جديرة بالاحترام. ولا يسمح لأى شخص أن يسيطر على الحوار أو أن يغلق أفواه الآخرين. ويجب أن يكون الميسر منتبها للاختلافات العمرية والعنصرية والأيديولوجية وحسب الجنس ويحاول الحفاظ على الحوار مفتوحا أمام الجميع بقدر الإمكان. ومن الوسائل الجيدة لتشجيع الإبداع فى هذا الجانب هى تكوين جماعات صغيرة من المشاركين تختلف فى خبراتها وأوضاعها فى المجتمع أو فى المنظمة. ويعمل الأعضاء على تكوين إستراتيجيات وخطط عمل يتم تقديمها تباعا فى الجلسات المتكاملة. ومن خلال هذه الجلسات يتم تشجيع المشاركين على حرية طلب الشرح أو التفسير للأفكار المطروحة وليس انتقادها.

أولويات الأفكار Prioritizing Ideas:

فى الوقت الذى تبدأ عملية الإبداع فى العمل، تقوم الجماعات المجتمعة فى إيجاد العديد من خيارات الفعل من الخيارات التى وضعتها. كل هذه الخيارات تستهدف الوصول إلى المستقبل المثالى. ونظرا لأن طبيعة العملية الإبداعية تؤدى إلى ذلك، فإن هذه الأفكار لا تكون فى أى ترتيب معين. وعندما يكون العمل فى جماعات كبيرة، فلابد من ترتيبها بأسلوب معين. ونعتقد أن هذه هى مهمة ميسر البحث.

وفى العديد من البحوث ينتهى اليوم الأول عند هذه النقطة، بينما فى بحوث أخرى ينتهى اليوم بمواجهة المشاركين لمشاعرهم السيئة. وعندما يتم إنتاج خيارات الفعل يستطيع الميسر استخدام فترة المساء فى إنتاج فئات من بنود الفعل التى يمكن وضعها فى مجموعات معا. وتعتبر هذه مهمة غاية فى الأهمية نظرا لأنها تشكل أساسا لعملية وضع الأولويات. وتعتبر واحدة من المهارات الأساسية التى يأتى بها الميسر إلى العملية. ويجب أن يكون لدى الميسر القدرة على فهم الثقافة المحلية لكى يستطيع التمييز بين البدائل، وفهم المتشابهات. وعلى الرغم من أن تجميع الميسر ليس نهائيا فإنه يوفر الأساس لعملية تحديد الأولويات فى اليوم التالى.

ويبدأ اليوم التالى بعرض ترتيب وتنظيم الميسر لبنود الفعل. ويبدأ فى توجيه التوضيحات وإجراء التعديلات، ويتم فتح مناقشة متكاملة ينتج عنها إيجاد فهم لكيفية تنوع آراء المشاركين. وعدما تظهر فى الأفق بعض القضايا الأساسية المشتركة، فإن التحرك يتجه نحو وضع وتحديد الأولويات بشكل واضح وصريح. وعندما لا يتوفر الوضوح ولم تظهر وجهات نظر متفقة، فلابد من إعادة تقسيم المشاركين إلى جماعات صغيرة للعمل نحو هذه القضايا. وكل جماعة يمكن أن تعطى على سبيل المثال تكوين قائمة من ٣- ٥ من أكثر قضايا الفعل المرغوبة. وهذا بالفعل يقدم فى شكل متكامل وأن الجماعة ككل تستطيع أن ترى أن الطريق المتاح للوصول إلى قرارات جماعية بدأ فى الظهور.

نشاط التغيير الواقعى خلال فرق عمل المتطوعين

Concrete Change Activity through Volunteer Action Teams

تتمثل المرحلة الأولى للبحث فى إيجاد فرق العمل المسئولة عن تحديد قضايا الفعل المتفق عليها. ويعتبر هذا اختبارا قويا لعملية تحديد

الأولويات. وهنا يقترح المشاركون من خلال الإشارة إلى الأوراق التى تتضمن قوائم بنود الفعل الأساسية. وبعض القضايا التى حددها المشاركون على أنها مهمة لم تتلق أى إشارة من المشاركين. وعلى الرغم من أن هذا الأمر جدير بالاهتمام فإن الغرض من البحث هو تحديد عالم مثالى للعمل، ولكنه عالم يستطيع الناس فيه الالتزام بتنفيذ أفعال عملية تساهم فى حل مشكلاتهم. فهى دائما خطط واقعية أكثر من أن تكون طاقة مبذولة أو تشجيع للتعامل مع المشكلات.

وللانتهاء من مؤتمر البحث، يكون لدى فرق العمل خطط لجلسات قصيرة مختصرة. نكون لكل جلسة خطة للجزء الأول من عملهم. ويجب أن يتكامل فى هذه الخطة تحديد أهداف الجماعة، وجدول تفصيلى يتضمن مواعيد واقعية للمقابلات، واختيار مقرر مؤقت للجماعة. ويجب أن يلتزم المشاركون كجماعة بمجموعة محددة من مقابلات التتبع العامة. إن الموقف المثالى هو الذى يحتوى على عملية تتضمن مؤتمر البحث نفسه، والتى تستمر نحو عام. مقابلات التتبع التى تتم كل شهرين أو ثلاثة أشهر تحتفظ بتأثير عملية النمو من خلال السماح للمشاركين بالاشتراك فى نتائج جماعات المهام المحددة المختلفة. ويمكن أن يؤدى ذلك إلى زيادة فرص التعلم لكل شخص وإيجاد ملكية جماعية وضبط لجهود التغيير.

ونحن نريد أن نعزز موضوع أن ممارسات البحث يمكن أن تختلف إلى حد بعيد. فمدة مراحله، وعدد الميسرين والمشاركين، وأشكال الجماعات الصغيرة، ودرجة التركيز على قواعد المناقشات، كل ذلك يختلف بسبب أن الميسرين يختلفون، أو بسبب أن بعض الميسرين يتكيفون بمهارة مع اتجاه تطوير وتنمية ديناميات جماعات معينة. لذلك فالبحث ليس وصفة محددة ولكنه عملية إنتاج تعاونى لبحوث فعل عالية المهارة. فالجهود التى تبذل للتعامل معه كوصفة محددة ينتج عنها أفعال وعمليات غير فعالة تفتقد أو يتم تحريفها على أنها تعاونية.

الخلاصـــة:

يعتبر مؤتمر البحث فقط واحدا من الطرق التى يمكن أن تستخدم فى عمليات بحوث الفعل البرجماتية، ولكن بواسطة عمل عرض مفصل وممتـــد لمؤتمر البحث، فإننا نركز على الخصائص الرئيسية لاتجاهنا. إنه يتــضمن تدريجيا محادثات متعددة الجوانب مع المستفيدين المحليين، والتفكير المتقـــدم فى المشكلة موضوع الاهتمام، وعملية الاحتواء أو التضمين. ومن ثــم يــتم خلق العديد من ميادين إنتاج التعلم التعاونى، والتى تتركز فيها العلاقة بـــين التفكير والفعل على بيئة فريق العمل متعدد الأبعاد والجوانب.

وقد تم عرض الكثير من الأبعاد الأخرى لاتجاهنا فى فصول الكتاب من الفصل الرابع وحتى الفصل الثامن. وبالطبع فإن جميع الأدوات الخاصة بالبحث الاجتماعى متاحة، إذا احتاج المجتمع أو المنظمة إلى أساليب البحث. فالأساليب الكمية والأساليب الكيفية والطرق المختلطـــة، وخاصـــة أســـاليب (جماعة المهام، والتدريب على ديناميات الجماعة، والتقليد، وتحليـــل قـــوى الميدان، ومصفوفة تحليل التغاير، وتصميم ورش العمل التعاونيـــة، ولعـــب الدور، ومستندات الروايات أو التسجيلات القصصية) يمكن أن تكون فعالـــة، ولكن تكون مناسبة فقط لو أنها تطورت فى إطار سياق التحديـــد التعـــاونى لمجموعة من الأغراض أو الأهداف، وإذا تم مساعدة المشاركين المحليـــين على نشرها وتحليل النتائج بشكل حاسم.

ويتمثل الأساس الجوهرى لإستراتيجية بحوث الفعل البرجماتية فـــى احترام الأبحاث والأفعال الجمعية والأهداف الديمقراطيـــة لبحـــوث الفعـــل والحفاظ على استمرار الحوار مع المشاركين. ويعتبر ذلك أيضا من الدروس المستفادة من مراجعة الحالات فى الفصل الثالث. وبمقدار القوة والقيمة التى

نعتقد أن يكون عليها البحث، وبمقدار جودة الأدوات التى تم استخدامها فى سياقات أو بيئات محددة أو نوعية، فإننا نشك فى أن بحوث الفعل التى تستخدم لتسوية المواقف التى يكون فيها بعض المشاركين متحمسين ومتحيزين لبعض الأضرار التى يعانى منها المستفيدون الآخرون. فالبرجماتية بمفردها سلاح غير كافٍ ضد السلطوية.

الهوامش

١) نستخدم مصطلح البرجماتى بطريقتين، ونحن نعنى به أنه يشير إلى التقاليد الفلسفية للبرجماتية والبرجماتية الحديثة التى تمت مناقشتها فى الجزء الثانى، ولكن نقصد أيضا استدعاء المعنى اللغوى المألوف للبرجماتية، والذى يشير إلى عملى **Practical** أو الاستفادة العملية **Practical useful**.

٢) تم مناقشته فى الفصل الثانى.

الفصل العاشر

القوة والإصلاح الاجتماعى

بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة والتعليم وتحرر المرأة وبحوث الفعل

Power and Social Reform

Southern PAR, Education, Feminist and Action Research

إن تقديم مجال معقد ومتنوع باختصار كبير يعتبر حتما مثيرا للسخرية. ويظهر ذلك لنا بشكل خاص عندما نحدد مجموعة هائلة من الاتجاهات لبحوث الفعل، والتى تركز على قضايا القوة والإصلاح الاجتماعى وتنمية المجتمع ومواجهة الاضطهاد وحركات مساواة المرأة والتحرر من اللاهوتية والأنشطة العمالية وتنظيم المجتمع وقيادات التنظيمات غير الحكومية (NGO) والموظفين الحكوميين وقادة الجماعات الإثنية أو العرقية وعدد قليل من العلماء الاجتماعيين المهنيين الذين يشغلون مواقع أكاديمية، وكل ذلك يحتل مكانا تحت هذا العنوان. إن الاهتمامات المشتركة نحو القوة والإصلاح الاجتماعى انقسمت إلى مئات الوسائل بمختلف الطرق والأيديولوجيات والقضايا المحورية محل الاهتمام. ويرغب البعض فى وضع كل هذه الاتجاهات تحت عنوان بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (PAR) بسبب الاهتمام الراسخ بعلاقات القوة والاضطهاد. ومع ذلك فإننا نحاول جاهدين تحديد التيارات المتنوعة داخل بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة حتى لا نفتقد رؤية الاختلافات المهمة بين الاتجاهات وبين تصميماتها المثالية المختلفة تماما للإصلاح الاجتماعى. ونتناول كل ذلك معا، سواء لتقديمهم أو لتوفير بعض التوجيهات والإرشادات فى الأدبيات التى ننتجها.

ونقوم أيضا بذلك من أجل وصف الاختلافات الواسعة بين هؤلاء الممارسين وبعض باحثى الفعل الآخرين الذين هم الأقل تركيزا على الإصلاح البنائى للمجتمع وعلى تحسين التعلم الاجتماعى والتصميم التنظيمى وحالة الأفراد بوجه عام. ومحصلة هذين الاتجاهين الرئيسيين فى بحوث الفعل التقسيم المهم الذى لا يستطيع الربط بينه إلا القليل من الممارسين. ويميل كلا الجانبين إلى إهمال عمل الآخرين، والتعصب إلى التنوعات الأيديولوجية المتعلقة ببحوث الفعل. والأسوأ من ذلك أن باحثى الفعل ذات التوجه القائم على القوة يرون أن باحثى الفعل العاملين فى المجالات الأكاديمية والصناعية والقطاع العام والحكومات المحلية قادرون على أن يطوعوا أخلاقياتهم مع نخب القوة. وغالبا ما تنظر هذه الأصوات المعارضة إلى الباحثين الموجهين بالقوة على أنهم سلطويون، ومتأكدون تمام فى صواب وجهة نظرهم، بينما هم متهمون دائما بالتهميش لأنهم يصرون على أن مكانتهم الخارجية هى علامة على الاحترام وحسن السمعة.

ومن حسن الحظ فإن حالات العناد هذه تعتبر نادرة، وعلى الرغم من ذلك توجد اختلافات أيديولوجية ومنهجية واضحة بين الفريقين. ونحن نعتقد أن أى شخص يقوم بعمل بحوث الفعل فإنه يتجه نحو الموضوع الذى يتناسب مع توجهاته، ولكن نحن نعتقد أن كل الجوانب تستطيع تحقيق تعاملات ونتائج جيدة إذا حاولت التعلم من بعضها بعضا والعمل بأمانة وصدق من كل الأطراف. وبعد ذلك كله فإن هذا ما يدعون عمله فى ممارساتهم لبحوث الفعل، وأن هذا لا يتطابق أو ينسجم مع احترامهم لمعارف الآخرين، ومن ثم يرفضون المعرفة من كل جماعات ممارسى بحوث الفعل.

وتمثل مناقشة الباحثين[١] فى هذا الفصل وجهة نظر القوة أو علاقات القوة بأسلوب يتسم بالعدل والمساواة التى يجب أن تتعامل معها مشروعات

بحوث الفعل. لقد نبعت العديد من الكوارث والأزمات الكبرى من عدم تـوازن القوى، وبدون إعادة التوازن بين القوى بأسلوب يتسم بالعـدل والمـساواة فـلا يحتمل حدوث تغيير اجتماعى حقيقى. وبالمقابل فإننا نجد باحثى الفعـل علـى الجانب الآخر لا ينكرون وجود اختلافات القوى، ولكـنهم يعتقـدون أن هنـاك الكثير الذى يمكن فعله لتحسين جودة الحياة وأداء التنظيمات لوظائفها، وأن هـذا التحسين يتسم بالتحرر. ويعتقد الكثير بأنه بدون هذه التغييرات فـى التنظيمـات الرئيسية للمجتمعات الصناعية المتقدمة، فإنه لا يمكن الوصـول إلـى أهـداف المشاركة أو الأهداف الديمقراطية. وسوف نمزج فى هـذا الفـصل مناقـشات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (PAR) وتعليم الكبار ونماذج مـساواة المـرأة المعاصرة نظرا لأن هذه الاتجاهات تشترك فى عدد من القـضايا الـشائعة أو العامة. ولكنها ليست متشابهة ولا تحقق وجودها بـدون معارضـة الأحـداث الجارية **Cross-current**. فعلى سبيل المثال نجد بعض تيارات مساواة المـرأة لديها انتقادات لبحوث الفعـل الجنوبيـة **(PAR) androcentrism (Maguire, 1996)**. وحاليا نجد أن باولو فيرير **Paolo Rreire** وهو قائد كاريزمى لحركـة البحث التشاركى فى البرازيل وأخيرا حول العالم قد تعرض لانتقادات حادة من التيارات التقليدية الجنوبيـة المتعـصبة **(Bowers & Apffel-Marglin, 2004)** (انظر أيضا الفصل الحادى عشر "بحوث الفعل التعليمية").

ونعتقد أن تناول هذه الاتجاهات معا يكون مفيدا جدا نظـرا لأنهـا تشترك فى عدد من الخصائص الرئيسية التى تركز على تحليـل الاقتـصاد السياسى وتطبيقاته. ونحن هنا نميز اتجاه مساواة المرأة فى هذا الخليط نظرا لأن اتجاهات مساواة المرأة المعاصرة تستجيب بشكل أساسـى للاهتمامـات المصاحبة لبحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة بشكل خاص وبحـوث الفعـل بشكل عام. **(Greenwood, 2005b)** ونعتقـد أن انتقـادات التيـارات ضـد التشريعية وتيارات مساواة المرأة ضد الوضعية أتاحت الفرصة لفتح مناقشات

جديدة عن بحوث الفعل بصفة عامة. وقد منحت اتجاهات مساواة المرأة حياة جديدة للسياسات المرتبطة ببحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة وأن هذه الجهود قد تزايدت ونمت وردت الاعتبار لبحوث الفعل بوجه عام.

ويجب أن نضيف أن ذلك ليس هو كل الأخبار السارة من وجهة نظر بعض تيارات مساواة المرأة، التى نظرت إلى بحوث الفعل على أنها متطفلة على جهودهم، ورأوا أن مناقشات بحوث الفعل تعتبر هـــى الأســوأ، وهـــى استيلاء منظم على جهودهم. ويمكن تفهم رد الفعل هـــذا لـــسببين، الأول أن هناك افتراضا عاما بأن اتجاه مساواة المـــرأة يتـــسم بالخـــضوع (Messer-Davidow, 2002) وبالإضافة إلى ذلك فإنه غالبا ما يصاب علمـــاء اتجـــاه مساواة المرأة بالإحباط عندما يعلن باحثو الفعل أفكارهم وبرامجهم المستمدة من اتجاه مساواة المرأة بدون الاعتراف بمصدرهم الذى يكافح مـــن أجـــل الآخرين. وبالإضافة إلى هذه الظروف المعقدة فإن بعض ممارسى بحـــوث الفعل الجنوبية بالمشاركة نظروا لاتجاه مساواة المرأة بفخر عندما خـــضعت حركة المرأة البيضاء الجنوبية واختارت التحول الاجتماعى، والذى يحتـــاج بالضرورة إلى التكافل والتماسك بين الفقراء.

ولم تستطع كل من سياسات بحوث الفعل ولا اتجاه مـــساواة المـــرأة المساعدة بشكل جيد من خلال الممارسين فى المعركة التى حولـــت الانتبـــاه بعيدا عن الأهداف المشتركة للتغير الاجتماعى الديمقراطى. ونحن نعتقـــد أن كلتا الجماعتين تستطيع الاستفادة من هذه المواجهة بطرق وممارســـات كـــل أنواع بحوث الفعل. وبتناول البناءات السياسية المحافظة بعمق فـــى معظـــم المجتمعات الغنية، نجد أن الجماعات التى تكافح من أجل تحقيـــق التغييـــر وكأنها تقوم بعمل انتحارى عندما تطالب بالعدالة وسيادة القانون والإسهام فى الكفاح مع الآخرين بدلا من خصومهم المشتركين.

البحوث بالمشاركة وبحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة

Participatory Research and Southern PAR

نبدأ بتحليل البحـوث بالمـشاركة **Participatory Research (PR)** وبحوث الفعـل بالمـشاركة الجنوبيـة **Participatory Action Research (PAR)**، وهى مجموعة من الاتجاهات التى ظهرت كانتقـاد لحالـة الظلـم السائدة وممارسة الليبرالية فى إطار الكفاح ضد الطبقية. ومن خـلال كـل ممارسة من هذه الممارسات وأشكال الكفاح الكائنة فى المجتمعات الغنية، فإن هذه الاتجاهات تمارس بشكل خاص فى المجتمعات الفقيرة.

ولم تشكل الكتابات والمدارس المذكورة هنا مجموعة متجانسة. حيث تختلف هذه الاتجاهات اختلافا جوهريا فى وجهة نظرها حول القوة، والطبقة الاجتماعية، والفقر. ولكنهم اشتركوا فى عدم الاتفاق مع الاتجاهات التقليدية واتجاهات السيطرة أو الهيمنة على التنمية وعقلانية البناءات التنظيمية. وقد تم بناء كل ذلك على أساس التحليل السياسى أو الاقتصادى الواضح لعلاقات القوة والتأكيد على أن التغيير الاجتماعى الحقيقى يحدث فقط عنـدما تتغيـر بناءات القوة ويقل الظلم وعدم المـساواة. ونقـول لهـؤلاء الممارسـين إن الوصول إلى الأفضل باستمرار أو تسوية الصراعات ليس كافيا لبناء التغيير الاجتماعى القابل للبقاء.

ومن الصعب هنا التعامل مع المصطلحات الفنية. فمصطلح الجنوبى مصطلح غامض، حيث إن له جانبا أخلاقيا أوضح من أن يكون ذا انتماء أو طابع جغرافى. وعند استدعاء مصطلح الجنـوب **South** نجـد أن جماعـة الممارسين يرمزون إليه بالميل نحو الفقر والنبذ أو الاضطهاد مـن العـالم، أينما وجد. (فالشمال والجنوب ليس ارتباطا جغرافيا حقيقيا ولكنه يشير بحق إلى ما يملكون أو ما لا يملكون، لذلك يوجد الجنوب فـى الـشمال (انظـر

الفصل الثانى). وتوجد أيضا مشكلة اصطلاحية لبحــوث الفعــل الجنوبيــة بالمشاركة (PAR) والبحوث بالمشاركة (PR)، فيظهــر للــبعض أن هنــاك اختلافات بين المصطلحين، بينما يبدو للبعض الآخر أن المصطلحين يشيران إلى نفس أنواع الممارسة. ويرى البعض الآخر أنه من الضرورى إضــافة مصطلح "الجنوبى" للتمييز بين ممارسات كلا المصطلحين. وللأسف فــنحن نعتقد أن ما أطلق عليه "بحوث الفعل بالمشاركة" فى الشمال هى التى شكلت الممارسة التى اعتقد الكثيرون أنها نتاج للتعاون والمساعدة مــن أصــحاب القوة[٢]. ونحن نستمر في استخدام صفة جنوبى فى هذا الفصل أساسا للتركيز على الاهتمامات السياسية الواضحة لهذه الأشكال من الممارسة ولكى نبــين أيضا احترامنا أو اهتمامنا بهذه البرامج السياسية.

تحقيق الديمقراطية كنوع من الليبرالية

Democratization as Liberation

يرى الكثيرون من المفكرين فى المجتمعات الــصناعية أن تحقيــق الديمقراطية عملية مستمرة، وهى التى تشجع على إشراك الجماعــات فــى عمليات اتخاذ القرار السياسى (ويعتبر هذا قاعدة أساسية فــى الليبراليــة). ويرى الآخرون فى الشمال والكثيرون فى المجتمعات الفقيــرة أن تحريــر المضطهدين هو شرط أساسى ولابد منه لتحقيق الديمقراطية. وبدلا من النظر إلى الفقر على أنه نتيجة للاحتواء، والتعليم غير الكفء وعدم كفايــة البنيــة التحتية، ينظر هؤلاء المفكرون إلى الفقر على أنــه نتيجــة منظومــة مــن اضطهاد الكثيرين بواسطة الأغنياء وأصحاب القــوى المحليــين والنخــب الدولية. وتعتمد هذه النظرة إلى العالم على اعتقاد أن عدم المــساواة وعــدم العدالة لا يمكن أن تغيب ببساطة بسبب أن جماعة الناس يقررون لو أرادوا شيئا أفضل أو كان تركيز الخارجيين منصبا على تشجيع التغيير.

ومن نقطة المشاهدة الجيدة للجنوبى فإن مشروعات التنمية الدولية أيا كانت هامشية التغيير الذى تحققه فى المجتمعات الفقيرة والأقاليم الفقيرة ليست هى الطريق إلى التغيير الاجتماعى المستهدف. إن الاستجابة الوحيدة للفقر والاضطهاد تتمثل فى التعديل أو التغيير الجوهرى فى توزيع القوى والمال. إن تركيز سياسات اتجاهات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (PAR) الجنوبية الحادة والراسخة هو الذى يربطها بشكل جوهرى باتجاه مساواة المرأة الراديكالى.

وتعتمد هذه الاتجاهات على وجهات النظر المتنوعة للماركسية الحديثة نحو العالم والتى تركز على الصراع الطبقى، ودور وسائل الإنتاج وعدم التوزيع العادل للعمل، ونهب الرأسمالية العالمية. وتعتبر هذه هى العناصر الرئيسية التى تفسر الفقر والحفاظ عليه فى الدول الفقيرة فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وجزء من آسيا والأجزاء الفقيرة فى معظم الدول الرأسمالية الغنية. وهذه أيضا تفسر الزيادة الحالية للفجوة بين الفقراء والأغنياء فى الدول الغنية.

وتتمثل النتيجة المنطقية لوجهات النظر هذه فى أن اتجاهات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة عادة ما تبدأ بدراسة توزيع الثروة وما يترتب على هذا التوزيع من مخاطر. ولا تتمتع التنظيمات العامة الموجودة بالثقة وينظر إليها عموما على أنها حامية ومدافعة عن النظم الظالمة، إذا لم تظهر التحليلات التفصيلية للموقف غير ذلك. وتتضمن هذه التنظيمات المشبوهة المدارس والجامعات والكنائس والحكومات والمؤسسات الحكومية ومعظم برامج التنمية الحكومية والدولية المشتركة، وإدارة الأعمال.

لذلك يسير عمل هذا الاتجاه من التحليل الخارجى لظروف الفقر والاضطهاد إلى تصميم برامج التدخل فى المناطق المحلية. وغالبا ما تبدأ

برامج التدخل المحلية (وليس دائما) كنوع من جهود الحراك، مع لعب الخارجيين دور مستثيرى الوعى والمحفزين للمناقشات المحلية. وأحيانا ما تتخذ شكل مجيء الخارجيين لتأييد الداخليين الذين بدءوا بالفعل اتخاذ هذه الخطوات. وفى حالات أخرى يصل الخارجيون ومعهم برنامج للوصول إلى التغيير وتنظيمه.

ويتضمن العمل العامل الخارجى فى التحليل المبدئى لأسباب الموقف المحلى، والذى يمثل تغذية عكسية للسكان المحليين لخلق المساحة الكافية والشهية إلى قيامهم بتحليل أسباب موقفهم من وجهة نظرهم. وتتبع خطط العمل من خلال هذا التحليل. وتتخذ بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة وفق بعض المواقف شكل تعليم الكبار أو برامج تعليم القراءة والكتابة، والتى من خلالها تركز التعليمات على مناقشة وتحليل الظروف التى تقود إلى الفقر والاضطهاد فى المجتمع المحلى. وتوجد العديد من الطرق لاتباعها، والتى تتضمن العمل مع التنظيمات غير الحكومية والكنائس ومع العديد من الأنواع المتعددة من الناشطين المحليين.

وعلى خلاف المعايير التطبيقية الثورية، وتكتيكات تنظيم العمل التقليدية، فإن بحوث الفعل تعتمد على المعرفة وعلى التحليلات وجهود الناس المحليين بصورة أكبر وتقدرهما. وبدلا من التعامل معهم كضحايا فقط (على الرغم من عدم إنكار أنهم ضحايا) فإن ممارسى بحوث الفعل بالمشاركة يبنون أعمالهم على أساس وحدة ومرونة السكان المحليين وثقافتهم. ويتضمن افتراضهم أن المعرفة المحلية للموقف هى معرفة أصيلة وتفصيلية وذات قيمة، وأن فكرة أن الكثير من المنظمين الخارجيين الذين يؤكدون أنهم يعرفون ما هو جيد للناس يتم إهمالهم بصورة روتينية. وتبدأ عمليات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة بمواجهة التحدى الأول وهو تجميع جماعات

السكان المحليين معا لمناقشة وتحليل مواقفهم. ومن هذا التحليل تتبع برامج البحث والتغيير الاجتماعى، ولكن يجب أن تكون هذه البرامج نتيجة تكامل جهود الباحثين الخارجيين وسكان المجتمع المحليين.

ويعتبر التركيز على المعرفة المحلية أمرا ضروريا لبحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة. وعلى الرغم من أنه يتم التعامل مع المعرفة المحلية أحيانا بصورة خيالية فى هذا الاتجاه، فإن الهدف الأساسى يتمثل فى رفع درجة احترام هذه المعرفة، ومن خلال ذلك يتم التمهيد للعلاقة بين عوامل التغيير الخارجية والسكان المحليين بطريقة تفتح الطريق أمامهم لمزيد من الجهود التعاونية. وتعتبر هذه المعرفة محلية وتنمو نتيجة الخبرات الشخصية القوية التى تجعلها محترمة وحسنة السمعة وتشجع الخارجيين على الاستماع الجيد لكل ما يقال ويحاولون بناء عليها تحديد ما يمكن تقديمه. ولكن من جانب آخر فإن هذا الاتجاه يعزز من الثقة فى الفقراء والمضطهدين والمظلومين الذين يملكون الذكاء والقدرات التحليلية التى يتم إهمالهم عموما. لذلك فمن الضرورى تفسير الفقر ليس فى مصطلحات إهمالهم أو كسلهم، ولكن فى مصطلحات الظلم أو الاضطهاد. وفيما يتعلق بذلك فإن هذا الاتجاه يتفق مع العديد من اتجاهات بحوث الفعل التى تم مناقشتها فى هذا الكتاب، ويتوافق أيضا مع الافتراض الأنثروبولوجى بأن كل الناس فى أى مكان لديهم أنواع متعددة من الفهم التى تتسم بالتعقيد وبحسن التنظيم حول العوالم التى يعيشون فيها.

وبناء على هذه المعرفة المحلية والتفاعلات التى تحدث بين المعرفة الخارجية ومعرفة الناس المحلية، يبدأ الإنتاج التعاونى للحوار، الذى يتم من خلاله تبادل وجهات النظر بين الطرفين. وبالضرورة فإن نظرة الخارجيين تعتبر مجردة وغالبا ما تكون خاطئة حول عدد من المعوقات الواقعية والملموسة للفعل المحلى. وغالبا ما تكون وجهة نظر الداخليين عملية وملموسة (وأحيانا تكون متجانسة بواسطة الأنشطة المحلية)، والتى تبدو أنها

تقدم فقط تفسيرا للفقر بدون تقديم أى مجال أو غرض للفعل. ويمكن أن يخلق الحوار بين كلا الرأيين وعيا عاما بالمواقع أو المواقف التى تكون فيها أنواع التدخل المختلفة ممكنة.

وعندما يتم الوصول إلى هذه النقطة فغالبا ما يتخذ التحليل طريقه نحو التركيز على البحث. ويشارك الخارجيون والسكان المحليون فى بعض الأطر المرجعية عن المشكلات التى تواجههم وتقدير مواردهم وتوجيهها نحو مواجهة هذه المشكلات. ونظرا لأن الإهمال يعتبر واحدا من أقوى الأسلحة فى أنساق الظلم والاضطهاد، فإن هذه المرحلة كثيرا ما تتضمن تدريب المحليين على مناهج أو طرق بحث معينة ومساعدتهم على الوصول إلى الثقة فى قدراتهم على أن يبحثوا معا عن مصادر مشكلاتهم. وفى الغالب يجب أن يقوموا بجمع وتحليل وتقديم الأدلة التى تدعم ادعاءهم ضد رغبات أصحاب الأعمال والاهتمامات السياسية. ويعتبر البحث سلاحا فعالا فى هذا النضال، وأحيانا ما يكون لهذا البحث من جانب آخر خطورة كبيرة عندما يتم تنفيذه على نحو زائف.

إن التدريب على البحث ليس مجرد عن السياق أو البيئة. وعند الميل إلى تعليم الكبار، فإن التدريب يركز على المشكلات الملموسة والحالية التى يواجهها الناس. وأحيانا ما يعتبر التدريب على القراءة والكتابة عنصرا فى العملية. وفى مواقف أخرى يصبح السكان المحليون باحثين اجتماعيين من خلال استخدامهم التسجيلات الصوتية والتسجيلات المرئية لتوثيق ظروفهم وأحوالهم. وليس من المهم الشكل، فالرسالة واحدة ومتشابهة. فالناس المحليون أذكياء وقادرون على التحليل المنطقى لمواقفهم، وقادرون على إدارة البحث الذى يستهدف تحسين أوضاعهم وظروفهم، ولديهم حق شرعى وجوهرى لتغيير مواقف حياتهم إلى الأفضل. فالبحث يعطيهم صوتا جديدا يستطيعون استخدامه فى كفاحهم نحو التغيير.

ومن خلال هذه العملية يلعب باحثو الفعل الخـــارجيون دورا مركبـــا مثل دور الفاحص **investigator** ومدير العملية والمدافع عن الجماعات التى لم تنضم بعد، والمدرب على طرق البحث، وغالبا مؤرخا ومسجلا للأنشطة. ويعتبر هذا الدور معقدا ويحتوى على العديد من الصراعات. وعندما يكون هناك شخص متعلم لديه ثروة ويريد أن يحقق ما يريد، ومثل هذا الفرد يمكن رؤيته من جانب فئة الخارجيين الذين لديهم خبرات محلية على أنـــه ســلبى وظالم. وحتى عندما يتم التغلب على النمط المعوق بدرجة ما، فلا يزال هناك بعض الأنماط السلوكية المتكررة التى يجب التعامل معها: سلوك الخـضوع للمعلم الخارجى (الارتباط مع إخفاء المعلومـــات عـــن المواقـــف المحليـــة) والعدوانى على هؤلاء الخارجيين، ونقص الثقـــة فـــى القـــدرات المحليـــة، وترتيبات القوى المحلية التى تتهـــدد بواســـطة هـــذه التحالفـــات الجديـــدة، والعنصرية وغيرها.

وعند التأريخ للعملية (تسجيلها) فغالبا يكون الخارجى فى وضع يؤثر فيه بإفراط فى كيفية التنظير للعملية وتقديمها أو عرضها خارجيا. فالطلبات التى تنادى بها الأصوات والبيانات تعتبر مربكة بوجـــه خـــاص فـــى هـــذه السياقات. فإذا كانت محاولات الداخليين فى موقف المخاطرة تتجه نحو تغيير نسق الظلم والاضطهاد، فربما ينظر إلى الخارجيين مـــن جانـــب أصـــحاب السلطة فى هذه الحالة على أنهم صانعو مـــشكلات، وثوريـــون، أو حتـــى إرهابيون. إن العملية معقدة فغالبا ما تكون غير منظمة أو متفاوتة، وأحيانـــا تكون ذات خطر حقيقى.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات، فإن هناك الكثير من الجهود التـــى يمكن رؤيتها، والتى تم التوصل إليها فى هذه الوسيلة. ويعتبر أورلاندو فـــالس بوردا **Orlando Fals Borda** واحدا من أهم وأشهر الممارسين. وبناء علـــى

تعهداته والتزاماته كمفكر وأكاديمى فى مجال تحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، فقد انتقل من نسق الجامعة إلى العمل المباشر فى المجتمعات الريفية بأمريكا اللاتينية. وقد قدم العديد من التسجيلات المهمة لأفكاره وللعديد من المشروعات التى قام بها هو وزملاؤه (Fals Borda & Rahman, 1991; Hall, Gillette & Tandom, 1982; Park, Brydon-Miller, Hall & Jackson, 1993). ولم يقتصر فقط على تقديم كتاباته التى توثق نظرية الممارسة، أو مجموعة حالات ومواقف التدخل التى كان لها تأثيرات مرغوبة، ولكنه أيضا قام بمحاولة ربط آرائه وخبراته الخاصة بآراء وخبرات الممارسين العاملين فى أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا. ونتيجة لجهود فالس برادو فإنه يمكن الوصول إلى نوع من ممارسة بحوث الفعل بالمشاركة القائمة على الأسس الليبرالية، والتى يمكن تطبيقها على حياة الفقراء.

وهناك الممارسون الآخرون الذين كتبوا بفعالية عن قضاياهم وأفكارهم إلى الجمهور بوجه عام وهم ديفيد براون L, David Brown وراجيش تاندون Rajesh Tandon (١٩٩٣). فقد حاولوا توضيح وشرح قيمة بعض الاختلافات بين البحوث التقليدية، والبحوث بالمشاركة، وبحوث الفعل بالمشاركة، وقد أقاموا تحليلهم على أساس الألفة والاعتياد على المواقف الملموسة والواقعية للفقر والظلم جول العالم. (Hall, Gillette, and Tandon (1982), Freire (1970), Park, Brydon-Miller, Hall & Jackson, 1993), and Gabarron and Hernandez (1994) ويمكن قراءة كل ذلك لمزيد من الاستفادة.

الاختيار التعاونى الشمالى الجنوبى North-South Co-Optation:

لابد أن يدرك القارئ العلاقات الإشكالية بين ممارسى الشمال والجنوب. إن الظهور السريع الحالى لبحوث الفعل فى الشمال سببت العديد

من الأنشطة الجنوبية للتعبير عن القلق المشروع عن الاختيـار التعاونـي **Co-Optation** لوجهات نظرهم فى الجنوب عن الغرض مـن المبـادرات الديمقراطية المبهمة وغير الجادة. ولا يعتبر ذلك اهتمامـا تافهـا أو عـديم الجدوى. إن لدينا كل الشهادات على أن الاختيـار التعـاونى كانـت عليـه انتقادات جناح اليسار وأساليب قوى الظلم والاضطهاد (على سـبيل المثـال التنمية بالمشاركة، والتنمية المستدامة، وحقوق الإنسان، ومساواة المرأة، وكل تلك التى وجهت بقسوة نحـو الاختيـار التعـاوني والوطنيـة أو المحليـة **domestication**)

فعلى سبيل المثال فإن إحدى وسائل تحديد الهدف النمطى الحالى للجودة الشاملة فى القطاع الخاص بالمجتمعات الصناعية يتمثل فى إدخال أو إقحام قوة العمل فى إدارة الأعمال. وغالبا ما يوضع هذا فى إطار زيادة المشاركة، وحاليا بدأ بعض خبراء التنمية التنظيمية (الإدارية) التقليدية الادعاء بأن أعمالهم هذه هى بحوث فعل تشاركية. وفى معظم الحالات فإن المشاركة تعنى فقط أن العاملين والموظفين الثانويين يتحملون مسئوليات عظيمة بينما لا يكون لهم دور بارز فى عملية صنع القرار أو لا يوجد أى دور على الإطلاق. وتحت هذه الظروف فإن هذه الإشارات إلى المشاركة أو لبحوث الفعل بالمشاركة تعتبر خادعة لأنها لا تقوم على أساس هدف جعل المؤسسات ديمقراطية، أو زيادة العدالة الاجتماعية. وقد ظهرت واحدة من أعظم الفوائد للممارسين الشماليين نتيجة للتفاعل مع الممارسين الجنوبيين، والتى تمثلت فى أن نكون أكثر يقظة لعمليات الاختيار التعاونى، وعلى الرغم من اعترافنا بقيمة الرؤية الجنوبية فإننا لا نتقبل المساواة بين العمل فى الشمال والاختيار التعاونى والعمل فى الجنوب والتحرر منه. فإذا اعتقدنا بأن كل بحوث الفعل فى الجنوب اختيارية **Co-Opt** فيجب أن لا نكون ممارسى بحوث فعل. وتدور خبرتنا حول أن بحوث الفعل فى القطاعات الرئيسية بالمجتمعات الصناعية تستطيع أن تربط قضايا المشاركة

وتحقيق الديمقراطية بالجدية المطلوبة كما فى الجنوب تماما. وفى هذه الحالات تختلف الإستراتيجيات (انعكاس المستويات المختلفة من الفقر والأمية) بالدرجة التى تختلف بها القضايا التى يتم التركيز عليها (الدفاع، والوعى العام، استخدام النظم القائمة فى تحقيق نهايات أو أهداف جديدة)، ويجب أن تتضمن النتائج بشكل أكبر عمليات التحسين بدلا من التغيير الثورى أو الجذرى. ولكن لا تزال التغييرات الاجتماعية مطلبا حقيقا، وأن تحليل علاقات القوة والظلم ليست متباينة. وعندما يخضع العاملون لتحكم السلطات التنفيذية الغنية، وحتى وإن توفرت لهم درجة من التسامح أو الحرية فى حياتهم، فإنهم يعتبرون مضطهدين ومظلومين. إن إهمال أو إنكار حقوق هؤلاء الناس المضطهدين فى أى مكان فى العالم ببساطة بسبب أنهم فقراء يعتبر نوعا من القسوة.

وبالطبع فإن الاضطهاد والظلم فى بعض أجزاء من الجنوب يعتبر أكثر سوءا فى حالات كثيرة. إن الفقر والظلم والموت تحت ظروف الفساد الحكومى العميق، واستخدام الجيوش الوطنية فى قمع المجتمعات المحلية، واهتمام أصحاب رأس المال الأجانب والمحليين بالحفاظ على الأجور الرخيصة لقوى العمل، وسيطرة النزعة الاستعمارية، والأمية، والمجاعات، كل ذلك يجعل المشكلات فى الشمال أقل حدة. ولكن الاضطهاد العنصرى، والتشرد، وإدمان العقاقير، وإهمال مشكلة الأمية فى الشمال، كما أن العمال فى المصانع يقعون تحت سيطرة رؤسائهم الذين يستخدمون المشاركة للتغطية على التعجيل وخفض أعداد العمال، وإخفاق النقابات وفشلها، والأجور الكبيرة للقيادات التنفيذية، واستخدام موارد المؤسسة فى إفساد النظام السياسى، كذلك أصبح إحلال العمالة الرخيصة بدلا من المديرين فى المستوى المتوسط أمرا أكثر سهولة. إن الاضطهاد هو الاضطهاد فى كل مكان، إنه يوجد فى الشمال وفى الجنوب.

الإستراتيجيات التعليمية Educational Strategies:

يعتبر مجال التعليم واحدا من أهم الطرق التى تقود الناس إلى ممارسة بحوث الفعل فى العديد من السياقات المختلفة[٣]. ويشير مصطلح التعليم كما نستخدمه هنا على أنه أى شيء من الإصلاحات فى نظم المدارس الرسمية من مدارس المرحلة الابتدائية وحتى المرحلة الثانوية وحتى الجامعة، والدرجات فوق الجامعية. ويشمل أيضا تعليم الكبار سواء فى تنمية المهارات فى مجال التكنولوجيا والتغيير الاجتماعى، أو التعليم الفنى على أحدث التقنيات والأساليب فى المجالات سريعة التغيير. والمشكلة التنظيمية التى نواجهها هنا فى شرح وتفسير ذلك تتمثل فى أن المجال الواسع والكبير للتعليم يشمل العديد من الاتجاهات، وأن البعض منها فقط هو الذى يتعامل مع قضايا القوة والتغيير الاجتماعى.

ويمكن أن ينقسم هذا المجال المتنوع إلى العديد من الوسائل المتنوعة. وإحدى هذه الوسائل بواسطة ميادين التعليم التى تتعامل مع: المدارس الأولية، والمدارس الثانوية، والتعليم العالى، وتعليم الكبار، والتعليم غير الرسمى، والتعليم المستمر. والوسيلة الأخرى بواسطة التركيز على الوظائف المتعددة للتعليم. فيمكن النظر إلى التعليم على أن لديه رسالة محافظة تتضمن نقل كل ما هو معلوم ومعروف والمحافظة على النظم الاجتماعية. ولكن أيضا ينظر إليها على أنها تقوم بالمحافظة على البناءات والأفكار، وكذلك فى نفس الوقت ترتقى بعملية نقد النظم القائمة وتنمية أفكار جديدة. وفى الحالة الأخيرة فإنه يمكن النظر إلى أن التعليم يتضمن الاندماج والمشاركة الاجتماعية والحراك الاجتماعى. وأخيرا فإن بعض التيارات والاتجاهات التى تميل نحو التعليم تنظر إلى التعليم كوسيلة لتغيير التنظيمات الاجتماعية، وتسعى نحو تغيير معظم مناحى الحياة.

وقد كونت الجهود التعليمية الرسمية وغير الرسمية مجـالا رئيـسيا لأنشطة باحثى الفعل خلال أغلب فترات القرن العشرين، وبالتالى تخلل تاريخ المجال التعليمى تاريخ بحوث الفعل فى العديد من المواقع. ويعتبـر جـون ديوى وهو الأب الروحى للنظام التعليمى العام بالولايات المتحدة الأمريكيـة رقما مهما جدا فى بحوث الفعل الموجهة تعليميـا. إن أفكـار ديـوى عـن العلاقات بين المدرسة والمجتمع، وبين التعليم والديمقراطية، وبين نماذج تعلم البحث فى إدارة الذات وفى تحقيق حرية الإنسان، تذكرنا بقـوة بالارتبـاط الممكن بين أنساق التعليم والتغير الاجتماعى.

ومن خلال سعى ديوى الطويل والمستمر نحو الأهداف الديمقراطية من خلال المدارس التى أنتجت القليل جدا فى سبيل تحقيق التغير الاجتماعى **(Westbrook,1991)**، فإن الكثير من أفكار ديوى كان لها صدى واسع مـع عوامل التغيير الاجتماعى. وقد رأى بعض المنظمين النقابيين المهنيين أنفسهم على أنهم معلمون، وكما فعل حشد من المصلحين الاجتمـاعيين المهتمـين بتحسين أنماط معيشة الفقراء فى الولايات المتحدة الأمريكية (علـى سـبيل المثال؛ **Alinsky, 1946; Chavez, 1975; Horton, 1990)**.

إن هذا التنوع الواسع للممارسات والبرامج التعليمية لم يعطِ ارتفاعًا مفاجئًا لممارسات بحوث الفعل المتنوعة. فالبعض منها كان يتسم بأنه محافظ اجتماعيا، مثل بحوث الفعل التعليمية؛ البحث القائم علـى أسـاس الفـصل **Classroom Based Research** وتحسن المعلـم **Teacher Improvement** ونطاق العمل التقليدى **Conventional Extension Work**. والبعض الآخـر كان أكثر توجهاته نحو التغيير كانت من خلال الارتقاء بمـستوى القـراءة والكتابة، والحساسية نحو العرقية/ العنصرية، وبناء عاطفة تقـدير الـذات، وتنمية المهارات، وإيجاد مجتمعات الدعم المتبادل للمتعلمين. وأخيـرا فـإن

هناك بعض الاتجاهات التعليمية تعتبر اتجاهات إصلاحية قوية أو حتى راديكالية. ومن بين هذه الاتجاهات اتجاه تحقيق الضمير **Conscientization** لفرير **Freire (1970)**، وهو تعليم الكبار في مركز هايلاندر، ودوائر دراسة اتحاد العمال، والأعمال القائمة على المشروعات مثل ما قام به فالس بوردا. وسوف نتعامل في هذا الفصل فقط مع الاتجاهات التعليمية الاصطلاحية الموجهة بالتغيير الاجتماعي. (وبعض الاتجاهات الأخرى تمت مناقشتها في الفصل الحادى عشر؛ بحوث الفعل التعليمية)

وكما أن موجات التغيير الاجتماعي العاطفية قد أتت ثم ذهبت، فإنها أيضا كان لها جهود في الإصلاح التعليمي. وقد نتج عن الحركة العمالية تنظيم واسع وكبير من البرامج التعليمية. وقد خلقت الآثار المترتبة على الكساد العظيم (الأزمة الاقتصادية) حركة تنمية المجتمع والمبادرات التعليمية. وأيضا ظهر عصر الحقوق المدنية. وقد تسببت أحداث ١٩٦٨ في ازدهار المبادرات التعليمية في الفصول وما وراءها **(Reading, 1996)**. وقد صاحبت كل محاولة عظيمة للتحول المجتمعي مجموعة من التغييرات التعليمية التي تستهدف مساعدة الناس الذين كان يتم التعامل معهم على أنهم سلبيون، وذلك لكي يصبحوا إيجابيين وفعالين.

وقد انتشرت هذه الأنشطة التعليمية الفعالة على مدى واسع على المستوى الدولي. إن التركيز على التعليم كأداة ممكنة لتحقيق الديمقراطية قد توافقت مع بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة التي وضعت ثقلها في التركيز على تعليم الكبار. ومن الصعب القيام بالفصل التعسفي بين تعليم الكبار وبحوث الفعل في الجنوب. ولمواجهة المشكلات الحادة والمربكة للفقراء حول العالم، ووجود الفقر في الكثير من الحالات بواسطة الأنشطة التي تقوم بها الدول الغنية والقوية، والتي سبق ذكر نظمها التعليمية من قبل، فقد طور

الممارسون الجنوبيون التركيز على نوع من تعليم الكبار المتحرر. ويعتبر ذلك أمرا معقولا جدا، وذلك بسبب أن أكثر الناس فقرا هم أفقر تعليميا ولم يتم إعدادهم جيدا للقيام بالأدوار الفعالة فى مبادرات التغيير الاجتماعى. وبدلا من ذلك فإن التركيز أولا على تعليم الأطفال كمدخل رئيسى، فإن باحثى الفعل قد شعروا بأن من الأفضل تركيز مواردهم على تنمية المهارات، والكفاءة والوعى الذاتى والثقة بالنفس بين الكبار، والتى ترتبط بمهمتهم الضرورية للكفاح نحو التغيير.

ومع الوضع فى الاعتبار نقطة الانطلاق التاريخية، فقد ركزنا اهتمامنا على الأدبيات الثرية والمتنوعة فى تعليم الكبار، سواء فى المجتمعات الفقيرة، أو المناطق الفقيرة فى المجتمعات الصناعية. ونراجع عددا من أشكال التدخل القائمة على التعليم، والتى تشمل تنظيم العمل كشكل من أشكال تعليم الكبار، وتعليم النقابات المهنية، ومدارس تعليم الكبار خارج أنساق التعليم العام، والدور المحتمل للمؤسسات التعليمية فى بحوث الفعل. وتشير هذه المناقشات بالضرورة إلى مجموعة متجانسة من الطرق والأيديولوجيات والروايات عن الممارسة، ولكن ذلك للتعريف فقط بالمجال. ويعتبر هذا التنوع جزءا من الطاقة الديناميكية، والتى تتميز بامتلاكها للإستراتيجيات التعليمية لوقت طويل من الزمن. ونحن ندرك أن مبادرات بحوث الفعل المتنوعة فى المؤسسات والنظم التعليمية فى الشمال مثل أعمال ميشيل فين **Michelle Fine (1992)** سوف تسلط عليها الأضواء.

المدارس العليا الشعبية: أصول التعليم الشعبى

Folk High Schools; The Origin of Popular Education

يوجد سبب جيد للاعتقاد بأن تعليم الكبار كمجال مميز نشأ فى الدانمارك بالتزامن مع أعمال العالم اللاهوتى بيشوب جرونتفيج **Bishop**

Grundtvig (1783- 1827). فقد بدأ مناقشة حادة مع المؤسسة اللاهوتية فيما يتعلق بالتحليل العلمى للإنجيل. وقد أشار إلى أن الكتب المقدسة يجب أن تكون مفهومة ومدركة للناس العاديين من خلال حياتهم اليومية وسط التجمعات التى يعيشون معها. ومن خلال هذا الصراع ظهرت فى نهاية الأمر جهود واعية لخلق نظام تعليمي شعبى تتكامل فيه الجوانب التاريخية واللاهوتية ودراسات التراث الثقافى التى أوجدت نسقا معرفيا ذات سياق محدد (Norgaard, 1935). وقد تأسست أول مدرسة شعبية عام ١٨٥١ وقد أصبحت هذه المدارس من العوامل الاجتماعية والسياسية المهمة فى الدانمارك. وقد انتشرت حركة التعليم الشعبى فى الدول الإسكندينافية الأخرى وأصبح تأثيرها أكثر اتساعا. إن مدرسة هايلاندر الشعبية فى نيوماركت New market وتنسى Tennessee والمؤسسة التى أوجدها ميليس هورتون Myles Horton قد تأثرت بشكل كبير بمفهوم المدارس العليا الشعبية Folk High School. وما زالت حركة المدرسة العليا الشعبية الإسكندينافية تتسم بالحيوية وبجذب العديد من الطلاب.

تعليم النقابة المهنية Trade Union Education:

يعتبر التعليم دائما عاملا أساسيا ومهمًا فى تطور النقابات المهنية، حيث يحقق غرضين رئيسيين. ويعتبر التعليم ذا أهمية بالغة فى تدريب أعضاء النقابات المهنية لكى يصبحوا عوامل فعالة على مستوى المؤسسات التى يعملون بها، على سبيل المثال فى مواقف التفاوض وإتمام الصفقات. ويتمثل الغرض الآخر من التعليم فى رفع مستوى الوعى السياسى. وفى كل المراحل المبكرة للكفاح السياسى فى النقابات المهنية، فإن الجهود التعليمية تتخذ موقفا قويا وحاسما. وتعتبر النقابات المهنية ذلك على أنه قدرة النقابات الأساسية على تدريب أعضائها لكى يصبحوا عاملين مهرة فى المؤسسات

التى يعملون بها، وأيضا فى الكثير من مجالات العمل السياسى العامة. وقد أصبحت هذه الإستراتيجية التعليمية الكبيرة أكثر أهمية فى حركات الديمقراطية الاجتماعية فى أوروبا الشمالية، وبرهنت على أنها العامل الرئيسى فى السياسات الأوروبية. ومن أمثلة ذلك فإن مجموعة **"Eaton"** (مدرسة النخبة لتعليم القادة السياسية وقيادة الأعمال) بالنرويج بعد عصر الحرب العالمية الثانية، وهى سوماركس **Somarks**، قدمت التسهيلات التعليمية القومية للنقابات المهنية بالنرويج. وقد جاء عدد قليل فقط من رؤساء الوزراء والوزراء من خارج دائرة سوماركس **Somarks**. وخلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين كتب رئيس الوزراء إينر جيرهاريسين **Einar Gerhardsen** كتابه الذى نشر عام ١٩٣٢ عن "لكى تصبح موظفا نقابيا **Becoming Union Official**"، والذى لا يزال يستخدم حتى الآن.

وتتضمن أنشطة تعليم النقابات المهنية مزيج من التدريب العملى الذى يتناول شئون العمالة فى المتاجر العادية وفى المؤسسات الكبرى، ودائما ما يتضمن العنصر الأساسى لانتشار وسيادة أيديولوجية النقابة. وتتخذ هذه الأنشطة التعليمية مكانا بارزا فى السياق المضاد عندما يتم التعامل مع تعليم التحرر وتنمية الذات بشكل أساسى بواسطة تعليم أيديولوجية نقابية محددة.

وتبدو الخطة العلمية لجهود تعليم النقابات المهنية على أنها مكونة بشكل برجماتى، وتقوم على أساس خبرات محلية معينة. وتأسيسا على فكرة أن المعرفة هى القوة، فإن تعليم النقابات المهنية يذهب وراء هذا النوع من تعبير وضوح الذات **Self-evident**، حيث ترتبط ارتباطا وثيقا بحل المشكلات العملية اليومية. وقد وضع عالم الاجتماع الألمانى أوسكار نيجت **Oscar Negt (1977)** برنامجا علميا لتعليم النقابات المهنية. وفى مقدمته للطبعة الدانماركية لهذا العمل، صاغ المترجمون العبارة التالية:

"ينصب اهتمام نيجت الرئيسى على طبقة العمل المحتملة خلال عمليات التعلم، الوصول إلى خبرات جماعية (شعورية ولا شعورية) وإعطاءهم التعليم السياسى.... (من المهم جدا) أن نتناول كنقطة انطلاق خبراتنا اليومية فى عمليات بناءة، ومن خلال المعلومات عن العلاقات المجتمعية (المعلومات التى يمكن أن تدعم عملية التعلم من خلال المناقشات، والأدوات، والتحليل....إلخ) التدريب على تنمية الخيال الاجتماعى، مع وسائل تعليم أسلوب التفكير، والتى تزيد من قدرات الأفراد العاملين على فهم العلاقات بين حياة الأفراد وتنمية المجتمع". (ص.٧٠)

واتساقا مع أغراضنا هنا فإننا نقبل هذا البرنامج كخلفية مهمة للأساس العلمى لتعليم النقابات المهنية. إنه يتضمن برامج أيديولوجية واضحة وصريحة تتكامل مع النسق التعليمى العملى. وفيما يتعلق بذلك فإنه يشترك كثيرا مع بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة.

التعليم الشعبى Popular Education:

ليس من السهل إهمال الحدود بين تعليم الكبار وجهود التغيير الاجتماعى، والارتفاع بمستوى الوعى بالنقابات المهنية، وغيرها من المبادرات الأخرى. إن جميع الناس الذين يشاركون فى هذه المبادرات لديهم وعى كبير بكل واحدة وأحيانا ما يعملون معا. ولا يوجد مثال أفضل يمكن أن يوجد فى هذا الخصوص من ميليس هورتون **Myles Horton** ومركز هايلاندر.

وكان ميليس هورتون معلما شعبيا ومشهورا ولد فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية من أسرة متواضعة. وقد وصل إلى ذلك من خلال الجامعة بواسطة المزج بين الموهبة والحافز، إلا أنه نسى أصوله وقرر أن يستخدم

التعليم فى الارتقاء بالتغيير الاجتماعى الديمقراطى. وبعد أن تعلم الكثير عن حركة المدرسة الدانماركية الشعبية، قرر هورتون أن ينشئ مركزا للتعليم والتغير الاجتماعى فى جبال تنيسى **Tennessee** لإتاحة الفرص للسكان المحليين لمواجهة وتعليم وتنظيم أنفسهم نحو التغير الاجتماعى.

وقد تلاشى مركز هايلاندر بسبب عدد من التقلبات خلال عشرات السنين، والتى تضمنت هجوم المؤسسات الفيدرالية، وأغلق الموقع الرئيسى للمركز، ولكنه لا يزال يعمل. ويعتبر مشاركا رئيسيا وفعالا فى حركة حقوق الإنسان بجنوب الولايات المتحدة الأمريكية؛ لقد أسس لمشروعات بحوث الفعل القائمة على أساس المجتمع الشامل، والتى نتجت عن بتر معظم الممارسات الهدامة لشركات التعدين **Mining Companies**؛ وأصبحت منبع الطموح لإنتاج وكلاء التغيير الاجتماعى.

وقد أدرك هورتون بشكل جيد التنوعات الواسعة لاتجاهات التغيير الاجتماعى الفعالة، والتى تشمل الفوضوية **Anarchism** وحراك النقابات المهنية والعصيان المدنى، وبحوث الفعل. وتعتبر نظرته حول العملية غير سلطوية بشكل ملحوظ. وقد ركز هورتون على أنه يجب أن لا ينظم الناس لأن الناس ينظمون أنفسهم عندما تتوفر لهم البيئة الداعمة والفرصة للتفكير فى أنفسهم. وبهذه الطريقة وضع هورتون مركز هايلاندر بعيدا عن اتجاهات التغيير النابعة من القيادة. لقد احترم قدرات وخبرات السكان المحليين فى العمل ونقل هذه الثقة بطريقة شجعت على إنتاج وكلاء للتغيير.

إن قصة هايلاندر تمثل أثرا جيدا فى السيرة الذاتية لهورتون **(Horton, 1990)**، وفى الكتاب الذى انتهى منه هورتون مع باولو فرير قبل وفاة هورتون مباشرة. وقد استمر هايلاندر فى فعاليته وأصبح مركزا للارتقاء بتعليم الكبار وبحوث الفعل.

تحليل مساواة المرأة للتنمية والظلم

Feminist Analysis of Inequality and Development

من خلال خبرتنا التعليمية خلال العقــد الماضـــى، وبعــد طرحنـــا لوجهات نظرنا الأساسية حول بحوث الفعل، سأل الدارسون عن العلاقة بين مساواة المرأة وبحوث الفعل. وقد أدركوا بشكل صحيح أن وجهـــات نظـــر اتجاه مساواة المرأة يتعامل مع العديد من نفس القضايا التى تتعامـــل معهـــا بحوث الفعل؛ نقد الاتجاهات الوضعية، وتحليل علاقـــات القـــوة، واحتـــرام معرفة "الصامتين" ونقد الأوضاع القانونية، والتركيز على التطبيقات **Praxis** التحويلية. إنهم يعبرون أيضا عن مخاوفهم بأن بحوث الفعل تستعير تحليلات اتجاه مساواة المرأة بدون الرجوع إليها أو توثيقها، وكذلك من الممكن أيضا بدون الاهتمامات الإصلاحية الكافية. وتستحق هذه الاهتمامات تركيز الانتباه عليها. وبدون التعاون الحقيقى بين أنصار اتجاهات مـــساواة المـــرأة وبـــين باحثى الفعل، فلن تتوفر إمكانيات النجاح لأى منهما.

إن اتجاهات مساواة المرأة وبحوث الفعل ليست تيارات متعارضة أو متنافسة، حيث يشترك كل منهما فـــى الالتزامـــات الأخلاقيـــة والـــسياسية للديمقراطية والعدالة الاجتماعية. ومن المهم أيضا تذكر أن بحـــوث الفعـــل ليست نظرية، ولكنها إستراتيجية نحو التطبيق تـــستخدم أى أو كـــل الأدوات التى يرى فريق البحث أنها مفيدة. وكما قلنا مرارا وتكرارا إننا ننظر إلـــى بحوث الفعل على أنها مزيج عملى بين التحليلات والأساليب التى تـــستخدم لربط عناصر المشاركة والفعل والبحث فى مواقف عملية وملموسة. إننـــا لا نحتاج أدوات أقل أو أنقى، ولكننا نحتاج إلى الكثير والكثير من الاتجاهـــات المتنوعة لمواجهة تحديات الظلم والاضطهاد.

وبنفس المعطيات فلا يجب أن تسعى بحوث الفعل إلى جعل قضايا مساواة المرأة محلية فقط، أو أن تجعل التعامل معها بشكل سطحى. نحن لسنا مهتمين بالسياسات المهنية الضمنية؛ إننا مهتمون بإظهار وتصوير كيفية الوصول إلى عالم أفضل. يجب أن تستمر بحوث الفعل فى النمو، كما كانت فى الماضى، بواسطة التعلم من العمق الفكرى لاتجاهات مساواة المرأة ومن التحليلات التفصيلية للاضطهاد على أساس الجنس والجهود التى تبذل لتحقيق الليبرالية أو التحرر الجنسى **Gender Liberation**. إن الانتقادات الموجهة للاتجاهات الوضعية والحتمية والاضطهاد والفصل بين النظرية والممارسة، والتى تعتبر مركزية بالنسبة لاتجاهات مساواة المرأة تعتبر ضرورية بالنسبة لبحوث الفعل أيضا.

وتبدأ معظم اتجاهات مساواة المرأة بالنظر إلى الاضطهاد على أنه حالة من الأمور الاعتيادية التى تبنى تطبيقاتها على اعتقاد أن الوضع الحالى يجب أن يتغير أو ينقلب إلى مجموعة من الظروف التى تتسم بكثير من الحرية. وتملك اتجاهات مساواة المرأة تاريخا طويلا من الكفاح للوصول إلى الاعتراف بهذه القضايا لإقناع جزء كبير من سكان العالم بأن حقوق المرأة يتم امتهانها بشكل روتينى، وأن حتمية التصنيف الجنسى للكائن الإنسانى (رجال ونساء) يعتبر شكلا من أشكال الاضطهاد والظلم. وتؤكد اتجاهات مساواة المرأة على أن التغير الاجتماعى الديمقراطى-ليس فقط المحادثات المهذبة عن أن نصبح عالما أفضل- يعتبر ضروريا لتغيير هذه الكوارث والآثام.

ومن وجهة نظرنا فقد عملت اتجاهات مساواة المرأة أكثر من أى اتجاهات أخرى خلال العقدين السابقين لتقويض النماذج السلطوية التى تم بناؤها داخل العلوم الاجتماعية التقليدية والبرامج الاجتماعية. ولعل الاستعراض الجيد لهذه الفكرة يمكن أن نجده فى إسهام إيرس يونج

"العدالة وسياسات الاختلاف Iris Young (1990) Justice and Politics of Differences". فقد ربط يونج بشكل مقنـــع الاضــطهاد أو الظلـــم بحالـــة الرعاية، ونظام توزيع الموارد العادل، والعلوم الاجتماعية الوضعية بطريقة أفادت اتجاهات مساواة المرأة بشكل مميز، ولكنها أيضا قابلة للتطبيق بشكل مباشر فى كفاح بحوث الفعل لقهر الأيديولوجيات القمعيـــة لبحــوث الفعـــل بواسطة البحوث الاجتماعية التقليدية.

إن انتقاد مساواة المرأة لفكرة البحث الحر القيم Value-Free Research قد دمرت تماما، بسبب أن اتجاهات تحرير المرأة كانت قـــادرة علـــى البـــوح باستمرار عن كيفية ما قامت به مثل هذه الأبحاث الحرة من تجسد لقيمة التنـــوع الجنسى (ذكور – إنـــاث) (Fox Keller, 1985; Lather, 1991). وتعتبـــر هـــذه خطوة قصيرة من هذه الفكرة إلى الفكرة العامة بأن البحوث الحرة تغطـــى كـــل أنواع نظم الاضطهاد الاجتماعى تحت قناع التجرد أو عدم التحيز والأيديولوجية العلمية، وأصبح هذه الانتقاد عنصرا جوهريا فى بحوث الفعل.

وقد أكدت اتجاهات مساواة المرأة أيضا على قيمة التنـــوع. وبـــالتركيز على ظروف التمثيل المتدنى للمرأة، فقد أظهروا أن البيض والرجـــال والطبقـــة الوسطى تمثل مركز الثقل والاهتمام فى معظم النظريات الاجتماعية والسياسات الاجتماعية. وقد بينوا أن هذا الأمر فعال فى المجتمعات الصناعية كما هو الحال فى المجتمعات الفقيرة (Sims Feldstein, & Poats, 1990).

وقد وجد أيضا كل من الماركسية الجديدة واتجاهات مساواة المـــرأة النقطة المفيدة من الالتقاء حول التركيز على العمليات الفعلية للإنتاج. وقـــد بذلت اتجاهات تحرير المرأة جهدا كبيرا فى إظهار المكافآت المتدنية للنـــساء ودورهن المركزى فى عمليات الإنتاج فى المجتمع، وكذلك مساهمتهم القوية فى نقد الرأس مالية المتقدمة وأيديولوجياتها السائدة (Swantz, 1985).

وتتعامل اتجاهات مساواة المرأة بشكل روتيني مع الاضطهاد والصمت، حيث طورت التزاما قويا للنظر من أسفل إلى استماع أصوات الصامتين، والوصول بهذه الأصوات إلى الطاولة (Mies, 1990). وهنا نجد أن التزامن بين تحليل اتجاهات مساواة المرأة مع التركيز القوى على تاريخ الحياة والمعرفة المحلية وبحوث الفعل يعتبر أمرا بديهيا. فالكل يبحث عن نهاية ضمت الكثيرين جدا، ففى إحدى الحالات يكون صمت الجنس (المرأة)، وفى حالة أخرى يكون الصمت القائم على أساس الطبقة.

وقد اتخذت اتجاهات مساواة المرأة فى المجتمعات الفقيرة (كما هو الحال فى المجتمعات الصناعية) اتجاها فعالا نحو العديد من القضايا مثل حماية البيئة، وخدمات الرعاية، وبرامج التنمية. وكان الشعار هو البحث المستجيب للجنس **Gender- responsible research** فى أى قطاع ربما يكون موجودا فيه (**Van Den Hombergh, 1993**). فقد حددوا بشكل مقنع أنه بدون الاهتمام المنظم للجنس، فإنه سوف يتم إهمال آراء ووجهات نظر النساء فى العديد من أحداث الحياة العادية. ويقوم هذا التوازى بين هذا وبين التركيز على المعرفة المحلية فى بحوث الفعل على أساس الخبرة بأنه بدون التأكيد على هذه القيم فإن المعرفة المحلية سوف يتم نبذها وإهمالها وسوف يستمر الاضطهاد بنفس الحال وبشكل واضح.

لذلك فإن العلاقة بين اتجاهات مساواة المرأة وبحوث الفعل تعتبر تكاملية. وبدون دهشة فإننا نعتقد أن الفوائد والمنافع تتدفق من كلا الاتجاهين. وبدون الهجوم العنيف من اتجاهات مساواة المرأة على مراكز القوى، فإننا نعتقد أن نوع الفراغ الذى نشغله حاليا كباحثى فعل سيبقى. وفى نفس الوقت فإننا نعتقد أن هناك هدفا أو غرضا لكل من تعزيز اتجاهات مساواة المرأة داخل بحوث الفعل وتحسين ممارسة هذه الاتجاهات من خلال الاهتمام

بالعديد من أساليب التدخل التى تم تطويرها فى مختلف اتجاهــات بحــوث الفعل. وغالبا ما تشارك أو تندمج اتجاهات مساواة المرأة ببحــوث الفعــل، ولكن هناك بعض المحاولات القليلة التى تربط بين كلا المنظورين. ومن بين هذه المحاولات فسوف نشير باختصار إلى إسهامات القليــل مــن الكتــاب الرئيسيين فى هذا الخصوص.

أوضحت باتريشيا ميجواير **Patricia Maguire** عند قيامها ببحثهــا المشترك عن اتجاه مساواة المرأة المزج بين برامج مساواة المرأة والبحوث المشتركة وبعد التجربة الشخصية لعملها. وقد تحدث هذا الكتاب بشكل أفضل عن معظم الكتابات التى وصفت الــدمج بــين مــساواة المــرأة والمــشاركة والتطبيقات العملية الاجتماعية، مستخدمة قضايا من اتجاهات مساواة المــرأة والمشاركة، ولكنها وقفت بحزم مركزة على المشكلات الاجتماعية التى حاولت ميجواير حلها. وفى كتاباتها التالية عمقــت **Patricia Maguire (1994, 1996)** نقدها على العديد من أنواع ممارسة بحوث الفعل، وخلصت إلى أن أى فكرة للبحوث المشتركة تعتبر غير منطقية بدون الدمج المنظم لاتجاهات مــساواة المرأة. ومع ذلك لم تتطور هذه المناقشة بشكل كاف، وقد اعتقدت أيــضا أن بحوث مساواة المرأة يجب أن تتحرك أو تنتقل داخل مجال بحوث الفعل حتى يمتد ويتسع مجالها الخاص. لذلك حثت ميجواير علــى الاعتمــاد المتبــادل الضرورى والبناء بين الاتجاهين وبين القضايا محل اهتمامها، وحثت أيضا على الدعوة للاندماج بين بحوث الفعل واتجاهات مساواة المرأة.

وتحدث الكثيرون أيضا عن بعض أنواع الارتبــاط بــين اتجاهــات مساواة المرأة وبين بحوث الفعل. ففى كتابه عن "الوصول إلــى البراعــة: أبحاث مساواة المــرأة وعلــم أصــول التدريس مع/ فى ما بعــد الحداثــة **"In Getting Smart: Feminist Research and Pedagogy With/in The Postmodern**

أوضحت باتى لاذر Patti Lather أن المساهمات الأساسية لاتجاهات مساواة المرأة تمثلت فى نقد الوضعية، وإظهار أن كل أشكال البحث مليئـة بـالقيم، وتتيح الإمكانية للعلوم الاجتماعية النقدية، وتضغط على سياسات القوة، وتزيد من تحديات اتجاهات ما بعد الحداثة. إن محاولتها الطموحة لدمج الاتجاهات والتيارات تجعلها تكافح للوصول إلى ما وراء معضلات اتجاهات مـا بعـد الوضعية Postpositivism وما بعد البنائية Poststructuralism وما بعـد الحداثة Postmodernism من خلال علوم اجتماعية نشطة وفعالة. لقد جعلت بحوث الفعل عنصرا أساسيا. وقد منحت لاذر باحثى الفعل ثروة من أساليب التحليل ووجهات النظر.

وقد دافع العديد من مفكرى اتجاهات مساواة المرأة عـن تفـاوت أشكال الدمج بين اتجاهات مساواة المرأة وبين بحوث الفعل. فقد ناقش كل من لويابا ومارتين Loyappa and Martin (1996) الـدمج بـين بحـوث مساواة المرأة وبين البحوث المشتركة للثورة على العقبات التى تواجه تعليم الكبار بالولايات المتحدة الأمريكية، كما كشفت رينهارز Reinharz (1992) عن إمكانيات ما أسمته "ببحوث فعل مـساواة المـرأة Feminist Action Research" حيث ربط بين مذهب الفعاليـة Activism والمـنح التعليميـة Scholarship. إن عدم إمكانية امتلاك منظور مساواة المرأة بدون الالتزام بالتغير الاجتماعى هو ما يربط هذه الأنشطة ببعضها، وما يربطهـا معـا ببحوث الفعل بشكل أكثر عمومية.

ويستحق العديد من مفكرى اتجاه مساواة المرأة ذكرهم ومنهم على سبيل المثـال بيلينكـى Belenky وكلينـشى Clinchy وجولـد بيرجـر Goldberger وتارول Tarule ١٩٩٧ وجيليجان Gilligan ١٩٨٠، ولكننـا نأمل أن نجد الفرصة للحديث بشكل كاف عنهم لفـتح المجـال للمناقـشات الواسعة. وحتى هذه المراجعة السريعة تطرح أهميـة الاتـصال المتكـرر

والتفصيلى بين الباحثين فى مساواة المرأة وبين ممثلى العديد من الاتجاهات الأخرى لبحوث الفعل. إننا نشترك فى العديد من البرامج والأجندات، ونعتقد بوضوح أن بحوث الفعل ليست ممكنة بدون آراء ووجهات نظـــر مفكـــرى اتجاه مساواة المرأة. وفى المقابل يستطيع أن يمنح باحثى الفعل المتخصصين فى اتجاه مساواة المرأة الوعى والإدراك الكبير للعديد من بـــرامج التـــدخل، وأساليب عمليات الجماعة التى تطورت ونمـــت فـــى حركـــة الديمقراطيـــة الصناعية، وفى الاستقصاءات التعاونية وغير ذلك. ومثل هذه الأساليب يمكن أن تساعد أنصار التزام اتجاه مساواة المرأة بمذهب الفعاليـــة فـــى المعرفـــة الجيدة بالأساليب التى تعمل من خلال التعاون فى جماعـــات نحـــو تحقيـــق أهداف التغيير الاجتماعى.

الخلاصة:

لقد تم ذكر العديد من الاتجاهات التى تتناول قضايا القوة والتحـــرر. وقد تركز اهتمامنا فقط على الحديث بشكل كاف لإقناع القراء بأن وجهـــات النظر هذه يجب أن ترتبط ببعضها ارتباطا بناء، وجعل هذا التأكيد ملموســـا من خلال تقديم بعض الخطوط العامة الرئيسية لوجهات النظر هذه، والتـــى كونت بحوث الفعل الغربية بالمشاركة واتجاه مساواة المرأة. ونتمنى أن نكون قد أقنعنا القارئ بأن هناك جنوبا فى الشمال، وأن اتجاهات بحوث الفعل التى تكونت بواسطة وجهات نظر الجنوبيين هى مثل اتجاهات بحوث الفعل فـــى الظروف المختلفة فى الشمال. وتتمثل قيمة وجهات نظر الجنـــوبيين بـــصفة خاصة فى تذكير الممارسين الشماليين بالأخطار الحاليـــة والمـــستمرة فـــى الاختيار **Cooptation** والسيادة عندما يتم الاستيلاء على لغة المشاركة مـــن أجل أغراض عدم المشاركة. وأخيرا فإننا نحث على تكثيف المناقشات عـــن العلاقة بين تعليم الكبار ومساواة المرأة وبحوث الفعـــل كعنـــصر أساســـى وضرورى من أجل نجاح الكل.

الهوامش

١) نذكر القارئ بأن مصطلح الجنوب وما يقابله من مصطلح الشمال تعتبر مصطلحات غامضة وتتسم بالمراوغة. فالجنوب يشير إلى السكان الذين يتسمون بالفقر والظلم، بسبب أن النسبة الغالبة لهذه السكان تقع فى المجتمعات الفقيرة، والجنوب مصطلح يشمل هؤلاء السكان، ولكن توجد العديد من المناطق الجنوبية فى الشمال، وأن العديد من المبادرات مثل مبادرة هايلاندر قد قامت على أساس نفس مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية التى تقوم عليها نفس جهود التغيير فى الجنوب.

٢) بعض النماذج لأنواع الصراع التى أربكتنا يمكن أن نجدها فى كتاب وايت ووايت **Whyte & Whyte (1991)**، والذى استخدم مصطلح بحوث الفعل بالمشاركة للإعلان عن اتجاه بحوث الفعل الذى وضعه. وقد تضمن كتابه الذى يحمل هذا العنوان حالات من الدول النامية، وكل السياسات التى لم تظهر فى الأطر لليبرالية، والاستخدامات السابقة لمصطلح بحوث الفعل بالمشاركة بواسطة الباحثين الجنوبيين ولم يتم ذكرها. وهذا النوع من استخدام اللغة يمنع الاتصال بين ممارسى بحوث الفعل.

٣) ونظرا لما لهذا المجال من تاريخ طويل، ونظم بشكل مناسب، فقد قدمته العديد من الكتب للقراء فى معظم الدول. ومن بين أكثر هذه المصادر فائدة بوجه عام كتاب باولو فرير (١٩٧٠) أصول تدريس وتربية المضطهدين. والمقالة الكلاسيكية لباد هال **Budd Hall** (١٩٧٥) البحث التشاركى كاتجاه نحو التغيير؛ وهو والعديد من المقالات المنشورة فى دورية **Journal Convergence**، وكذلك كتاب كار وكيميس **Carr and Kemmis (1985)** الناقد الجذاب، وكتاب جون إليوت **John Elliott (1991)** بحوث الفعل للتغيير التعليمى، ومقالة المراجعة لسوزان نوفك **Susan Noffke (1994)**.

الفصل الحادى عشر

بحوث الفعل التعليمية

Educational Action Research

بنظرة شاملة على الممارسات المرتبطة ببحوث الفعل، فإن الاتجاهات ذات التركيز التعليمى تقدم واحدا من المنظومات الأكثر اتساعا وتعقيدا، والتى تتراوح بين بحوث الفعل فى المدارس الابتدائية والثانوية والبناءات الإدارية لبحوث الفعل فى التعليم العالى إلى تعليم الكبار وتنمية المجتمع والحركات الليبرالية. ويتسم هذا المجال الواسع أيضا بأنه يضمن العديد من الخواص المختلفة والمتغيرة، وأن محاولة الوصول إلى مركب من هذه الخواص، لخدمة أغراض هذا الكتاب يعتبر أمرا صعبا للغاية. وتعتبر الحدود بين التعليم وأنشطة بحوث الفعل الأخرى أيضا غامضة للغاية، وهناك العديد من الاتجاهات التى ظهرت فى الفصول الأخرى تشير إلى ذلك أيضا. لا توجد خريطة واضحة ولا حتى توجيه بسيط لذلك. ويتمثل هدفنا فى تمكين القارئ من الدخول فى بداية هذا الموضوع، وأن يستخرج بعضا من خطوط هذه الخريطة، وأن يجد طريقه لهذه المواد أيضا[1]. وعلى الرغم من أن الاتجاهات التى نتناولها هنا موجهة نحو التغيير الاجتماعى، فإنها لا تتضمن سياسات حادة وعنيفة كتلك التى تناولناها فى بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة. والتركيز هنا يكون على التغيير التنظيمى والسلوكى، وإصلاح النظم والمؤسسات.

أطر العمل Frameworks:

على الرغم من أنه ليس كل الأنشطة التعليمية وثيقة الصلة ببحوث الفعل تتعامل مع تعليم الكبار، فإن إحدى مميزات هذا المجال تظهر في أن معظم التجمعات والتركيبات الفكرية وأطر العمل المستخدمة أتت من تعليم الكبار بدلا من التعليم الابتدائي والثانوي التقليدي والتعليم العالي. وتخدم هذه التركيبات والتجمعات أغراضنا بطريقتين. فهي توفر إطارًا أوسع للموضوع أكثر مما تفعله النماذج الخاصة بدراسات وتنظيمات العمل، وتبدو لنا بعض التركيبات والتجمعات الأكثر حداثة وتحديا على أنها تؤدى بإصرار إلى خلاصة مضمونها أنه كما فى الديمقراطية الصناعية، فإن بحوث الفعل تعتبر فقط الوسيلة الملموسة التى تنبع من المعضلات والمشكلات فى هذا المجال.

ولبناء خريطة هذا المجال فقد استفدنا من الأطر التى قدمها ماتياس فينجر **Mattias Finger** وجوس مانويل أسن **Jose Manuel Asun** فى عملهم عن تعليم الكبار فى مفترق الطرق (**2001**) وروبين أشر **Robin Usher** وجان بريانت **Jan Bryant** ورينيى جوهانستون **Rennie Johnston** "تعليم الكبار وتحديات ما بعد الحداثة؛ التعلم خلف الحدود (١٩٩٧). وقد وضعت هذه الأعمال التى اتسمت بالطموح وعمق التفكير خريطة مجال التعليم وحددت بعض المعضلات الرئيسية التى تواجه المجال، والتى سوف يتم التعرف عليها فى الفصول الأخرى من الكتاب.

فينجر وأسن: تعليم الكبار فى مفترق الطرق

Finger & Asun; Adult Education at the Crossroads

وصف كل من فينجر وأسن المجال المحيط بهم على أساس تصنيف الاتجاهات فى ثلاثة تصنيفات هى وجهات نظر البرجماتية **Pragmatic**

والإنسانية Humanist والماركسية Marxist. وقد تناول تحت عنوان البرجماتية مع أعمال كل من جون ديوى John Dewey، وكورت ليفين Kurt Lewin وديفيد كولب David Kolb وجاك ميزيرو Jack Mezirow وكريس أرجيريا Khris Argyria ودونالد سكون Donald Schon(٢). فقد بينوا أنه على الرغم من الأيديولوجية لاجتماعية المنقدة للبرجماتية، فإن نظريتهم عن المجتمع والسياسة الاقتصادية قد افتقدت فى هذا العمل، وأن الظروف التى أثرت على الكشف البرجماتى والتعلم المستمر والتحول الاجتماعى لم يتم الكشف عنها.

إن ما دعاه فينجر وأسن بالمدرسة الإنسانية شمل أعمال كل من مالكولم نوليس Malcolm Knowles وكارل روجرز Carl Rogers وستيفين بروكفيلد Stephen Brookfield. ولعل أهم ما فى اتجاهات هؤلاء المفكرين نظرتها التفاؤلية نحو إمكانية نمو الكائن الإنسانى، والحرية، والنمو الذاتى، ويدينون بالفضل بالتعامل العظيم لعلم النفس الإنسانى. وبالتالى فهى تتضمن أيضا من اتجاه علاجى وفردى للتنمية يفتقد إلى أى تنظير للاقتصاد السياسى والبيئات المؤسسية.

ويتضمن الاتجاه الماركسى الماركسية التقليدية والنظرية النقدية (تيودور أدورنا Theodor Adorno وولتر بنجامين Walter Benjamin وجورجين هابيرماس Jurgen Habermas وغيرهم). وقد تطور هذا الاتجاه أيضا بواسطة باولو فرير (انظر الفصل العاشر) داخل ما أسماه فينجر وأسن أصول التعليم النقدى Critical Pedagogy. حيث انتقد كل هذه الاتجاهات من أجل تكوين نظرية معرفة موحدة تستطيع الدفاع عن إمكانية فتح عمليات تعلم وضد سياسات للاضطهاد. إنهم لا يرون كيف تقود النظرية ممارسة ليبرالية، وقد ربطوا هذا النقد بشكل خاص إلى ما نطلق عليه بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (انظر الفصل العاشر).

وكلما فكر أحد فى مناقشات فينجر وأسن بصفة خاصة وتأكيداتها بأنه على الرغم من الاختلافات بين هذه الاتجاهات الثرية فإن لديها نفس الهدف – "جعل عملية التنمية إنسانية من خلال مشاركة وتضمين الناس فى تشكيل طرقها" (Finger & Asun, 2001, p. 96)- يعتبر خادعا وتآمريا ومقنعا. ولكن ما يقلل من الحدة، على الرغم من هذه الأبعاد النقدية الظاهرة، إنهم يرون أنها انتقادات محدودة وموجهة فقط نحو الرأسمالية المتقدمة نظرا لأنهم يتقبلون صدق عملية التنمية ونموذج الحداثة والتحضر فى عصر التنوير.

ومن ثم فقد تطلع فينجر وأسن إلى "Learn our way out"، وقد فعلوا ذلك من خلال التوصية بمجموعة من الأطر العلمية والممارسات التى تنظر إلينا مثل كل الأسس التى تقوم عليها بحوث الفعل؛ الانخراط فى التغيير المؤسسى بواسطة مشاركة كل المستفيدين واستمرارية الدعم والتأييد والعدالة. ولا يعتبر ذلك وجها جديدا للوجه القديم لمشروع التنمية، ولكنه إنتاج تعاونى جديد وأسلوب تحديد تعاونى للحياة فى العالم بصورة تتسم بالتماسك والتكافل، ومع ذلك فإنه لم يصرح بوضوح فى أن أسلوبهم البارز يتم من خلال بحوث الفعل.

أشر وبريانت وجوهانستون؛ تحدى ما بعد الحداثة

Usher, Bryant, and Johnston; Postmodernism Challenge

ننتقل فى هذا الموضوع إلى مناقشات كل من أشر وبريانت وجوهانستون (١٩٧١) نظرا لبنيتهم عن تحديات ما قبل الحداثة لتعليم الكبار على الرغم من المساهمة المتميزة لكل من فينجر وأسن التى أخذتنا لنفس المكان. ومن خلال وجهة نظرهم هذه فإن اتجاه ما بعد الحداثة، نهاية العصر، يرتبط بالتعليم بوسائل متنوعة. فالمذهب الفردى والمذهب الديناميى

وعدم استقرار الجماعة ونظرية الأنساق تحت الظـروف الحاليـة للعولمـة حطمت ظهر نموذج الحداثة. ولكنهم أكدوا على أن التعليم فـى حـد ذاتـه كمفهوم وكممارسة يعتبر مقدمة منطقية للعناصر المحـدد للحداثـة؛ النمـو والتقدم والقوة كلها أفكار للحداثة. ويعتقدون أنه لا يوجد بديل للتعلـيم فـى عملية الحداثة، ولا يمكن ببساطة الاستغناء عنه. ومع ذلك فقد اعتقدوا أيضا أن مذهب ما بعد الحداثة هيأ بعض الظروف المفيدة جدا لممارسة التحديث، وقد أوصوا "بأن إدراك ذلك يعتبر من مطالب الحداثة، وليست حقـائق، إن المطالب التى تتكون اجتماعيا وبناء ثقافة المواقع التاريخية، تتـسم بـالتحيز والخصوصية فى المقالات أو المحاضرات والأغراض.

وعندما يتحدثون عن ماهية أدوات الممارسة، فإنهم يطرحـون إطـار البحث والأساليب والأفكار عن أن هذه بالتقريب هى بحوث الفعل. إن الانفتـاح والتعاون وعمليات الجماعة وتكامل الأفكار مع دوائر الفعل، وغيرها من المظاهر التى توفر الأساس "للتعلم وراء الحدود" لكل من الحداثة وما بعد الحداثة.

وهذه التركيبات عميقة التفكير والمتطورة تماما تستحق القراءة من وجهة نظرهم الخاصة، ولكن من أجل الحاضر فإنها توفر لنا الخلفية العلمية التـى مـن خلالها نبنى وجهة نظرنا حول ممارسات بحوث الفعل التعليمية المتنوعة.

إصلاح التعليم فى الشمال

Reforming Education in the North

بحوث الفعل التعليمية فى المدارس وتعليم المهن

Educational AR In Schools and Teaching Professions

من غير المحتمل أن تتسم الممارسات التى ارتبط بها مئات المدرسين وأساتذة الجامعات بالتجانس؛ التعليمية حيث يوجد العديد مـن الممارسـات

المتنوعة تحت عنوان بحوث الفعل. ولتلخيص هذه الحقائق، فإننا نرى أن هذا المجال يركز على مدرسى المدارس الابتدائية والثانويـــة والتعلـــيم العـــالى، وطلاب الشهادات الجامعية الذين يدعمونهم. وهذه الفئات المستفيدة تنخـــرط فى عدد من بحوث الفعل المتنوعة، والتى تركز أساسا على تحـــسين جـــودة ممارساتهم كمدرسين، وتحسين بيئاتهم المؤسسية التى يعملون من خلالهـــا. ويوجد عنصر مهم فى التنمية التنظيميـــة **Organizational Development** فى هذه المنطقة، كما توجد العديد من الأعمال المناظرة لهذا العمل التى يـــتم تنفيذها تحت عنوان الديمقراطية الصناعية. وقد اكتسبت كل هذه الاتجاهـــات إلهامها من أعمال كورت ليفين ومعهد تافيستوك للعلاقات الإنسانية.

ومن خلال مراجعة مقالة "بحوث الفعل التعليميـــة" لكين زجنر **Ken Zeichner (2001)**، حيث درس رموز هذا المجال كالآتي؛ الاتجاه القائم فى الولايات المتحدة الأمريكية على أساس أعمال كورت ليفن، والذى ركز على أعمال ستيفين كورى **Stephen Corey** بجامعة كولومبيا؛ وحركة إصـــلاح المناهج البريطانية (١٩٦٠-١٩٧٠)، والتى قامت على أساس أعمال كل مـــن جون إليوت **John Elliott** ولورنس ســـتينهاوس **Lawrence Stenhouse** ; والحركة الأسترالية التى استوحت أفكارها الرئيسية من المملكـــة المتحـــدة، ولكنها أضافت إليها بعد التعامل مع التعليم القديم، والذى يتضمن الكثيـــرين مثل كيميس وروبين ماكتاجارت **Kemmis & Robin McTaggart**؛ وحركة الباحث/المدرس فى الولايات المتحدة الأمريكية، وحاليا الدراسة الذاتية للتعليم العالى لتحسن عملية التدريس.

وتختلف كل هذه الاتجاهات فى العديد من الوسائل، ولكـــن ينـــصب تركيزهم الأساسى على التغيير فى الممارسة المهنية، والتنمية التنظيمية داخل المعاهد والمؤسسات. وبينما تركز هذه الاتجاهات على التغيير فى الممارسة والتنظيم، فإنها تمثل بوضوح أنشطة إصلاحية تستهدف تغيير القوة بشكل أقل

من تحسين أنماط الاتصال وجهود البيئة من أجل الطلاب والمعلمين ووضع سياسات للإصلاح لدعم هذه التغييرات.

ومن بعض هذه التنوعات لبحوث الفعل تركيز المدرسين بقوة على مشاركة المستفيدين وشعورهم الطيب نحوهم، بينما يفتح الآخرون أمام الطلاب والأعضاء من غير المدرسين الفرصة للانخراط فى التنظيمات. وقد وفر زجنر (٢٠٠١) قائمة مهمة من المراجع حول هذا الاتجاه. (ص.ص ٢٨١-٢٨٣) وللوصول إلى الترابط الأكثر شمولا والتوجيه المنهجى فإن المصدر الأفضل حاليا هو لسترينجر Stringer "بحوث الفعل فى التعليم" (٢٠٠٤).

بدائل التعليم العام Alternative to Public Education:

يوجد تحت وأعلى هذه التنوعات من بحوث الفعل التعليمية البعض الآخر الذى يتخذ اتجاها أكثر قوة لإصلاح النظام التعليمى. وقد تم تنظيم حشد كبير من مدارس التعلم العام الإضافية. وقد شملت المدارس الخاصة للموسيقى والرقص والمعاهد الدينية والإرساليات الثقافية (مثل: مدارس السبت اليابانية فى العديد من المجتمعات الغربية). وتعتزم هذه المدارس كلها إثراء المناهج الدراسية، وكذلك وضع خبرات المدارس العامة اليومية فى سياق نظرة واسعة للعالم الذى يتم التحكم فيه وضبطه بواسطة الوالدين والمدرسين.

بحوث الفعل داخل مؤسسات التعليم العالى

AR Within Higher Education Institutions

لقد خصصنا فصلا كاملا لتعليم باحثى الفعل (الفصل السادس عشر)، لذلك فإننا لن نتطرق إلى هذا الموضوع هنا، فيما عدا القول إن هناك جهودا

مهمة وجارية لوضع برامج لبحوث الفعل على مستوى التعليم الجامعى وفوق الجامعى (البكالوريوس والدراسات العليا)

وإحدى أكثر إستراتيجيات التعليم الرسمي طموحا وأحسن تمويلا نحو التغيير الاجتماعي الديمقراطي كانت تنمية الأرض الممنوحة للجامعة بالولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر. ويرتبط النظام الأساسى للأرض الممنوحة **Land Grant** بالظروف المحلية فى الولايات المتحدة. فمعظم الولايات لديها كمية معينة من الأراضى العامة تحت تصرفها. وبالتفويض قامت ببيع بعض من هذه الأراضى العامة واستخدمت عائداتها فى تكوين ميزانية مركزية. وقد استخدم الدخل فى بناء جامعة الولاية (من هنا كان مصطلح منحة الأرض). وقد احتاجت كل ولاية لمنح قطعة أرض خاصة بجامعتها.

وعندما يتم بناء الجامعة من الميزانية العامة للدولة، فإن رسالة الجامعة الممنوحة الأرض تتمثل فى البحث والتعليم والخدمات العامة المرتبطة بشبكة اتصال افتراضية. وقد حرصت الجامعات على تعليم الناس فى الولاية، وعلى القيام بالبحوث فى الموضوعات التى تهم مواطنيها، ونشر المعرفة بشكل مباشر إلى سكان الولاية. إن الصياغة الأساسية لجامعات الولاية القائمة على منحة الأرض ترتبط تماما ببحوث الفعل. إنها تتضمن الشراكة المنظمة بين المستفيدين الأكاديميين وغير الأكاديميين، حيث يدار حوار بينهم عن احتياجاتهم واهتماماتهم، وعن البحث التعاونى واختبار النتائج. وعلى الرغم من ذلك لم تصبح الجامعات القائمة على منحة الأرض مصدرا لمعظم مبادرات بحوث الفعل.

وعلى الرغم من وجدود قضية بسيطة تتمثل فى أن هذه الجامعات العامة قد نفذت العديد من الخدمات المطلوبة ولديها نجاحات كثيرة **(Lyall &**

Sell, 2006) فإنها بمرور السنوات أصبحت خادما رئيسيا للقوى الاجتماعيــة بدلا من أن تكون السبيل لتحقيق ديمقراطية المعرفة. وعلى الــرغم مــن أن تصميم هذه الجامعات كتنظيمات يتم من خلالها تــشجيع أعــضاء هيئــات التدريس بها ومكافآتهم على مساهماتهم الفكرية والتطبيقية فى المجتمع، فإن هذه الجامعات قد انقسمت داخليا إلى أعضاء هيئة تدريس ذوى مكانة عاليــة يقومون بإجراء بحوث غير تطبيقية، وعدد كبير من أعضاء هيئة التــدريس وغيرهم من الشخصيات الأخرى ذوى مكانة منخفضة جدا.

وقد قامت هذه الجامعات العامة بدعم وتأييد اهتمامات عدد كبير من الفلاحين ورجال الأعمال أصحاب القوة، وكذلك إحلال الميكنة والآلات فــى العمل، وغيرها من الجهود الهرميــة. إن مــصطلح منحــة الأرض فكــرة إصلاحية تمت سرقتها والاعتداء عليها بالقوة، حتى لــو كانــت الــسلطات التشريعية والاقتصادية قد دعمت نتائج الديمقراطية إلى حد بعيد. وتحت هذه الظروف فإننا نتحدث القليل عنها.

وفى سياق نسق الجامعة ممنوحة الأرض ظهــرت أحــدث حركــة لإعادة صياغة وتنشيط هذا العمل الذى تم بناؤه بشكل خاص علــى أســاس مبادئ بحوث الفعل. ويعتبر سكوت بيترز **Scott Peters** واحدا مــن أهــم المــشاركين(**Peters, Hittlemen, & Pelletier, 2005, ; Peters, 2001** **Peters, Jordan, Adamek, & Alter,2005)** فى هذا الاتجاه والذين التزموا بفكرة منحة الأرض، حيث نقلته الديمقراطية إلى دراسة الممارسات الماهرة للعديد من الشخصيات النشطة أو الأبطال غير المشهورين للنــسق الممتــد. ومن خلال هذه الدراسات التعاونية واعتمادا على القصص والروايات التــى نشأت من خلال الحوارات الطويلة، وضــع بيتــرز رؤيتــه عــن التعقيــد والإصلاح الممكن داخل ممارسات بحوث الفعل هذه، والتى تم عزلها بدرجة

كبيرة بواسطة سيطرة النماذج التقليدية الأكثر سلطوية للشمولية **Extension** مثل "عمل الخبراء من أجل المستفيدين، وليس العمل معهم" وهناك الآخرون الكثيرون الذين عملوا فى إطار هذا النوع من العمل (**Crane, 2000**).

تعلم الخدمات Service Learning:

طورت العديد من المعاهد والمؤسسات برامجهم التعليمية من خــلال المجموعات المتنوعة من خدمات التعلم والإرساليات الداخليــة **internship** والسجون **Coops**، والتى من خلالها تكاملت خبرات العمل والأنشطة الفكرية فى الأسلوب أو الطريقة التى صاغها ديوى (**Dewey, 1900**) ومع المعاهــد المشهورة فى هذا الخصوص كلية أنتيوش **Antioch College** وكلية بيريــا **Berea College**.

وبمرور الوقت فقد نتج عن جهود إشراك الطلاب وأعضاء هيئــات التدريس فى الإرساليات والأشكال الأخرى من الخدمات المباشرة التى تقدمها المؤسسات سواء داخل أو خارج الكليــات والجامعــات، حركــة الخــدمات التعليمية (**Giles, Stanton & Cruz, 1999**). وقد نمت هذه الحركــة خــلال العشرين عاما الماضية وأظهرت أن القليل جدا من المعاهد فى التعليم العالى الآن تفتقد إلى النظام على الأقل فى أوضاع بعض الخدمات التعليمية. وقــد نظم اتحاد الجامعات **Campus Compact** بالولايات المتحدة الأمريكية العديد من الأنشطة للارتقاء بجهود أكثر من ٩٢٠ معهدا تحتوى على أكثر مــن ٥ ملايين طالب.

وقد تحدثنا كثيرا عن هذه الأنواع من الخبرات للطلاب واعتقدنا تماما بقيمتها وأهميتها، وحددنا أن هذه الخدمات التعليمية يمكن أن تتضمن بحوث الفعل ولكن ليس بالضرورة. ومن خلال ممارسات الــبعض مثــل كينيــث ريردون (**Kenneth Reardon 1997**) التى قــدمت بوضــوح الإنجــازات والخدمات فى مجال التدريب المتعدد للمستفيدين على خلفية بــاحثى الفعــل.

ويمكن أن تمتد تماما إلى الحياة التعليمية للطلاب، إن نوعية فصل نشاط "الخدمة" عن تلك التى ربما تعلموا من خلالها شيئا، لأنهم وجدوا أنهم سيتعلمون تعليما أوسع من وجهة نظرهم.

إن تناول علاقات الخدمة داخل حياة التعليم العالى واستخدام خدمات التعليم كوسيلة لإعادة صياغة وتشكيل العلاقات بين التعليم العالى والمجتمع يعتبر أمرا نادرا. وعندما يكون خدمة التعليم مألوفة وواضحة للعامة فإنها تصبح وسيلة لعمل الأفضل بدون تغيير الكثير من أى شىء من عمليات المعاهد التعليمية. وعندما يتم تناول ذلك داخل رسالة المعاهد بطريقة عميقة فإنها تصبح عملية تحويلية **Transformative**.

اتجاهات تعليم الكبار فى المجتمعات الصناعية

Adult Education Approaches in Industrial Countries

كما أوضحنا فى مقدمة هذا الفصل، فإن مجال بحوث الفعل التعليمية يعتبر ضخما ومتنوعا. قام العديد من المنظرين بأساليب متعدد فى مجال تعليم الكبار بجمع الكثير من خيوطهم داخل صورة متكاملة أكثر تركيبا وتجميعا من تلك التى قام بها باحثو الفعل التعليمى، والذين ربما يكون لديهم العديد من الحدود المؤسسية. ولكننا ننتقل الآن لمناقشة ما يُسمى بشكل ضيق وتقليدى باتجاهات تعليم الكبار.

أندراجوجى والتعلم التحويلى

Andragogy and Transformational Education:

يعتبر الاسم الشائع والمألوف لتعليم الكبار فى المجتمعات الصناعية هو أندراجوجى، إنه يرتبط بقوة مع أسماء مالكولم نوليس **(Knowles, 1990;**

Knowles and Others, 1984) والأكثر حداثــة هــو جــاك ميــزرو Jack (Mezirow, (1991 الذى عرفه بالطريقة التالية: أندراجوجى هو منظور مهنـــى لتعليم الكبار. وقد عرفه بأنه الجهود المنظمة والمستمرة لمساعدة الكبـــار علـــى التعلم بطريقة تزيد من قدرتهم على التوظيف والأداء كمتعلمين موجهين ذاتيـــا. (ص.١٩٩) ويستخدم أندراجوجى بشكل واسع فى قارة أوروبا كمصطلح لتعليم الكبار مع العديد من الدرجات الجامعية التى تستخدم هذا الاسم.

ويتمثل جوهر تعليم الكبار فى النظر إلى التعلم على أنه واقـــع فـــى السياقات الاجتماعية والثقافية والمادية، والتى يتم داخلهـــا تحـــول خبـــرات الأفراد إلى أفعال متحررة من خلال ردود الفعل النقدية. وقد قدمت نظريـــة التحول Transformation Theory لميزرو العديد من التركيبات الجدلية عن الافتراضات الأساسية للتعلم الموضوعى الذى ظهر فـــى التقاليـــد الفكريـــة المعاصرة، ومفهوم المعنى الذى جاء من التفاعلية الرمزية. وقـــد ركـــزت نظريته عن التحول على ردود الفعل النقدية التى ركزت مباشرة على بناءات المذهب الذاتى اللاهوتى والكفاءة الواضحة (Mezirow, 1996, p. 165).

وفى السنوات المعاصرة تحرك هذا الاتجاه بحيث اقترب كثيرا مـــن الوضع المهنى الموازى لبحوث الفعل. وقد استفادت الكتابات الأخيرة لميزرو (على سبيل المثال، ١٩٩٦) من نقد هابيرماس (Habermas, (1984 للتقليـــد العلمى ونشاطه الأفعال الاتصالية Communicative actions. وقد اتخـــذت الخطوة الأخيرة فى عالم بحوث الفعل بواسطة ولفريد كار وستيفين كيمـــيس وكلاهما أستاذ فى التعليم. وفى كتابهما، النقد المناسب، التعلـــيم والمعرفـــة وبحوث الفعل Becoming Critical; Education, Knowledge, and AR, (1985)، قدموا خلفية معرفية لبحوث الفعـــل تقـــوم علـــى أســـاس الفلـــسفة البرجماتية.

ويتمثل مفهوم التفكير الأندراجوجى الغربى فى التركيز علـــى ردود الفعل النقدية والفكرية. وقد خصص بروكفيلــد **Brookfield, (1987)** كتابــا كاملا لتوسيع مفهوم التفكير النقدى وعرض الكيفية التى يــتم بهــا تيــسير العمليات التى تعزز من قدرة المشاركين على التفكير النقــدى. وقــد حــدد بروكفيلد أربعة عناصر للتفكير النقدى هى:

١) تحديد الافتراضات الرئيسية للتفكير النقدى.

٢) تحديد السياق المهم والحاسم للتفكير النقدى.

٣) محاولة المفكرين النقديين تخيل البدائل والكشف عنها.

٤) يؤدى تخيل البدائل والكشف عنها إلى الشكوك التأملية أو الانعكاسية.

ويتمثل العنصر المهم فى عمل بروكفيلد (١٩٨٦، ١٩٨٧) فى تركيزه على الميسر كشخص رئيسى فى عملية تعليم الكبار. وقد أشار بروكفيلد إلى التناقض المهم بين استخدام القوة لمساعدة الطلاب على رؤية قضايا محــددة والتفكير فيها، ومن ثم تركهم يذهبون إلى الضبط من خلال عمليات الــتعلم عندما يكون المفكرون النقديون مستعدين لتولى أمرهم. وهــذا التنــاقض أو الاهتمام قد تم مناقشته أيضا فى كتاب ليفين ومارتين (١٩٩٥)، حيث أشــار إلى أنه من الضرورى تطبيق القوة فى مواقف التعلم لكى تصبح قادرة على الوصول إلى التحرر.

ويوجد بعض التدخلات والارتباطات بين التعليم العام فى الجنوب وبــين والأندراجوجى الشمالى. وقد قام كل من هورتون وباولو فرير **Myles Horton & Paulo Freire (1990)** بتأليف كتابين فى شكل حوارى خلقوا رد فعل علــى العلاقة بين الوضعين؛ ميلز "لقد جعلنا القراءة بواسطة ووكنج وإيرا شور، وكتاب باولو فرير (١٩٨٧) البيداجوجى من أجــل التحــرر **Pedagogy for Liberation**

فقد بين الكتابان كيف كانت حيوية العلاقة بين الممارسين والتشجيع عليها، سواء في الشمال أو في الجنوب. ولعل أفضل تلخيص وتحليل لهذين الموضوعين كان في كتاب فينجر وأسن **Finger & Asun (2001, Chap. 3)**

الفصول المشتركة Corporate Classrooms:

يعتبر ظهور الفصول المشتركة من المظاهر اللافتة للنظر في الرأسمالية الحديثة. لقد كان اتجاه العديد من الشركات ينصب على إيجاد برامج تدريبية وأنساق تعليمية خاصة بهم. ومعظم العاملين في المجال مستشارون علميون (متعددو الجنسيات) حصلوا على برامج تدريبية متعددة، بينما جميع المستشارين الموظفين حديثا يجب أن يكتسبوا الفهم الكافي للثقافة المشتركة ويتعلموا أدوات المهنة. ويبدو أن مدارس هذه الشركات قد انتشرت بسبب أن هذا البناء من التعليم قد لاءم الطريقة التي سوف يعمل بها المستشارون عندما يعلمون عملاءهم وينصحونهم. وقد مرت ٢٠ سنة في الولايات المتحدة وقد استنتجوا أن ساعات التعليم داخل الفصول التي أنشأتها شركات القطاع الخاص أكثر ٣٠٠٠ مرة من ساعات معاهد التعليم العالي التي تعمل في نفس الوقت **(Eurich, 1985)**.

وقد تم تغطية العديد من الموضوعات المتنوعة داخل هذه الفصول. وقد شملت العديد من المجالات التدريب الفني وإعادة التدريب، وشملت المجالات الأخرى العلاقات الإنسانية، وإدارة التعليم، والممارسات المحاسبية، وتنمية الذات، والرعاية الصحية. وقد أصبحت هذه الزيادات الكبيرة في هذه الفرص التعليمية متاحة للعاملين والموظفين بجانب مواقع عملهم.

ويوجد أنواع مختلفة من الفصول المشتركة، وهي مفتوحة لكل الاحتمالات. وأحد التفسيرات هو أن نسق التعليم الرسمي يقوم بوظيفة فقيرة

فى إعداد العاملين والموظفين ذلك أن التعليم الإضافى يعتبر ضروريا لهم لكى يؤدوا وظائفهم بصورة مناسبة فى المؤسسات الربحية. ووجهة النظر الأخرى ترى أن العالم المتوحد يتسم بالدينامية، وتحدى أن كل التنظيمات يجب أن تكون "تنظيمات تعليمية" إذا أرادت أن تتنافس بفعالية (Senge, 1990). ومن الواضح أيضا أن الفصول المشتركة يمكن بناؤها لكى تخدم أغراض التنشئة الاجتماعية للموظفين والعاملين وتوجيههم أيديولوجيا نحو وجهة نظر المؤسسة أو المنظمة نحو العالم.

وهذا لا يعتبر نشاطا صغيرا غير مهم أو اقتصاديا. لقد تم تقدير أن هذه العملية تنفق حوالى من ٣٠ - ٥٠ بليون دولار على التعليم الرسمى للعاملين فى العام وأكثر من ١٨٠ بليون دولار على تعليم الوظيفة والتدريب (Nash, Hawthorne, 1988). إن كيفية بناء أو نقل هذا التعليم لم يدخل فى مجال تركيز بحوث الفعل فى الولايات المتحدة الأمريكية، وربما بسبب أن عددا قليلا جدا من باحثى الفعل يميلون إلى العمل فى هذه البيئة المشتركة Corporate Environment أو أنهم يدركون أن احتمالات التغيير تلازم مثل هذه البرامج الكبيرة والممولة تمويلا جيدا.

تعليم الكبار وتنمية المجتمع

Adult Education and Community Development

تنمية المجتمع:

لقد تناولنا فى الفصل العاشر الجزء الأكبر من ما صنفناه على أنه تعليم الكبار. إن جهود تنمية المجتمع، والتى تأتى على رأسها تلك التى قام بها مركز هايلاندر من خلال العديد من الحركات التى قام بها العديد من الخبراء مثل بيلينكى وبوند وينستوك Belenky, Bond, & Weinstock, (1997)

وفريــر Freire (1970) وجافينتــا Gaventa (1982) وهــال Hall (1975) وهينسدال ولويس ووالر Hinsdale, Lewis, Waller, (1995) ونشير إليهــا بالفعل ونقدم عنها المعلومات المناسبة هنا. وبينما تنوعت هذه الحركات فــى نظرياتها وطرقها ومنطلقاتها الفكرية، فإننا نتفق مــع آراء فينجــر وأســن (٢٠٠١) الجوهرى بأن كل الحركات الإصلاحية تتخذ مكانها فــى النمــاذج المعاصرة للتنمية. وكما كانت رغبة كل من فينجر وأسن فى وضعها، فــإن هذه الحركات استهدفت أساسا وضع الإنسان فى مواجهة الرأســمالية. وقــد اعتقد بعض الممارسين أن ذلك أصعب كثيرا مما يفعله الآخرون، ولكن يعتقد الجميع فى توفر إمكانيات إصلاح النظام. وخوفا من أن نفكر فــى وضــع أنفسنا فى مكان أفضل منهم، فإننا نؤكد على أننا أيضا نشارك فى هذا التوجه الأساسى والذى يعتبر بالتأكيد المسلمة والافتراض الأساسى لجهودنا الخاصة.

ويمكن أن تتجمع كل هذه الأنشطة تحت عنوان تعليم الكبار، لأنهــا تتضمن عمليات التعليم المستمر وبناء القدرات وتقرير المصير، والذى يشرك الكبار الذين يباشرون أعمالهم بشكل جيد فى حياتهم. إنهم يختلفــون بــشكل كبير فى الوسائل التى يعلمون بها، فهناك عمليات التوجه الجمــاعى مقابــل عمليات التوجيه الفردى، وكذلك كيفية تقوية قدراتهم على النقــد للاقتــصاد السياسى المعاصر، ولكنهم لا يزالون يدعمون وينقلون بعض صور الشبيهة بالأسرة. وبالطبع فإن الممارسين ذوى الاتجاهات المختلفة يواجهون معوقات الاتفاق أو الانطلاق معا، وأصبح لديهم ألفة بالقراءة الجيدة لهذا المجال فــى الأدبيات من مختلف التنوعات.

التنمية كإطار لبحوث الفعل

Development As a Framework for AR

من خلال فكرة أن بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة هى تعليم شعبى فى الجنوب، والتى تعد خارج الاتجاهات التقليدية للتنميــة الدوليــة، هــى واســعة

الانتشار، وللتقليل من غضب بعض ممارسى بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة، فإننا نعتقد أن نتائج المناقشات التى أعلنت مبكرا لكل من فينجر وأسن (٢٠٠١) ومن أشر وبريانت وجوهانسون (١٩٩٧) تتمثل فى أن معظم هذه الممارسات تتوافق داخل جميع أطر التنمية الحديثة. إن الاعتقاد فى إمكانية قيام التعليم بزيادة قدرات تغيير وتحسين المجتمع كما هو لا تمثل رفضا أو نكرانا لهذا المجتمع. مع ذلك فإن الممارسين يختلفون بشكل كبير فى درجة الإصلاح التى ترضيهم، وتقريبا فإن جميعنا مصلحون ولسنا ثوريين. وكنتيجة لذلك على الرغم من أنها أوجدت توتر وتجاوز غير مريح فإننا نعتقد أنها ساعدتنا فى فهم أن بحوث الفعل بالنسبة للممارسين أنفسهم هى بشكل أساسى جهود إصلاحية تقوم بدرجة معينة على أساس الاعتقاد فى قدرات الناس على العمل معا لتغيير مواقف حياتهم وتنظيماتهم فى اتجاهات إيجابية.

التعليم الشعبى فى الجنوب Popular Education in South:

من المحتمل أن يكون التقليد الأكثر شهرة فى المجال هو تعليم الكبار والتغيير الاجتماعى فى الجنوب. ويعتبر هذا هو المجال الضخم الذى كتب عنه فى العديد من الكتب. ونحن بالفعل قدمنا بعض وجهات النظر الأساسية عنها. وربما يكون ذلك أفضل تعريف لجميع بحوث الفعل واسعة الانتشار فى العالم، وكذلك بعض من أهم قادتها الذين يعتبرون نماذج لممارسى بحوث الفعل- باولو فرير (١٩٧٠) وبود هال (١٩٧٥) وأورلاندو فول بوردا (Fals Borda& Rahman, 1991) . ونظرا لأن هؤلاء الممارسين قد قاموا بإعداد سجلات فعالة لكل أفكارهم وأعمالهم، فإنه يمكن قراءتها والاستفادة منها استفادة عظيمة. وبالطبع فإن تركيزهم المتشابه إلى حد بعيد لا يجب أن يحجب اختلافاتهم الفردية وتفرد إستراتيجيات التدخل التى طوروها. فكل منهم ومن زملائهم وطلابهم المنتشرين فى مختلف دول العالم لديهم صوتهم

وتعبيرهم المميز ووجهات النظر التى يعرضونها. ولتحقيق أغـراض هـذا العرض نقوم بنقد ميولهم الفردية لعمل عرض متكامل عن هذه الاتجاهات.

تتمثل نقاط الانطلاق لاتجاه التعلم الشعبى فـى الإرادة السياسية والأخلاقية. ويأتى موضوع الأخلاق أولا، ولا يمكن السماح باختفائه فى أى وجهة نظر. فالبشر يؤهلون للحياة اللائقة، والتحـرر مـن أنيـاب الفقـر، والاضطهاد السياسى. فالبشر لديهم الكرامة ويستحقون الاحترام. فـالمنطق السياسى الذى نبع من هذا المبدأ الأخلاقى يعتبر بسيطا. نظـرا لأن البـشر يؤهلون لكى يكونوا أحرارا ويكون لديهم القدرة على إدارة شـئون حيـاتهم بفعالية، وهذا لا يحدث فى معظم الأماكن ويحتاج إلى تفسير. ويكمن التفسير هنا فى أن الظلم والاضطهاد يتم إغلاقه بواسطة القوة الاقتصادية والعنـف. لذلك بنى الممارسون لهذا الاتجاه ممارساتهم على أسـاس وجهـة النظـر الماركسية القوية. إنهم لم يفقدوا البصر والبصيرة عن القوة والاضطهاد، ولا يرون أن التغيير يمكن أن يحدث بدون إسقاط بناءات القوة، ووضع بنـاءات كثيرة للتحرر مكانها.

وبالتوازى مع العناصر المتعدد لنظريات الحراك النابعة من النظرية الماركسية والممارسات التنظيمية للنقابات المهنية، فإن هذه الاتجاهـات قـد اتفقت مع المعرفة المحلية المتميزة. وقد تمثلـت نقطـة الانطـلاق فـى أن اهتمامات وقوة النخب – وليس تجاهل الفقراء أو نقص قدرتهم– هى التـى تؤدى بالناس إلى الفقر والظلم والاضطهاد. لذلك ينظـر إلـى النـاس فـى المجتمعات والتنظيمات على أساس أن لديهم المعرفة التفصيلية والمعقدة ذات القيمة عن مواقف حياتهم، والقدرة على وضع التحليلات والإستراتيجيات التى يمكن أن تحرك هذه المعرفة نحو التغيير الاجتماعى.

إن دور الخبير الخارجي يختلف من ممارس إلى ممــارس، ولكــن دائما ما يكون الخبير الخارجي محفزًا وميسرًا، وأحيانا ضــاغطًا وأحيانــا أخرى محذرًا، ولكنه يحاول دائما نقل احترامه للسكان المحليين ولحقــوقهم. ويحدث ذلك عندما يظهر الارتباط مع تعليم الكبار، نظرا لأن العديــد مــن أنواع التدخل هذه يمكن فهمها كنماذج من تعليم الكبار وبناء القدرات.

وعند استمرار عملية بحوث الفعل يكتسب السكان الثقة في قــدراتهم وإدراكاتهم، ويصبحون أقل استعدادا للخضوع للسلطة، وقادرون على تطوير إستراتيجيات تنظيمية للارتقاء بالتغيير الاجتماعي. وفي بعــض مــن هــذه المواقف يمكن ببساطة تجاهل أشكال المقاومة وعدم التفكير فيها. وفي بعض المواقف الأخرى تصبح أشكال المقاومة خطيرة وعدوانية. لذلك فمن الممكن أن تتراوح هذه الجهود بين تنمية التنظيمات المحلية التي تهدد القليــل مــن الناس إلى الأنشطة التي يمكن تسميتها بحق على أنها تمردية **Insurgency**.

باولو فرير Paolo Freire:

بمناقشتنا السريعة لهذا الاتجاه نحو بحوث الفعــل، نجــد أن مراجعتنــا المختصرة لإسهامات باولو فرير تساعدنا على فهم هذا الاتجاه. ويعتبر فرير من أكثر الأسماء شهرة ممن ارتبطوا ببحوث الفعل والتصور الذي قدمه هو وكــل شخص عمل في بحوث الفعل يعتبر مألوفا للكثيرين بسبب تركيزهم على بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة وتعليم الكبار والتعليم الرسمي وتنمية المجتمع.

يمتلك فرير الذي ولد في البرازيل سيرة ذاتية طويلة ومعقدة. فقــد بــدا عمله كمعلم للكبار، حيث كان يعمل مع الفقراء، ولكنه استبعد من البرازيل أثناء الانقلاب العسكري عام ١٩٦٤ بسبب العمل الذي كان يقوم به. وقد تم تلخــيص

اتجاهه فى أكثر كتبه شهرة علم تدريس الاضـــطهاد **Pedagogy of Oppressed** وكانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٧٠. ويعتبر هذا الكتاب واحدا مـــن أكثر الكتب قراءة عن بحوث الفعل ورسالته لا تزال مثيرة ومناسبة.

وقد استمر نفيه من البرازيل حوالى ستة عشر عاما، حيث عاش وعمل فى إنجلترا وشيلى، وقضى فترة من عمله مع المجلس العــالمى للكنــائس فـــى جنيف. وقد تعلم فى هارفارد من عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٩، عنـــدما أصـــبح قادرا على العودة على البرازيل. وقد أحيا عمله العام فى البرازيل عـــام ١٩٨٨ عندما تم توظيفه وزيرا للتعليم فى مدينة ساو باولو. وكانت لدية الفرصة لكـــى يضع أفكاره عن التعليم فى الممارسة. وقد مات فرير عام ١٩٩٧.

وتتكون كتاباته من مزيج معقد من الماركسية الحديثة وآراء جرامشن **Gramscian perspective** والليبرالية اللاهوتيـــة **Liberation Theology**. وقام بتنظيم هذا المزيج تحت عنوان عام لمفهوم واسع "علم أصول التدريس **Pedagogy**" وقد اعتقد فرير أن "الحديث عن العالم الحقيقى يكـــون بتحـــول العـــالم" **To Speak a true world is to transform the world** (١٩٧٠، ص. ٨٧) وقد اعتقد بأن قوة الكلام ترتبط بالوعى النقدى، والعمل المـــنظم والواضح، ودوائر رد الفعل. وكان لديه رأى معقد عن "الوعى الاغترابـــى **alienated consciousness**" والذى يخضع المضطهدين للعبودية والاستعباد، وانتقد اثنين من أكثر تنظيمات ردود الفعل شيوعا وهما اللفظية **Verbalism** والفعالية **Activism**. فاللفظية هى الكلام بـــدون فعـــل. (١٩٧٠، ص. ٨٧) والفعالية هى الفعل بغرض الفعل بدون التدريب على الوعى النقدى.

وكان لدى فرير اعتقاد قوى فى أهميـــة الفعـــل النقـــدى الـــصريح والواضح، والذى يبين للناس ظروفهم الحالية، وقدرتهم علـــى تغييـــر هـــذه الظروف. لذلك نادى بأهمية امتلاك الناس لأصـــواتهم وتعبيـــرهم كمظهـــر

رئيسى الليبرالية. وقد أعلن فرير أن الكيانات الإنسانية لا يمكن أن تبنى على الصمت (١٩٧٠، ص. ٨٨) وأن المطالبة بالحق فى الكلام والتعبير تعتبر واحدة من أكثر أشكال القوة فى الفعل.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان استخدام الكلام يتسم بالعدائية أو بالعدوانية، وقد أكد فرير على أن الحوار هو عمل يتسم بالحب ويتطلب الإيمان بالعنصر البشرى لأن الحوار يرتكز على الأمل والاعتقاد بأن الآخرين يستطيعون الاستجابة والتعبير عن رأيهم. لذلك رأى فرير أن التعليم الحقيقى والموثوق به دائما ما يكون اجتماعيا "إنتاج مشترك **Cogenerative**" فى علم مصطلحاتنا. ويمكن تصور فكرة الحب والتماسك فى تأكيد فرير بأنه يجب على المضطهدين أن يحرروا أنفسهم من خلال تنميتهم للوعى النقدى، وهى ما أطلق عليها فرير "إيقاظ الضمير **Conscientization**"، ولكن أيضا يجب أن يسعى المضطهدون أيضا إلى تحرير اللذين يضطهدونهم بنفس الوسائل. والقيام بأى شىء خلاف ذلك يعنى ببساطة أن المضطهَدين أو المظلومين سوف يتحولون إلى مضطهدين أو ظالمين، وتعود الدائرة فى الدوران من جديد.

هذا وقد اتسعت كتابات فرير **(1970, 1998a, 1998b)** وبدأت الانتقادات فى الظهور أيضا ومن هذه الانتقادات **(Bowers & Apfel-Marglin, 2004)** ولاحظ مرة أخرى أن جزءًا من هذا العمل قد تم وضعه كعرض لإستراتيجيات بحوث الفعل الجنوبية. (الفصل العاشر) وأيضا أصبح ذا صلة لبحوث الفعل التعليمية، وأجزاء من إستراتيجية الاستقصاء الإنسانى أيضا (الفصل الرابع عشر).

ويمكن أن يقال الكثير جدا عن هذه الاتجاهات، ولكن يكفى ما تم طرحه لتشجيع الاهتمام بالقراءة أكثر فى الأدبيات المرتبطة بهذا الموضوع. إن التركيز على المعرفة المحلية وقيمتها والتأكيد على أن التغيير الاجتماعى

ليس مجرد تحريك للأقراص، ولكن تغيير أنساق القوى يعتبر أن من أكثر الإسهامات حسما فى بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة(٣).

وكما لا حظنا فى الفصل العاشر، يوجد أيضا العديد من الأدبيات النقدية التى ظهرت الآن، والتى كشفت عن بعض القصور ونقاط الضعف فى الافتراضات الأساسية لهذه الاتجاهات.

مؤسسات التنمية الدولية International Development Agencies:

ومن بين المؤسسات الأكثر قوة وثراء، والتى تعمل فى مجال تعليم الكبار هى التى تنتمى إلى الحكومات المحلية والهيئات الدولية، والتى توظف الميزانيات المحلية فى برامج المساعدة التنموية، والتى تعتبر موضوعات دقيقة ومعقدة. إننا نتعامل مع جزء بارز ومهم منها، والذى يرتبط ببحوث الفعل فى الفصل الخاص بالتقييم الريفى التشاركى (الفصل الثالث عشر).

وتعتبر مؤسسات التنمية من القوى المسيطرة على نفس المشهد الذى تعمل فيه المنظمات غير الحكومية (NGOs) والإرساليات التنظيمية. ومن أمثلة مؤسسات التنمية المؤسسة الأمريكية للتنمية الدولية، **NORAD** النرويجية، ومنظمة الصحة العالمية، والبنك الدولى، وصندوق النقد الدولى. واعتمادا على التمويل المالى بشكل كبير والمقدم من الحكومات المحلية، تقوم هذه المؤسسات الدولية بدعم برامج التنمية فى الكثير من الدول حول العالم.

وعلى الرغم من أنه لازلنا منصفين إذا قلنا إن حجم ميزانيات المشروعات المنفقة على البُنى التحتية **Infrastructures** من القمة إلى القاع، ونتج عنها بوجه عام تحسينات متواضعة فى ظروف الفقراء ولم تساهم فى تحقيق الديمقراطية، فإن بعض من هذه البرامج كان لها تأثيرات محلية مهمة. إن ما

أطلق عليه اسم تكنولوجيا الثورة الخضراء **Green Revolution Technologies** لتحسين إنتاج معظم حبوب الغذاء قد حسنت من مستوى تغذية الناس وكذلك حالتهم الصحية فى بعض مناطق العالم. وتحت مظلة برامج التنمية فقد تم إرسال آلاف من الناس من المجتمعات الفقيرة إلى المجتمعات الغربية الصناعية لمزيد من التعليم المتطور، وفى بعض الحالات حدثت تأثرات إيجابية، ولكن لم يعد آخرون منهم إلى أوطانهم على الإطلاق. وفى السنوات الجارية فإن هذه المؤسسات لديها نشر **Promoter** فعال للعديد من الأساليب الفنية مثل التقييم الريفى التشاركى (مع عناصر بحوث الفعل) والذى كتبنا عنه فى الفصل الثالث عشر. وقد أعلنت معظم المؤسسات الآن عن التزامها بإستراتيجيات التنمية بالمشاركة، وعلى الرغم من ذلك فإن الكثير منا فى بحوث الفعل ينظر إلى هذه الالتزامات بنوع من الشك بسبب أن تسجيل هذه الجهود القومية مختلطة بشدة. إن المخصصات المالية هى التى تقودهم إلى خدمة الاهتمامات السياسية القومية بعض النظر عن التوجهات الأيديولوجية التى يرتبطون بها.

ولعل إحدى المميزات الراسخة فى هذه البرامج لأكثر من ٢٥ عاما هى الإصرار على أن التنمية تحتاج إلى التغيير فى التعليم وفى الاتجاهات. ومن أهم الانتقادات ثباتا واستمرارا لهذه البرامج تتمثل فى أن مثل هذه البرامج فشلت فى أن يكون لديه معارف كافية عن السكان المحليين، وكذلك فى احترام المعرفة المحلية. وعلى الرغم من وجود محاولة ما لتحسين تسجيل ذلك بنائيا، فإن مؤسسات التنمية الدولية النابعة من **Top down** تقوم بتحقيق أهداف المانحين وليس المستفيدين المحليين. وعندما تكون هذه الأهداف تتوافق مع اهتمامات السكان المحليين، فربما يكون ذلك هو مجال عمليات بحوث الفعل. وعندما لا تكون كذلك، يقوم باحثو الفعل بالتعاون مع الفاعلين المحليين بضرورة معارضتها ورفضها.

جماعات الدعم Support Groups:

على الرغم من أن ذلك ربما يبدو توسيع لفكرة تعليم الكبار، فإن جماعات الدعم تشمل العديد من العناصر من تعليم الكبار وبحوث الفعل التى نوقشت. وجماعات الدعم هى جماعات من الأفراد والأسر التى تكونت إراديا بشكل عمدى متأثرة بالمشكلات المشتركة؛ السرطان فى الأسرة، وسوء معاملة أحد الزوجين، وسوء استخدام العقاقير. وقائمة جماعات الدعم لا تنتهى.

وتختلف هذه الجماعات بشكل كبير في تنظيمها والفلسفات التى تقوم عليها، ولكنها تضع بناءها على أساس فكرة أن الناس يتجمعون أو يأتون معا للمشاركة فى مشكلاتهم وأزماتهم، وحلولهم، فى مواقف قوتهم وضعفهم، وذلك لمساعدة بعضهم البعض فى المواقف الصعبة. وغالبا ما تنمو جماعات الدعم من داخل أو أثناء مبادرات التغيير من خلال تحصيل التعليم أثناء عمليات التغيير. إن كفاح المؤسسات والمنظمات ضد إدمان الكحوليات وسوء معاملة أحد الزوجين وغيرها من المشكلات الأخرى بدأت فى الجهود التى قامت بها جماعات الدعم. ولعل أهم الحالات الموثقة التى أظهرت العلاقة بين جماعات الدعم وبحوث الفعل قد وجدت فى العمل الذى قام به كل من تشيسلر وتشيسنى **Chessler and Chesney (1995)** عن الدعم الذى تم تقديمه لوالدى الأطفال مرضى السرطان. إن التطورات المهمة فى بحوث الفعل في هذه المنطقة لم يتم تقديرها حق قدرها.

حلقات الدراسة Study Circles:

تعتبر حلقات الدراسة أكثر شيوعا فى أوروبا عنها فى الأمريكتين، حيث نشأت فى الحركة العمالية كآلية لجذب الكبار معا إلى الظروف التى

تؤثر على حياتهم. وحلقات الدراسة هى أكثر الاتجاهات التربوية شيوعا فى تعليم النقابات المهنية. وقد استخدمت معظم حركات التعليم الشعبية فى أوروبا الشمالية دوائر الدراسة كعنصر رئيسى فى أنشطتها التعليمية.

والقصد من وراء دوائر الدراسة هو تحقيق تعليم كبار واسع الفهم عند التركيز على رفع مستوى الوعي وإستراتيجيات التفكير فى القضايا التى تؤثر على مشاركتهم. وبشكل أو بآخر فإن هذه الأنواع من دراسة الجماعات جاءت وذهبت فى معظم المجتمعات الصناعية.

التنظيمات غير الحكومية

Nongovernmental Organizations (NGOs)

طورت المنظمات غير الحكومية فى معظم أنحاء العالم العديد من البرامج التعليمية الشاملة وإدارتها، وذلك لعدم وجود أنواع معينة من التغيير الاجتماعـــى ذات الاهتمام بالنسبة لهـــا. وتمثل أنواع التعليم البيئى والتعليم الزراعى والتعليم الجنسي والتعليم الصحى والتعليم الغذائى وغيرها من أنواع التعليم المشابهة جوهر أنشطة هذه المنظمات غير الحكومية. والآن أصبح عدد هذه المنظمات غير الحكومية كبيرا جدا، وقد اشتركت بأنواعها المتعددة فى وجهة نظر التنمية العالمية، والتى تتمثل فى أن مشاركة الناس وليس الحكومات أو أصحاب الأموال هى العوامل الفعالة للتغيير. وقد مالت المنظمات غير الحكومية تاريخيا إلى استثمار العنصر البشرى لذلك فإن الناس هم الذين يصنعون التغييرات ويساندون هذه التغييرات بأنفسهم. وقد جعلت هذه الرؤية التعليم الشعبى أولوية كبيرة وعنصرا ثابتا وراسخا فى أنشطة المنظمات غير الحكومية.

وفى السنوات الأخيرة تعرضت عمليات وأنشطة المنظمات غير الحكومية لانتقادات لاذعة وحادة. فى بعض الحالات أصبحت غائبة أو مختفية، وأصبحت حكومة غير منتخبه فى المجتمعات الفقيرة مع توفر موارد مالية أكبر من المؤسسات الحكومية. وبتتبع مشروعات وخطط المنظمات غير الحكومية يمكن القول إنها فاسدة تماما (Mendelson & Glenn, 2002) وبنفس المعطيات، فبسبب المرونة التى تتسم بها والحرية التى ترتبط بعملياتها، فإن بعض المنظمات غير الحكومية تستطيع تركز على أنشطة بحوث الفعل التى تشرك المستفيدين المحليين فى جهود الإصلاح الاجتماعى المهمة تحت الضبط المحلى.

الإرساليات وحملات التبشير Missions and Evangelizations:

أينما تكون الإرساليات التبشيرية فإنها تعتبر جهودا تعليمية. فالإرساليات تعتبر واقعا فى كل دول العالم، ولا يحتمل أن تختفى بسرعة. وينظر إلى المبشرين بشكل نمطى على إنهم إما كونهم مصلحين سذجا، أو دعاة دين خياليين. ومع ذلك يوجد الكثيرون الذين يكيفون تصورات مع الأجيال الحالية عن الإرساليات التبشيرية بأنها أكثر تحريفا وتعقيدا. وقد أصبحت العديد من الجماعات معلمين شعبيين، حيث تركوا أيديولوجيتهم جانبا للعمل فى المجتمعات المحلية من خلال توظيف الموارد والعمال فى المشروعات ذات القيمة والأهمية للسكان. والبعض منهم أتى بالموارد المهمة معه إلى هذه المجتمعات واستخدم هذه الموارد لحشدها، سواء نحو جهود التغيير أو لعملية التبشير. وفى بعض الحالات كان لبعض هذه الجماعات الشجاعة الكافية والاستقلال السياسى والموارد ليوجدوا فى الأماكن الخطيرة والمنعزلة. وربما عاقبت الحكومات هذه الجماعات وخافت منها، أو أنكرت وجود المشكلات. لذلك حاولت هذه الإرساليات توصيل رسالتها بطرق متنوعة.

وقد صاحب هذه العملية العديد من إستراتيجيات التعليم، والتى شملت حملات تعليم القراءة والكتابة، وتكوين الجماعات الاجتماعية مع مشروعات تغيير معينة قومية أو محلية، ودراسة الجماعات للإنجيل والعيادات الصحية ومعسكرات اللاجئين. وقد بعض من هذه المنظمات بالارتقاء بأيديولوجيات تحقيق الديمقراطية كجزء من رسالتها الكنسية.

وعلى الرغم من أننا لم نسأل عن مدى شرعية هذه التنظيمات، فإنه من المهم الكشف عن ممارساتهم عن قرب. وعلى الرغم من أن أحد عناصر هذه الإرساليات هو الاعتقاد فى الصدق المطلق، فإن هناك دائما احتمال لتحمل أعباء بعض الأطر غير المرغوبة من السكان المحليين. وعندما يحدث ذلك فإن الإرساليات تصبح معادية لبحوث الفعل. ولكن هذه ليست حالة دائمة ويجب أن يحتفظ ممارسو بحوث الفعل بعقل مفتوح نحو الإرساليات، تماما كما أنهم يحتاجون إلى أن يكونوا منتبهين ويقظين لسوء الاستعمال أو الظلم الحادث فى المنظمات غير الحكومية، والجامعات ذات الأرض الممنوحة، أو لأى مكان آخر تظهر فيه محاولات التدخلات الديمقراطية.

الخلاصة:

نأمل أن يكون المدى الواسع من تعليم بحوث الفعل الذى ألمحنا إليه فى مستهل هذا الفصل يكون واضحا الآن، حيث إنه من غير الممكن عزل هذا الموضوع تماما عن الاتجاهات الموضوعات العديدة الأخرى التى عرضناها فى الفصول الأخرى. وربما ما تركناه هنا هو العودة إلى التحديات التى أظهرها كل من فينجر وأوستن (٢٠٠١) وأشير وبريانت وجونسون (١٩٩٧). لقد رأوا من خلال الموضوعات المتنوعة المتاحة أمامهم أن معظم ممارسات تعليم بحوث الفعل قد تأثرت بقوة بنماذج التطور المعاصرة.

وقد تعاملوا مع ذلك على أنه شيء ما من الحتمية، والتي يتم من خلالها ضرورة الحفاظ على بعض من عناصر إطار الحداثة بواسطة أى شخص الذى يتفاعل بأن التعليم ورد الفعل والتغييرات المتتابعة يمكن أن تؤدى إلى حياة أكثر إشباعا فى منظمات معدلة ومجتمع أفضل. ولكنهم كما أشاروا لم يعد ذلك مؤكدا ولكن من وجهة نظر اتجاه ما قبل الحداثة يجب أن يكون ذلك فى حد ذاته مفهوما كواحد من أكثر القصص الكبرى.

ومع ذلك فإن فهم شيء ما على أنه قصة كبيرة لا يتضمن بالضرورة التخلص من الطرق والممارسات المرتبطة به أو من قيم الديمقراطية والمشاركة. إن التحدى الذى وضعه الباحثون لنا يعتبر مهما جدا. وبالنسبة لتعليم بحوث الفعل وكل أشكال ممارساتها، يجب أن نفهم جيدا التزاماتنا الأيديولوجية، وأن نضع فى اعتبارنا المعايير الأكثر إقناعا لقيم الشفافية والتماسك، والتى ترتقى بعمليات الضامن والإنتاج التعاونى، ويجب أن نتذكر التواضع الضرورى الذى يترافق مع الاستقصاء التضامنى بدلا من الانزلاق فى داخل الخبرة الفنية والتقنية فى تحسين حياة الجميع.

الهوامش

١) إننا نشعر بالسعادة أن لدينا نصيحة جيدة من زملائنا آرثر ويلسون وسكوت بيترز من قسم التعليم بجامعة كورنيل. لقد ساعدونا بإرشاداتهم لنا داخل أجزاء هذا الإقليم، وأوصوا لنا ببعض المشروعات الكبرى والتى تشاورنا حولها.

٢) لقد تناولنا بالتفصيل هؤلاء المفكرين فى الفصل الخاص بالديمقراطية الصناعية (الفصل الثانى) وفى الفصل الخامس عشر عن علوم الفعل، وقد ناقشنا فى اتجاهنا الخاص بقوة عن جون ديوى، لذلك لم نقم بمراجعة كل هذا العلم هنا.

٣) لقد تناولنا هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل العاشر، ونحيلك إلى هذه المناقشة لمزيد من المعلومات.

الفصل الثانى عشر

التقييم بالمشاركة

Participatory Evaluation

التقويم التقليدى للعمليات أو المشروعات هو النشاط النابع من معظم الاتجاهات السلطوية فى الإدارة الاجتماعية. ويعتمد التقويم التقليدى بوجه عام على افتراض رئيسى مؤداه أنه من خلال المزاوجة بين أنساق الضبط البيروقراطى مع الأساليب الفنية للعلوم الاجتماعية فإنه من الممكن الوصول إلى خريطة واضحة عن أنشطة الآخرين- المانحين، والمؤسسات، وغيرها- وتحليل أدائهم فى أنشطة محددة مقابل نوع من القياس ممكن الدفاع عنه حكوميا. وهذا النوع من التقييم التقليدى يبنى على خلفية أساسية هى أن لدى الخبير المحايد والموضوعى القدرة على اتخاذ أحكام موضوعية وجيدة تتعلق بأنشطة محددة باستقلالية عن أى إنجازات شخصية خاصة.

والمحاسبة بالنسبة للسلطة هى القضية الرئيسية هنا. إن الموازنات العامة والخاصة التى تنفق على تحديد مشكلات، سواء فى الميادين العامة أو الخاصة، والتقييمات هى التى يتم تنفيذها للتأكد من أن هذه الموارد يتم إنفاقها بشكل مناسب. إن زيادة الطلب على المحاسبية فى كل مكان جعل هذا النوع من التقييم التقليدى استجابة مسيطرة. ويعتقد كل شخص أنه يمتلك المحاسبة على الرغم من أنها غالبا ما تكون غير واضحة بالنسبة لهم.

ويحتاج جميع الممولين والسلطات المحلية والحكومات والقادة التنظيميون إلى تقييم البرامج التى يقومون بتمويلها، سواء للتوجيه أو لاتخاذ

القرارات المالية على أسس تشريعية، أو لمساعدتهم على المحافظة على الأنشطة التى يدعمونها تحت سيطرتهم وتحكمهم. وهنا تعتبر الفائدة من عملية المحاسبية واضحة تماما للمانحين. فالتقييم يحفظ لهم وضعهم القوى ويحدد بوضوح من هو المسئول.

وتعتبر المحاسبية من وجهة نظر من يحصلون على التمويل ومن يتم تقييمهم، ليست من ضمن اهتمامهم. إنهم يركزون كل اهتمامهم على جودة نتائج أعمالهم. وتدور أسئلتهم بصورة أكبر حول العديد من الموضوعات مثل: هل أدى البرنامج أو النشاط إلى تحسين موقفى؟ هل تتاح لى حياة أفضل الآن؟ هل لدى قدرة أفضل على رعاية نفسي؟ هل وضعى الوظيفى أفضل الآن؟ هل تؤدى منظمتى أو مؤسستى بشكل أفضل؟ هل نفعل أشياء صحيحة، وهل نؤدى هذه الأشياء بصورة صحيحة؟ إن المحاسبية من خلال عملية التقييم لا يحتمل بدرجة كبيرة أن تجيب عن هذه الأسئلة. وللإجابة عن مثل هذه الأسئلة فمن الضرورى إدماج المستفيدين وعملاء المنظمات والمؤسسات فى عملياتهم الخاصة لتكوين وعى حول مواقفهم الخاصة والأنشطة التى يشاركون فيها. وهذه النظرة الداخلية هى التى توجه تصرفات هؤلاء فى المنظمة.

وإذا كان تركيز عملية التقييم على الأشياء التى تهم المستفيدين الممولين، فمن ثم فإن الوسيلة الوحيدة هى البحث عن الديناميات الداخلية والعمليات والنتائج المفهومة والمحكوم عليها من داخل البرنامج أو النشاط. ويجب إشراك المستفيدين الداخليين تماما فى عملية التقييم. وكما يعلم كل شخص فإن عملية إشراك المستفيدين فى هذه العملية تعتبر نادرة للغاية. وسواء حدث ذلك أو لم يحدث فإن هذا النوع من مشاركة المستفيدين يمثل الخط الفاصل بين التقييم التشاركى وبين التقييم الوضعى التقليدى.

وهناك العديد من القضايا التى يتم تقييمها التى تتراوح بين الإنجاز فى الفصول الدراسية (المدرس – التلميذ – كلاهما) وفعالية البرامج العامة، وتأثير برامج التنمية، وغيرها. وتقريبا لا يوجد مجال سواء عام أو خاص يستطيع الاستغناء عن أى نوع من التقييم. وقد أصبح التقييم التقليدى طريقة معيارية خاصة فى العمل لصانعى السياسات إلى الحد الذى لا يعتقدون فى تنفيذ مثل هذه الأنشطة بتميز.

وبشكل واضح فإن التقييم يشغل مكانا رئيسيا فى كل دوائر عمليات اتخاذ القرار سواء كانت عامة أو خاصة. ويخدم التقييم العديد من الوظائف السياسية والقرارات التشريعية على أساس توزيع الموازنات وتوفير الشرعية لقرارات سياسية معينة. ويستخدم التقييم أيضا كمحاسبة تالية للنزاع المتعلق بمصادر صرف الأموال. وكذلك يستخدم التقييم فى تأجيل القرارات من خلال التصريح بأن الموضوع أو القضية تحت التقييم حتى يتم تقديم التقرير المناسب عنها.

وبتناول كل ذلك نجد أن التقييم قد أصبح مجالاً مهنيا رابحا، وعملا استشاريا رئيسيا، ونموا صناعيا حقيقيا. وهذا النوع من الإطار التقييمى لا يمكن أن نتصور من خلاله نشاط التقييم الذى يتضمن المشاركة الفعالة من المستفيدين. حيث يعتبر أنه ليس للمستفيدين الكفاءة فى تقييم أنشطتهم الخاصة ويفترض فيهم عدم الأمانة فى عرض أنشطتهم على المانحين لجعلهم يتطلعون إلى حياة أفضل مما هم عليه.

ومع هذا التوجه الفكرى الذى يرتكز – إلى حد بعيد – على القيمة الافتراضية للملاحظات البعيدة والحيادية، والمقيم الخبير، وعمليات تكوين الوعى من جانب واحد، وقضايا المشاركة حول دمج المستفيدين فى الأنشطة الخاصة بجمع البيانات عن أدائهم الخاص بهم وتحليل النتائج، والذى يعتبر

أمرا ممكنا. ونجد أن المقيمين ذوى الكفاءة الذين يعارضون هؤلاء الذين يجمعون الأموال من إجراء التقييمات، قد اكتشفوا تدريجيا أنه إذا كان للتقييم أى تأثير مفيد فى الأنشطة اليومية فى المنظمات الممولة، فإن عملية التقييم ونتائجها سوف تكون خاضعة للمستفيدين المحليين وذات قيمة بالنسبة لهم، وليس للمانحين. وقد أعقب هذه النظرة ظهور التقييم بالمشاركة كممارسة واسعة الانتشار.

سلطة التقييم The Authority of Evaluation:

عندما تتعرض لزيارة مقيم أو محاسب أو مقدر ضرائب أو مراجع معتمد، أو أى من الأشكال الأخرى التى تلعب دور المقيمين المهنيين، فإنك سوف تكون فى موضع الخضوع لشخص لديه دور مهنى يتمثل فى مراجعتك وتقييمك أو تقييم برنامجك أو المنظمة التى تعمل فيها بموضوعية. وتقريبا كلنا مر بتجربة مثل هذه التقييمات، لذلك فإنه من السهل استعادة الصورة الذهنية عن الشخص الخارجى الموضوعى والمحايد الذى سألنا أسئلة صعبة، عانينا منها كوسيلة عدوانية. والمسافة التى يجب أن تكون حاسمة فى التقييم التقليدى: محاولات اختيار المقيم تكون محمية ضدها (وبالطبع منخرط فيها غالبا). وعلى الرغم من أن بعض المقيمين أكثر مهارة من البعض الآخر فى إدارة العلاقات مع المتعاملين معهم (المقيَّمين) فإن التقييم التقليدى يفترض التركيز على صراع الاهتمامات الكائن بين المقيِمين والذين يقومون بتقييمهم.

وربما يلاحظ القارئ كيف يتشابه بقوة هذا الاتجاه نحو التقييم مع مفهوم العلم الاجتماعى التقليدى وارتباطه بالموضوعية البيروقراطية. إن أفكار الموضوعية والمسافة والحاجة على تجنب المجاملات والاختيارات

Co-optation تتناسب عن قرب مع القواعد المعيارية للبحث الاجتماعى التقليدى واعتمادها على آليات المعاينة المعقدة والاختبارات الإحصائية، وتفضيل تحقيق المسافة. وبالإضافة إلى ذلك فإن معظم التقييمات التقليدية تتخذ مكانا لها فى نهاية المشروع، أو فى مراحله الرئيسية بعد أن يكون قد تم تنفيذ بعض أنشطة المشروع الرئيسية. والهدف من التقييم بوجه عام هو قياس مدى إنجاز المشروع ومستوى أداء قادته، على الرغم من أن بعض التقييمات المرحلية تستهدف إنتاج معلومات مفيدة للمراحل التالية للمشروع. ومن أكثر الافتراضات الأساسية وضوحا هو أنه لا يمكن منح الثقة للمستفيدين لتقديم تقييم عالى الجودة أو الأمانة بأنفسهم، وأن استخدام نتائج التقييم للتغييرات الحالية والمستمرة فى المشروع ليست هى الهدف الرئيسى. وعندما تصبح مقيما فإن هذه الوسيلة تمنحك الخبرة حول ما تشعر به عندما يتم التعامل معك كفرد من عينة البحث من قبل الباحث الاجتماعى التقليدى.

نشأة التقييم بالمشاركة

The emergence of Participatory Evaluation

أينما يوجد التقييم التقليدى فإنه بوجه عام لا يستهدف تحقيق تأثير إيجابى على المشروع عندما يكون المشروع فى مرحلة التنفيذ فيما عدا حالات التقييم المرحلية للمشروعات متعددة السنوات. وعموما فهو يسجل النتائج من أجل نوعية معينة من المستمعين من متخذى القرارات.

فالبرامج التى تحارب الفقر، والتى تستهدف تعليم غير المتعلمين القراءة والكتابة، والبرامج التى تدعم جهود المجتمعات الريفية نحو البقاء والحياة الكريمة، كل هذه البرامج تحتاج إلى الفحص الدقيق من المقيمين.

وعموما لا تصل التقارير التى تتضمن نتائج مثل هذه التقييمات إلى المستفيدين من البرنامج، إما بسبب الاحتفاظ بسريتها أو أنها تكون مكتوبة بطريقة تتسم بصعوبة فهمها من معظم الأشخاص غير المهنيين. وأيضا فهذه التقييمات لم تصغ فى إطار من الأساليب القابلة للتطبيق؛ لذلك فإن توصياتها نادرا ما تصاغ فى شكل وسائل مفيدة بشكل فورى للمستفيدين المحليين. إنها أكثر مناسبة لاستخدام ممولى ومراقبى المنظمات.

وغالبا يكون للتقييمات بهذا الشكل تأثير سلبى على المشاركين المحليين وعلى استقلاليتهم كأفراد عقلاء وبارعين. وهؤلاء ليس لديهم إلا الرأى القليل فيما يتعلق بما الذى يتم تقييمه، وكيف يتم ذلك، وكيفية فهم واستيعاب النتائج. ويتم التعامل معهم كمخبرين بالنسبة للمقيمين، حيث يتم وضعهم فى علاقة سلبية مع المقيمين الخبراء والخارجيين. وهذا بسبب أن واحدًا من أكثر المعتقدات الرئيسية للتقييم التقليدى هو أن جوهر التقييم يتمثل فى الحكم الخاص للمقيم المهنى على النتائج (Scriven, 1995). إن حجر الزاوية فى المهن- من وجهة النظر هذه- يتمثل فى إجراء أحكام موضوعية ومحايدة على الأنشطة الخاضعة للتقييم.

وترفض البحوث بالمشاركة هذا الانفصال والاستقلال على أنها ضرورية وممكنة ومرغوبة. وقد أصبح بعض المقيمين المهنيين مهتمين الآن بفكرة أن التقييمات التقليدية ترتبط فقط باحتياجات أصحاب القوة وليس باحتياجات المستفيدين المحليين. وقد لاحظوا أيضا أن تقييماتهم ليس لها تأثيرات محلية ما عدا تأثيرها على حساباتهم البنكية. ونتيجة لذلك عدل البعض أوضاعهم الوظيفية وقاموا بتكوين التقييم بالمشاركة.

ولقد كان لهذا التحول أهميته الحيوية بسبب أنه حول التقييمات إلى عمليات تنمية تنظيمية تستطيع مساعدة المستفيدين المحليين على تحسين أداءاتهم

الاجتماعية على أساس الأبعاد التى تهمهم. وبعبارة أخرى فإن بعض التقييمات تحركت بعيدا عن أن تكون محكمة للمحاسبة **Court of Accountability** إلى الانخراط والالتزام القائم على القيم لبرامج التنمية المحلية. ولكى يحدث ذلك أصبح المقيمون متضامنين مع المستفيدين فى البرامج أو الأنشطة، وطبقا لذلك فإنهم يقومون بدور مهنى كمشاركين فاعلين بدلا من دورهم كمحكمين موضوعيين ومتباعدين عنهم.

ولعل أول صوت قوى ومرتفع فى معسكر المقيمين فى هذا الوضع كان لإرنست هاوس **Ernest House (1972, 1993)** الذى بدأ مناقشة أخلاقية عن التقييم. وطبقا لهاوس فإن المستفيدين المختلفين فى عملية التقييم ولديهم أوضاع قوة مختلفة ليس لديهم اهتمامات محددة وواضحة. وقد عرض هاوس التقييم على أنه العملية التى من خلالها يحتاج المستفيدون أو متلقو الخدمة ومتنوعو القيم والاهتمامات والقدرات إلى أن يتحرك المقيم من وضع الملاحظ المتباعد الموضوعى إلى متعاون ومشارك، وهذا ما يفتح الطريق إلى التقييمات بالمشاركة.

ولا يجب أن نبالغ فى وجود التقييم بالمشاركة. فالتقييم التقليدى والأنواع الهائلة الأخرى من التقييمات، ما زالت تواصل العمل مع المشاركين بعلاقة بدائية غير متطورة. على سبيل المثال نجد فى كتاب ميشيل سكريفين **Michael Scriven (1991)** عن موسوعة التقييم **Evaluation thesaurus** أنه لم يذكر حتى كلمة مشاركة.

نماذج التقييم بالمشاركة

Models of Participatory Evaluation (PE)

يوجد على الأقل داخل أدبيات التقييم بالمشاركة ثلاثة اتجاهات مختلفة. وهذه الاتجاهات نحو المشاركة بنيت على أساس افتراضات معرفية

متنوعة وتحديد مفهوم المشاركة بوسائل مختلفة. وأيضا تتسم تطبيقات اتجاهات التقييمات بالمشاركة بالتباين. ويعرض أحد خطوط التفكير التى قام بها جوبا ولينكولن (Guba & Lincoln (1981, 1989 "الاتجاهات البنائية". والخط الثانى وهو لباتون (Patton (1986, 1997 وهو عن "التقييم القائم على أساس النفعية" أما الخط الثالث والأخير "التقييم التمكينى"

(Fetterman, Kaftarian & Wandersman, 1995)

التقييم البنائى Constructivist Evaluation:

أصبح كل من إيجون جوبا Egon Guba ويفونا لينكولن Yvonna Lincoln مهتمين بالتقييم البنائى بعد أن أصبحوا غير راضين بشكل جوهرى عن فوائد التقييم التقليدى. وتعتبر هذه نتيجة منطقية لمتطلبات مذهبهم الواقعى "Naturalistic Enquiry" Perspective: لقد شعروا بأنه لإجراء تقييم فعال فلابد أن يبنى كل تقييم على أساس النموذج الواقعى Naturalistic Paradigm:

> **"يعتمد النموذج الواقعى على الدراسة الميدانية كأسلوب جوهرى ينظر إلى الحقيقة على أساس أنه لا يمكن تجنبها. فالحقيقة لا مفر منها نهائيا، ولا يمكن حجبها تماما، وبالتجربة فإن المجال المحسوس والمدرك ينتج استنتاجات حتمية عما هو مهم، وديناميى، وما هو متغلغل فى هذا المجال. والأنثروبولوجيا الوصفية Ethnography لها نفس البعد".**

وقد كان التقييم البنائى هو الموضوع الرئيسى فى كتاب جوبا ولينكولن (Guba & Lincoln (1989 وعنوانه "الجيل الرابع للتقييم Fourth Generation Evaluation". وقد قدموا فى هذا الكتاب الاتجاه البنائى للتقييم وإعادة بناء الحقائق. ويمثل هذا الكتاب المتابعة المنطقية لكتابهم التقييم الفعال

Effective Evaluation (1981)، وقد تمثلت فكرتهم الرئيسية فى كيفية جعل التقييم ذا أهمية وتحقيق واقعى Naturalistic Evaluation، والذى يركز على التطور الشامل فى مرحلة ما بعد منهجية الفلسفة الوضعية للعلوم الاجتماعية. وقد ركز كتاب الجيل الرابع للتقييم على صياغة وضع علمى للعلوم الاجتماعية البنائية والاتجاه نحو وضع منهج تفصيلى للباحثين الذين يتجهون نحو مجال لا يخضع للفلسفة الوضعية.

وتتمثل الفكرة الرئيسية لأعمال كل من لينكولن وجوبا فى التركيز على حث الباحثين الاجتماعيين على الارتباط بالناس مباشرة لتوفير الوعى بعملية التقييم ونتائجها. وبهذه الوسيلة يجعلون الممارسين هم العناصر المركزية فى المناقشة حول التطبيق المعاصر للتقييم. وكما قال كل من جوبا ولينكولن:

> "تتمثل المهمة الرئيسية للفاحص أو الباحث البنائى فى تحليل (حصر) البناءات التى يتمسك بها مختلف الفاعلين فى مكان ما إلى حد تجميعهم معا فى اتحاد أو ارتباط بعضهم ببعض مع أى معلومات يمكن جمعها ولها علاقة بالقضايا ذات الاهتمام" (1989, p. 142).

وبالضرورة فإن التقييم البنائى يستدعى وضع أصحاب المشكلة فى المقدمة، نظرا لأن آراءهم تعتبر مفتاح فهم العمليات والبناءات التى يتم تقييمها. وهذا يعنى أن التقييم يعتمد على فهم المشاركين لمواقفهم الخاصة وكيفية حكمهم على النتائج التى تم تحقيقها. ويستطيع المقيمون دعم هذه العملية التفسيرية (Hermeneutic Process) والانخراط فيها نظرا لأنها سوف تؤدى فى النهاية إلى فهم عميق وضرورى. ولا يمكن أن يستكمل التقويم إذا لم يتم وضع الأساس التفسيرى بواسطة المشاركين.

النفعية والمشاركة Utilization and Participation:

لقد وجدت أكثر الاستجابات التى تتحدى كفاءة **Efficiency** وفعاليـــة **Effectiveness** التقييم فى عمل ميـــشيل كـــوين بـــاتون **Michael Quinn Patton (1986)**. فبالنسبة لباتون فسؤاله الرئيسى كان عـــن كيفيـــة تـــشكيل وتكوين التقييمات لذلك كانت الإجابة تتعلق بالمستفيدين المـــشاركين. ومـــن وجهة نظر باتون فإن التقييم عبارة عن نشاط يتم تصميمه لإحداث تأثير فى البرنامج أو النشاط الذى يتم تقييمه.

وللتعامل مع معضلة أن يصبح التقييم مهملا بواسطة المستفيدين، فقد طور المقيمون مثل باتون اتجاهات للمشاركة من خلالهـــا يخلـــق القـــائمون بالتقييم، والذين يتم تقييمهم، علاقة قوية وإتاحة الفرصة لعملية تعلم متبادلة. وكان باتون واحدا من أوائل من قدموا هذا الطريقة المتميزة والمختلفة للتقييم. وفى كتابه التقييم القائم علـــى النفعيـــة **Utilization- focused Evaluation (1986)** ركز باتون استخدام نتائج التقييم فى تحسين المشروعات الضرورية لنشاط التقييم:

> **"إن ما يميز التقييم المرتكز على النفعية عن الاتجاهات الأخرى هـــو أن المقيم لا يتحمل بمفرده عبء تكوين الاختيارات عـــن طبيعـــة وغـــرض ومحتوى وطرق التقييم. وهذه القرارات تتخذ بمشاركة الجماعات المنظمة والمحددة من المستفيدين المعنيين"(P.53).**

وقد استهدف باتون بشكل أساسى حصر المستفيدين كمـــا حـــددهم. وهؤلاء هم "الناس الذين لديهم مصلحة- اهتمامات واسعة- فى نتائج التقييم" **(1986, p. 43)**. ولأجل أى تقييم يوجد مستفيدون متعددون- مانحو البرامج، والإداريون، والعاملون، والعملاء، وغيرهم- لديهم اهتمام مباشـــر أو حتـــى

غير مباشر بفعالية البرنامج. وعلى الرغم من أن اهتمام باتون* (١٩٨٦، ١٩٩٧) ينصب على الانتفاع بالمانحين والعاملين والإداريين، فإن عملاء المشروع الذى يتم تقييمه أيضا قد وضعهم فى تفكيره وفى عملية التقييم.

وتؤدى النظرة الخاصة بأن إدخال العناصر المحلية يعتبر ضروريا للوصول إلى نتائج تقييمات مفيدة، وإلى الاهتمام بالوسائل التى يصبح بها العملاء المشاركون فى البرنامج أنفسهم مقيمين يتعاملون مع نتائج التقييم. ومثل هؤلاء العملاء يكونون فى وضع مختلف عن جميع المستفيدين الآخرين، كالأشخاص الفاعلين الذين من الممكن أن يستفيدوا أكثر من التقييم. واهتماماتهم فى مواقف كثيرة ليست مثل اهتمامات العاملين فى البرنامج. وهم بمعنى أكيد العاملون الأساسيون فى أى مشروع، ويرجع السبب ببساطة إلى أن تركيز النشاط يكون على عمل أشياء متعلقة بمواقف حياتهم. ولا توجد جماعة أخرى فى مثل هذا الموقف، لذلك فإنها تخلق تحركا قويا لتركيز الاهتمام على الوسائل التى يمكن أن يستخدم بها المستفيدون الرئيسيون التقييم.

ويهدف التقييم بالمشاركة إلى خلق عملية تعليم العملاء للبرنامج ودعم جهودهم نحو تحقيق أهدافهم المرغوبة. وتشوه اتجاهات التقييم بالمشاركة عمديا التمييز بين فعالية البرنامج وبين نتائج التقييم، وذلك بسبب أن التقييم يهدف إلى عمل اختلاف من خلال مساعدة عملاء البرنامج على تحقيق أهدافهم بشكل أفضل. وغالبا ما يستطيع أى اتجاه ينتهى بالذهاب بعيدا ويخلق موقفا يكون من الممكن خلاله ليس فقط تقييم ما إذا كان البرنامج قد فعل ما يفترض فعله بطريقة جيدة، ولكن أيضا ما إذا كان الذى فعله يعتبر شيئا صحيحا فعله، وأن أى فعل قام به قد أشبع احتياجات المشاركين فيه بشكل أفضل.

وتتضمن الممارسة المعيارية للتقييم بالمشاركة كلاً من مقدمي البرنامج وعملاءه، أو فعالية العملية في تفسير نتائج التقييم. ولعل أكثر وسيلة تقليدية للقيام بذلك هي مناقشة المعلومات معهم كوسيلة لفهم النتائج وإعطائها معنى. ولعل الشكل الأكثر تقدما هو إشراك المشاركين بقوة في عملية تصميم عملية التقييم من بداية المشروع وحتى نهايته. (مثلا: تحديد المتغيرات وكيفية تعريفها) وذلك لمشاركتهم في عملية جمع البيانات، وإشراكهم في فهم نتائج التقييم.

إن كيفية بناء عملية المشاركة يمكن أن تختلف بشكل واسع بين ممارسي التقييم. فكل مقيم يدمج المشاركين بوسائل تبدو مريحة لكلا الطرفين. وقد عقد البعض المقابلات، واستخدم البعض الآخر عمليات ديناميات الجماعة- وقد استخدم أيضا مؤتمر البحث- وغيرها من أساليب المشاركة.

ومع ذلك فإن مثل هذه العمليات لا توجد بدون مشكلات. وتكمن الصعوبة الرئيسية في استخدام اتجاهات التقييم بالمشاركة لغرض وحيد وهو تحقيق وتحسين المنفعة في أنها تخلق موقفا انتهازيا للمقيم ويؤدي بسهولة إلى العملية الانتقائية التي من خلالها يدرب المقيم عملاء المشروع بفعالية على ما يرغبون فيه من البرنامج. وهذا ما ينتج عنه إهمال بالقضايا التي تهم عددا كبيرا من المستفيدين أو الاستخفاف بها وبالعمل الجاد للمستفيدين لوضع أهدافهم.

تقييم التمكين Empowerment Evaluation:

دائما ما توجد في أي عملية مشاركة توتر بين المشاركة كأدوات نافعة في تحقيق شيء ما وبين المشاركة كهدف في حد ذاته. وعادة ما تلعب المواقع السياسية الكبرى التي تتضمن القوة والاهتمامات دورا ثانويا في معظم الممارسات التقييمية، ونادرا ما يكون تحقيق الديمقراطية من عناصر

الإطار التصورى للمشروعات المرتبطة بالتقييم. ومع ذلك يتم التركيز على هذه المواقع السياسية فى التقويم التمكينى. على سبيل المثـال فـإن التقيـيم بالمشاركة لبيونر وكوزمان **Beunner and guzman**؛ تتمثل فيه أداة تقـدير المشروعات وأصحاب القوة (١٩٨٩) فى أنها جهود لرؤية التقييم علـى أنـه عنصر منهجى لمشروع التنمية التعليمية، والذى يستهدف تمكين الجماعـات المسيطرة فى المجتمع، لذلك يصبحون قادرين على الربط بين الكفـاح مـن أجل تحقيق العدالة ومجتمع المساواة (ص ١٠). ويعتبر كل من ويس وجرين **Weiss and Greene (1992)** وبـاتى لازر **Patti Lather (1991)** وميـشيل فين **Michelle Fine (1996)** من أنصار اتجاه التقييم التمكينى.

وقد لخص ميشيل فين **Michelle Fine (1996)** هذا العمل فـى شـكل خمسة التزامات للتقييم بالمشاركة: وهـى بنـاء القـدرات المحليـة، والتقيـيم والإصلاح، وأخلاقيات البحث والاستقصاء، والمشاركة الديمقراطيـة، وإعـادة التفكير فى نتائج البحث التقييمى. وقد عرف فيترمان وآخرون **Fetterman et al. (1995)** البحث التمكينى بأنه "استخدام مفاهيم وأسـاليب التقيـيم ونتائجـه فـى التحسين السريع والعاجل وتقرير المصير. وذهبوا إلى القـول بـأن "عمليـات التمكين تعتبر من محاولات الوصول إلى الضبط والحـصول علـى المـوارد المطلوبة، وأن فهم البيئة الاجتماعية يعتبر أمرا بالغ الأهمية" (١٩٩٥، ص ٤).

وتعتبر هذه نقطة جذرية وحاسمة فـى الانطـلاق. ويقـوم التقيـيم التمكينى على أساس إعادة بناء دور المقيم الذى يختلف بشكل مثير عن الدور التقليدى الموضوعى والمستقل وأكثر تعاملا مع الجوانـب الـسياسية عـن التقييمات القائمة على الأساس النفعى والوضعى. ولعل أخذ العناصر اللافتة للنظر للتقييم التمكينى تتمثل فى فهم المقيم أن لديه القدرة على التدخل وعلى الفعالية. والانخراط السياسى الفعال يعتبر أمرا متوقعا.

ويقوم التقييم التمكينى على أساس تعليم المـــشاركين إدارة تقيـــيمهم الخاص. ويتضمن ذلك جهود مساعدة المشاركين على فهم ماذا يعنى التقيـــيم وكيف يمكن إدارته. ومن خلال التقييم التمكينى يتوقع أن ينخرط المستفيدون فى أنشطته بصورة فعالة. وهنا فإن التقييم الذاتى يتم تصوره علـــى أن لـــه معنيين مزدوجين: القيام بتقييم نفسك، وتقييم موقفك الخاص. ومن ثم يصبح المقيم المهنى الميسر الذى يعمل لزيادة قدرة المشاركين على القيـــام بعمليـــة التقييم وأيضا النظر إليها على أنها عمليات تعلم ضرورية يتم بناؤها لتدعيم أنفسهم. وفيما يتعلق بذلك فإن التقييم التمكينى يتطلع بصورة مشابهة تمامـــا إلى الإنتاج التعاونى لعمليات تنمية تنظيمية مناسبة.

ويعتبر المقيم المهنى أيضا مدافعا، ولكن ينصب معظم تركيزه علـــى تقوية المشاركين لإدارة تقييمهم الخاص. وباستخدامه سلاحًا يـــصبح المقـــيم متحدثا شعبيا ومصححا للآراء التى يتم الوصول إليها من خلال عملية التقييم.

وتعطى ممارسات التقييم التمكينى اهتماما خاصا للخبرات المـــضيئة **Illuminating** (فتح العين، والإيحاء، والتنوير الثقافى) والتى يمكن أن توجد نقطة انطلاق لتنمية الليبرالية. وعلى الرغم من ذلك فإن القضايا الواسعة من الليبرالية يتم التعامل معها بهدوء، كما على سبيل المثال هنا: يستطيع التقييم بالمشاركة تحرير قوى التحرر من أجل تحقيق التوجيه الذاتى (حرية الإرادة) (**Fetterman et al. 1995, p. 16**). وينظر إلى الليبرالية على أنهـــا التـــأثير الثانوى الذى يتخذ مكانا داخل التقييم التمكينى. فالليبرالية ليست هدفا فى حد ذاتها، ولكنها تعتبر نتيجة ممكنة يمكن أن تكون أفضل لو أنها حدثت. إنهـــا ليست من معايير تصميم التقييم.

ويعتبر ذلك نوعا من التناقض المثير. فإذا كان التقييم التمكينى غير معنى بالضرورة بالهدف النهائى من الليبرالية، فما هدفه إذن؟ فبدون توضيح

هذا الهدف الأوسع والأكبر فإن التقييم التمكينى يمكن أن يختار بشكل غير صحيح إستراتيجية للمشاركين فى عملية ليس لها تأثير أو لها تأثير قليل على قدرات الناس على المدى البعيد فى التأثير على مواقف حياتهم. لقد أوشك التقييم التمكينى على السقوط فى نفس الشرك الذى وقعت فيه حركة التمكين فى الحياة التجارية، والتى من خلالها كان التمكين هو عبارة عن أشياء تتم من أجل المستفيدين بدلا من اتخاذ الإجراءات والأفعال بأنفسهم.

بحوث الفعل فى ممارسة التقييم

Action Research in Evaluation Practice

تشترك إستراتيجيات التقييم بالمشاركة بوجه عام فى العديد من الخصائص مع اتجاهات بحوث الفعل من حيث التعقيد والتنوع والتخصصية. وعلى الرغم من ذلك يعتبر التقييم بالمشاركة شكل من الممارسة بحكم حقها الخاص، تقوم بشكل مباشر على أساس أنشطة بحوث الفعل، وقد أشار العديد من المؤلفين إلى أنشطة بحوث الفعل على أنها جزء من أنشطتهم العقلية والفكرية. وقد كان لاتجاهات بحوث الفعل إسهامات مهمة فى هذا المجال حيث فتحت الباب أمام فكرة تقييم اتجاهات المشاركة والتعاون. وقد أنتج باتون (١٩٩٧) العديد من المراجع التى تناولت بحوث الفعل، ولكنه لم يضعها فى إطاره الفكرى.

وقد يبدو لنا أن التقييم المصمم على أساس بحوث الفعل، يملك الآن فقط تأثيرا مهما. على سبيل المثال فين وليفين ونيلسين **Finne, Levin and Nelssen (1995)** أطلقوا على أحد التطورات المعاصرة لتقييم بحوث الفعل اسم "البحث المتثاقل **Trailing Research**". وهنا نجد أن اتجاهات التقييم

بالمشاركة قد تم تكوينها مباشرة من عمليات بحوث الفعل. وتكمن الفكرة الرئيسية لهذه العمليات فى تحقيق ارتباط مستمر مع المستفيدين طوال فترة البرنامج. ويتعاون المقيمون مع المستفيدين فى تحديد قضايا وموضوعات عملية التقييم. ثم يقوم فريق البحث عادة بجمع البيانات وإجراء بعض التحليلات الأولية، حيث يشترك المستفيدون فى عمليات صنع الإحساس **Sense making**. وقد ظهرت خارج عملية التعلم المتبادل هذه أفعال تم إعادة تصميمها للتطبيق فى البرنامج المستمر للوصول إلى الأهداف أو لإعادة توجيه البرنامج نحو أهداف جديدة. وقد ظهر هذا التقرير أخيرا نتيجة تقرير من التقييم التكوينى **Formative Evaluation** عندما يتم تطبيق ممارسات بحوث الفعل **(Rolfsen & Torvatn, 2005)**.

وقد استخدمت بحوث الفعل أيضا كاتجاه للتقييم فى المؤسسات التعليمية، وقد قدم كينج **(1998) King** مثالاً لهذا النوع من العمل. ومع ذلك فإنه استطاع ملاحظة كيف أن هذه الاتجاهات القليلة قد بنيت على أساس خلفية جيدة لفهم بحوث الفعل.

الخلاصة:

وعلى الرغم من أننا رأينا بوضوح التشابه بين التقييم بالمشاركة وبحوث الفعل بوجه عام، فإن العديد من الاختلافات المهمة فى تأكيدات كل منهما. فالتقييم بالمشاركة يركز على أبعاد المشاركة كحجر الزاوية فى أى تحرك للعملية، ولكن التحرك من المشاركة إلى الارتباط الفعال فى عملية حل المشكلة يعتبر غامضا بالنسبة للتقييم بالمشاركة.

وعلى الجانب الآخر فإن لدى المقيمين مهارات لجمع البيانات على مستوى عال ومعايير وإستراتيجيات للتحليل. بينما نجد فى المقابلات أن

بحوث الفعل لا تهتم بجمع البيانـــات وإســـتراتيجيات التحليــل. إن عمليــة الاستمرار فى تطوير نوع من التقارب أو العلاقة الطيبــة بــين المقيمــين بالمشاركة وباحثى الفعل يمكن أن تكون ذات قيمة لكلا الجماعتين.

وأخيرا فإنه من الواضح أن هناك علاقة تكاملية كبيرة بين بحــوث الفعل وأنشطة التقييم أكثر من مجرد التعامل مع التقييم بالمشاركة على أنــه موضوع مستقل. ومن المنطقى جدا أن تتضمن مشروعات بحــوث الفعــل عملية تحديد المشكلات واختيار الطرق والوسائل وجمع البيانات وتحليلهــا، وتصميم الفعال والإجراءات، وتقييم فعالية هذه الأفعال والإجراءات بواسطة المشاركين المتعاونين. وبدون عملية التقييم فإن عمليات بحوث الفعل تعتبــر غير مكتملة. وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك شعورا حقيقيا بأن عملية التقيــيم تعتبر بعدا أساسيا من أبعاد مشروعات بحوث الفعل من أول يــوم وحتــى النهاية كوسيلة للكشف عن واختبار العملية وتحديد ما إذا كان قد تم إنجــاز أشياء صحيحة من عدمه وطريقة صحيحة، وأيضا ما إذا كانت التغييــرات التى حدثت فى المشروعات استطاعت أن تحسن مــن النتــائج أم لا. إن أى شخص يرغب فى ممارسة بحوث الفعل يجب أن يكون أيضا بارعــا فــى التقييم بالمشاركة.

الفصل الثالث عشر

التقدير الريفى بالمشاركة، والتقدير الريفى السريع والتعلم والتحليل بالمشاركة

Participatory Rural Appraisal, Rapid Rural Appraisal, and Participatory Learning and Analysis

بينما تنوعت أشكال التقييم بالمشاركة وأصبحت مطبقة فى تنوعات واسعة من المواقف، فليس هناك مجال للشك فى أن التقييم بالمشاركة هو أكثر أنواع التقييم شيوعا وانتشارا. وكما لاحظنا فى الفصل السابق فإنها تعتمد على الافتراضات القوية التى تتعلق بأمانة وصدق وقدرات المستفيدين غير المهنيين. وعلى الرغم من الميول الإدارية والسلطوية القوية فى العديد من المجالات، فإن التقييم بالمشاركة قد أحدث تقدما مناسبا فى بعض المناطق والمجالات الصعبة التى فشلت فيها الاتجاهات التقليدية. وأحد هذه المجالات هو تنمية الممارسات البيئية الداعمة للمستفيدين المتعددين **Development of Multi-Stakeholders Sustainable Environmental Practices (Hemmati, Dodds & Enayati, 2002)**. والنوع الآخر هو دراسات خط الأساس **Baseline** والتقييم فى برامج التنمية المحلية، وهو أحد المجالات القليلة، حيث تتسم مكانة بحوث الفعل بالتهميش، أو على الأقل تبدو هكذا.

والممارسات التى نشير إليها معروفة تحت تنوعات واسعة من الأسماء، والاسم الأكثر شيوعا وشعبية هو التقدير الريفى بالمشاركة (PRA) ولكن هناك العديد من الأسماء الأخرى، والتى نشير إليها لاحقا. ويركز التقدير الريفى بالمشاركة على دراسات خط الأساس بالمشاركة والتصميم والتقييم بالمشاركة لبرامج التنمية الدولية (على نطاق واسع ولا يستثنى منها الريفى). ويتسم التقدير الريفى بالمشاركة بأنه ممول بشكل جيد ويعتبر رئيسيا بالنسبة لعمليات بعض مؤسسات التنمية الدولية الكبرى مثل البنك الدولى، والمؤسسة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID)، ومنظمة التغذية والزراعة (FAO). وعلى الرغم من أهمية التقدير الريفى بالمشاركة لهذه المنظمات فى أماكنها الرئيسية، فإنه أصبح رئيسيا فى مجموعة من المؤسسات القوية وذات التمويل الكبير والذى جلب معها عددا هائلا من المشكلات، وخاصة المحيطة باختيار ممارسات بحوث الفعل للنهايات (للأهداف- للأطراف) غير المشاركة.

ويبرر نشر العدد الهائل من هذه الممارسات وكميات الموارد المالية والبشرية المخصصة لها بواسطة المؤسسات الدولية المتعددة الجنسيات أو العديد من المنظمات غير الحكومية الكبرى (NGOs) والتى نتناولها هنا بالتفصيل.

التقدير الريفى بالمشاركة فى التنمية الدولية:

ارتباط هذا التقدير بأشكال ونماذج التقييم بالمشاركة المتنوعة، والتى تشغل وضعا تنظيميا متميزا، والتى تمثل مجموعة من الاتجاهات التى تذهب الآن بشكل عام تحت اسم "التقدير الريفى بالمشاركة"[١] (PRA)، والذى يمثل عنصرًا أساسيًا فى جميع برامج التنمية الاقتصادية الاجتماعية، وخاصة فى

المجتمعات الفقيرة. وتهدف هذه الإستراتيجيات إلى تنمية وزيادة البيانات الأساسية الموثوق بها عن المشكلات من خلال إشراك السكان المحليين في تحديد وتوثيق هذه المشكلات. وبتناول العديد من المشروعات التنمية العالمية والتقدير الريفي بالمشاركة في الوقت الحاضر، فإنه من غير الممكن تقديم مدخل منفصل لهذا العرض. ونحن نأمل أن نقدم للقارئ ببساطة بداية جيدة وكافية.

إن تحديد الاسم أو المصطلح الخاص بالتقدير الريفي بالمشاركة (PRA) في حد ذاته يعتبر أمرا صعبا للغاية. فعلى سبيل المثال حدد كل من جوليس بريتي وسيمبليس فودة **Jules Pretty and Simplice Vodouhe (n.d.)** العديد من المختصرات، والتي كلها ترتبط بالتقدير الريفي بالمشاركة **AEA, BA, DELTA, DPR, FPR, GRAAP, MARP, PALM, ;(PRA) PAR, PRM, PRAP, PTD, PUA, PFR, PD, RA, RAAKS, RAP, RAT, RCA, REA, RFSA, RMA, ROA, RRA, SB, SSM, TfD, TfT, VIPP**. ويمكن أن يكون هناك قليل من الشك عندما نرى هذه الضبابية الأبجدية **Alphabet**، ونحن في وجود المؤسسات الدولية والبيروقراطية والأعمال الاستشارية الدولية الفعالة والتي من خلالها تعتبر تسميتك للعملية إستراتيجية تسويقية. والذي يزيد من ذلك سوءا أنه لا يوجد أسماء مختلفة تماما لنفس الممارسات، ولكن هناك بعض الممارسات المتنوعة التي ترتبط ببعض الافتراضات الشائعة أو العامة. ويتمثل هدفنا هنا فقط في تحديد بعض الافتراضات متذكرين أن هناك العديد من المنظمات التي يتم من خلالها استخدام العديد من الإستراتيجيات المتنوعة للتقدير بالمشاركة، وأن هذا التنوع في الممارسة والمفهوم يحدث في كل مكان.

ولعل من أهم المؤسسات المتفوقة في الارتقاء باستخدام هذه الاتجاهات هو معهد الدراسات التنموية في سوسكس **Sussex** ولعل أكثر الأشخاص شهرة

وأكثرهم إنتاجا فى كتاباته فى هذا المجال هو روبـــرت شـــامبرس **Robert Chambers**. ولقد اقتربنا بقوة من شامبرس هنا، ولكننا نذكرك بأن الاتجاهات المرتبطة قـــد تم تطويرها فى العديد من المواقع أو الأماكن- المركز الدولى للبطاطس فـــى بيرو، وفى بعض أقسام معهد كورنيل للزراعة والغـــذاء والتنميـــة الدوليـــة بجامعة كورنيل- وفى عدد من الأماكن على مستوى العالم. وعلى الرغم من ذلك فإن شامبرس يعتبر العنصر الفعال الرئيسى والمصمم الأساسى لكل مـــا أصبح متعلما، بسبب قيامه بتوثيق أعمال الآخرين بطريقة فريـــدة ومتميـــزة، وباجتهاده الرائع والملحوظ فى ممارسة النقد الذاتى **Self-criticism**. ونقـــدم بيانا استرشاديا بالكتب المرتبطة فى آخر الفصل.

وبتعاطينا للأوضاع القيمية والسياسية التى فصلناها فى هذا الكتاب، فلا توجد مفاجأة من كوننا غير مؤيدين بوضوح لبرامج المساعدة التنمويـــة كالتى تم بناؤها حاليا والتى نشك فى الدرجة التى تكون عليها بناء المشاركة السياسية فى هذه البرامج. ويوجد العديد من القيود الحـــادة فـــى الجوانـــب السياسية والاقتصادية للتنمية التى تمنع أى شىء مثل المشاركة ذاتية النزعة **Self-determination**، التى تبحث عنها بحوث الفعل للتحرك حتى فى حدود ضيقة. ولكن العيوب والنقائص فى اتجاهات وبيئات معينة لا يمكن أن تغمى أعيننا عن حقيقة أن الكثير من الاتجاهات الليبرالية للتنمية قد فشلت بـــشكل عام وفى معظم الأنشطة التنموية التى أجريت فى أنواع المؤســـسات التـــى ارتبط بها الآن التقدير الريفى بالمشاركة. لذلك فإننا نعتقد بأن التقدير الريفى بالمشاركة قد استحق النظرة الجادة من أى شخص يهتم ببحوث الفعل. وحتى يتم تطوير وتكوين الاتجاهات البديلة لتقليل الفقر على مستوى العـــالم، فـــإن التقدير الريفى بالمشاركة يجسد إحدى الممارسات التنموية، والتى تعتبر أكثر شيوعا وانتشارا فى بحوث الفعل.

وتتمثل الصعوبات الرئيسية التى تواجه التقدير الريفى بالمشاركة فى الإطار الكلى لأنشطة التنمية الدولية التى تضع القيود المحكمة والشديدة حول ما يمكن عمله وكيفية هذا العمل. وقد خلقت التنمية العالمية التى تمثل فى الغالب جزءًا أو ذراعًا من السياسة الأجنبية والاهتمامات الاقتصادية للدول الصناعية، خلقت بيروقراطية دولية هائلة (موظفين إداريين دوليين) ومجتمعات مهنية متعددة ومعاهد ومؤسسات دولية ومجالات أكاديمية وسلاسل من المجلات والكتب وجيشا ضخما من الممارسين ليس بالقليل، يعيش حياة تتسم بالرفاهية والغنى نتيجة كونهم خبراء فى الفقر العالمى. وأضف إلى ذلك الزيادة الضخمة فى المنظمات غير الحكومية، والتى أظهرت أن المجتمعات الفقيرة فى العالم قد تم اجتياحها واحتلالها من الخبراء الخارجيين.

إن مليارات الدولارات التى جنتها أنشطة التنمية فى بدايات عقد الخمسينيات من القرن العشرين **1950s** قد ازدهرت، ومن ثم جاءت تحت زيادة التدقيق الحكومى العدائى من جوانب عديدة. وقد شعرت جماعات الرقابة الحكومية فى بعض الولايات المانحة بأن إرسال المال إلى الخارج يعتبر إهدارا للموارد التى تطور اقتصاديات الدول الأخرى التى تخلق منافسات ضارة بالصناعات القومية، وأنه من الأفضل منح الأموال فقط عندما تحقق منافع للدول المانحة لهذه الأموال. وعلى الرغم من عدم انتشار وجهات النظر هذه فإنها جعلت النظم السلطوية الهرمية تتشدد فى تصميم وتقييم البرامج التنموية، وقد أبقت هذه النظم على تصميمها وعزمها وسلطويتها منذ ذلك الحين.

وفى الخمسة عشر عاما الماضية أو يزيد دخلت المنظمات غير الحكومية فى مسرح التنمية كلاعب رئيسى **(Gardener & Lewis, 1996; Lewis, 2001)**.

ودون أى قيود سياسية أو مرتبطة بالقومية فقد استخدمت هذه المنظمات العديد من الاتجاهات المتنوعة إلى حد بعيد. وقد كان لهذه المنظمات الحرية لكى تكون أكثر انفتاحا من الناحية الأيديولوجية عن أهدافها نظرا لأنها نشأت بشكل مقصود لتضميد وعلاج العديد من الممارسات الاقتصادية والأخلاقية. ونتيجة لذلك فإن مشهد التنمية الدولية الحالية أصبح خليطا معقدا من مشروعات التنمية الدولية الكبيرة للدولة- الولاية، وأنشطة المنظمات غير الحكومية. حيث يستخدم التقدير الريفى بالمشاركة فى كلا النوعين.

تاريخ التنمية History of Development Work:

ولكى نفهم لماذا يعتبر التقدير الريفى بالمشاركة (PRA) منطلقًا مهمًا من الممارسة السابقة، فمن الضرورى أن يكون لدينا معنى مختصر عن تاريخ التنمية الدولية. وقد وجد اتجاهان رئيسيان منذ الخمسينيات من القرن الماضى- الليبرالية والماركسية- والعديد من الاتجاهات الأخرى ذات التركيز الموضوعى على الأحداث الجارية، والتى انتقلت عبر نفس الطريق أيضا، والتى تضمنت ضبط السكان **Population control** وإستراتيجيات البنية الرأسمالية، ومساواة المرأة، والاتجاهات البيئية، والمشاركة، والدين الخارجى، والتوافق البنائى وحقوق الإنسان الدولية.

هذا وقد بنى الاتجاه السائد للتنمية على نظرية الممارسة الفردية للسوق. وقد قامت نظرتهم على أساس تشخيص مشكلات التنمية التى تتعامل مع الفقر كنتائج سيئة وغير ملائمة لأعمال وأنشطة اقتصاد العالم، والذى يمكن تصحيحها من خلال إعادة بناء الاستهداف الجيد **well-targeted** للحوافز. وقد دعم عدد كبير من النظريات والطرق على مدى واسع هذه النظرة العامة التفاؤلية للتنمية.

وتعتبر نظرية الحداثة واحدة من هذه النماذج والصيغ، التى ترجـــع مشكلة الفقر إلى الاستمرار غير المناسب لسلسلة من الممارســـات التقليديـــة وغير المنطقية، والتى تمنع الناس من القيام بالأعمال التى تدخل فى نطـــاق اهتماماتهم. وقد رأت بعض النظريات هذه اللاعقلانيـــة علـــى أنهـــا مـــن خصائص الناس غير المتعلمين عموما. بينما رأتها بعض النظريات الأخرى على أنها استغلال أنانى للكثيرين بواسطة القليل من القادة التقليـــديين الـــذين يجب أن تضعف أوضاعهم تدريجيا.

وقد ركز نوع آخر على تنوع كبير من النظريات التى رأت أن البنية الرأسمالية هى مفتاح نجاح التنمية الاقتصادية. ولكن اختلفت فقط إستراتيجية التنمية الاقتصادية من نظرية إلى أخرى. وغالبا ما تفيد فى ضـــبط النمـــو السكانى، لذلك يصبح دخل الفرد مرتفعا، أو أنه يفيد فى تعليم كيفية استخدام الموارد والحفاظ عليها بشكل أفضل لذلك تتحسن البنية التحتية الأساسية، أو يفيد فى التركيز على التعليم وإستراتيجيات الاتصال لتحويـــل النـــاس مـــن أشخاص تقليديين إلى مفكرين محدثين.

وقد اشتهرت الاتجاهات التكنولوجيا للتنميـــة دائمـــا داخـــل الـــدول الصناعية الغربية. إن بناء السدود والطرق والمدارس وإرســـال الجـــرارات والسماد كانت من أهم أشكال الأولويات التى تساعد فى التنمية وكانت مفيدة تماما للموظفين المانحين. والأكثر حداثة كانت التكنولوجيات البيولوجية مثل الثورة الخضراء والأنواع الجديدة من حبوب اللقاح ونظـــم حـــرث الأرض الحديثة، وأصبح التكامل الإدارى أمرا شائعا ومشهورا. وعموما فـــإن هـــذه التكنولوجيا قد تم تطويرها وغالبا تصنيعها فى الغرب، ومن ثم تـــم نـــشرها (أو أحيانا يفترض) فى باقى العالم. إنها تملك ميزة التعامل مع الفقر العالمى كقضية يمكن حلها بواسطة الإنتاج التكنولوجى بدلا من التغيـــر الاجتمـــاعى السياسى وإعادة توزيع الأرض والاستثمار.

وهذه الاتجاهات تتسم بالقوة الكبيرة بسبب أن الحكومات التى تملك الثروات والأموال الطائلة والنفوذ السياسى تقف وراءها وتدعمها. وقد بنيت كل برامج التنمية القومية طوال هذا الجيل على أساس هذه الأفكار، وقامت الأيديولوجيات الفردية على أساسها أيضا، كما كانت خطط وبرامج مؤسسات التنمية الدولية مثل مؤسسات التمويل الدولى، والبنك الدولى، ومعاهد البحث فى الزراعة الدولية قد طورت أنواعا، أكثر إنتاجية من المحاصيل الزراعية الغذائية. والآن أصبحت المنظمات غير الحكومية لاعبا أساسيا فى مشهد التنمية، مضيفين سماتهم النوعية فى تطوير هياكل التنمية.

وقد وقفت على النقيض تماما من هذه الاتجاه نحو التنمية تنوعات كبيرة من النظريات الاقتصادية السياسية عن العالم النامى (تحت مستوى النمو) **Under development**. وقد تمثل العديد من هذه النظريات فى النظريات الماركسية والماركسية الحديثة التى صورت الفقر وفهمته على أنه نشأ أساسا نتيجة للرأسمالية. إن النظام العالمى الجديد قد تطور ونما بشكل غير عادل بسبب أن الدول الغنية استغلت الدول الفقيرة كمصدر رخيص للمواد الخام، والعمالة، والمنتجات. ومن خلال هذه الفرصة المواتية فقد أصبحت الدول المتخلفة نتاجًا للرأسمالية، وأصبحت برامج التنمية الدولية نوعا من التغطية على سياسات الإجبار والحفاظ على وجود النظم الاستعمارية بل وامتدادها.

وقد أدت هذه النظرة إلى المشكلات إلى ظهور أشكال ونماذج مختلفة تماما من الممارسة. وأصبح الهدف الرئيسى هو تحطيم الاعتماد على الأمم القوية والغنية التى تتحكم فى النظام. ونظرا لأن ذلك يمثل عملية مغامرة كبيرة وغير محتمل نجاحها تماما فى ظل الظروف الجارية، إلا أنها جذبت العديد من الناس أيديولوجيا كوسيلة لتفسير هذا الفقر المستمر، ولكن لم

يكن لها تحفيز للعديد من الثورات. لقد أثرت على عدد كبير من المؤسسات غير الحكومية حول العالم، والتى تشكلت إستراتيجيات تدخلها بواسطة التحليل الماركسى ومن فهم النمو الاقتصادى على أنه يحتاج إلى تحقيق الديمقراطية العالمية لبناءات القوة.

المشاركة فى سياق مؤسسات التنمية الكبيرة:

بداية فى السنوات المبكرة من سبعينيات القرن الماضى، بدأت بعض البرامج الأخرى تجد طريقها داخل فكر التنمية العالمية التقليدية. ولعل إحدى الحقائق التى استحقت تركيز الاهتمام عليها تمثلت فى أن الجانب الحضرى والريفى فى العمل المشترك لم يتطور بشكل حاد أو متطرف. وقد قام ويليام فوت ويت **William Foote Whyte** وغيره ممن اتبعوا جانب علاقات العمل والتخطيط الحضرى فى المشاركة بعمل أو بنشاط مرتبط، وقد عبر وايت نفسه داخل نشاط التنمية الريفية عن مجموعة من الأعمال المهمة **(Whyte & Alberti, 1976;In cooperation in Peru; and Whyte & Boynton, 1983)**. ومع ذلك فإن هذه الخيوط والاتجاهات قد تم تطويرها بشكل مستقل.

وكان نورمان أبوف **Norman Ophoff** وهو زميل وأستاذ للعلوم السياسية بجامعة كورنيل مركزا للعديد من أشكال التنمية وذلك نابع من كونه مديرا للجنة التنمية الريفية بكورنيل. وقد صنف أبوف **Norman Ophoff** **(1992 -1996)** تاريخ أنواع التنمية هذه بطريقة شيقة أظهرت كيف كان الطريق نحو اتجاهات المشاركة فى عملية التنمية طويلا ومعقدا.

وكما شكل أبوف التاريخ، حيث تضمنت كل أنواع التنمية التحول مما كان يسمى أوليا بالتقدير الريفى السريع **(RRA)** إلى التقدير الريفى بالمشاركة **(PRA)**، بذلت بعض الجهود الأخرى فى هيئة المساعدة الذاتية

الأمريكية (USAID) وخاصة فى مبادرة تيد أوينس **Ted Owens** الموظف فى هيئة المساعدة الذاتية الأمريكية (USAID)، والذى لعب دورا رئيسيا فى استخدام الهيئة (USAID) لاتجاهات المشاركة. وقد قاموا بجمع التأييد من المجتمع لقسم التنمية الدولية وسكان الولايات المتحدة فى الولاية، فقد حصلوا فى النهاية على تأييد الكونجرس لهذه الجهود، وقد أمر الكونجرس (USAID) بأن تكون المشاركة فى مقدمة أنشطة برامجه ومركزا لها.

ولتنمية كل من الدعم الأكاديمي والمصداقية قدم تيد أوينس الذى قابل أبوف الدعم المالى لكورنيل لإجراء دراسة مقارنة للحكومة المحلية الريفية، وهذه الدراسة أدت إلى مشروع (USAID) الذى قاده كل من أبوف وجون كوهين لتحديد معنى مشاركة التنمية الريفية **Rural Development Participation**. وقد اهتم أوينس بصورة كافية فى هذا بالتعاقد على هذا النشاط بعد خيبة أمله من انسحاب لجنة الجودة الأكاديمية للأنشطة المشابهة بهارفارد و(MIT). وقد وضع مشروع كورنيل بالتدريج كورنيل كمستشار أمين لهيئة المساعدة الذاتية الأمريكية (USAID) فى مجال المشاركة فى التنمية الريفية تحت اتفاقية تعاونية. وكعنصر أساسى لهذا العمل متعدد الأبعاد فى البلدان المتعددة، بدأت الجماعة فى نشر استعراض ومراجعة للمشاركة فى التنمية الريفية لمدة ثلاث سنوات، وكان ذلك فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين، وقد تضمنت هذه المراجعة أنشطة العديد من المتخصصين أمثال روبرت شامبرس وجيمس سكوت. وقد أصبحت بمرور الوقت الموقع الرئيسى الذى يتم الذهاب إليه للحصول على المعلومات المتعلقة بالمشاركة فى التنمية الريفية. ومع ذلك كانت قد جفت منابع الميزانية مع مجيء إدارة الرئيس الأمريكى رولاند ريجان.

ومن خلال عملية المحاسبة أو التقدير التى قام بها أبــوف Ophoff، فإن العديد من الأنشطة المرتبطة بها كانت معروفة بنسبة معقولـــة، حيــث نجحت فى جعل المشاركة الموضوع الرئيسى للمناقشات التى تنصب علـــى عملية التنمية. وقد تحركت بعض أشكال دراســة الحالـــة والقـــضايا وراء مشروع أبوف Ophoff الرئيسى عن الإدارة بالمشاركة لـــنظم الـــرى فـــى سيريلانكا (Ophoff, 1992, 1996).

وجزء من هذا الموضوع فى القصة هو أن إدخال المـــشاركة علـــى برامج وخطط مؤسسات التنمية الكبرى كانت عملية معقدة تضمنت الشبكات السياسية والفكرية وعملية طويلة وبطيئة وتحتاج إلى مزيــد مـــن الـــصبر للتفاوض والعمل. وكذلك فإن مصطلح المشاركة فى التنمية الدولية نفسها كان قد اكتسب شعبيته نتيجة عقود طويلة من الجهد ولا يمكن أن نصرف النظـــر عنه كنوع من التعالى كما يفعل فى الغالب أصحاب العقول الكبيـــرة الـــذين يرون النواقص المهمة فى ممارستنا.

المشاركة والتأييد Participation and Sustainability:

كان للحركة التنموية تأثير مهم فى الارتقاء باتجاهات المشاركة. ولم يكن لدى الحركة التنموية المبكرة وعى قوى بمشكلات العولمـــة الأيكولوجيـــة والتركيز الكبير بقوة على مشروعات البنية التحتية القائمة على تركيـــز الطاقـــة (والتى من خلالها استمدت الكثير من مؤسسات التنمية وشركات القطاع الخاص قوتها المالية). إن نشوء "الصغير" يعتبر شـــيئا جمـــيلا (Schumacher, 1973) ولقد قدمت الحركات الخضراء أيضا نقدا قويا لوجهـــات نظـــر كـــل مـــن الليبراليين والماركسيين عن التنمية، وأكدت على الاتجاهات الأكثر شـــمولية Holistic حول تعقيدات الفقر والغنى. وقد تزامن ذلك مع ظهـــور الحركـــة

العالمية القوية لحقوق الإنسان، والتى ذهبت وراء المناقشات حول المعيار الأساسى المقبول للحياة وما يتضمنها من حقوق مثل الحق فى الحرية والحكم الذاتى، والتحرر من الإكراه، والمساواة بين الجنسين، وحقوق الأطفال والمواليد، وحرية الجماعات العرقية والأقليات.

وكان لهذه الحركات مجتمعة تأثير عميق على إستراتيجيات التنمية على المستوى الأكبر **Micro-development Strategies** فى الولايات المانحة بسبب أن هذه الولايات قد أجبرت على تقديم المنح والتمويل على الأقل مظهريا للتعامل مع قضايا الجنس والبيئة وحقوق الإنسان للحفاظ على أى نوع من الشرعية الأيديولوجية. وقد تزامن ذلك مع الأحداث داخل الدول الغنية الممولة، والتى عانت من مشكلات داخلية معقدة. وهذه الأيام أصبحت المحاسبية والكفاءة والصناعات الصغيرة والمشاركة والتنافسية هى شعارات وكلمة السر فى العمل والمشروعات التجارية، وهذه الأيديولوجيات قد تم تنقيتها داخل القطاع العام تدريجيا وداخل مؤسسات التنمية بصفة خاصة. وفى نفس الوقت وفى الطرف الآخر للطيف السياسى كان هناك هجوم متزايد على المساعدات الأجنبية كأموال فاقدة وغير مفيدة للفقراء والتى تعتبر الفقر هو خطأهم، وهذه هى الأيديولوجية التى أخذتنا إلى الوراء فى مرحلة الخمسينيات. وتتمثل الليبرالية الحديثة فى العمل الحى والنشط للتنمية. وهذه العمليات لم تفاجئنا منذ أن أصبحت الفجوة تتسع بين الفقراء والأغنياء فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة كل عام.

وبتتبع هذا الموضوع تاريخيا نجد أن الخطوط بين جميع الاتجاهات تتسم بالغموض وعدم وضوح الرؤية. ومن قبل كان من الممكن التمييز بسهولة بين الاتجاهات الماركسية والليبرالية، ولكن أصبحت الآن للاتجاهات الليبرالية لغة أكثر ملاءمة فى التحليل من الاتجاهات الأيكولوجية والماركسية

ومساواة المرأة. وأصبح لدى المؤسسات غير الحكومية مشهد أيديولوجى معقد مع وجود عدد هائل من الخطط والبرامج المستمدة من تنوعات واسعة من الأيديولوجيات النابعة من التبشير المسيحى بحقوق الأطفال والأشجار. وقد خلق هذا الموقف المعقد البيئة التى من خلالها تك إجبار منظمات التنمية على إعادة بناء نفسها، وإعادة تحديد طرقها ووسائلها، وتحاول إيجاد صيغ وأشكال جديدة لعملياتها، وفى إطار هذا السياق يوجد لدى القليل من الممارسين فى مجالات التنمية اهتمامات أكثر باتجاهات المشاركة فى التنمية.

أنواع التقدير الريفى بالمشاركة

The Specific of Participatory Rural Appraisal

على الرغم من أن البحوث الاجتماعية الرئيسية هى محاولات تعاونية تستخدم الخبرات والنظريات والمعارف التى تساهم فى إنتاج الباحثين، فإن التقدير الريفى بالمشاركة، مثل علم تدريس الاضطهاد لفرير (١٩٧٠)، يرتبط بشكل قوى بالعروض التى قدمها الباحث الفردى روبرت شامبرس. وعلى الرغم من أنه ليس الممارس الوحيد، فقد طور شامبرس التقدير الريفى بالمشاركة بدقة ووضح فى سلسلة من المقالات **(Chambers, 1994a, 1994b, 1994c)** وفى العديد من ورش العمل التدريبية وفى الندوات حول العالم، وفى كتابه الممتاز الذى لخص حالة الفن، **Whose Reality Counts? Putting The First Last (1997)** وفى العديد من الدراسات التتبعية لهذه الموضوعات التى امتدت بشكل جوهرى إلى الأساس المنهجى لهذا العمل.

ومن وجهة نظر شامبرس، فإن التقدير الريفى بالمشاركة له أصوله فى جوانب متعددة ومنفصلة من الفعالية. إنه يعتمد على البحوث بالمشاركة

(والتى أطلقنا عليها بحوث الفعل بالمشاركة الجنوبية فى الفصل العاشر). وأيضا يعتمد على العديد من العناصر من الممارسات المتنوعة للتطبيق، أو أنثروبولوجيا الفعل، والأنشطة التى بدأت فى الخمسينيات من القرن العشرين والتى استمرت، ولكنها نادرا ما يكون لها غرض أو اهتمام مشترك قوى، ويعتمد أيضا التقدير الريفى بالمشاركة على مختلف المدارس، والتى أطلق عليها بصورة فضفاضة وغير محددة "بحوث بنية الأنساق **Framing Systems Research**"، والتى تضمنت الملاحظة اللصيقة بالممارسات البنائية المحلية من منظور الأنساق وأيضا بعض أفكار البحوث الحقلية **on-farm research** كوسيلة مناسبة لخلق إستراتيجيات التنمية.

التقدير الريفى السريع (Rapid Rural Appraisal (RRA

من أهم المشكلات الإستراتيجية الرئيسية التى أوجدت الحاجة إلى الدخول إلى التقدير الريفى بالمشاركة هى الديناميات الشاذة والمحبطة لبرامج التنمية عبر السنين، والتى تمثلت فى النقص الكامل والشديد فى المعلومات الأساسية المتعلقة بإستراتيجيات برامج التنمية وتقييم نتائجها. لقد قامت كل مشروعات التنمية على أساس الافتراضات عن كل ما هو خطأ، وتخمين كيفية تعديل ما هو خطأ، والتبريرات القائمة على المغالطات غير المنطقية للإستراتيجيات الفاشلة. ولمواجهة هذا الكم من الانتقادات فقد قاومت مؤسسات التنمية بحوث خط الأساس (البحوث الأساسية) كبحوث باهظة التكاليف وغير ضرورية وغير ممكنة. وقد وضع جرين وود **Greenwood** نفسه ورقة عمل فى مرحلة مبكرة حث فيها على ضرورة جمع بيانات أساسية ذات معنى وهادفة تتسم بالسرعة والكفاية.

وبمرور الوقت فقد أصبحت فكرة دراسات خط الأساس السريعة ضرورية، وأمكن تطوير مجموعة من الإستراتيجيات أطلق عليها التقدير

الريفى السريع (Belshaw, 1981; Chambers, 1981). وقد تم تعليم التقدير الريفى السريع (RRA) فى المعهد الدولى للبيئة والتنمية بلندن.

وقد بدأ التقدير الريفى السريع فى الحال فى مواجهة مختلف أشكال التنمية الأخرى التى تبسط من أفكار المشاركة فى أنشطة التنمية، وأيضا فى إعادة بناء نظم الخدمات فى المجتمعات الصناعية. ومنذ عهد بعيد تم صياغة نوع من العلاقة بين التقدير الريفى السريع وبين التقدير الريفى بالمشاركة، والتى من خلالها تم تعديل التقدير الريفى السريع للتركيز على المعرفة المحلية والمشاركة بشكل كامل. وبينما كان التقدير الريفى السريع أكثر تركيزا على الخبرة والأساس الأكاديمى، فقد اكتسب التقدير الريفى بالمشاركة زخما كبيرا من خلال أنشطة المنظمات الأهلية غير الحكومية على مستوى العالم. لقد ركز على المعرفة المحلية والتدريب وتوزيع القوى، وتنمية المبادرات الداعمة للإدارة الذاتية المحلية. ولصياغة أهدافه، درس الكثير جدا مثل التنوعات الكثيرة من بحوث الفعل التى ناقشناها فى هذا الكتاب.

وخلافا للعديد من الأشكال والنماذج الأخرى لبحوث الفعل، فإن لدى التقدير الريفى السريع مجموعة محددة من الأساليب والوسائل الخاصة به. وقد فصل شامبرس هذه الوسائل والأساليب فى أبحاثه وكتبه. ولعل أفضل وسيلة للوصول إلى مميزات هذه الأساليب والوسائل هى الرجوع إلى هذه الجهود (المقالات والكتب) للوصول إلى فكرة عن العدد الكبير والمرن من الطرق والوسائل المستخدمة. ونذكر القليل منها هنا لإعطاء القارئ نوعا من التركيز والجاذبية لهذه الاتجاهات.

ويتضمن التقدير الريفى السريع عددا من طرق المقابلة والمعاينة وبعض الاتجاهات عن ديناميات الفريق والجماعات. ومن بين هذه الاتجاهات المستخدمة خريطة المشاركة **Participatory Mapping** ونمذجة المجتمعات

المحلية ومناطق المشكلات، وانتقاء مقدمي المعلومات الأساسيين كخبراء محليين، ومحاولة تحديد الفروق الجوهرية بين الجماعات المحلية وإجراء اتصالات مع بعض الأعضاء من كل جماعة، ويساعد هؤلاء المشاركون في تحليل الأشياء التي كتبت عنهم، وتنمية الالتزام بالوقت والاتجاه نحو تحليل المعلومات المحلية، وتطوير التقويم الموسمي الذى يتضمن دورات المحاصيل، ومتطلبات العمل، وتطوير فرق العمل وتعاقداتها. إن المرونة والانتباه للوسيلة التي يعتقد فيها الناس المحليين ويتفاعلون معها، والاعتقاد القوى في أنساق المعرفة للسكان المحليين هى أساس التقدير الريفى بالمشاركة.

ويمكن رؤية زوجين من نتائج استخدام هذه الطرق في الشكلين ١٣,١، ١٣,٢ والمأخوذين عن طومسون سكونميكر فرودنبرج

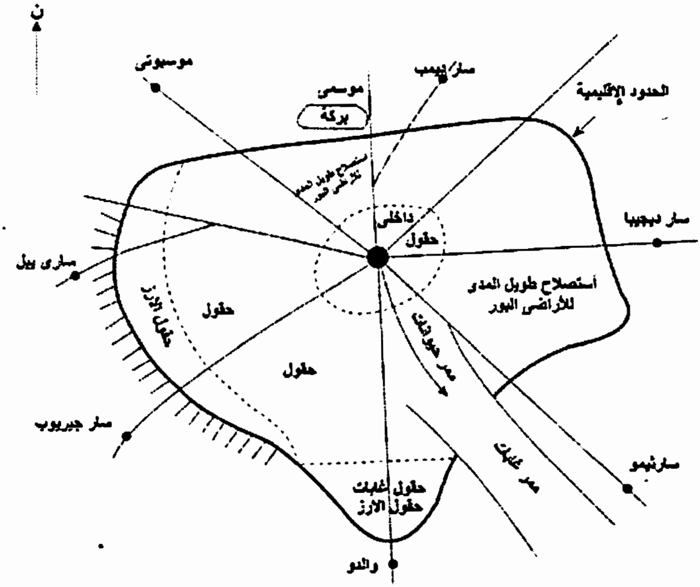
Thomson and Schoonmaker Freudenberger (1997)

الشكل (١٣-١)

	النوع		الثروة			مصدر الاستخدام		
	ذكر	أنثى	فقير	متوسط	غني	قروى	جار	غريب
أرض خصبة	١٢	٢	٥	٨	١٠	١٠		
أرض حديقة للمطبخ	٣	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠		
شجر الخشب	٦	٦	١٠	٦	٥	٦	٤	٥
أشجار مورقة	٣	١٣	١٠	٣	٦	٥	٣	
أعشاب طبية	٦	٨	٨	٣	٢	٥	٣	١٢
أعشاب	١٠	٣	٢	٥	٩	٦	٤	

المصدر:

Thomson, J & Schoonmaker Freudenberger, K, (1997). Creating institutional arrangement for community forestry. Rome: food and agriculture organization of the United Nations (Forests, Trees and People Community Forestry Field Manual 7) Available at http://www.fo.org/docrep/w7483e/2/7483e00.htm#contents



شكل رقم (١٣-٢) خريطة المجتمع المحلى

المصدر:

Thomson, J & Schoonmaker Freudenberger, K, (1997). Creating institutional arrangement for community forestry. Rome: food and agriculture organization of the United Nations (Forests, Trees and People Community Forestry Field Manual 7) Available at http://www.fo.org/docrep/w7483e/2/7483e00.htm#contents

يتضمن كل مشروع من مشروعات التقدير الريفى بالمشاركة مجموعة من الأساليب ذات الاختلافات القليلة التى تعتمد على خبرة الخارجيين الذين يوجدون بهذه المشروعات، والقدرات المتاحة محليا والمشكلات التى يتم دراستها. ونظرا لشعبيته الكبيرة، فقد أصبح التقدير الريفى بالمشاركة يطبق فى العديد من المواقف التى تشمل المشاركة، ويشمل التقدير الريفى بالمشاركة، تطوير التقييم بالمشاركة للمشروعات، وخاصة المشروعات المتعلقة بالأحداث الجارية، وكمصدر للبرامج التدريبية، لكن من أعضاء المجتمع والخارجين عنه.

وقد نادى التقدير الريفى بالمشاركة بالعديد من الأفكار الرئيسية المرتبطة ببحوث الفعل. وقد اتخذت المعرفة المحلية مكانة متميزة. وقد تم ضبط سلوك الخبراء الخارجيين لإعطاء مساحة للمشاركين الداخليين لوضع وتحديد خياراتهم. وهذه الطرق لا يتم تطبيقها بصورة عشوائية، كما يوجد نوع من الترتيب المنطقى للأنشطة التى تنتقل من نوع من معرفة ديناميات الفريق إلى أشكال أكثر تعقيدا طوال الوقت. ويتعامل التقدير الريفى بالمشاركة مع قضايا صدق وثبات البيانات، كما أنه يطالب بإعطاء السكان المحليين الحق الأكبر فى تحديد وتعريف مواقفهم والعمل من أجلها.

وقد تم الارتباط بقضايا القوة والمعرفة بشكل مباشر، على الأقل فى الممارسة الخاصة بشامبرس. ولعل العنوان الفرعى لكتابة وضع الماضى الأول **Putting First Last** قد أوحى بهذا المعنى. والافتراض الأساسى هنا هو أن أفكار الأغنياء وأصحاب القوى وممارساتهم سوف تسيطر على كل المواقف إذا لم يتم إيقافها عالميا من خلال التخلى عن العصا (القوة) ضد السكان المحليين بالتركيز على الاستماع إلى آرائهم، واحترام معلوماتهم ومعارفهم. ولعل المهنيين العاملين فى مجالات التنمية هم أول من يجب تغييرهم، وتعليمهم الاستماع، ومن ثم اتخاذ ما تعلموه لكى يصبحوا مدافعين عن السكان المحليين.

انتقادات التقدير الريفى بالمشاركة

Critiques of Participatory Rural Appraisal

زاد العديد من الانتقادات حول التقدير الريفى بالمشاركة بسبب العديد من المشكلات التى أحاطت بممارساته فى العديد من مؤسسات التنمية

الكبرى. لقد رحبت به مؤسسات التنمية- على الأقل ظاهريا- كوسيلة سريعة لتصميم برامج التنمية وتقييمها، ولكن لا توجد أدلة واضحة علـى أن هـذه المؤسسات لديها اهتمام كبير بأبعاد مشاركتها بدلا من مجرد تمنى حـصولها على فرصة المشاركة التى ينشدها العالم. وغالبا ما تكون التقديرات الريفيـة بالمشاركة بتفويض من المؤسسات، وهذا ليس بالضرورة شيئًا سيئًا. ولكـن نجد أن الظروف والأحداث الكبرى فى هذه المؤسـسات والتـى تـستدعى تفويض التقديرات الريفية بالمشاركة يمكن أن تفسد مباشرة عملياتها، وتتسبب فى وجود حكم مسبق لدى المشاركين عن نتـائج العمـل والانتقـال إلـى المشروعات التى تم تحديدها بالفعل بدون استخدام التقدير الريفى بالمشاركة.

ومثل أى اتجاه لبحوث الفعل، فإن التقدير الريفى بالمـشاركة الـذى يكون فى متناول الممارسين غير الأكفاء أو الساخطين يمكن أن يصبح إطارًا فارغًا (فارغ من حيث الشكل) ومجموعة خطوات طقوسية بدلا من أن تكون مجموعة من الأدوات قابلة للانتشار بشكل متمايز لكى تصبح طريقة أفـضل لفهم المشكلات والمواقف المحلية المعقدة. وبـالطبع فـإن هـذا الاختيـار للممارسات والمصطلحات ليس مقصورا على التقدير الريفى بالمشاركة.

وغالبا ما يتم رعاية وكفالة التقدير الريفـى بالمـشاركة بواسـطة المؤسسات الخارجية القوية، والذى تم ملاحظته فى التعارض بـين تـزاوج طرق المشاركة أثناء العمل داخل البيئة المؤسسية الإجباريـة. وقـد بينـت اتجاهات مساواة المرأة أن الكثير من التقديرات الريفية بالمشاركة قد فـشلت بسبب أنها لم تصل إلى الأعضاء الصامتين فى المجتمـع، ولـذلك خلقـت انطباعا زائفا عن ديناميات المواقف المحلية، وخاصة عندما يكون العاملون الخارجيون من الرجال ويتعاملون مع القيادات المحلية من الرجـال. وأخـذ بعض من أفضل ممارسى التقدير الريفى بالمشاركة هذه الانتقادات مأخذ الجد وناضلوا فى التعامل مع هذه المشكلات.

وقد أشار ديفيد موس David Mosse (1993) ليس فقط إلـــى فــشل التقدير الريفى بالمشاركة، ولكن أيضا إلى الضعف فى الممارسة ولماذا لـــم ينظر إليه كوسيلة فعالة. وقد بين كيف يستطيع التقدير الريفى بالمشاركة عن غير قصد بناء المعرفة المحلية لتعكس العلاقات الاجتماعية الكائنة بواســطة الفشل فى تطوير الشعور الرقيق طويل المدى لعلاقات القوة المحلية، والتـــى تسعى بالضرورة بحوث الفعل لتطويرها.

وعندما يصل فريق التقدير الريفى بالمشاركة إلى المجتمع ويبدأ فى العملية السريعة لجمع البيانات وتحليلها، فإنه لا يوجد الوقت الكــافى للميــل لكى يصبحوا مدركين للوسيلة التفصيلية والدقيقة والإثنوجرافية عن الفوارق الدقيقة فى القيادة المحلية. ونتيجة لذلك فإن الإجبار والخداع الذى أملى بوجه عام على المجتمعات من المحتمل تماما أن يعبر عنه فى النتائج. إن التقــدير الريفى بالمشاركة ليس حصنا منيعا ضد التحيز الجنسى لنفس هذه الأســباب بسبب أن العروض الرسمية للمعرفة يمكن أن تمنع مــساهمة النــساء فـــى صياغتها.

ونتيجة لهذا السوء فإن التقدير الريفى بالمــشاركة يعتبــر اتجاهًـــا استخلاصيًا Extractive للمعلومات ومن خلاله يتم جمع البيانـــات بغــرض تنمية المؤسسة بدلا من مقابلة الاهتمام المزدوج بأن تملك المؤسسة البــرامج التى تتكون لتتناسب مع احتياجات المجتمع. لذلك فربما يبذل فريق التقــدير الريفى بالمشاركة الجهود الكبيرة لجمع البيانات، وينظمــون هــذه البيانـــات وينظمون برامج التدخل فى المجتمع على أســاس المراجعــة والخلاصـــة السريعة لما يطلقون عليه المشاركة.

وقد أشار موس Mosse (1993) إلى أن لغة المشاركة فـــى التقــدير الريفى بالمشاركة تميل إلى أن تكون لغة تتـــسم بالاضـــطهاد فـــى بعــض

المواقف. وعندما يسأل السكان المحليون فريق التقدير الريفى بالمشاركة عما يجب عمله، تكون الإجابة "ما يجب أن يقرره المجتمع" ويستطيع السكان المحليون أن يكتشفوا ذلك على أنه نوع من الامتناع من الخارجيين الأقوياء عن الكشف لهم عن حقيقة برنامجهم أو أجنداتهم. وهذا ما يخلق حالة من عدم الأمن وعدم الثقة، بينما فى عقول أعضاء فريق التقدير الريفى بالمشاركة شعور بأنهم منفتحون ومشاركون.

ولعل أكثر الانتقادات قوة لاتجاهات المشاركة فى التنمية نشر فى كتاب كوك وكوثارى "المشاركة: هل استبداد جديد؟ "Cooke and Kothari (2001) وفى هذا الكتاب سأل العديد من المساهمين عن إمكانية نقل الأفكار الغربية عن المشاركة إلى البيئات غير الغربية. وقد أكدوا أن المشاركة غالبا تستخدم فى إضعاف المعارضة للمخططات والمشروعات المفروضة من الخارج، والموضوع الشائع أيضا عن ردود فعل نقابات العمل على عملية بالمشاركة تبدأها الإدارة. وعلى الأكثر فهى نصيحة مشكوك فيها فى مواجهة الادعاءات المبالغ فيها لاتجاهات المشاركة كوسيلة فعالة لعلاج مشكلات الفقر.

التقدير الريفى بالمشاركة وبحوث الفعل

PRA and Action Research

مهما كانت المشكلات التى صاحبت انتشار التقدير الريفى بالمشاركة فإن هناك علاقة واضحة بينه وبين التقييم بالمشاركة وبين بحوث الفعل بشكل أكثر عمومية. فالمعرفة المحلية موضع تقدير واحترام وتتخذ كأساس لبرامج

التنمية التى تصمم وتطبق. وينتج التقدير الريفى بالمشاركة فى بعض تكليفات للفعل. وتحتوى هذه الاتجاهات أيضا على نقد قوى للمهنيـــة أو الاحترافيـــة الحضرية كعنصر رئيسى يتعامل مع العلاقة المهنيـــة كبعـــد أساســـى فـــى ديناميات العملية.

وفى نفس الوقت يوجد خلاف حول التقدير الريفى بالمشاركة عندما لا يتلاءم مع الأشكال الأخرى من ممارسات بحوث الفعل وانتقادات اتجاهات مساواة المرأة. ويتم الاعتراف بالتقدير الريفى بالمشاركة على أنـــه قـــصير المدى، بينما يصنف بحث الفعل على أنه علاقة طويلة المدى بين الـــداخليين والخارجيين. وعلى الرغم من واقعية شامبرس عن هذه الأحوال والظروف، فإن العديد من الكتابات والممارسات فى التقدير الريفـــى بالمـــشاركة تتـــسم باللامبالاة نحو علاقات القوة التى تمثل العنصر الرئيسى فى أى اتجاه لبحوث الفعل. وعلى الرغم من تحديد التقدير الريفى بالمشاركة لمشكلة الاختلافـــات الجنسية وتأثيراتها على طرقه ووسائله، فإنه من الواضح أنه غير مبال بشكل كاف بالعلاقات بين الجنسين، ونحن نشك فى أن أى اتجاه شكلى أو قـــصير المدى يستطيع أن يتغلب على هذه المشكلة.

وبالتوازى مع انتقادنا للتقييم بالمشاركة، بعد التقدير الريفى بالمشاركة الأول، فإن خطط الفعل والمنهجيات التى تم نشرها كانت أقل وضوحا بشكل كبير. ولا يحتوى التقدير الريفى بالمشاركة كنوع من التدخل القصير علـــى إستراتيجية واضحة لتعزيز التغيرات الاجتماعية طويلة المدى. وعلى الرغم من أنه يخلق معرفة محلية وفرق عمل، فإنه لا يبدو أنه يتسم بالفكر العميق كما هو الحال فى العديد من مشروعات بحوث الفعل حول العمل نحـــو تعزيـــز العلاقات التى تحفظ التجديدات والإبداعات من الفساد الراجع إلى الموقف الأصلى.

ويفتقد التقدير الريفى بالمشاركة إلى الإطار النظرى المتعلق بالتعامل مع الصراعات بين الجماعات التى تم تحديدها، وبين السكان المحليين أنفسهم، عندما يتضمن الفهم إلى حد بعيد العديد من الاهتمامات المتعارضة والمتباعدة. إن التقدير الريفى بالمشاركة يصمت عن العمليات التى تأتى بكل هذه الاختلافات معا بغرض تطوير اتجاه يتسم بالقبول والعدالة.

إننا نرى التقدير الريفى بالمشاركة على أنه اتجاه مهم وشيق ومن اتجاهات المشاركة. ولكن الآن تعتبر خطة عمل التقدير الريفى بالمشاركة ثقيلة على أيدى الممولين الخارجيين والمنظمات غير الحكومية. وهذا يفتح المجال أمام إمكانية تغيير بعض العناصر فى المشروعات المفروضة خارجيا، ولكن يجب ألا يتم ذلك بشكل عنيف. وبجانب أن التقدير الريفى بالمشاركة قصير المدى فإنه ليس من المحتمل أن يغير علاقات القوة الكائنة بدرجة كبيرة جدا. ونتيجة كل هذا الكلام فإن التقدير الريفى بالمشاركة يعتبر خيارا أفضل من الممارسات السابقة للمؤسسات التى تمثل ضغوطا سياسية صارخة على الحكومات الأجنبية.

الخلاصة:

أيا ما كانت استنتاجات أى شخص من هذا الفصل، فإن التقدير الريفى بالمشاركة والاتجاهات المرتبطة به يقدم حالة فريدة لباحثى الفعل تستحق إمعان التفكير فيها. وبعيدا عن كونه أصبح مهمشا ومهملا، فإن التقدير الريفى بالمشاركة قد اتخذ مكانه داخل معظم مؤسسات التنمية الريفية الرئيسية، وانتشر بشكل واسع. وكان هذا الاعتراف والنمو فى أحد الجوانب مشجعا، ولكنه كان مكلفا. وغالبا ما انتشر التقدير الريفى بالمشاركة داخل المؤسسات الهرمية السلطوية التى كانت التزاماتها نحو تقرير المحليين

لمصيرهم محل شك على أكثر تقدير. إن القيود المتعلقة بالوقت وبـــالموارد المفروضة على التقدير الريفى بالمشاركة فى هذه البيئات يمكن أن تربك قيمة الاتجاه وينجم عنها نتائج لا قيمة لها. وعلى الأكثر يظهر التقـــدير الريفـــى بالمشاركة أنه عندما تتبنى المؤسسات القوية اتجاه بحوث الفعل فإن الاختيار التعاونى للغة وممارسات المشاركة تتجه دائمـــا نحـــو مـــشكلة عميقـــة. إن الهامشية بوجه عام للكثير جدا من اتجاهات بحوث الفعل التـــى تمنـــع هـــذه القضية من الظهور على السطح، ولكن بالدرجة التى تكون بحوث الفعل بها أكثر مركزية فى معظم الممارسات المؤسسية، فإننا ســـوف نواجـــه نفـــس القضايا المشابهة للاختيار والإجبار والتى تؤثر حاليا على بحوث الفعل.

الهوامش

١) من الصعب جدا حفظ المصطلحات واختصاراتها معا. فالتقدير الريفى بالمشاركة نبـــع من التقدير الريفى السريع الذى نشأ فى حد ذاته من مزيج من الدراســـات الأساســـية وبحوث النظم الزراعية، وبعض مبادرات التنمية القليلة التى ركزت على الفلاحـــين. وحاليا فشل مصطلح التقدير الريفى بالمشاركة (PRA) وحل محله مصطلح الـــتعلم بالمشاركة والفعل (PLA). إننا نستخدم التقدير الريفى بالمشاركة (PRA) كمصطلح فى الفصل الحالى.

٢) يتضمن هذا الجدول القائمة الكاملة التى قدمها بريتى وفوده Pretty and Vodouhe (n.d)

اختيار مصطلحات وأسماء للأنساق البديلة للتعلم بالمشاركة والفعل		
المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الإنجليزية	المختصر
التحليل النسقي البيئي	Agroecosystems	AEA
تقدير المستفيد	Beneficiary Assessment	BA
تنمية فريق قيادة التعليم	Developing Education Leadership Team	DELTA
التشخيص الريفى المشترك	Diagnostico Rurale Participative	DPR
البحث المشترك الريفي	Farmer Participatory Research	FPR
مجموعة الأبحاث ودعم الفلاحين للارتقاء الذاتي	Groupe de Recherche et d' Appui pour L'Auto-Promotion Paysqnne	GRAAP
الوسائل السريعة للبحث بالمشاركة	Methode Accélérée de Recherche participative	MARP
التحليل المشترك وطرق التعلم	Participatory Analysis and Learning Methods	PALM

PAR	**Participatory Action Research**	بحوث الفعل المشتركة
PRM	**Participatory Research Methodology**	منهجية البحث المشترك
PRAP	**Participatory Rural Appraisal and Planning**	التقييم الريفى المشترك والتخطيط
PTD	**Participatory Technology Development**	التطور التكنولوجى المشترك
PUA	**Participatory Urban Appraisal**	التقييم الحضرى المشترك
PIR	**Planning for Real**	التخطيط للواقع
PD	**Process documentation**	عملية التوثيق
RA	**Rapid Appraisal**	التقييم السريع
RAAKS	**Rapid Assessment of Agricultural Knowledge Systems**	التقدير السريع لنظم المعرفة الزراعية
RAP	**Rapid assessment Procedures**	إجراءات التقدير السريع
RAT	**Rapid assessment Techniques**	تكنيكات التقدير السريع
RCA	**Rapid Catchment Analysis**	التحليل المتجمع السريع
REA	**Rapid Ethnographic Assessment**	التقدير الإثنوجرافى السريع
RFSA	**Rapid Food Security Assessment**	تقدير الأمن الغذائى السريع
RMA	**Rapid Multi- Perspective Appraisal**	التقييم متعدد الآراء السريع
ROA	**Rapid Organizational Assessment**	التقدير التنظيمى السريع
RAA	**Rapid Rural Appraisal**	التقييم الريفى السريع

SB	Samuhik Brahman (Joint trek)	سالونيك براهمان (رحلة جماعية)
SSM	Soft Systems Methodology	منهجية النظم الناعمة
TfD	Theatre for Development	مسرح التنمية
TfT	Training for Transformation	التدريب على التحول
VIPP	Visualization In Participatory Programmes	التصور فى البرامج المشتركة.

٣) هذا القرار اتخذ بواسطة مشاركة جرين وود فى ورشة عمل لمدة يومين على التقدير الريفى بالمشاركة بواسطة شامبرس بجامعة كورنيل فى ربيع ١٩٩٧.

الفصل الرابع عشر

تنوعات الاستقصاء الإنسانى:

التعاون والفعل والتأمل الذاتى والتعاونية:

Varieties O Human Inquiry;

Collaborative, Action, Self-reflective, and Cooperative

تشير مصطلحات الاستقصاء الإنسانى **Human Inquiry** والاستقصاء والتضامن المؤسسى **Collaborative** واستقصاء الفعل **Action Inquiry** والاستعلام التعاونى **Cooperative** - ولكن ليس بإنهاك أى مجموعة من الاتجاهات- إلى كل مصطلح مع مجموعة أخرى مهمة فى تصنيف واحد، ولكن الممارسين لكل مصطلح يشجعون استمرار الحوار الطويل والمثمر من كل مجموعة أو تيار آخر. لقد تناولناهم فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب بسبب التشابهات الواضحة فى آرائهم، وأيضا بسبب أنهم ارتبطوا مباشرة بجهود بيتر ريسون **Peter Reason** فى جامعة باث **Bath**. وريسون كاتب غزير الكتابات على سبيل المثال **(Reason, 1988, 1994; Reason & Bradbury, 2001a; Reason & Rowan, 1981)** وفى الوقت منذ ١٩٩٨ ومن خلال جهود بيتر ريسون، أصبح زملاؤه وتلاميذه هم الفاعلون الرئيسيون فى وضع الخريطة التى حددت بوضوح العناصر المتنوعة التى شكلت بحوث الفعل. وقد كون كل من بيتر ريسون **Peter Reason** وجون روان **Johan Rowan** وجون هيرسون **Johan Herson** وهيلارى برادبورى **Hilary Bradbury** ووليام توربورت **William Torbert** وجودى مارشال

Judi Marshall وآخرون جماعة محددة استخدمت مزيجا متنوعا من العناصر المستمدة من علم النفس والخدمة الاجتماعية والدراسات التقويمية واتجاهات مساواة المرأة وعلوم الفعل وتعلم الفعل والتوسط Mediation والممارسات التأملية لتنسيق وتوزيع Orchestrate ممارساتهم. ولكن ريسون فعل أكثر من ذلك. فقد استخدم اتجاهه كوسيلة لتشكيل جماعات المستمعين والاتصال بهم، وبشكل عام النظر إلى ممارسات بحوث الفعل ككل.

وقد خطا ريسون كفاعل رئيسى فى هذه العملية (بالتعاون مع هيلارى برادبورى) خطوات واسعة نحو وضع خريطة لمجال بحوث الفعل بطريقة واضحة، وربط الممارسين حول العالم، وجمع بين اهتماماتهم المشتركة والمتباينة، وأوجد أماكن للتلاقى والاتصال فيما بينهم. وقد استفدنا جميعا من إنجاز كل من ريسون وبرادبورى والمتمثل فى إصدار أول كتاب (دليل) لبحوث الفعل (2001a) ونشاطه فى إصدار دورية بحوث الفعل. وقد نقلت هذه الجهود بحوث الفعل من هذه الشبكة الفضفاضة وغير المترابطة من الناس الذين يعلمون القليل عن أعمال وأنشطة بعضهم البعض ويستخدمون بتطرف المصطلحات المختلفة وغالبا ضد طرح Counterpose نظريات الاتصال عن عملهم، فقد وضع ريسون نظاما داخل هذا المجال بدون حظر الاختلافات فيما بيننا. وفى هذه الطريقة خلق ريسون والمتعاونون معه مساحة للاتصال تستخدم مبادئ بحوث الفعل فى الحوار الديمقراطى لتحسين جودة المجال بدون إثارة النزاعات بين مختلف أنواع الممارسة. ونظرا لعدم اكتمال هذا العمل المهم فإن ريسون وبرادبورى يقومان بإعداد الطبعة الثانية من كتاب (دليل) بحوث الفعل. بحوث الفعل (سابقا مجلة بحوث الفعل) حقق نجاحا كبيرا وبدأ تدريجيا فى نشر القضايا البحثية الخاصة عن الموضوعات التى تمثل اهتماما رئيسيا لممارسى بحوث الفعل فى أى مكان.

وبالنظر إلى ذلك فإن فهم المبادئ الأساسية لعمل ريسون ومعاونيه وزملائه يعتبر ذا أهمية فى فهم بحوث الفعل ككل. وتؤثر وجهات النظر هذه بالضرورة على خريطتهم لمجال بحوث الفعل ككل، وكذلك يساعدنا فهم هذه الآراء والطرق على تحديد ما هى رؤيتهم التى أتت ببحوث الفعل إلى دائرة الضوء وتحديد أى أبعاد بحوث الفعل التى تلقت تركيزا أقل. لذلك وبالإضافة إلى التركيز على هذه الأطر العلمية، فإن هذا الفصل يضع تعقيبا وتفسيرا على بنيتهم المتكاملة لمجال بحوث الفعل.

وجهات النظر الرئيسية Central Perspectives:

من خلال الإطار الذى وضعه ريسون وبرادبورى فى فصلهم بكتاب (دليل) بحوث الفعل (2001a) فإن بحوث الفعل تركز على إنتاج المعرفة المفيدة للناس فى حياتهم اليومية، وذلك يزيد من الصحة الجيدة **well-being** للأفراد والمجتمعات فى سياق من العلاقات الداعمة مع بقية العالم، ويعتبر ذلك نوعا من تحرير القصد، ويركز ذلك أيضا على عمليات الاستقصاء الدينامية والمستمرة **(Reason & Bradbury, 2001b, P.2)**. ويقوم هذا الإطار على أساس ما أطلق عليه ريسون "العالمية بالمشاركة **Participatory Worldwide**". وهذه العالمية لا تتميز فقط بالمشاركة، ولكن أيضا تشير إلى الإحساس بكل من الاندماج والتحول المستمر فى الموقف الإنسانى من الحالات التى تتسم بالحرية الأقل إلى حريات أكثر وهو ما أسماه "الازدهار الإنسانى **Human Flourishing**" **(Reason & Bradbury, 2001b, P.1)**. وأخيرا تصل بحوث الفعل إلى نتائج صادقة فقط عندما يتم فهم المصداقية على أنها تتضمن تقدير وإدراك الأساليب الجمعية لمعرفة جودة العمليات نفسها، ودلالة النتائج المرتبطة برعاية ورفاهية المشاركين والعوالم المحيطة بهم.

وقد طور ريسون بالتعاون مع جون هيرون John Heron خلاصة شاملة لما أطلقوا عليه "الاستقصاء التعاونى Cooperative Inquiry"، الــذى يعنى البحث "مع With" الناس بدلا من "على On" الناس. ولتطوير الأطــر التى عملوا على أساسها من نهاية السبعينيات 1970s، فقط حددوا الظــروف المواتية للاستقصاء التعاونى، وقد تطلب ذلك أن يكون المشاركون موجودين بشكل كامل كباحثين متعاونين فى كل أبعــاد وخطــوات عمليــة البحــث. ويستوجب ذلك وجود تفاعل متسق بشكل جيد بين الأنشطة المكونة للــوعى ونتائج الخبرة والفعل، ويجب أن يتم التعامل مع المصداقية على أنها مطلب رئيسى. ويتم اختبار مصداقية الفعل من خلال درجة إرضاء أو إشباع النتائج لحاجات وأهداف المشاركين.

ويعتمد الاستقصاء التعاونى على التطور المعرفى للاستقصاء. وقــد ميز ريسون وزملاؤه المعرفة التجريبيــة Experimental Knowing التــى تحدث من خلال الفعــل المباشــر؛ والمعرفــة التقديميــة Presentational Knowing، التى تنقــل نتــائج هــذه الخبــرات، والمعرفــة الافتراضــية Propositional Knowing وهى إعادة كتابة الشكلين الأولين فــى كلمــات ومفاهيم، وأخيرا المعرفة العملية Practical Knowing التى تتضمن معرفة القدرة على القيام بالأفعال التى تتسم بالبراعة والمهارة وفى إطــار الــوعى الذاتى. ونناقش هذا الإطار بشكل مفصل على الصفحات التالية؛ نظرا لأننــا وجدنا أنه يعتبر أسلوبا مثمرا وفعالا لتوجيه استقصاءات بحوث الفعل.

وبالإضافة إلى ذلك فقد أكدت الجماعة بقوة على عمل تمييز أو فارق بين أول شخص وثانى شخص وثالث شخص فى البحث والممارسة. وقد حدد توربيرت Torbert فى مقالته "ممارسة استقصاء البحــث The practice of Action Inquiry" هذه الاختلافات بوضوح، والتى استخدمها أيضا ريــسون

وجودى مارشال (٢٠٠١) والعديد من المفكرين الآخرين. ويتضمن الشخص الأول من البحث والممارسة **First- Person research and practice** العمل على اكتشاف وسائل "تدريب الانتبـــاه **exercise our attention**" (**Torbert, 2001, p.251**) والتغلب على الميل القوى نحو الامتناع عن التأمل الفكرى فى الاستقصاء. وهذا يركز على الباحثين أنفسهم ويتضمن تعلم كيفيــة تطــوير وتكوين عادات الاستقصاء فى أفعالهم وحالات الوعى لديهم كعنصر أساسى فى تقديمهم فى مواقف الجماعة كمشاركين فعـــالين وبـــاحثين. وكمـــا رأى توربيرت ذلك، فإن هذا النوع من استقصاء الفعـــل يمكـــن أن يـــسمح لنـــا للوصول إلى وضوح أكبر عن خبراتنا المستمرة عن أنفسنا وبالتـــالى نعـــد أنفسنا للمشاركة بفعالية أكبر مع الآخرين، وفهمهم بصورة أفضل. وفى هذا الخصوص توجد ارتباطات مع أعمال كل مـــن كـــريس أرجيـــريس **Chris Argyris** ودونالد ســـكون **Donald Schon** (**Argyris, 1974, 1980,1993; Argyris, Putnam & Smith, 1985; Argyris & Schon, 1974, 1996**) والذى يعتبر تعليمهم لتحليل الأفعال وتنظيمها للباحث نفـــسه هـــو المركـــز الرئيسى لأى إطار للاستقصاء.

وقد انتقل توربيرت بعد ذلك إلى تحديد الـــشخص الثـــانى **second- Person** فى الممارسة والبحث على أساس أنه يتضمن نظم الحوار والاســـتماع مـــع الآخرين وفى السياق الذى يعيشون فيه. وتوجد العديد من الأنشطة التى تعتبر أساسية للشخص الثانى فى البحث والممارسة. إنها تتضمن محاولات "تشكيل **Frame**" المناقشات بحيث تكون مفتوحـــة لآراء واســـتجابات المـــشاركين الآخرين، للدفاع عن الأوضاع التى تناولها السياق الحوارى أو التأكيد عليها، والتى قاموا بتحليلها والاستجابة لها، وتقديم الأمثلة التى تؤيد وتـــساند هـــذه التأكيدات، ومن ثم استقصاء رأى الآخرين فى الموقف حول ردود أفعـــالهم

عن هذا النمط المتطور من التفسيرات. ومن الأمور الجوهرية ربط هذا السياق الحوارى بين الأشخاص بجماعات بحوث الفعل، ومن ناحية أخرى فإن لهذه الآراء نوع من التعامل الجيد نظريا وعمليا مع عمل أرجيريس وسكون. (1987, 1996) (انظر الفصل ١٥) "علوم الفعل والتعلم التنظيمى"

وأخيرا يوجد الشخص الثالث Third- Person للبحث والممارسة، والذى من خلاله يرتبط استقصاءات الشخص الأول والشخص الثانى داخل عملية التحول التنظيمى، والذى من خلاله تغير القوة الأيدى Power changes hands (Torbert, 2001, P.256). وتوجد العديد من سياقات التغيير التنظيمى، والنمو التنظيمى، والقيادة التنظيمية، والتغيير الاجتماعى الواسع والذى تبرز فيه القوة وحركات القوة بشكل خاص.

إن العمل الذى قام به هؤلاء الزملاء والكثيرون غيرهم الذين تعلموا وأثروا، كان له إطار عمل شامل. فقد اعتمدوا على مجموعة أساسية من الأطر المعرفية التى تباينت بحدة مع الأطر المعرفية للبحث التقليدى. وقد نشروا بوضوح أيضا مجموعة من الاختلافات بين الأنواع المتعدد من المعرفة التى تستخدم فى بحوث الفعل وتعطى لها وزنا. وأخيرا فقد نشروا أيضا الاختلافات بين الشخص الأول والشخص الثانى والشخص الثالث فى البحث، والتى تحافظ على الانتباه الفعال للعمليات الشخصية والحوارية وجميع الأبعاد المتعلقة بعمليات البحث التعاونى. وتعتبر هذه رؤية غنية ومحددة بدقة لبحوث الفعل وقد استخدمها ريسون وبرادبورى لتنظيم الأبعاد الرئيسية لدليل بحوث الفعل (2001a) وبالتالى إعطاء قراءة محددة وواضحة لشكل أو لنموذج مجال بحوث الفعل ككل.

ونحن ندرك أن هذا يعتبر عرضا عاما لهذه الاتجاهات، لذلك نتعمق فيها أكثر من خلال هذا الفصل بمراجعة أعمال الممارسين الأربعة؛ بيتر ريسون ووليام توربوت وجودى مارشال وجون هيرسون.

الاستقصاء الإنسانى Human Inquiry:

الاستقصاء الإنسانى لبيتر ريسون Peter Reason on Human Inquiry:

يعتبر الميل المستمر نحو التنمية من خلال الاندماج الثابت والراسخ للتنوعات الضخمة من الآراء والممارسات واحدا من أهم الخصائص المميزة لهذه النماذج من الاستقصاء. ولعل عمل بيتر ريسون يعود إلى الخلف إلى أواخر السبعينيات 1970s ومن ذلك الوقت وحتى الآن يوجد تطور مستمر لهذا الاتجاه المحدد بدقة والمتنامي. ويرجع تفضيلنا لأعمال ريسون إلى شموليتها وارتباطها بطرق دراسة الحالة، وبالمشاركة فى الاستقصاء الإنسانى (Reason, 1994). وهنا حدد ريسون بشكل مناسب برنامج العمل كاتجاه للحياة يقوم على أساس الخبرة والارتباط ، وعلى الحب واحترام سلامة وتكامل الأشخاص؛ وعلى إرادة الارتفاع فوق الافتراضات المسبقة، والنظر وإعادة النظر، وتأمين المخاطرة فى البحث عن الفهم والفعل الذى يفتح الاحتمالات للحياة الخلاقة (Reason, 1994, p.9).

إن القيمة القوية للخبرة والارتباط، والإدراك الواضح للأبعاد الانفعالية والأخلاقية فى العلاقات الإنسانية، والرغبة فى امتلاك عالم من الخبرة الماضية والافتراضات المسبقة غير الصادقة (ضد الوضعية) والالتزام بالحياة الخلاقة، تعتبر من العناصر الرئيسية. ويكون التركيز منصبا على الأفراد وتنظيماتهم فى مواقفهم وأوضاعهم المحلية، وعلى الناس الذين يحاولون أن يعيشوا حياة أكثر إبداعا. وفى نفس الوقت يوجد اهتمام قليل نسبيا بالتنظيمات الاقتصادية السياسية الكبرى، أو الأنساق الأكبر التى ينفصلون عنها.

إن أهداف الاستقصاء الإنسانى تتسم بالجرأة والوضوح. وبالفعل فقد طرح ريسون عام ١٩٩٤ معرفة محددة، ومجموعة من الأساليب التى بدت

كنتيجة لهذه المعرفة، وتاريخ العلم والذى يساند ويدعم الافتراضات المعرفية والممارسات الفنية، وسلسلة من خطط وبرامج الإصلاح الاجتماعى، والتى تشمل تحقيق الديمقراطية، وتحسين الخدمات الاجتماعية، ودمج الآراء المتعلقة بالجنس (النوع) فى جميع أبعاد التغيير الاجتماعى. وفى هذا الإطار كان الاستقصاء الإنسانى على الأقل من بين معظم المجموعات المعقدة والمتنامية من التنظير والممارسة فى الإطار الذى يتم من خلاله دمج علم النفس الاجتماعى والعلاقات الإنسانية والموجودة فى بحوث الفعل.

وقد أسس ريسون العمل حول إطار مبنى بعناية، يركز على أولوية امتلاك مشاركة عالمية لاختيار منهجية مشاركة مناسبة. وبكلمات أخرى فالأساليب بمفردها غير كافية لإنتاج نوع من العمل المرغوب، وهو الموضوع الذى يتم تجاهله فى الغالب من الباحثين الآخرين. فالأساليب يجب إدارتها والتعامل بها من خلال رؤية واسعة من العالم والعلاقات الإنسانية والتى تفضل المشاركة كمسألة مبدأ وحالة ممارسة. ومن ثم فهذه هى الخطوة التى يجب اتخاذها فقط للتحول من دراسة الموضوعات من البحوث التقليدية إلى البحوث التعاونية.

ومثل الكثيرين منا فقد سأل ريسون عن أسباب سيطرة العلوم الاجتماعية التقليدية التى تتسم بعدم المشاركة والاتجاهات القليلة على البحث الاجتماعى، وقدم نظرته التاريخية النوعية. ونحن ننضم ونرتبط جميعا بمثل هذه الجهود بسبب أنه ليس كافيا أن ندعى ببساطة أن بحوث الفعل هى الوسيلة الأفضل لإدارة البحث من البحوث الاجتماعية التقليدية. وأنه من الضرورى أيضا أن نتعامل مع سيطرة العلوم الاجتماعية باتجاهاتها التى ندعى أنها تتسم بضعف المستوى الواضح بالنسبة لبحوث الفعل.

وللتعامل مع مشكلة النماذج المسيطرة والاغترابية للاستقصاء الاجتماعى، فقد طور ريسون (١٩٩٤) "قصة كبيرة **Grand Narrative**" عن نمو الوعى الإنسانى. وتدور فكرته الرئيسية حول أن البشر ينتقلون من المشاركة اللاواعية (اللاشعورية) إلى شكل من الاغتراب الذى تخلقه السيطرة الأبوية **patriarchal**، ومن ثم البحث عن التحرر بنوع من المشاركة المستقبلية التى تقوم على أساس من الوعى الذاتى وردود الفعل الذاتية. وقد وصفت هذه المشاركة المباشرة على أنها تعمل فى العلم الباتيسونى **Batesonian** فى النمط والشكل (**Bateson, 1979**). إنها تتضمن الاستخدام الشعورى للتخيل، وتقدم لكل خبرة مختلفة عن الذات من تلك الشائعة الاستخدام فى اتجاهات التقسيم الجنسى.

ومن ثم فإن الاستقصاء الإنسانى قد وضع فى هذا السياق كطريقة أو كتدريب، ومجموعة من القواعد والتمارين أو الإجراءات (**Reason,1994, p.40**) التى تقود إلى نوع جديد من النتائج المشتركة. وكما أشرنا سابقا فقد قدم ريسون تصنيفاً لأنماط المعرفة تعتبر جميعها معابر **Scaffolding** أساسية (مرتكزات رئيسية) للاستقصاء الإنساني؛ وهى المعرفة التجريبية والمعرفة التقديمية، والمعرفة العملية، والمعرفة الافتراضية **Propositional**. وقد وجدنا أن دراسة هذه المصطلحات يعتبر مساهمة مثمرة ونوعية لأنها تستدعى الانتباه للأنشطة المتنوعة التى تشكل بالضرورة جزءا من المفهوم الواسع والخادع للمعرفة. إنها تؤكد أيضا فشل العلوم الاجتماعية التقليدية فى تذكر كيف تكون المعرفة مختلفة ومعقدة، وكيف أن المعرفة تبنى على أساس المزج بين المعرفة والفعل وتعاقبهما فى سياق محدد.

ونحن نتفق أيضا مع ريسون فى أن عملية الاستقصاء تنتقل من خلال المراحل التى تسود فيها نماذج المعرفة. وبالنسبة لنا فإن طريقة فهم

تطور المعرفة فى بحوث الفعل تعتبر واحدة من أكثر الجوانب المثمرة لعمل ريسون. إن كتابة بحوث الفعل توفر لنا القليل جدا مثل الخصائص المساعدة للممارسين على تحديد مكانهم وسماتهم وأشكال تعاونهم داخل العمليات التعاونية. ويوجه هذا الإطار بدرجة ما إلى أدبيات علم النفس الاجتماعى فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، ولكن يعتبر هذا تم وضعه فى نظام أكثر فعالية لأغراض البحث هنا. ويعتبر ذلك مهما جدا بسبب أن التركيبات المعقدة لأول وثانى وثالث شخص فى العمليات والأنواع المتعددة من المعرفة التى تم إنتاجها فى بحوث الفعل غالبا ما تربك قدرة باحثى الفعل على تشكيل وتفسير أنفسهم. ويخدم هذا الإطار أى سياق كخريطة مفيدة لكل أشكال ونماذج بحوث الفعل.

وفى الاستقصاء الإنسانى نفسه فإن هذه المراحل تبدأ مع الباحثين المتعاونين الذين يدرسون الموضوع معا. وبالنسبة لريسون (١٩٩٤) فإن تكوين أشكال ونماذج المعرفة تعتبر افتراضية أساسا على الرغم من وجود المعرفة التقديمية أيضا. وعندما تتعمق العملية يصبح الباحثون المتعاونون فاعلين متعاونين. وعند هذا الحد تكون أنواع المعرفة عملية بشكل أساسى. وفى المرحلة التالية يصبح الفاعلون المتعاونون متعايشين ومنغمسين فى حقائق ووقائع بعضهم البعض وتعتبر أشكال المعرفة هنا تجريبية. وأخيرا يبدأ الفاعلون المتعاونون فى الظهور معا من العملية البحثية. إنهم يسترجعون ويعدلون أو ينكرون بعض الأفكار. وعند هذا الحد تكون المعرفة افتراضية. ولكن تستخدم عناصر المعرفة التقديمية فى الربط بين المعرفة التجريبية والعملية التى تم الوصول إليها من مكتسبات عملية المعرفة الافتراضية.

ويعتبر ذلك مفيدا بشكل خاص بسبب أن الغالبية العظمى من مشروعات بحوث الفعل يبدأ إلى حد ما كبحوث تقليدية أو كأنشطة حل

المشكلة. حقا لقد شعر الكثير من طلابنا بالارتباك حول ما إذا كانوا يقومون بعمل بحوث فعل ككل أم لا عندما يبدعون عملهم. ويبدو أن هناك افتراضا أساسيا بأن مشروعات بحوث الفعل قد ولدت وتشكلت بشكل تام بطريقة ديمقراطية وتعاونية واسعة. ونرى من واقع خبرتنا ومن جزء من مقدمة عمل ريسون أن بحوث الفعل هى العملية التى يمكن أن تبدأ بطريقة هرمية غير واعدة ثم تتخذ اتجاها آخر جديدا داخل أشكال من المشاركة التجريبية والأكثر مخاطرة. وهذا بالتأكيد ما يتفق مع خبراتنا.

(Greenwood, Whyte, & Harkavy, 1993)

ومنذ أن أصبح بحث الفعل عملية، وليس شيئا، فقد أعطى جزءا كبيرا فى هذه العملية العديد من الفرص المتاحة والمتنوعة لتجديدها من خلال انفتاحها نحو تعاون أكبر وإعطاء الفرصة للمشاركين لكى يصبحوا فاعلين متعاونين. وبالضبط إلى أى مدى تعتمد العملية على مهارات المشاركين، وعلى الموقف وعلى مزاج ومواقف الفاعلين المشاركين والعوامل المحلية الأخرى. وما هو مهم الآن هو أن العملية تبدأ فى مكان ما (تقريبا) وأن باحثى الفعل يبذلون جهودًا منظمة لضم المشاركين كباحثين متعاونين. وفى عملية الكشف عن ذلك كان لريسون اهتمام كبير للحديث عن ملكية **Ownership** المشروعات وعلاقات القوة والمشكلات وفرص التعاون.

والنقطة الأخرى التى جاءت بوضوح فى مقالة ريسون (١٩٩٤) هى أن كونك باحثا جيدا ليس كافيا لعمل مشروع بحث فعل جيد. وللعمل فى الاستقصاء الإنسانى يجب أن يطور الباحث مهارات التيسير الجيدة، وأن يكون لديه الفهم الجيد لعمليات الجماعة. ويمكن أن تستخدم كل أنواع التدريب فى العلوم الاجتماعية الرسمية فى العالم ولكنها لن تكون كافية. فطلاب الاستقصاء الإنسانى يجب أن يتفهموا عمليات الجماعة، ويجب أن يسعوا إلى

تطوير أنفسهم كميسرين وشركاء، ويجب أن يستمروا فى الكفاح للانـضمام المتميز كباحثين مع الالتزامات الأخلاقية والسياسية كفاعلين متعاونين مـع شركائهم المحليين. ويعتبر هذا أيضا سببًا لسلامة وصحة رأى ريسون وحثه على ضرورة امتلاك الشراكة العالمية لكى تتلاءم منهجية الشراكة. وبـدون هذه الملاءمة العالمية، فإن هذه الطرق لن تأخذنا إلى أى مكان والتحـولات والانتقالات التى نقوم بها لن تحقق أى نتائج مرغوبة.

ويعتبر ريسون زملاءه أيضا من المدافعين عن "القـصص الجيـدة Good Stories" كعناصر نقدية فى هذا العمل. وقد سمح باحثو الفعل لمـدة طويلة جدا لأنفسهم لأن يكونوا مجبرين بواسـطة البـاحثين الاجتمـاعيين التقليديين الذين يقللون من طموحات بحوث الفعل من خلال ادعائهم بأننا فقط مجرد "رواة قصص". ويعتبر هذا الانتقاد محاولة دفاع خلفية لتبريـر ذلـك القناع من الميول الاغترابية والمشوهة للبحوث الاجتماعية التقليدية. وكمـا أشرنا فى الفصل السابع فإن الروايات القوية تعتبر أسـاس بحـوث الفعـل وضرورية لأى نوع من محاولات العلوم الاجتماعية، وقد وجـدت لنفـسها مكانا فى أعمال ريسون. وفقط من خلال الفهم التفصيلى للواقـع المنطقـى للمواقف الإنسانية كما يتم معايـشتها والمـشاركة فيهـا بـشكل دينـامى، يمكن أن نصل إلى القضايا الأساسية الكبرى وأسبابها، والتى تـساعدنا فـى وضعها فى اعتبارنا.

وتتمثل العقيدة الرئيسية لبحوث الفعل فى تحويل الناس الـذين هـم موضوع Subjects البحث فى البحوث التقليدية إلى باحثين متعاونين. ولـم يؤكد ريسون وزملاؤه فقط على ذلك، ولكنهم أيضا أعطوا اهتمامـا كبيـرا للمناقشة التفصيلية لنمو هذه العلاقات التعاونية نظريا ومنهجيا أكثر مما فعل الآخرون. والتركيز على الشخص الأول والشخص الثانى يؤدى إلى التركيز القوى على العناصر البنائية لمثل هذه العلاقات.

على سبيل المثال نجد أن جون روان **John Rowan** الـذى زامـل ريسون مدة طويلة من الزمن قد ركز بقوة على الحاجة إلـى تكـوين ذات الباحث وتطويرها كجزء من العملية لكى يصبح قادرا بشكل أفـضل علـى العمل مع الآخرين. وبينما يبدأ ذلك بنمو الشخـصية، فإنـه أيـضا يـرتبط بالأصول الشخصية، والتى تعتبر ضرورية لازدهار علاقات بحوث الفعـل **(Rowan, 2001, pp. 114-115)**. وبوجه خاص فقد حث روان علـى أن أى تحركات تعتبر ضرورية لو انتقلنا بعيدا عن البحوث الاغترابية **(alienated)** وفى اتجاه عمليات البحوث بالمشاركة. لذلك فإن نوع الذات فى بحوث الفعل التقليدية ليست هى ذات الباحث الموضوعى **Objectivist** الذى يتخيـل أنـه يستطيع أن يفكر ويبرر بنفسه تماما خارج البحث، ولكنها ذات حساسة وقوية ترتبط تلقائيا مع الآخرين فى استقصاء تعاونى.

ولوصف البحث بهذا الشكل صرح جون هيرسون بأن الاستقـصاء التعاونى "يكون ذا مشاركة عالية" له شكل التركيز السياسى **Micropolitical** ويكتسب أهميته بكونه عملية تعليمية وعملية تحرر سياسى. إنها تمكن مـن الاستقلالية والعمل التعاونى بين الناس ضد أى نوع من العمليات الاجتماعية السلطوية والمتحكمة **(Heron, 2001, p.333)**. وقد أسماها استقـصاء عبـر الشخصية **Transpersonal Inquiry** وركز على التوزيع المتجانس كعمليـة شاملة تسبب نوعا من الدينامية والنمو الذى نبحث عنـه. وتـستهدف هـذه العملية تغيير حالة الوعى وتخلق لغة مشتركة ومساحة من الحوار الهـادئ. كما أنها أيضا تنشد الوصول إلى أسلوب من التفكير القـائم علـى أسـاس الاستقـصاء، وردود الفعـل النقديـة وتحويـل القـوة إلـى المـشاركين **(Heron,2001,p.334)**.

وكما هو واضح، يعتبر الاغتراب عن المجتمع واحـدا مـن أهـم المشكلات التى تواجهها بحوث الفعل. ويعتبر كل مـن المـذهب الفـردى

الراديكالى والتوجه الفكرى الليبرالى القائم على نوع من النفعية، والذى يؤسس كثيرا جدا للعلوم الاجتماعية والسياسة الاجتماعية دليلاً على الاغتراب ولعل المخرج الوحيد فقط هو فى اتجاه بحوث الفعل من خلال الدمج القوى للوعى الذاتى مع الوعى بالذات فى سياق الآخرين.

وفى ضوء مؤشرات ريسون وروان وهيرون فإن هذا النوع المرغوب من الشعور **Consciousness** يعتبر جذابًا نظرا لأنه يتضمن الإدراك الذاتى وردود الفعل الذاتية، ويقوم على أساس الحياة فى عالم مرن من الأنماط والأشكال الدينامية، ويتضمن أيضا استخدام التخيل والانفعالات والفكر معا كأدوات. ويقود الاستقصاء الإنسانى والتعاونى المستقصى **Inquirer** ليس فقط لإدارة البحث بتميز، ولكن أيضا ليعيش فى العالم كنوع متميز من الأشخاص. وهذا الهدف يضع الأساس لبحوث فعل جذابة فى العديد من مظاهرها، ولكن هذا الهدف كان تحديده قليلا فى معظم الكتابات. وبالتركيز على أن الاستقصاء الإنسانى يعتبر نظامًا وممارسة وأن لدى الباحث خصائص المعلم، فإن هؤلاء الكتاب ركزوا على أن بحوث الفعل تتضمن كل المشاركين فى عملية الاكتشاف الذاتى **Self-Discover** من خلال بعضهم البعض.

ويتضمن الاستقصاء الإنسانى تعاملا عظيما مع القيم. وسواء اتفق أحدهم أو لم يتفق مع هذا المنظور، فإن هذا الاتجاه يتضمن المعرفة المنظمة والتطور المنهجى، ويعتبر مضادا قويا للتكاسل الفكرى، والذى يميز كثيرا بحوث الفعل. وغالبا ما نجد فى بحوث الفعل أن المبرر الذى يقوم به الباحث يقدم تغطية على رفض الباحث أو عدم قدرته على إنجاز الجهود العقلية التى يحتاجها للتفكير العميق فيما يفعله وكيف يستطيع تحسينه.

استقصاء الفعل واستقصاء الانعكاس الذاتى

Action Inquiry and Self- Reflective Inquiry

يوجد داخل هذه المنظومة من الاتجاهات بوضوح مجموعة متنوعة من التأكيدات. وأحد هذه التأكيدات يتخذ اتجاه التقدم التدريجى نحو الاستقصاء الشخصى لجعل عمليات بحوث الفعل ممكنة. وقد تأثر بعض من هذا العمل بإنجاز أرجيرس **Argyris** (انظر الفصل الخامس عشر "بحوث الفعل والتعلم التنظيمى") وأيضا يرجع الفضل لأعمال كل من كورت ليفين وبعض علماء علم النفس الاجتماعى وبعض نماذج العلاج النفسي. ولعل من بين المناصرين الرئيسيين لهذه الاتجاهات ويليام توربورت وجودى مارشال وقد أطلق توربورت **(2001) Torbert** على هذا العمل اسم استقصاء الفعل **Action Inquiry**، بينما أطلق عليه جودى مارشال **(2001) Marshall** اسم استقصاء الانعكاس الذاتى **Self-Reflective Inquiry**. ويمكن الوصول إلى مجموعة أوراق العمل التى تناولت هذه الاتجاهات فى الإصدار الخاص ببحوث الفعل والمخصص لـ "ممارسة ردود الفعل الذاتية وبحوث فعل الشخص الأول" **(Marshall & Mead, 2005)**.

استقصاء الفعل لوليام توربيرت

William Torbert on Action Inquiry

على الرغم من أن توربيرت قد كون هذه الأفكار فى العديد من الإصدارات، واستمر فى تطويرها، فإننا نشير إلى أكثر الإصدارات شمولا لآرائه، قوة التوازن **The power of Balance (1991)**. وقد بدأ هذا الكتاب بمقدمة افتتاحية لدونالد سكون، الذى لم يقر بالكثير من الأشياء التى تناولها

هذا الكتاب، ولكنه يفرض علينا أن نتعلم بفعالية منه. ولعل جزءا من أسباب عدم إقرار سكون ربما يرجع إلى حقيقة أن توربيرت أحيانا ما يكون متطرفا، وقد يؤدى ذلك جزئيا إلى حقيقة أن توربيرت أحيانا ما يكون لديه البوح الذاتى المؤلم **Painful Self- Revealing** عند معالجته لهذه الموضوعات. وعلى الرغم من أن هذه النغمة من البوح الذاتى ليست غريبة على الاستقصاء الإنسانى – واتجاهات الاستقصاء التعاونية، فإن توربيرت يعتبر أكثر إلحاحا وحدة وخاصة فى تركيزه الحاد والقوى على الذات ونقاط ضعفها، والتى تمثل عامل الكفاءة الرئيسى فى باحثى الفعل. وقد أكد أن التحول الاجتماعى يحتاج إلى التحول الذاتى **Self-Transformation** وأظهر فى معظم كتاباته أن ذلك يحتاج إلى تعامل جيد من التأمل والتفكير العميق ونوع محدد من الانفتاح على بعض جونب الشخصية التى تحاول معظم الاتجاهات إخفاءها.

وقبل مناقشة المؤلفين هنا، فقد عمل توربيرت بجدية على تحقيق التغيير التعاونى القائم على العديد من المرجعيات فى الأفراد والجماعات وعلى المستويات السياسية الكبرى. وقد أدخل توربيرت علاقات القوة بشكل روتينى بوسيلة مباشرة جعلت تحليله إضافة قيمة إلى مجموعة أعماله بوجه عام. وقد بدأ برؤية أن القوة كما يمكن تصورها بشكل عادى (أى القوة على الآخرين) هى أضعف كثيرا عمّا أسماها "قوة التوازن **Power of Balance**"، "وهى الشكل الشرعى أو الصحيح ذاتيا للقوة **Self-Legitimating Form** والذى يشجع على التبادلية، والتى تقوى هؤلاء الذين يلبون لهذه الدعوة مع مبادراتهم الذاتية، وما ينتج عن ذلك كل من الإنتاجية والاستقصاء، وكل من التحول والاستقرار، وأيضا كل من الحرية والتنظيم". (ص.٢٠) ويتمثل الهدف من استقصاء الفعل فى تعلم كيفية التدريب على هذا النوع من القوة فرديا أو جماعيا أو عبر الأجيال.

ومن ثم فقد ميز توربيرت بين أربعة أنواع من القوة؛ الأحادية Unilateral والدبلوماسية Diplomatic واللوجستية Logistical والتحويلية Transforming. ودمج هذه الأنماط الأربعة ينهض بقوة التوازن. وهذا التوازن جاء من ما أطلق علية "العقلانية البناءة Constructive Rationality" والتى ترغب فى تحقيق حقوق الأفراد وعلاقات اجتماعية أكثر عدالة. وبالتالى تكمن جذور هذا المنظور فى الرؤية السياسية الكبرى التى بنيت على أساس ديناميات الجماعة والفعل الفردى، وكل ذلك يعتبر من المقومات الضرورية فى نمو التوازن. وفيما يتعلق بذلك فإن إنجاز توربيرت يتسم بالتميز نظرا لأنه يتضمن نظرة دقيقة للبيئة السياسية والاجتماعية على المستوى الأكبر.

وبالتعاطى مع الخبرة الطويلة لتوربيرت فى التعليم بالمدارس التجارية وعمله بالقطاع الخاص، فإن كل الأمثلة التى تناولها والمناقشات التى قام بها كانت منبثقة من هذه المواقع. وقد تضمن هذا العمل مثالا طويلا عن إصلاح المناهج فى المدارس التجارية. وقد بقى هذا المثال واحدًا من عدد قليل جدا من حسابات بحوث الفعل فى تغيير المناهج فى التعليم العالى (Reynolds, 1994). وهذا العمل قد التحق به مباشرة تحليلات قصيرة لأفعال الأفراد والجماعات، والتى غالبا ما توفر أمثلة توضيحية قوية وحيوية من موضوعاته الرئيسية.

وتعتبر الممارسة الرئيسية فى استقصاء الفعل هى ما أطلق عليها توربيرت "خلق البناءات الليبرالية Liberating Structures". وبدلا من المناقشات التى تدور ضد البناء، ناقش توربيرت البناءات التى تقود الناس إلى تطوير أنفسهم وعلاقاتهم فى عملية مستمرة من النمو، والمواجهة والتطوير. ومن وجهة النظر هذه فإنه بدون البناء فلا توجد حركة أو نشاط،

بينما توجد فى البناءات القهرية المقاومة فقط. أما البناءات الليبرالية فهى تمثل استقصاء فعل بارز.

وقد حدد توربيرت قائمة من ثمانى خصائص وسمات جوهرية للبناءات الليبرالية، الأولى تتضمن التحرر من التجاهل المدروس لنقل الناس خارج الأساليب التقليدية للتفكير حول تنظيماتهم. أما الثانية فتتمثل فى تحديد البناءات الليبرالية للمهام المتكاملة والموجهة بالأساليب والطرق التى تتوافق مع القيم العريضة للنمو التنظيمى. والثالثة أنها تتضمن التغيير المتعمد والمتوقع طوال الوقت. ورابعا يجب أن تخلق هذه العمليات حلقات مستمرة من البحوث الإمبيريقية والتجريبية والتغذية العكسية للمشاركين. وخامسا يمكن أن تستخدم القيادة كل الأشكال المتاحة من القوة لتحقيق هذه الأهداف. وسادسا فالبناءات دائمة مفتوحة لأى تحديات بواسطة أعضاء التنظيمات. وسابعا فإنه يجب محاسبة القيادة بنفس القيم التى تعتنقها المؤسسة. وثامنا تهدف القيادة إلى تتبع الصراعات الشخصية والتنظيمية وتعديلها.

وعلى الرغم من أن هذه الأوضاع تحاكى أطر العمل الأخرى، فإن مزيج توربيرت يعتبر فريدا. ولعل توربيرت أكثر انتباها لمعضلات ومشكلات ممارسة القيادة والقوة. ولعل منظومة الأبعاد المبكرة التى انتهت فى مثال طويل من إصلاح المناهج، والذى تولاه توربيرت فى كلية التجارة بجامعةِ ميثوديست الجنوبية. فالروايات الفعالة، والتحديد الإثنوجرافى، والتحرك ذهابا وعودة بين القصة التنظيمية والأبعاد الوجودية والشخصية للعملية، والسياسات الكبرى للمدرسة جعل هذا العمل حالة ذات قيمة وفريدة للقراءة. ولعل كل من المواءمات والبدايات والشكوك والمخاوف والإحباطات والمخاطر والأخطاء التى بالضرورة تصاحب التغيير التنظيمى الكبير يعتبر من الرائع إعادة حكايتها. وهذا يتم حبكه بالتدريج داخل قصة كبيرة عن ميل

توربيرت الخاص بوصفه معلمًا وزوجًا وصديقًا وقائدًا. وتقدم نبرة الاعتراف في هذه الكتابات عدد محدود من الحسابات المنشورة عن الجانب الوجـــودى في بحوث الفعل، ويذكرنا ذلك بأن الارتباط بالاستقصاء يربطنا جميعا على كل المستويات وليس فقط بوصفنا مهنيين مدربين.

وقد استمر في تطوير هذه الآراء في العديد من الكتابات المتنوعـــة. ويمكن الحصول على ملخص مختصر لممارساته فـــى كتـــاب تـــوربيرت (٢٠٠١). وقد حدد أيضا آراءه في إطار واسع من مجال بحوث الفعل فـــى مقالة شيقة عن "الصفات المميزة لبحوث الفعـــل **(Chandler & Torbert, 2003)**. وخصوصا مجموعة أمثلة الحالات الملفتة للانتباه الموجودة في كتاب شيرمان وتوربيرت **Sherman and Tolbert (2001)**.

استقصاء الانعكاس الذاتي لجودى مارشال

Judi Marshall on Self-Reflective

جودى مارشال التي زاملت بيتر ريسون لفترة طويلة من الزمن قـــد وضـــعت بحث فعل أول شخص **First-Person action research** في اهتمامها الخاص. لقد وفرت ملخصا لمجمل ممارساتها في دليل بحوث الفعل (٢٠٠١) وربطت عملها بالنظرية العامـــة للأنساق في مقالتها العلمية عن بحوث الفعل **(Marshall, 2004)**. وتتمثل نقطة الانطـــلاق عندها في أن الاستقصاء في حد ذاته يحتاج إلى نظام وهـــو مـــا أطلقـــت عليـــه "تظـــم الانتباه **Attentional Disciplines**" والتي تعتبر أساسية لنجاح عمليات بحوث الفعـــل. وعملية نظم الانتباه هذه ليس لها أوصاف ضيقة أو قواعد، ولكنها على الأصح عبارة عن وسائل للنمو العام ومهارة الاستقصاء. وفي الإطار الذي حددته مارشـــال فـــإن الاستقصاء في حد ذاته هو جزء رئيسي في الحياة. وقد صرحت " أنا حاليا أفـــضل

فكرة أن الاستقصاء عملية حياة، وأعتبر أن كيفية السؤال أو الاستقصاء هو جوهر وجودى، وأن وجودى الكامل أو المتعدد يدخل فى أى بحث أتولى مسئوليته" (Marshall, 2004, p. 438)

وقد أكدت مارشال على أنه يجب أن يوجه الانتباه إلى الداخل والخارج فى بحوث الفعل وأن نظم الانتباه هذه تتخذ مكانها فى سياق من الدائرة المنظمة بين الفعل وانعكاسه، وبين كل من الفعل وإدراك الفعل. ولا يمكن أن يكون الاستقصاء غير مقصود، على الرغم من أن الخيال القصصى لبعض الممارسين يرى أنه يجب أن تتحدد بحوث الفعل بواسطة أى شخص آخر، ويجب أن يكون الباحثون أنفسهم محايدين تماما. ونعتقد أن تأكيدات مارشال كانت بحق مدروسة بعناية وعن قصد بينما حافظت على الانفتاح والقبول، والمهارة التى يمكن أن تتحقق فقط من خلال تقوية الفهم الجيد للأنانية والدوافع والحاجات المتأصلة الخاصة بشخص. وبشكل واضح فإن الوزن الأكبر لعمل لكل من توربيرت ومارشال يتخذ مكانه بقوة فى نظم الانتباه وتعزيز المعرفة الذاتية كمتطلب سابق وربما كدافع أساسى لبحوث الفعل.

الاستقصاء التعاونى Cooperative Inquiry

الاستقصاء التعاونى لجون هيرون John Heron Collaborative Inquiry

جون هيرون John Heron هو أحد المتعاونين والناقد الصديق لبيتر ريسون Peter Reason (الذى وضع نموذجًا جديدًا للبحث الجماعى بلندن عام ١٩٨٧ بالتعاون مع ريسون وجون روان John Rowan). وهو أيضا كاتب وممارس مثمر بحكم سمعته الشخصية. وكان تركيز جون هيرون بوجه عام فى عمله على العمليات الكبرى فى البحث وعن قضايا المصداقية والتى جعلته ذات قيمة بالنسبة لنا للتعامل مع هذا العمل وفقا لتوجهاته الخاصة.

وكان كتابة الرئيسى عن هذه الموضوعات "الاستقصاء التعاونى: البحث فى الظروف الاجتماعية **Co-Operative Inquiry; research into human conditions**" يمثل تطويرا شاملا للأسس المعرفية والمنهجية لبحوث الفعل. وقد بدأ الكتاب بالتنصل من أى رغبة فى خلق أى أرثوذوكسية أخرى. وقد سعى هيرون بفعالية لتخطيط اتجاهه على أساس وجود الأنشطة الأخرى، شاملة الاستقصاء الكيفى بوجه عام، ووعد بالكشف عن نموذج الاستقصاء الذى يقوم عليه اتجاهه ومقارنته بالاستقصاءات الأخرى. وقد حاول الوصول إلى المستوى الذى توقعه، وقد استخدم نموذجا جذابا وغير محدود للتعامل مع الموضوعات المعقدة.

وكانت نقطة الانطلاق فى الاستقصاء المقارن تتمثل فى الواقعية المشتركة **Participative Reality**، والذى أشار إليه هيرون على إنه التلازم بين العقل والطبيعة (تذكر الأحداث الماضية **Reminiscent** لباتيسون **Bateson, 1979**) والإنتاج الضرورى والتعاونى لجودة المعرفة الإنسانية. إن ما وضع معالجة هيرون جانبا هو تمييزه بين الواقعية المشتركة باعتبارها قضية معرفية والقيم السياسية والأخلاقية المهمة والقوية للمشاركة والتنمية الإنسانية. وقد تم معالجتهما على أنهما بعدان متمايزان. إنه لم يحاول أن يشتق أحدهما من الآخر، كما يتم فعل ذلك غالبا. إن تحقيق ديمقراطية إدارة البحث العلمى تعتبر قضية حقوق إنسان مثلها مثل ديمقراطية الحكومات على المستويات المحلية والقومية (**1996, p. 21**).

وقد ربطت مناقشته للاستقصاء التعاونى الفعال بين مفهومين للمشاركة، وقد دافع عنهما دفاعا علميا منظما ضد الاتجاهات الأخرى التى تعتبر أكثر محدودية. لقد استخدم الاختلافات بين المعرفة التجريبية والتقديمية والعملية فى كل مكان عندما يبدأ باحث الفعل الجيد فى العملية بواسطة المعرفة التجريبية.

وقد واجه هيرون أيضا قضايا الحقيقة والمصداقية بإنصاف، بدلا من القيام بتبرير أى انحرافات منهجية أو معرفية. ويعتبر هيرون من المعتقدين الأقوياء بوجهة نظر بحوث الفعل عن المعرفة. وقد عمل هيرون خلال أساليب مختلفة لبدء عملية الاستقصاء، وكان من الممكن حدوث أشياء مختلفة فى مراحل متنوعة. وعلى الرغم من ذلك لم يتوفر أى حل لمشكلات التأليف التعاونى، وقد واجه هيرون هذه القضايا بشكل مباشر وصريح.

وقد تنبه هيرون بوجه خاص إلى قضايا المصداقية وقد قدم مساهمات مهمة فى مناقشته الواسعة عن بحوث الفعل. وقد ربط حلقات الاستقصاء وردود الفعل والفعل وغيرها من العناصر بوجهة النظر الكلية عن ما الذى يؤسس للمصداقية فى هذا النوع من العمل. ونعتقد أن هذا لا يزال مستقرا كأكثر العبارات شمولا لاتجاه المصداقية الموجود فى أدبيات بحوث الفعل. وقد كانت دفاعات هيرون من خلال إجراءات المصداقية عبارة عن عملية توازن بين التقارب والتشتت، وعناصر رد الفعل. وقد تم مناقشة المصداقية بصورة أكبر فى الفصل الرابع. وكما هو دائما فى بحوث الفعل فإنهم يضمنون الفعل أو حلول عملية.

وقد أخذنا هيرون إلى هذا الطريق الطويل حيث عاد (١٩٩٦) إلى وجهة نظر العالم الكبرى التى توجه الاستقصاء التعاونى. وقد صرح مرة أخرى بالتزامه بما أطلق عليه الإمبيريقية. ولكنه أفسد ذلك بتأكيده على أن الإمبيريقية تعنى عدم الحكم المسبق على محتوى الخبرة. وقد باشر هيرون بفعالية مفكرى الاتجاهات الإمبيريقية فى أماكن نفوذهم على أن آراءهم الخاصة عن الإمبيريقية ليست كافية تماما. وقد أغلق العمل من خلال إظهار كيف أن الاستقصاء التعاونى الفعال هو أفضل فى تحديد المشكلات والمعضلات السياسية والإمبيريقية والنظرية من البحث الاجتماعى التقليدى.

المصداقية Validity

كان تأكيد هيرون على المصداقية هو ما تبناه كل من برادبورى وريسون فى الفصل الأخير من دليل بحوث الفعل (Bradbury & Reason, 2001) وكان اختيارا مشوقا حيث بين أن مناقشة هيرون لأهمية تناول قضية المصداقية فى بحوث الفعل قد لاقت قبولا واسعا. وبدلا من القول إن إجراء البحث بطريقة جيدة أخلاقيا ينتج تلقائيا بحثا جيدا، أصبح من الواضح الآن أنه يجب علينا تنظيم مناقشات دفاعية تتعلق بجودة أعمالنا ومصداقيتها.

وقد راجع كل من برادبورى وريسون المعانى المتعددة للمصداقية وكيف أن يكون من غير المقبول لبحوث الفعل أن تقبل محاولة أفكار ما بعد الحداثة فى تحطيم كل معايير المصداقية. لقد ربطوا قضايا المصداقية بقضايا الجودة نظرا لأنه بدون الحكم على ما هو ذو جودة مناسبة من الصعب تحديد ما العمل الصادق. وتعتمد الجودة بصورة كبيرة على أهداف الاستقصاء. لذلك فإن قيمة العمل تعتبر من العناصر الرئيسية فى الحكم على المصداقية.

والمصداقية فى بحوث الفعل شأنها شأن أى شيء آخر هى ديناميكية، وإجرائية. وتوجد العديد من الوسائل المختلفة للتعامل مع المصداقية فى كل نوع من العملية وكل نوع من المعرفة المنتشرة. وقد أنهى برادبورى وريسون مقالتهما بصياغة أكثر حماسة والتى نعرضها كالتالى:

القضايا كنقاط اختيار وتساؤلات حول جودة بحوث الفعل

هل بحوث الفعل:

- واضحة فى تطوير تطبيقات المشاركة- الاتصال؟
- تسترشد بردود الفعل حول النتائج العملية؟
- متضمنة للمعارف المتعددة؟

- تضمن التكامل النظرى-المفاهيمى؟
- وسائل تقبل ما وراء العقل؟
- تختار بعناية طرق البحث المناسبة؟
- جديرة بمصطلح الدلالة والأهمية؟
- تبدو قريبة من أن تكون بنية تحتية راسخة؟

(Bradbury & Reason, 2001, p. 454)

الخلاصة:

إن الإتيان بكل مسارات الفكر هذه يعطى لنا وجهة نظر واسعة عن مجموعة محددة من الاتجاهات المرتبطة ببحوث الفعل والراسخة بقوة فى علم النفس الاجتماعى والنمو التنظيمى وأنشطة الخدمات الإنسانية. ويقوم الممارسون بمحاولات أكثر من أى أطراف أخرى وضع خريطة لمجالات بحوث الفعل وربط المناقشات عن الموارد المتفاوتة وميادين ممارسة بحوث الفعل فى حوار عالمى واسع. وقد كانت هذه المساهمة الكبيرة والميدانية مختلفة بدرجة كبيرة الآن عما كانت عليه حتى قبل خمس سنوات بسبب هذا العمل.

ولدينا أيضا بعض الآمال فى أن تتخذ توجهات المستقبل مكانها تحت هذا العنوان. إن ما يعوقنا بشكل واضح هو أنه باستثناء بعض العناصر فى عمل توربيرت وهيرون، فإن نماذج الشخص الأول والشخص الثانى فى عملية الاستقصاء وتحليله ونظم الانتباه المصاحبة لهم تأخذ نصيب الأسد من الاهتمام. ويعتبر ذلك جزئيا نتيجة للدافعية القوية لهذه الجماعة فى علم النفس

الاجتماعى والعلاج النفسى، والممارسات الوسيطة. وهذا التأكيد يمثل مطابقة صحية للمبالغة فى التأكيد لمدة طويلة على نمـــاذج الـــشخص الثالـــث مـــن الاستقصاء فى كل من بحوث الفعل وفى العلوم الاجتماعية التقليدية. ولكـــن كل واحدة من هذه المبالغات لا تتفق فى الصحة مع الأخرى.

ومن خلال التركيز بقوة على أول وثانى شخص، قالت العديد مـــن الكتابات فى هذا المجال الكثير عن الديناميات الشخصية وبين الشخصية أكثر مما قالته عن الديناميات الأكبر للتغير التنظيمى والتحول. وتبدو التنظيمـــات وكأنها تتأرجح على خلفية التفاعلات الشخصية والمزدوجة بدلا من الأنساق التى تمتلك دينامياتها الخاصة أيضا.

ويربط بذلك أيضا - ولكن بدون أى معان ودلالات متـــضمنة فـــى إطار عمل- الميل إلى دراسة الجماعات الصغيرة والتركيز على نظام توزيع الخدمات الاجتماعية والمنظمات التعليمية. ولا تجد أى اهتمام هنا بكل مـــن منظمات القطاع العام الكبرى والبيروقراطيات الكبيرة والمؤسسات الصناعية ومبادرات التنمية الإقليمية والشركات متعددة الجنسيات وغيرها.

وتوجد هنا إشارات مهمة إلى أن هذا التغيير بـــسبب انتقـــال بيتـــر ريسون ورفقائه إلى ميادين كبيرة وجديدة للتطبيق والتى جعلـــت أنـــشطتهم ترتبط بالديمقراطية الصناعية المهددة لبحـــوث الفعـــل. وكـــان أحـــد هـــذه المشروعات باسم "إمكانية خفض الكربون: وذلك بدمج بحوث الفعل لتعزيز عملية تبنى إدخال الأساليب التكنولوجية الحديثة لخفض الكربون" وقد ســـعت لخلق فهم جديد لوسائل تغيير انبعاث الكربون، وخاصـــة فـــى الـــصناعات الغذائية. وعند تبنى ذلك ركزت الجماعة على المعوقات التنظيمية لحل هـــذه "الأزمة mess" والارتقاء بجهود التخصصات المتعددة والمتعاونة فى بحوث الفعل، والتى تشمل فريق مؤتمرات البناء والحوار، لمواجهة هذه التعقيـــدات .(**Reason, Personal communication**)

وقد ركز المشروع الكبير الآخر على التحول فـــى إدارة الخـــدمات العامة بويلز على وجه الخصوص مـــن خــــلال الاهتمـــام بتطـــوير الإدارة الوسطى. لقد ركز على بناء شبكة من التعلم المشترك من خــــلال عمليـــات إنتاج تعاونية. وكان لهذا البرنامج ثلاثة أهــداف: تطـــوير الإدارة، وخلـــق جماعات تعلم فعل، والتحول إلى الثقافة التنظيمية فى الخدمات العامة بـــويلز **(Reason, Personal communication)**

الفصل الخامس عشر

علوم الفعل والتعلم التنظيمى

Action Science and Organizational Learning

من خلال اختيار علوم الفعل (AS) والتعلم التنظيمـــى (OL) للعـــلاج الممتد، فإننا نؤكد على أهميتهما كأحد خطوط تنمية وتطوير اتجاهات بحوث الفعل لكورت ليفـــين (**Kurt Lewin,1935, 1943, 1948**) وكـــذلك الفلـــسفة البرجماتية والاستفادة منها فى بحوث الفعل الحالية. ونحن نعتقـــد أن علـــوم الفعل تجسد واحدة من أهم المحاولات المنظمة والمهمة لبناء بحوث الفعـــل بطريقة تحترم الحاجة إلى كل من الوضوح العلمى والفائدة العملية. ويعتبـــر كل من التعلم التنظيمى وأطر التنمية التنظيمية مساهمتين علميتين فى بنـــاء المعرفة فى العلوم الاجتماعية والتى ظهرت من بحوث الفعل. ومهما يكـــن فلن نكون عادلين إلا عندما نعرض انتقاداتنا بوضوح.

وتعتبر علوم الفعل ذات أهمية فى هذا الكتاب نظـــرا لأن مناقـــشتها تسمح لنا بتضمين اتجاه بحوث الفعل ذات التركيز السيكودينامى، كعنصر فى بحوث الفعل تم تقديمه على الأقل من ٥٠ سنة. وكان من أهـــم المهندســـين الرئيسيين لعلوم الفعل والتعلم التنظيمى كريس أرجيريس ودونالـــد ســـكون، وكلٌ منهما اتسم بغزارة كتاباته وشهرته بوصفه معلمًا. وقد كتب أرجيـــريس عن هذه الموضوعات والأفكار من العديد من وجهات النظر المتنوعة خلال ســـنوات **(1974, 1980, 1985, 1993; Argyris & Schon, 1978, 1996; Schon, 1983).** وقد اخترنا التركيز على محتويات عملين كبيرين هما "علوم

الفعل: مفاهيم وطرق ومهارات البحث والتدخل (Argyris, Putnam, & McClain Smith, 1985) وهى مقالة محورية عن اتجاه علوم الفعل: وكتابان الأول عن التعلم التنظيمى تأليف مشترك لكل من دونالد سكون والتعلم التنظيمى II (١٩٩٦). وقد ربطت هذه الأعمال بين علوم الفعل والممارسة الانعكاسية وبين آراء ووجهات نظر التعلم التنظيمى.

علوم الفعل Action Science (AS):

ونركز على كتاب علوم الفعل الذى ألفه كل من كريس أرجيريس وروبرت بوتنام وديانا ماكلين سميث Chris Argyris & Robert Putnam and Diana McClain Smith (1985) وهذا الكتاب متاح أيضا على الموقع الإلكترونى (http://www.actiondesign.com/acton_science/index.htm)

نظرا لأنه يحتوى على المقومات الأساسية لاتجاه علوم الفعل: ونحن كنا قادرين على استخدام هذا الكتاب فى الفصول الدراسية حيث نجح فى إجراء مناقشات واضحة لقارئه من أول مرة. ونحن نعتقد أن هذا الاتجاه يستحق تقديم عرض تفصيلى وممتد نظرا لأن علوم الفعل هى المعبر الرئيسى لتطوير بحوث الفعل، والتى تمزج عناصر من النظرية العامة للأنساق والتحليل النفسى ووجهات النظر حول السلوك التنظيمى. كما أنه ينطلق بوضوح من قضايا المعرفة العلمية فى ممارسة التغيير الاجتماعى. وحتى الآن يعتبر واحدا من أفضل الجهود التى تتعامل مع العلاقة بين بحوث الفعل والطرق العلمية.

وفى البدايات المبكرة لعلوم الفعل حدد المؤلفون غرضهم بوضوح فى "ينصب تركيزنا على المعرفة التى يمكن أن تستخدم لإنتاج الفعل، بينما

فى الوقت نفسه تساهم فى تكوين نظرية للفعل" (p. ix). ولتحقيق ذلك فقد ناقشوا الربط بين بناء النظرية واختبارها فى الفعل كمستودع فريد للأفعال.

وقد اعترف كل من أرجيرس وبوتنام وماكلين سميث أنه نادرا ما يتم القيام بهذه المحاولة: لقد عملوا على تفسير هذا الفشل من خلال مناقشة ما أطلقوا علية الصراع الزائف بين "الدقة **Rigor**" وبين "الارتباطية **Relevance**". وقد أشار المؤلفون إلى العادة التنظيمية الراسخة لمدة طويلة فى العلوم الاجتماعية والتى تفترض أن ما هو مرتبط، وما يرتبط بالعالم الواقعى فى المواقع المعروفة لا يمكن أن يكون بواسطة تحديد مصدر المعرفة الدقيقة. وقد رأوا أن الدقة والارتباطية تمثل تقسيمات زائفة. وبالإشارة إلى وجهة نظر ليفين بأن أفضل وسيلة لفهم شىء ما تكون بمحاولة تغييره، فقد رأوا أن الطريق إلى الدقة يقع فى محاولة تطبيق النظرية الاجتماعية فى علوم الفعل، وهى النظرة التى تتسق مع فلسفة بحوث الفعل والتى طرحناها فى فصل سابق.

المواجهة Confronting:

تعتبر المواجهة مفهومًا رئيسيًا وطريقة فى علوم الفعل. والمواجهة هى العملية التى بواسطتها يكون الفاعلون الاجتماعيون مجبرين على أن يصلوا إلى المصطلحات بوضوح مع ردود أفعالهم الدفاعية للتغييرات والتهديدات المدركة بواسطة التحقق من أسباب ردود أفعالهم وتحليل عواقب تعاطيهم لها. ومن خلال أرجيرس وآخرين (١٩٨٥) فإن تحديد أن ليس كل ردود الأفعال الدفاعية لها عواقب سلبية، فقد اعتقدوا بقوة أن أنماط السلوك الدفاعية هى الأسباب الرئيسية للملاحظة واسعة الانتشار التى غالبا ما تدور الجماعات بشكل لانهائى بين متطلبات الصراع عندما تكون الوسيلة الوحيدة تجاهه هى المواجهة وحل الصراعات.

نظرية التغيير والجمود Theory of Change and Stasis:

من وجهة نظر أرجيرس وآخرين فإن الهدف من علوم الفعل هو خلق نوع من الاستقصاء عن كيفية تصميم الكائن الإنساني للفعل وتطبيقه فى علاقته بفعل آخر. إذن فهو يعتبر علم الممارسة (1985, p.4).

وتتسم أهدافهم بأنها أكثر طموحا بسبب أنهم استهدفوا التحقق من:

١) المتغيرات المتضمنة فى الوضع الحالى والتى يحتفظ بها هذا الوضع.

٢) المتغيرات المتضمنة فى تغيير الوضع الحالى والتحرك نحو البدائل الليبرالية.

٣) المتغيرات الموجودة فى علم التدخل والتى سوف تكون مطلوبة لو كانت الافتراضات السابقة تحت الاختبار، وأخيرا.

٤) منهجية البحث سوف تجعل التغيير ممكنا وفى الوقت نفسه تنتج المعرفة التى تواجه الصارمة القاسية لعدم التأييد Disconfirmability.

وقد سعى أرجيريس وآخرون (١٩٨٥) من خلال الأساليب المستخدمة فى هذه الجهود إلى تطوير ما أسماه "علم الممارسة Science of Practice" (p.4) والذى من خلاله يمكن مساعدة الأفراد والجماعات على خلق إدارة عالمية سلوكية وصيانتها توصل إلى إنتاج معلومات صادقة (تحت) الظروف والتى من خلالها تستطيع القوى (الفاعلون) المختلفة تكوين اختيارات حرة ومعلنة وشعور داخلى بالالتزام بهذه الخيارات (p.77).

الموضوعية Objectivity:

اتخذت علوم الفعل الحصن الذى تتخذه العلوم الاجتماعية والذى يسمى الموضوعية بشكل مباشر، بسبب أن أرجيرس وآخرين (١٩٨٥) توقعوا

بشكل صحيح أن الاعتراضات الجوهرية والأساسية علـــى الـــصيغ التـــى وضعوها سوف تتركز على معايير الفلسفة الوضعية الدفاعيـــة الروتينيـــة. وكانت استجاباتهم لمناقشة الموضوعية تتمثل فى أنه ليس من الممكن تحقيق حتى الحد الأدنى من "الوصف الصادق **Valid Description" (p. xii)** حتى يمكن على الأقل جذب أنماط الدفاع الروتينية للمشاركين بصورة مباشـــرة. لأنه من وجهة نظرهم فإن هذه الأنماط من السلوك الدفاعى يمكن أن تكـــون فعالة أو تمثل نوعا من الخلل الوظيفى، وليس من الممكن فهم السلوك حتـــى يمكن البدء فى تصنيف هذه العناصر. وبكلمـــات أخـــرى فـــإن الوصـــف الإمبيريقى نفسه غير ممكن دون التدخل، والهجوم المباشر على وضع العلوم الاجتماعية التقليدية.

التدخل والعلم Intervention and Science:

حث أرجيرس وآخرون (١٩٨٥) على التدخل باعتبـــاره مـــصدرًا رئيسيًا للتوصيفات الدالة على الأسس التى يمكن أن تبنى عليها علوم الفعل. وقد عكسوا اتجاه العلوم الاجتماعية التقليدية إلى الدقة والارتباطية من خلال مناقشة أن الاتجاه المعيارى للدقة يعكس افتراضات لا ارتباطية غير مختبرة وغير قابلة للاختبار. وسوف نناقش أن النظرية التـــى تقـــصد أو تـــستهدف المساهمة فى الممارسة يجب أن تكون لها خصائص تختلف عن النظريـــات المسئولة فقط عن معايير العلوم البحتة.

ومن وجهة نظرهم فإن ما يجعل العلوم الإنسانية متميزة أنها تدرس جماعة الناس فى الممارسة، وأن علماء الفعل هم ممارسون ينخرطون فـــى عمليات متوازية للممارسة والانعكاســـات والـــدفاعات والمعارضـــات مـــع المشاركين المتعاونين معهم (**p.22**). وفى النهاية فإن أهدافهم ليست أقل مـــن التـــالـــى:

تهتم علوم الفعل بشكل أساسى بممارسة التدخل. وإنها بواسطة رد الفعل على هذه الممارسة، والذى نأمل أن يساهم فى فهم كيف أن المعرفة تتطلب الاختبار وأن تتوافق مع الممارسة، وكيف أن أى استقصاء يتشابه مع أو يختلف عن العلوم السائدة (p.33).

اعتناق النظرية والنظرية قيد الاستخدام

Espoused Theory and Theory-in-Use

من خلال مناقشته لعلوم الفعل، استخدم أرجيرس مفاهيم ونظريات تم وضعها فى العديد من الأعمال السابقة والتى تتضمن بعض كتاباته مع دونالد سكون (**Argyris & Schon, 1978, 1996**). ومن بينها النظرية التى يتم اعتناقها والنظرية قيد الاستخدام الحلقة التعليمية المفردة **Single- Loop Learning** والحلقة التعليمية المزدوجة **Double- Loop Learning** ونموذج ١ ونموذج ٢ لنظريات الفعل. ونوضح هذه الأفكار هنا باختصار لأنها تمثل العناصر الأساسية فى البنية التحتية لعلوم الفعل باعتبارها شكلاً للممارسة.

إن مصطلحات نظرية المزاوجة أو النظرية قيد الاستخدام لا يشير إلى مفاهيم تم اكتشافها حديثا، ولكن بالأحرى هى أسماء لأفكار مشهورة تعتبر مهمة فى أى نوع من البحوث الاجتماعية ذات الكفاءة. وتشير النظرية التى تم اعتناقها إلى التقييم الذى يعطيه الفاعلون عن أسباب أفعالهم. وتشير النظرية قيد الاستخدام إلى استنتاجات القائمين بتحليل الملاحظات عن النظرية التى يجب أن تشكل أساس الأفعال الملاحظة لنفس الأشخاص لو أن أفعالهم أصبحت مفهومة. وغالبا لا تتزامن النظرية التى يتم اعتناقها والنظرية قيد الاستخدام معا، وأحيانا ما يتعارضان مع بعضهما بشكل مباشر.

وهذه النظريات لا تمثل اختلافات جديدة. ففى الأنثروبولوجيا يـتم وصفها على أنها تميز بين الاتجاهات **Emic and Etic**. وقد طرحت المادية التاريخية القضية نفسها فى مصطلحات الأيديولوجية والبنية التحتيـة، كمـا استخدم جرامسى **Gramsci (1975)** مفهوم الهيمنـة **Hegemony**. وأن مـا يعتبر جديدا عن علوم الفعل هو أن المسافة بين النظرية التى تـم اعتناقهـا والنظرية قيد الاستخدام أصبحت تمثل تركيز الاهتمام على استقصاء الجماعة داخل أفعالها الخاصة كأدوات لمحاولة نقل الجماعة إلى دينامية أكثر تحررا.

وتشير الحلقة التعليمية المفردة إلى الموقف الذى يغير فيه كـل مـن الأفراد والتنظيمات سلوكهم، ولكن لا يفعلون أى شيء لتغيير الإستراتيجيات السلوكية التى تزيد من المواقف الإشكالية بشكل مبدئى. والموقف الإشـكالى يتم تناوله بشكل محدد ويقوم المشاركون بتحسين قدرتهم على حل تحـديات محددة. ويتمثل التأثير هنا فى تحقيق نوع من التحسن المحتمل والقصير فى المشكلة، ولكن بسبب أن الأسباب الرئيسية لم يتم مواجهتها تعود المـشكلات مرة أخرى. إنهم يصرون على القوة وإعادتها بمجرد مواجهـة معـضلات ومشكلات جديدة.

وفى المقابـل تنتـج الحلقـة التعليميـة المزدوجـة **Double- Loop Learning** من الاستجابة للمشكلة من خلال التوسع الخلفى وفحـص بـدائل الأطر الأكبر التى من خلالها توضع المشكلة. فالمشكلات الفورية والمباشـرة يتم فهمها على أنها نتاج عن السياق الذى يحتاج إلى تبديل فـى حـد ذاتـه. وبتغيير هذا السياق يمكن أن تنتقل الجماعة إلى خطة جديدة للتعلم التنظيمـى والتغيير. وترى علوم الفعل بوجه عام أن الإصرار على حلقة التعلم الفرديـة هو نتاج لردود الفعل الدفاعية والاستنتاجات غير المناسبة عن دوافع الآخرين.

وتتمثل أهمية التمييز بين الحلقة الفردية والحلقة المزدوجة فى تحديد أنواع معينة من المشكلات كتلك التى يجب أن تتجه علوم الفعل إلى استهدافها. وهذه المشكلات هى التى تستمر على الرغم من الجهود التى تبذل لحلها. ومن المحتمل أن تتجسد داخل هذه المشكلات حلقة مزدوجة من القضايا (Argyris et al, 1985, p.87).

وارتباطا بهذين النوعين من التعلم توجد نظريات الفعل. والتى أسماها أرجيرس وآخرون (١٩٨٥) "نموذج ١" ويقوم هذا النموذج على امتلاك ضبط أو تحكم أحادى على الآخرين. ويؤيد القليل من العلماء نموذج ١، ولكن يمارسه الكثير من الناس. وهناك نظرية أخرى للفعل هى "النموذج التنظيمى ١" Model O (rganizaional)1 وهذا النوع من نظرية الفعل يزيد من نسق التعليم المحدود الذى يصحح الأخطاء التى لا نستطيع إخفاءها ولا تهدد المعايير الأساسية للجماعة. وهنا يكون التركيز على المشاركة الواسعة، وأيضا على اتجاهات المكسب أو الربح Win-win Approaches، والتركيز القوى على التعبير عن المشاعر أثناء التحليل العقلى للقمع.

وبالتوازن مع ذلك يوجد "نموذج ٢" لنظريات الفعل. ويوجد من خلال نموذج ٢ حد أدنى من العلاقات الجماعية والشخصية الدفاعية، وحرية كبيرة للاختيار واتخاذ مواقف المجازفة العالية. ويكون هناك احتمال قوى لتعزيز حلقة التعلم المزدوجة وتزداد فعاليتها بمرور الوقت (Argyris et al, 1985, p.102).

وينطبق الكلام نفسه على النموذج التنظيمى "١١ Model O (rganizaional)11"، ولكن استكمال الأفراد للجماعية يعتبر خارج نموذج ٢ للنظريات قيد الاستخدام. وتكون النتيجة تكوين مجتمع من الاستقصاء والتى من خلاله يتم فتح العديد من القضايا والصراعات والذى يمكن من خلاله أيضا استخدام كل من حلقات التعلم الفردية والزوجية.

الاختبار الإمبيريقى فى علوم الفعل

Empirical Testing In Action Science

من أهم الخصائص التى تتميز بها علوم الفعل هى اهتمامها القوى بطريقة تطوير اختبارات التفسير. ويقوم هذا المنظور على أساس التطوير الشامل لكل أنواع المفاهيم المستخدمة فى الأسباب المساهمة فى أنماط سلوك الناس. وتحديد المسئولية عن هذه الأسباب، وتحقيق اتفاق بين الأشخاص المشاركين حول البيانات.

وقد استخدم الأسلوب الذى سمى "سلم الاستنتاج **Ladder of Reference**" لربط موضوع الحوار والتفسيرات والأفعال داخل تفسير تحليلى للتفاعلات. ونتعامل من خلال علوم الفعل مع هذه القضية مع مساعدة الأداءات المفاهيمية النظرية وسلم الاستنتاج. ويعتبر ذلك عرضا تخطيطيا للخطوات، والتى من خلالها تختار الكائنات الإنسانية منها وتقرأها داخل التفاعل كنوع من الفهم لحياتهم اليومية **(Argyris, et al, 1985, p.57)**.

ولبناء هذا التحليل فإن أول جولة هى التعبير بالكلام العادى فى موقف محدد. ومن ثم يحدد الملاحظون والمشاركون معنى هذا التعبير (كل من وجهة نظره ومن وجهة نظر الناس الذين يتعاملون معهم). ويتم فحص هذه المعانى والمقارنة بينها، ويتم تحليل الاستنتاجات التى تم الوصول إليها. ويشير سلم الاستنتاجات إلى العلاقات الارتباطية للتحليل بين التعبير والتفسير الذى تم الوصول إليه. وبالضبط يقوم معظم الناس بعمل استنتاجات قوية جدا عن أهداف الآخرين على أساس البيانات غير الموثوق بها **Shaky data**. والمهم هنا أن التحرك أعلى وأسفل السلم معا مع الفاعلين فى الموقف يتم فحصه، واختبار كيف تم الوصول إلى الاستنتاجات، وما الذى أخذ الاهتمام الأكبر، وما الذى تم إهماله. ومن خلال ذلك تقود أنماط السلوك إلى الإصرار على حلقة التعلم الفردى وإمكانية اختبارها.

لاحظ أن سلم الاستنتاجات هو أسلوب للتدخل التنظيمي، وليس مجــرد أداة بحث. لأنه يطبق بسبب أن لدى الجماعة مشكلة، وهي أنها تتضمن تفويض عالم الفعل لمساعدتها على محاولة حلها. فالتدخل ليس في طــرف متعــارض لمتصل من الفعل إلى البحث. ولكن وفقا لمــا وضـــعه أرجيــرس وآخــرون Argyris et al, (1985) "تدخل علم الفعل المناظر للتجريــب" (p.64). وبـــدون التدخل لا يوجد علوم فعل. إن ميراث كل من ليفين وديوى واضح.

مثال استرجاعي لعلم الفعل: تجارب ميلجرام:

A retrospective Example of Action Science; The Milgram Experiments

لعل أحد أكثر المميزات وضوحا لأرجيريس وآخرين (١٩٨٥) هــو النقد الرائع وإعادة صياغة التجارب الشهيرة لعالم النفس الأمريكي ســتانلي ميلجرام Stanly Milgram (1974) عن استعداد الناس العاديين لتوجيه الأذى على الكيانات الإنسانية المماثلة. وبالتعليق على تجارب ميلجــرام، وتمييــز إستراتيجيتهم عن ميلجرام، فقد نجح أرجيرس وآخرون في إظهــار كيــف يختلف علم الفعل عن العلوم الاجتماعية التقليدية حتى عن الموضوعات ذات العلاقة اجتماعيا.

وقد استخدم ميلجرام حشدًا من الناس بإعلانـــه الافتراضـــي لـــتعلم الخاضعين للتجربة بعض الكلمات المترابطة الدلالة. وعندما يفشل الـــشخص يقوم المعلم بمعاقبته بصدمات كهربائية، وتزيد هذه الصدمات بمرور الوقت في البرنامج التجريبي حتى تصل إلى مستويات خطيرة. وفي الحقيقة فـــإن ميلجرام ومفردات العينة التجريبية كانوا يتعاونون بشكل سرى ولا تـــستخدم أى صدمات كهربائية. ومع ذلك لم يعلم المدرسون بذلك.

وقد قابل ميلجرام المدرسين فى البداية وقد أكدوا جميعا أنهم لا يرغبون فى إيذاء الكيانات الإنسانية. ومع ذلك وجد ميلجرام عددًا كبيرًا من ردود الفعل المتنوعة لدى المدرسين، فالكثير منهم كان لديه الرغبة فى توجيه الصدمات إلى المفردات التجريبية. ومن خلال ذلك استنتج ميلجرام، بدون خط واضح من البيانات، إن البشر ليسوا عدائيين أو عدوانيين فطريا، ولكن بالأحرى لديهم إرادة ضعيفة وميل إلى اتباع التعليمات والأوامر التى تصدر من السلطة. وفى ضوء هذه النتائج سمى هذا العمل "تجارب أيكمن **Eichmann experiment**"، وقد قدم ميلجرام تقرير النتائج بعد عشر سنوات تقريبا من انتهاء هذا العمل، ولكنه لم يقم بأى تدخل اجتماعى غير طبع هذا الكتاب.

وبالتعليق على عمل ميلجرام (١٩٧٤) أظهر أرجيرس وآخرون (١٩٨٥) احترامهم لإنجازات ميلجرام، ومع ذلك ميزوا بين اتجاههم وبين عمله. "ومن أجل وصف بعض الظواهر بطريقة موثوق بها فإن أول ما يجب عمله هو الرجوع إلى خصائصها الجوهرية وبناء الموقف الذى يجذب الانتباه لوجوده وجوهره" **(p.111)**.

ومن وجهة نظر أرجيرس وزملائه فإن ميلجرام لم يحاول تغيير الموقف ونتائجه. وهذا ما أدى إلى فقده إمكانية فهم نشأة السلوك الملاحظ وتكوينه. ونتيجة لذلك لم تستطع تجاربه إنتاج المعرفة التى ربما تساعد الأفراد على التغلب على مشكلاتهم وأزماتهم. إننا لم نتعلم قط من البدائل التى ربما تمثل إدارة أفضل لهذا السلوك، ولم نكتشف البناءات العميقة التى تبقى عليه.

وقد أراد نموذج ٢ لأرجيريس وأتباعه تغيير معاملات ثبات **Parameters** التجربة لتغيير النتائج. ونظرا لأن ما هو مرغوب اجتماعيا هو الناس (السكان) فى الوضع الذى لا يرغب أحدهما فيه فى اتباع الأوامر

غير الأخلاقية، وقد أكد أرجيرس وأتباعه على أن بحوث الفعل يجب أن تركز على المعلمين المتمردين والتحقق من أسباب عدم رغبتهم فى اتباع مثل هذه الأوامر. ومن خلال ذلك يمكن أن تتطور النظريات عن أسباب عدم التمرد (عدم الطاعة)، ويمكن أن تتنوع التجربة لزيادة أسباب عدم الطاعة حتى يتحقق أقصى عدم طاعة ممكن. وبهذا الأسلوب فإن استقصاء نموذج ٢ يستهدف التحقق من أسباب السلوك والتدخل المباشر للارتقاء بالسلوك المرغوب أخلاقيا لمفردات عينة البحث. والمسافة بين هذا والعلوم الاجتماعية التقليدية واضحة، وأن الأساس الذى تقوم عليه العلوم الاجتماعية التقليدية نفسه يظهر على أنه حلقة فردية، ونموذج ١ للسلوك.

ممارسة علوم الفعل Practicing Action Science:

لا يوجد محتوى مبسط لتصميم نظريات تجريدية لعلوم الفعل، وقد صاغ أرجيرس وأتباعه (١٩٨٥) أيضا عددًا من قواعد الممارسة التى توجه علوم الفعل لديهم. وبالتوازى مع ذلك وضعوا سلسلة قواعد لاختبار الفروض، وتقريبا لم يتم مناقشة هذا الموضوع فى أدبيات بحوث الفعل. وكلما فكر أى شخص فى هذه النسخة من علوم الفعل، يوجه أرجيرس وأتباعه الانتباه بشكل صحيح على التفكير العلمى كأولوية عالية.

الخصائص الإيجابية Positive Features:

يوجد الكثير من الفوائد فى هذا الإطار. وبدلا من تبرير الفعل باستخدام بعض أنواع المناقشة الأخلاقية حول التعامل مع المشكلات الاجتماعية، فإن أرجيرس وأتباعه (١٩٨٥) وجدوا فى علوم الفعل أنها

أفضل شكل للاستقصاء العلمى من العلوم التقليدية. وقد التقطوا أيضا جوهر مناقشات كل من ديوى وليفن والتى تتمثل فى أنه من خلال الفعل يمكن أن يحدث التعلم. لذلك ومن وجهة نظر هذين المؤلفين، فلكى يكون البحث الاجتماعى علميا فلابد أن يكون مرتبطا اجتماعيا. ولوضع ذلك فى الإطار الذى استخدمه أرجيرس طويلا، فإن الهدف من علوم الفعل هو زيادة إمكانية الوصول إلى تحقيق النتائج الليبرالية المفيدة اجتماعيا. وقد أرادوا تحقيق ذلك من خلال نشر الطريقة العلمية. ويتمثل المنطق الجوهرى لمناقشتهم فى أن أى بحث اجتماعى لا يتضمن التدخل لا يكون علميا، وهذه المناقشة التى قاموا بها كانت فعالة تماما فى تحليلهم لتجارب ميلجرام.

ويتمثل الجانب العكسى من هذا المنطق فى تعبيرهم الأقل وضوحا وحكمهم الأكثر حدة على العديد من باحثى الفعل الآخرين. وقد رأى أرجيرس وأتباعه أن عددًا كبيرًا جدا من باحثى الفعل تقبلوا بكل روتينية الفصل بين التفكير والفعل والذى يميز العلوم الاجتماعية التقليدية، واختاروا تبرير عملهم هذا بخطورة المشكلة التى يدرسونها، أو جودة الأهداف التى يضعونها. وبكثير من البلادة، فإن الجزء الأكبر من بحوث الفعل يتميز بالمعارف الغامضة الضبابية والمنهجيات المفككة والمفتقدة إلى الدقة. وبمنطق علوم الفعل فإن هذا فى حد ذاته هو نموذج ١ سلوك الحلقة المفردة والذى لا ينتج مجتمعًا ناجحًا من الاستقصاء.

النقد :Critique

النفسوية Psychologism، والصيغ الدفاعية المتكررة Defensive Routines، والمتدخل الأبوى Intervener Paternalism

بالنسبة لنا فقد أخذت علوم الفعل جزءًا ضئيلاً من تعقيدات علم النفس الإنسانى، وحتى مع ترحيبنا بتحليل الدافع والسلوك على هذا المستوى. وبهذا

المعنى فإن علم النفس الإنسانى وثيق الصلة بالفعل، قد قلل من إنتاج أساليب الدفاع التى تؤدى إلى نتائج ذات حلقة مفردة. ولم يعد مقبولا بالنسبة لنا أن الدفاع هو مجرد عملية نفسية كبرى ترتبط بظواهر الجماعة. إن ثراء الدوافع الإنسانية والتفاعلات المعقدة بين الأفكار الثقافية والاقتصادية والسياسية لمواقف معينة، والاختلافات المعقدة بين كل المشاركين فى موقف معين لا يمكن الكشف عنها لو أن التحليل ركز فقط على الدفاعية.

ومن غير الواضح كيف أن علماء الفعل أنفسهم قد تغلبوا على هذه الدفاعية. وطبقا لوجهة نظرهم فإن الدفاعية هى شكل "مهمل" من الفعل الإنسانى (فقد وصفوا نموذج ١ على أنه استجابات الأفراد "الطبيعية" "والتلقائية" (Argyris, et al, 1985, p. 151) وهذا الافتراض مهم جدا بسبب أنه يخلق ثغرة غير واضحة بين الميسر ومفردة العينة.

وبالتخلى عن أدواتهم الخاصة يصبح المشاركون غير قادرين على إعادة تصميم نموذج ١ النزعات (الاستعدادات) التى تؤدى إلى الفشل المتكرر. وبدلا من ذلك يستمر الشعور بالإحباط وانعدام الأمل، فربما يقرروا أنه من غير الممكن إنتاج نموذج ٢ للفعل وبذلك يبررون انسحابهم، أو ربما يقررون أن بعض إستراتيجيات نموذج ١ أفضل مما هو متوقع، ومن ثم لا يركزون على سماتهم غير البناءة. وبكلمات أخرى فإن الدفاعات التى تمكن الناس من أن يكونوا غير مدركين لنظريتهم قيد الاستخدام فى نموذج ١ العالمى فإنها تعيد تأكيد ذاتهم. وتتمثل المهمة الأساسية للقائم بعملية التدخل فى مساعدة المشاركين فى البدء فى إعادة تنظيم نظريتهم قيد الاستخدام بشكل حقيقى وصادق (Argyris, et al, 1985, p.338).

ولا يوجد تبرير يمكن أن يقدم لهذه الحالة ولا أى شرح أو تفسير يمكن أن يقدم لمصادر القدرات الإنسانية "غير الطبيعية Unnatural" للقائمين

بالتدخل للتغلب على هذه المحددات. ويبدو أرجيرس وأتباعه قد ولدوا وكأنهم مولودون طبيعيا باحثى فعل.

- وعند الحديث عن اختيار التغيير، فقد قرروا أنه على الرغم من أن الأفراد ليس لديهم اختيار لنظريتهم قيد الاستخدام ولا نسق التعليم **O-1**، فإنهم يستطيعون اختيار تغيير نظريتهم قيد الاستخدام ومن ثم التعلم التنظيمي والثقافة. ولكن مثل هذه التغييرات لا تحدث إلا إذا التزم اللاعبون **(p.152)**. ولكن لماذا ليس لدى المشاركين اختيار؟ وما طبيعة التزامهم؟ وكيف يتطور هذا الالتزام؟ كل هذه القضايا لم تتم مناقشتها.

وقد لاقت وجهة النظر هذه هجوما سياسيا كبيرا بسبب أنها تجبرنا على استنتاج أن علماء الفعل يختلفون فى طبيعتهم الإنسانية عن الكائنات الإنسانية الطبيعية الأخرى. وعلى الرغم من أن وجهة النظر هذه قد تم تبريرها من خلال مناقشة تدريب الناس لكى يصبحوا علماء فعل، فإن علوم الفعل لا تحتوى مثل هذه المناقشة. لقد تخلينا عن علماء الفعل بوصفهم أفرادًا غير متنافسين ولديهم وعى ذاتى واحتواء ذاتى وقادرين على العمل من أجل الآخرين.

والطريقة الأخرى للنظر إلى هذه المشكلة هى أن علوم الفعل لديها ملاحظة أن التحليل له نزعة مزدوجة. ذلك أنهم قالوا إنه على الرغم من الأمثلة التى تحدث فى السياقات الجماعية وأن نموذج١ ونموذج ٢ يشير إلى سلوك الجماعة، فإن التصور السائد أن ما يظهر من قراءة علوم الفعل هو ممارس ماهر أو معلم يواجه عضو الجماعة وتهيئته لدراسته وتغيير سلوكه.

ونعتقد أن هذا التصور للمعلم والتلميذ وللمعالج والمريض، على الرغم من أنه جدير بتركيز الاهتمام على بعض الأبعاد النفسية لعمليات الجماعة، فإنه أيضا يتسبب فى تكاليف كبيرة. وحتى حاليا فى علوم الفعل فإننا لم نر تحليل للجماعات كجماعات، ولكن كان يفترض أن تؤدى

الجماعات بشكل جيد عندما يعمل كل زوج منهم بشكل جيد. إن الأفكار المتعلقة ببناء الجماعة والاقتصاد السياسى والاختلافات أو التنوعات الجنسية، والاختلافات العرقية وغيرها تم التخلى عنها. لقد تم وصف الجماعات وتصويرها على أنها تتكون من الأفراد الذين يرتبطون فى عملية تبادلية، ويتحركون بشكل مثالى نحو نموذج الاختيار العقلانى. وهذا بشكل خاص يجعل التحليل غير مهتم بالعلاقات القوة والتى تتضمن منح هذا الاتجاه القوة للمتدخل الخبير.

وهذه الأمور ليست بسبب عدم وجود علماء فعل، حقا فكلنا معا نرى الممارسة الممتازة لممارسة علوم الفعل. وبالأحرى فإن هذه الأمور نتيجة أننا نعتقد أن الممارسة الجيدة التى نراها تظهر، جزئيا، بسبب أن لدى الممارسين نظريات اجتماعية أكثر تعقيدا من التى أوضحوها فى كتاباتهم، وأنهم يمارسون بوسيلة أقل تسلسلا (هرميا) من التى اقترحها النموذج. إن تطوير تحليل أفضل لهذه العناصر يعتبر المهمة المنتظرة لعلوم الفعل.

وهذه القضايا للتسلسل الهرمى للتعامل الجيد بسبب أن علوم الفعل تبدأ بتحديد المشكلات والاتفاق عندما يتم إيجاد الحلول. لذلك فإن السلطة التى تقوم باتخاذ هذه القرارات سلطة مركزية. إن تقرير أى أنواع السلوك يعتبر مناسبا، على سبيل المثال، يعتبر قرارا حاسما، مثال ذلك بالإشارة إلى هشاشة وضعف العلاقات الاجتماعية، فإن علماء الفعل يحددونها على أنها "الميل إلى التعبير عن شعور كبير غير مناسب باليأس والفشل عند ارتكاب خطأ" **(Argyris, et al, 1985, p.156)**. إن ما هو غير مناسب ومن الذى قرره لم يتم مناقشته، ومن الظاهر أن هذا القرار تم اتخاذه بواسطة القائم بالتدخل. وقد تحدث أرجيرس وزملاؤه أيضا عن "التغيير التنظيمى الحقيقى **Genuine organizational Change**" بدون تحديد ماذا تعنى كلمه حقيقى

Genuine، والترخيص مرة أخرى للقائم بالتدخل بأن يكون فى وضع سلطوى لتقرير ما الذى يؤسس لعملية التغيير ومن الذى لا يستطيع.

إن الوسيلة التى يستخدم بها سلم الاستنتاجات ووسيلة تقسيم الحوار تعتبران منفصلتين عن التحليل وتظهر أيضا الرؤية الكبيرة للثقافة القائمة على أساس قاعدة أو قانون **Rule-based vision Highly**، والنظر المدعومة من أرجيرس وزملائه المتعلقة بالاستخدام المتكرر لمصطلح الأنماط أو الصياغات المتكررة **Routines** لوصف أنماط السلوك. وعلى الرغم من قيام العديد من المدارس الفكرية بذلك، متضمنا التحليل التكوينى **Componential** فى علم الأنثروبولوجيا، فإن هناك حدود مهمة لمثل هذه النظرة. فالسلوك أكثر من أن يكون مجرد قواعد تماما مثل اللغة التى هى أكثر من مجرد قواعد. ويعتبر ذلك أمرًا مهمًا جدا بوجه خاص نظرا لأنه لكى تكون جهود علوم الفعل علمية فإنها تحتاج إلى نوع ما من فكرة "عدم التأكيد **Disconfirmation**" كجزء من الاتجاه. ولكن أعطت مناقشات هؤلاء المؤلفين حالة من القوة لعدم التأكيد على وجهة النظر إلى السلوك القائمة على أساس القواعد **Rule-based view**، وأعطتنا إحساسًا قليلاً بالصعوبات التجريبية لإستراتيجية عدم التأكيد عندما ينظر إلى تدفق السلوك الإنسانى فى إطار تعقيداته الإثنوجرافية.

تاريخ العلم **History of Science**:

يجب علينا جميعا ونحن نطرح انتقاداتنا لاتجاهات العلوم الاجتماعية التقليدية أن يكون لدينا تفسيرات واضحة عن السبب فى انتشار وسيادة مثل هذه العلوم الاجتماعية التقليدية. فلو كنا نحن على حق والعلوم الاجتماعية التقليدية على خطأ، فعلينا إذن أن نسأل أنفسنا لماذا يسيطرون وينتشرون

ونحن لا. ونحن بالفعل نركز انتباهنا على هذه القضية فى الكتـــاب الحــالى (انظر الجزء ٢). ونحن فقط نبين أن علوم الفعل تفتقد إلــى تفــسير ســبب اختيار العلوم الاجتماعية لتقليد العلوم الطبيعية بــدلا مــن ديــوى وليفــين (Argyris, et al, 1985, p.5) ولماذا يتم الحفاظ على ما أطلق عليه أرجيرس وزملاؤه بالانفصال الضار بين النظرية والممارسة (1985, p.7).

ومن وجهة نظرنا فقد نبعت عملية عدم الاهتمام بالقــضايا الكبــرى للبناء الاجتماعى والاقتصاد السياسى من نفس الازدواجية والنظرة العلاجية والتى علقنا عليها سابقا. ويفترض علماء الفعل أنهم مضللون ويــستطيعون استعادتهم إلى نظرة أفضل لأحوالهم وشئونهم من خلال تدخل عالى الجودة. وكل هذا التجاهل لوجود كل الأبعاد الاقتــصادية والــسياسية فــى البحــث الاجتماعى، والتى دائما ما تتحرك فى اتجاه إضعاف القــائمين بالإصــلاح وعناصر تحقيق الديمقراطية فى العلوم الاجتماعية للأسباب والمبررات التى تبدو أنها أفضل تفسير وتوضيح بواسطة حالات القوة منها بواسطة الأنمــاط الدفاعية من الأعضاء فى جماعة معينة.

لا يوجد أى من هذه الانتقادات قاطعا أو مفحما، وبعض مــن هــذه الانتقادات كانت بواسطة علماء الفعل فى مؤلفاتهم الحالية. وقد ذهــب هــذا الإطار أبعد من أى إطار آخر فى محاولته إبراز بعض القــضايا المعرفيــة والمنهجية بواسطة فكرة أن علوم بحوث الفعل تستحق الاهتمام القــوى بهــا لهذا السبب.

التعلم التنظيمى Organizational Learning:

أدى التعاون الطويل والمثمر بين كريس أرجيرس ودونالد سكون إلى إصدار العديد من الكتب: وكان من بين الكتب الأكثر أهمية لهما كتابان هما

التعلم التنظيمي (١٩٧٨) والتعلم التنظيمي II (١٩٩٦) وعلى الرغم من أن مصطلح التعلم التنظيمي OL أصبح شائعا، فإن الفضل يرجع في وضعه إلى أرجيرس وسكون عام ١٩٧٨، في الوقت الذي وضع فيه فكر السلوك التنظيمي في اتجاهات مختلفة. والآن يوجد مئات من الأعمال والاستشارات المهنية المفيدة التي تقوم على أساس التعلم التنظيمي (Senge, 1990).

وكانت هناك العديد من المناقشات التي تتشابه مع تلك التي عرضناها والمتعلقة بعلوم الفعل، ولكن بعض قضايا الديناميات التنظيمية قد اتخذت مكانها فقط في هذه الأعمال. وهنا سوف نتعامل مع الكتاب الثاني "التعلم التنظيمي II" (١٩٦٦). إنه يوفر مراجعة نقدية ممتازة لأدبيات التعلم التنظيمي. وقد منح المؤلفون وجهة نظرهم المنطقية والدقيقة للتعلم التنظيمي، وأتبعوها بعرض ممتد وواضح للنظم الأساسية للحلقة الفردية الأساسية، والحلقة المزدوجة، ونموذج ١، ونموذج ١١، والتي تم مناقشتها بالفعل.

إن ما يثير الأهمية حول هذا الكتاب عن منظور علوم الفعل ككل هو أن المؤلفين قد جاهدا بقوة من أجل للوصول إلى ما وراء العلاقات المزدوجة التي لا تعتبر فيها القوة قضية. لقد ناقشوا السياسات التنظيمية وأظهروا أن الوعي بالتعقيدات التي تخلقها الحياة الثقافية الرمزية للتنظيمات ليست واضحة في العمل الأول (Argyris & Schon, 1978). وقد نجحوا أيضا في جعل تعزيز التدخل القائم على الاستقصاء أكثر المفاهيم والعمليات وضوحا من ما قام به أرجيرس وزملاؤه (١٩٨٥).

ولعل الأكثر قيمة وأهمية ما قام به أرجيرس وسكون بعد ذلك من البناء حول النقد القوي والعنيف للممارسة الأكاديمية، والحث على أن النظم الأكاديمية غير قادرة على مواجهة العلاقات بين النظرية والممارسة. ونحن نتفق مع تحليلهم لعلوم الفعل على أن الجامعات غير قادرة على أن تصبح مؤسسات تعليمية ذات مدلول وهدف واضح.

وهناك القليل من الكتب التى حددت القضايا المعقدة لعلـــوم الفعـــل والتعلم التنظيمى بالفعالية المطلوبة مثل أرجيرس وسكون. وربما يوجد فقط كتاب روبرت فلود ونورمـــا روم **Robert Flood, Norma Romm (1996)** وهو "الإسهامات المعرفية والمنهجية المتنوعة للإدارة وطموحاتها العمليـــة". وقد تقدم أرجيرس وسكون أبعد من الحديث عن علوم الفعل من خلال إظهار أنهم واعون للحاجة إلى الحديث عن قضايا الثقافة التنظيمية المتأصـــلة فـــى علوم الفعل، وهذا الوعى لم يكن واضحا فى كتابهما الأول.

ومع ذلك فإن هذا البعد يحتاج إلى اهتمام أكثر، نظرا لأن التعامل مع الثقافة التنظيمية يبقى إلى حد ما عليها محددة وآليـــة بالمقارنـــة بـــديناميتها ووجهات النظر السلوكية الأكثر تباينا. إن ثراء الإنتاجية الثقافية فى السياقات التنظيمية وحول أنواع العمليات، فقد حاول أرجيرس وسكون استثارة الحاجة إلى تنمية تحليل أكبر. وهذا الثراء يعتبر واحدا من أكثر الخبرات ثباتا فى أى مؤتمر.

وقد قام كل من أرجيرس وسكون ببـــذل العديـــد مـــن المحـــاولات للوصول إلى رأى حول التنظيمات كتجمعات من الأفراد الذين يكافحون مـــع بعضهم للوصول إلى مفهوم اجتماعى أكثر دقة للبناء التنظيمى. ويعتبر ذلك أمرا مهمًا، ولكن القضية لم يتم حلها بشكل جيد.

وقد أظهر المؤلفون وعيهم بالانتقادات بأن آراءهم سواء غير منتبهة لعلاقات القوة، أو بأنها تدعم أنواعًا معينة من تسلـــسل الـــسلطة فـــى هـــذه التنظيمات. ومهما يكن فإن حقيقة أن نموذج السلوك ١ هو إهمال للناس فـــى المنظمات ولا يزال التعامل معه ببراعة أكثر من قانون الطبيعة، بدلا من أن يكون نتاج أنساق معينة فى الاقتصاد السياسى. وهذا ما ترك مصادر نموذج ١، ونموذج ١١ بدون تفسير، تماما كما فى أرجيرس وزملائـــه (١٩٨٥). إن

عدم شرح المصادر المهمة لنموذج ١ يتركنا بدون تفسير لماذا يكون أفـــراد معينون (فى هذه الحالة، المؤلفون) قادرين على تجاوز الحـــدود الإنــسانية العادية ومن ثم يقودون الآخرين لعمل ذلك. وهذا يفــتح المجـــال لــشرعية السلطة والخبرة والتى تستحق استقصاء أكثر انفتاحا.

وعلى الرغم من أن الكتاب كان واضحا فيما يتعلق بمتطلبات بحوث الفعل، فإنه تماما مثل علوم الفعل والتعلم التنظيمى ١١ لم يتحدث بقوة عـــن الجانب الأخلاقى والمعيارى للتعلم التنظيمى. والاهتمام الواضـــح بالـــسلوك الإنسانى غير الدفاعى كان إيجابيا، ولكن لم يتم عمل ربطه بالالتزام بتحقيق الديمقراطية. وكان من السهولة تبنى هذا الاتجاه مـــن جانـــب المستـــشارين التقليديين، والتى لا تعتبر المشاركة أو تحقيق الديمقراطية ذات أولوية مرتفعة بالنسبة لهم.

المهارات التى تتطلبها علوم الفعل والتعلم التنظيمي

The Skills Required for AS and OL

تركز الممارسات الجيدة لعلوم الفعل بقوة على مهـــارات عمليـــات الجماعة. ومن خلال أشكال التدخل التى تمت ملاحظتها بواسطة علماء الفعل فقد تأثرنا ببعض المهارات التى تم تطويرها. لشيء واحد فإنهم كانوا مثابرين ومستمرين فى العمليات. وقد لعبت عوامل الهدوء والدوام والوضوح ودعـــم أدوار القائمين بالتدخل دورا كبيرا فى خلق المساحة التى مـــن خلالهـــا تـــم تطوير استقصاء علوم الفعل الذى يؤدى إلى التغييرات فى عمليات الجماعة. وفى إحساسنا فإن علوم الفعل أكدت على أن الممارسين ينظمون أنفسهم من أجل انتظار أطول، وإصرار أكبر، والحفاظ على الهدوء ربما أكثر من معظم الاتجاهات الأخرى. وربما يعتبر ذلك جزءا من الميـــراث العلاجـــى لهـــذه الاتجاهات التقليدية.

ومن المميزات الأخرى فى تدخل علوم الفعل هى الوسيلة التى يتعلم بها الممارسون عدم الإحساس بالتهديد بواسطة أشكال الصمت والفراغ فـــى عمليات الجماعة. وبدلا من الاندفاع لملء الفراغات غير الملائمة بالـــصوت والفعل، فإنهم يحتفظون بمساحات من عـــدم الارتيـــاح المفتوحـــة أطـــول، ومواجهة المشاركين بالحاجة لفحص أفعالهم جزئيا خارج عدم الارتياح الذى سببه عملية الوقوف الساكن.

وفى كل عودة يتحدى ممارسو علوم الفعل المشاركين لكى يكونـــوا واضحين وأن يفسروا أفعالهم، وأن يقوموا بشكل متكـــرر بتوضـــيح ردود أفعالهم وتفسيرها كنموذج لهذا السلوك. وغالبا ما يؤدى هذا التـــدخل شـــبة السقراطى Quasi- Socratic إلى جعل المشاركين يقومون بعمـــل اختـــراق تحليلى بدلا من السماح لهم بالاختفاء خلال الفترة الفاصـــلة فـــى عمليـــات الجماعة. وهذا يحتاج إلى مهارة مواجهة الناس بدون إســـكاتهم، والانفتـــاح بشكل كبير، والنقد المتجاوب، واليقظة الفائقة لتفصيلات الحـــديث والفعـــل. ومرة أخرى فإن هناك ميراثا كبيرا من العلاج التقليدى، والذى يعتبر جديرًا بالدراسة والمنافسة فى عمليات بحوث الفعل.

الخلاصة:

وفى الختام فإن علوم الفعل والـــتعلم التنظيمـــى ليـــسا مثـــاليين ولا خاطئين. إنهما محاولتان واضحتان لجذب بحوث الفعل للمواجهة المباشرة مع العلوم الاجتماعية التقليدية وتعقب مخططات وبرامج الإصلاح الاجتمـــاعى المحدودة. وكذلك توجد بهما العديد من الثغـــرات والمـــشكلات، والتـــى لا تجعلهما يختلفان عن الاتجاهات الأخرى. إنهما جديران بالدراسة المتعمقـــة بواسطة باحثى الفعل.

الهوامش

١) عند تناولنا للممارسة فقد تعاملنا فقط مع الكتاب الثانى لأنه يمثل مراجعة متكاملة للكتاب الأول معتمدا على الممارسة المستمرة للمؤلفين والانتقادات التى تلقوها.

٢) لقد أجرينا هذه المناقشة ليس لتضمين الفصل المنفصل عن الاتجاه الأكثر تفردًا الذى ارتبط بدونالد سكون، والذى أسماه "الممارسة الانعكاسية" (Schon ,1983,1987,1991) بسبب العديد من عناصر الممارسة التنظيمية من وجهة نظره والتى ظهرت فى كتب تأليف مشتركة، وأن العديد من العناصر الرئيسية الأخرى فى اتجاه الممارسة الانعكاسية تركز على علاقات التدريب المزدوجة وليس على قياس التغيير التنظيمى.

الجزء الرابع

بحوث الفعل والتعليم العالى والديمقراطية

AR, Higher Education and Democracy

قمنا بتعريف ووصف وتبرير بحوث الفعل AR ووضعناها فى سياقاتها الفلسفية والفنية والتنظيمية والسياسية. وقدمنا اتجاهنا المفضل كعينة من التنوعات الواسعة لاتجاهات بحوث الفعل الأخرى. وقد تركنا التعامل الأكبر جانبا، وحتى الاتجاهات التى قدمناها تناولناها باختصار. ولم يتم ذكر المساهمات المهمة لهذا المجال، وقد تلقت القضايا الشائكة أنواعًا من العلاج القصير فقط. ولازلنا نأمل أن تحرك هذه المقتطفات شهيتك نحو بحوث الفعل وأن تكون نقطة البداية نحو دراسات أوسع وأكبر لهذه الاتجاهات.

وما يتبقى الآن هو مناقشة تعليم باحثى الفعل، وتعقيدات العلاقة بين بحوث الفعل ومؤسسات التعليم العالى، والنشر المستقبلى لبحوث الفعل كما نأمل لها. وهذا يتضمن دراسة بعض البرامج التعليمية التى ترتبط ببحوث الفعل، وبناء بحوث فعل داخل مؤسسات التعليم العالى، ونشر بحوث الفعل فى كل أرجاء المجتمع. ولتحقيق ذلك فقد راجعنا فى الفصل السادس عشر "تعليم باحثى الفعل" التوترات والاحتمالات التى رأيناها فى العلاقة بين ممارسات بحوث الفعل والتغيير/التحول المستمر فى مؤسسات التعليم العالى. وحددنا فى الفصل السابع عشر "بحوث الفعل والمشاركة وتحقيق الديمقراطية" ما تمخض عن المناقشات حول الدور الممكن لبحوث الفعل فى منح الحيوية والنشاط للعمليات الديمقراطية، وإعادة تكوين بعض من خصائص المجتمع المدنى الذى أصبح قديما ومتهالكا بواسطة الهجوم الضارى للعولمة الاقتصادية.

الفصل السادس عشر

تعليم باحثى الفعل

Educating Action Researchers

على الرغم من وجود "بحث فعل تعليمى" وعدد من باحثى الفعل الذين يشغلون مواقعهم فى مؤسسات التعليم العالى، فإن بحوث الفعل تفتقد إلى الكثير من الأدبيات عن كيفية تعليم باحثى الفعل. إن التركيز على التعليم الرسمى وتعليم الكبار فى أدبيات بحوث الفعل التعليمية لم يتلاءم مع نفس الاهتمام لبحوث الفعل فى التعليم العالى. وما عدا التحليلات العامة عن دور الجامعات فى المجتمع من منظور بحوث الفعل **(Brulin, 2002; Greenwood & Levin, 2000)** وقد افتقد كتاب ريسون وبرادبورى "دليل بحوث الفعل **(2001a)** إلى وجود فصول عن تعليم بحوث الفعل فى نسق مؤسسات التعليم العالى. وعلى الرغم من تخصيص جزء من هذا الدليل لعمل بحوث الفعل، فإنه لا يوجد أى عرض أو تقديم منظم لكيفية نقل مهاراته إلى المؤسسات التعليمية. وقد وجدت العديد من الحكايات عن التعليم والتعلم فى العديد من الفصول. وهذا الدليل ليس متميزا فى هذا الجانب.

وقد زاد هذا الغياب جزئيا فى العملية التاريخية لفصل العلوم الاجتماعية عن علوم الفعل وجعل الباحثين الاجتماعيين الجامعيين بعيدين عن اهتمامات المجتمع (انظر الفصل ٥). وهذه القصة مشهورة جدا فى الولايات المتحدة **(Furner, 1975; Madoo Lengermann & Neibrugge-Brantley, 1998; Ross, 1991)** ولكنها تكررت فى كل مكان. لقد حدثت حتى فى النرويج والتى

تعتبر بحوث الفعل فيها أكثر تقديرا واحترامًا عنهـا فـى الولايـات المتحـدة الأمريكية، والتى تحصل على موازنات جيدة كأداة للسياسة العامة.

وقد ظهر أول معهد لبحوث الفعل فى النـرويج عـام ١٩٦٠ تحـت رعاية المعهد النرويجى للتكنولوجيا (NTNU). وقد ركـز معهـد البحـث الاجتماعى فى الصناعة (IFIM) على البحث الصناعى وعلى تعليم الهندسة. وقد ركز (IFIM) على البحث وقدم بعض البرامج القليلة لكليـة الهندسـة. وبمرور الوقت نما قبول بحوث الفعل فى الجامعة إلى الدرجة التى تم بهـا تكوين قسم منفصل لعلم النفس والبحث الاجتماعى. ومع ذلك فقد ترك باحثو الفعل معهد البحث الاجتماعى فى الصناعة والمعهد العالى للتكنولوجيا للبـدء فى معهد جديد بأوسلو، وهو معهد بحث العمل (WRI) الذى لا ينتمى إلى أى معهد أكاديمى. وكانت دافعية الباحثين موجودة فى معهد أوسلو ولكنهم ربطوا أنفسهم بالعمليات السياسية التى ترتبط بوضع أولويات إجراء البحث وتحسين أساليب وصولهم إلى الموازنة العامة. ولكن إحدى نتائج الانتقال إلى أوسـلو كان يتمثل فى فصل بحوث الفعل عن الحياة الأكاديمية اليومية. ولم ينجح أبدا معهد بحث العمل (WRI) فى بناء علاقات جيدة مع جامعة أوسـلو. وفـى المقابل فإن العداء كان قويا تجاه معهد بحث العمل (WRI) فى جـزء مـن الأكاديميات التقليدية، لدرجة أن التعاون فى النهاية أصبح غير ممكن.

وهذا الموقف أدى إلى اغتراب بحوث الفعل عن الحياة الجامعية فى النرويج لعقد كامل من الزمان. ونتيجة لذلك لم تتوفر الفرصـة تقريبـا لأى دارس بالجامعة للاطلاع على بحوث الفعل أثناء فترة دراسته بالجامعة، على الرغم من تركيز الجامعة على بحوث الفعل العالمية والتركيز على بحـوث الفعل فى السياسة القومية النرويجية. وقد حدثت الزيادة فى عدد باحثى الفعل بعد تلقيهم درجات الماجستير التقليدية ودرجات الدكتوراه. وكان هذا موقفـا

مشئوما لأن الطلاب تربوا وتدربوا على أنهم باحثون اجتماعيون تقليـديون، وبعد ذلك تحملوا مسئولية مشروعات بحوث الفعل، والتـى لـم يتلقـوا أى تدريبات عليها.

ولم يكن أيضا لمعهد تافيستوك بالمملكة المتحدة حظا أوفر للارتباط بالتعليم العالى فى إنجلترا. وباستثناء الجهود المزدوجة فى أستراليا (جامعـة ديكين وجامعة الصليب الجنوبية) حيث توجد بعـض الأمثلـة القليلـة مـن التدريب الجامعى الرسمى على بحوث الفعل، أو بـرامج للحـصول علـى الدرجات العلمية فى أى مكان فى العالم، متضمنا الولايات المتحدة الأمريكية. وعندما تم اتباع نفس المسار فى العديد من الـدول المتنوعـة، والأنـساق السياسية المختلفة وبناءات التعليم العالى المتنوعة، لم يكن ذلك بالمصادفة.

وبينما كان من المباح توجيه كل اللـوم إلـى الجامعـات والعلمـاء الاجتماعيين التقليديين، فإن جزءًا من هذه المشكلة كان بواسطة باحثى الفعل أنفسهم. وكان لدى الكثير من باحثى الفعل قناعة برفض زملائنا الأكاديميين والارتباط بهذا الوضع بدلا من الانتقادات العلمية المتبادلة. وبـالطبع فـإن زملاءنا الأكاديميين التقليديين قاموا بنفس الفعـل بـشكل روتينـى. وهـذه "الرقصة" سمحت لكلا الجانبين لكى يستمرا فى إهمال الآخر، وأصبح لـذلك تأثيرًا ضارًا على كل من بحوث الفعل والعلوم الاجتماعية التقليديـة. ومـن خلال عدم الارتباط بين بعضهم أصبح كلا الجانبين ضـعيفًا مـن الناحيـة الفكرية.

وفيما يتعلق بذلك فقد قام باحثو الفعل بعمل أفضل قليلا عن الباحثين الاجتماعيين التقليديين. وعند الاحتفال بالذكرى الخمسين لمعهـد تافيـستوك للعلاقات الإنسانية بلندن، لاحظ ليفين اختفاء الاستجابات الفكرية، ومحادثات النقد الذاتى داخل صفوف باحثى الفعل. وكذلك اختفى الكلام عن الانفـصال

وعدم تحدى الآخر عند علماء البحث التقليديين. إنهم غير مضطرين إلى تبرير خيالاتهم التلقائية **autopoietic** وأنشطتهم المهنية غير المرتبطة بالجوانب الاجتماعية فى مواجهة الانتقادات المنطقية من باحثى الفعل، والتى شملت نقد زعمهم بأنهم أنشأوا العلوم الاجتماعية بدون تطبيقات اجتماعية لهذه العلوم.

وقد نتج عن ذلك تهميش باحثى الفعل، وقد ترك هذا أيضا الباحثين الاجتماعيين التقليديين فى موقف غير متوقع يتسم بالحساسية والتعرض للنقد. إن عدم ارتباطهم بعملهم واهتمامهم الكاسح فقط بالشئون الداخلية بتخصصاتهم لم يفقدهم التمويل من حكوماتهم ولا أشكال التمويل الأخرى التى يتلقونها. وبينما استمر هذا الوضع أثناء عقود من تطور الجامعات وموازنات البحث، فإن الظروف الاقتصادية والسياسية التى أثرت فى الحياة الجامعية قد تغيرت. فقد أدركت كل المؤسسات العامة وقادة القطاع الخاص والمديرون الأكاديميون أن استمرار التمويل للتعليم العالى يعتمد على مساهمات ملموسة ومعرضة للمحاسبية فى برامج الرعاية الاجتماعية العامة واستمرار المنافسة الاقتصادية. وللتعامل مع هذه الضغوط قام مديرو الجامعات بتأجير واستخدام خبراء بأجور باهظة لكى يقدموا لهم المعلومات عن المعرفة الإدارية **Knowledge management**، والميادين الصناعية الأكاديمية، وفصول الابتكار والإبداع **"Creative Class"**. وقد اتخذوا هذا الطريق، جزئيا، بسبب أن الكثير منهم لا يملك مناقشات بناءة عن هذه القضايا مع أعضاء هيئات التدريس فى العلوم الاجتماعية. وتقريبا فكل القادة الأكاديميين وصانعى السياسات يدركون نموذج ٢ للبحث (تنفيذ البحث فى سياق تطبيقى بحيث ينتج معرفة قوية اجتماعيا يتم اختبارها فى الفعل) **(Gibbons, Limoges, Nowotny, Schwartzman, Scott, and Trow, 1994; Nowotny, Scott, Gibbons, 2001)** لقد شعروا بالقلق بأن يكون

لديهم جامعات تجرى الأبحاث فى سياق تطبيقى، لكى تساهم فـى المعرفـة الاقتصادية، وتحقق أرباحا اقتصادية عامة، وذلك من خلال تدريب طلابهـا على المهارات اللازمة لذلك.

ومع ذلك ونظرا للعزلة الطويلة بين بحوث الفعل والجامعـات، فلـم يفهم معظم القادة أن بحوث الفعل هى الإستراتيجية البحثية الوحيدة التى يـتم بناؤها بدقة على أساس أنها وسيلة لإنتاج المعرفة والفعل. وأن عدم معرفـة الباحثين الاجتماعيين التقليديين بكيفية مساهمتهم فى مثل هـذه الأنـشطة لا يعتبر مفاجأة، ولكن كان من الصعب تبرير غياب أصوات باحثى الفعل فـى حركة إصلاح إدارة التعليم العالى، وتوجيه الحاجة إلى نموذج ٢ الخاص بهم بطريقة بناءة اجتماعيا وسياسيا.

الاعتبارات العامة General Considerations:

يوجد عدد قليل من برامج الدراسات العليا الخاصة ببحوث الفعـل، وفى حدود معرفتنا لا يوجد تخصص دقيق فى الدراسات العليا لبرامج بحوث الفعل على مستوى العالم. وتفتقد بحوث الفعل إلى أى نـوع مـن المنـابر لمناقشة الإستراتيجيات التعليمية، والبرامج التدريبية التـى تتـسم بالكفـاءة لتدريب الطلاب على بحوث الفعل.

وتستطيع بحوث الفعل أن تقيم جسرا لسد الفجـوة بـين الجامعـات والمجتمعات بأساليب تتسم بالقوة، ولكن نستطيع أن نفعل ذلك فقـط عنـدما نجعل بحوث الفعل هى الجزء المكمل للبحث والتدريس فى التعليم العـالى. ولن تجد بحوث الفعل مساحة واسعة فى الحياة العلمية والاجتماعيـة إذا لـم تحصل كوادر جديدة من المهنيين والباحثين على التدريب الجيد فى الجامعات

ولا يتدربون فقط على الوظيفة بعد أن يستكملوا تعليمهم فى العلوم الاجتماعية التقليدية. ولكى يتحقق ذلك فلابد من امتداد تعليم بحوث الفعل على كل المراحل الجامعية بدءا من مرحلة البكالوريوس ثم الماجستير والدكتوراه.

التخصصية ضد تعدد التخصصات

Departmentalization versus Multidisciplinarity

وتتمثل الاستجابة المتوقعة من الجامعات لهذا التحدى فى إنشاء برامج منفصلة لدراسة برامج بحوث الفعل أو أقسام علمية خاصة بها. وهذا بالضبط ما تم فعله مع دراسات المرأة والدراسات الإثنية (العرقية) ودراسات العلم والتكنولوجيا، وعمل نفس النموذج التنظيمى، والذى يتمثل فى القسم الأكاديمى التقليدى، والذى له حدود مشتركة مع التخصص، والتقييم بواسطة هيئة مهنية مستقلة.

إن قبول هذا النموذج التنظيمى لبحوث الفعل يمكن أن ينتج المهنية المتمركزة حول الذات **Self- regard Professionalism** ونقص الانضباط والذى يتسبب فى فشل العلوم الاجتماعية التقليدية والذى يقوم الآن بعزل اتجاهات مساواة المرأة والدراسات الإثنية، والدراسات العلمية والتكنولوجية فى غرف مغلقة، والتى يفكرون الآن فى تحطيمها **(Messer-Davidow, 2002)**.

إن عزل بحوث الفعل فى برامجها وفى أقسامها يمكن أن تؤدى ببساطة إلى تحطيمها بسبب أن بحوث الفعل هى عبارة عن إستراتيجية متكاملة لإنتاج المعرفة تقوم على أساس الإنتاج التعاونى للمعرفة من خلال التخصصات المتنوعة وبالتزامن مع قيام أصحاب المشكلات المحلية بإنتاج المعرفة العملية والنظرية فى نفس الوقت.

ولابد أن يكون المنطق من وراء ذلك واضحا. فبحوث الفعل لا يمكن أن تعمل داخل نظام تقليدى واحد لأن بحوث الفعل تنتج معرفة جديدة في سياق تطبيقى، ونتيجة له. ويجب أن تكون بحوث الفعل متعددة التخصصات **Multidisciplinary**. وحتى لو حاولت إيجاد قسم متعدد التخصصات فإنه لن يعمل، بسبب أن التخصصات التى تم تجميعها فى مختلف مشروعات بحوث الفعل تختلف وفقا للمشكلة التى تم تحديدها. إننا لا نستطيع أن نعرف أولوية أى من هذه التخصصات ذات علاقة.

وفى المعاهد القائمة على أفكار تايلور **Tayloristic** مثلها مثل الجامعات، فإن هذا النوع من اتساع المجالات والأقسام والبرامج والكليات ليس غير مرحب بها تماما، ولكن يقدمها العمداء ورؤساء الأقسام فى معاهد تيلور على أنها تعنى بالنسبة لهم مشكلة محيرة مستحيلة. ويبدو لهم أن محاولة جعل خبرة الجامعة ملائمة لمشكلات العالم الواقعية والمعقدة هى مستحيلة وغير مرغوبة. ناهيك بأن المجتمع ككل قد عبر لهم بأنه من خلال الطلبات المتزايدة على المحاسبية فإنه، سواء شئنا أو أبينا، فإما أن يجدوا وسيلة أفضل أو أن يجدوا أنفسهم بلا موارد.

تعدد التخصصات أو تعدد التخصصات الموجهة فكريا

Multidisciplinary or Multidisciplinary mindset

ووفقا لما سبق فإننا لا نستطيع تدريب الطلاب لكى يكونوا خبراء فى كل التخصصات ذات العلاقة بمشروعات بحوث الفعل التى سوف يوجهونها أثناء حياتهم المهنية. ومع ذلك فإن ما نستطيع أن نفعله هو تشجيعهم وزيادة قدرتهم على الارتباط بالتخصصات المتنوعة برغبة منهم بدلا من تركهم

يعتادون على التعمق فى أحد هذه التخصصات فى مجال وحيد من الخبـــرة. إن الشعور بالارتياح فى جماعة من الناس مع أنواع متعدد وواســعة مــن الخبرات، والقدرة على التغلب على مشكلاتهم، يعتبر مجالا مناسبا يمكن من خلاله إجراء عمليات التعلم والتعليم.

والأكثر من ذلك فعلى الرغم من الخدمة الذاتية **Self-serving** تؤمن بالخبرة **(Brint, 1994)** فإننا نعرف من خلال خبرتنا أنه لكى نستطيع إنجاز أى شىء بدرجة عالية، فإننا لا نحتاج إلى شخص غير كفء فى أى شـــىء آخر. إنه من الممكن أن نرعى وجهة نظر واسعة من الاتجاهات التعليميـــة والمرحبة بالتعلم، وكيفية تعلم أشياء جديدة وتعلم كيف نساهم بخبراتنـــا مـــع زملائنا الذى يختلفون معنا فى خلفياتهم. لو اعتقدنا بحق فى أن ما نقوله عن إيجاد المعرفة المنتجة بشكل تعاونى وفى قيمة وأهمية امتلاك معارف متعددة يتم تقديمها خلال العملية، فإننا أيضا يجب أن نتصرف بهذه الطريقة فى حرم الجامعات. وفيما يتعلق بذلك فإننا لا نطلب أكثر من أن يتــصرف زملاؤنـــا وطلاب بحوث الفعل بنفس الطريقة التى نتوقع أن يتصرف بها المـــستفيدون المحليون فى مشروعات بحوث الفعل. إننا نخبرهم بأن يكونـــوا متـــسامحين وقادرين على التحمل وأن يكونوا منفتحين على معارف المستفيدين الآخرين، وأن يعملوا معا فى إنتاجية تعاونية.

ونحن نعلم من خلال خبرتنـــا الطويلـــة أن زملاءنـــا الأكـــاديميين التقليديين سوف يدافعون عن مجال عملهم من خلال الرد السريع بأن طلابنا فى بحوث الفعل سوف يكونون عبارة عن هواة قليلى التـــدريب والخبـــرة، وأنهم سوف يعرفون بعض الشيء عن كل شىء وليس الشيء الكثير عن أى شىء محدد. وهذه المناقشة الثابت زيفها يتم صرف النظر عنها لأنها تفتقـــد إلى أى سند أو تأييد من القوى الـــسياسية المتراكمـــة لعقـــود مـــن عمـــل

التايروليزمية الأكاديمية **Academic Taylorism**. وبامتلاكنا وجهة نظر شاملة وواسعة تتمثل فى أنها لا تعوق تنمية المعرفة العميقة لموضوعات معينة، وإنما أظهرت أنه من الواضح أن المعرفة العميقة ليست ضرورية فقط للتعامل مع المشكلات المعقدة، ولكنها أيضا تنمو وتتطور من خلال عمليات إنتاج تعاونى تمزج العديد من أنواع الخبرة بوسائل فعالة. وبالطبع فإن زملاءنا التقليديين والذين لديهم فى الغالب معرفة عميقة عن شيء معين، نادرا ما يكونون قادرين على نشر هذه المعرفة فى أى مكان، ولكن فى المجلات العلمية التى يقرأها كوادر قليلة من زملائهم المدربين أمثالهم. إن الخبرة وضيق الأفق أمر مألوف فى المجالات الأكاديمية.

تطبيقات بحوث الفعل فى التعليم العالى

AR Praxis In Higher Education

إن نقطة الانطلاق لبحوث الفعل فى الجامعات تتمثل فى الاتجاه التعليمى **Pedagogical** الذى يمزج المعارف المهنية المتعددة (من فرع أو أكثر من فروع المعرفة) مع الارتباط بسكان المجتمع فى سياق مشكلات الحياة الواقعية. وهذا يتعارض مع تدريب الجامعات التقليدية، والتى بوجه عام لا تربط بقصد بين النظرية والممارسة، حيث يعتمد التعليم فيها فقط على تعليم المعارف المهنية الواضحة. والنموذج البنكى **Banking model** **(Freire, 1970)**، والذى يعتبر الدارسين من خلاله متلقين سلبيين للمعرفة فى رءوسهم بواسطة المعلمين، وهو يمثل السواد الأعظم فى الجامعات، على الرغم من الدليل الواضح على أن ذلك يعتبر غير فعال وغير بناء.

القيود الزائفة Pseudo-Constraints:

عندما يكون هناك مشروع لتغيير الجماعات الهرمية (السلطوية)، والتى لا ترغب فى التغيير، تتكاثر المبررات عن نقص المــوارد والقيــود الإدارية. ونحن ندعى أن هذه القيود الزائفة ليست أكثر من مجــرد إظهــار لعدم الرغبة فى تغيير أنماط السلوك الحالية أو إعادة توزيع القــوى، وهــى مثال جيد لنموذج السلوك ١.

وأحد القيود التى تؤثر على تعليم بحوث الفعل على أى مستوى هى حجم الفصل الدراسى. فنجد على مستوى مرحلة البكالوريوس فى الجامعات الكبيرة، أن فصول طلاب العلوم الاجتماعية فى الغالب تشمل مئات الطلاب الذين يتم تجميعهم فى قاعة محاضرات واحدة. إن الحجم الكبيــر للفــصول الدراسية يعتبر واحدا من أهم معوقات توفير تعليم مثمر وبناء لبحوث الفعل والذى يحتاج إلى أن يكون تفاعليا ويقوم على أســاس الفريــق والارتبــاط بجماعات فعلية من أصحاب المشكلات.

وتعتبر هذه قيودا زائفة نظرا لأنها نتيجة لوجود خيارات مؤســسية وأولويات. وأينما يتم التفكير الحاسم فى الفصول ذات الحجم الصغير كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية فــى بــرامج تعلــيم اللغــة والكتابــة والتركيبات اللغوية، وتعليم الزراعة والفنون والأستوديوهات الخاصــة بهــا وتعليم الموسيقى وغيرها، فإن معظم المعاهد العلمية تعمــد إلــى اســتخدام الفصول بحجم الحلقات الدراســية **Seminar Size**. إن جلــسات الفــصول الصغيرة مع الاتصال الشخصى بين الأستاذ والطلاب تعتبر مكلفــة. لــذلك فبدلا من تعلم الجامعات العلوم الاجتماعية بطريقة لائقة، فإنهــا تلجــأ إلــى مشروع تعليمى سيئ السمعة "لمعالجة **processing**" أعداد كبيرة من الطلاب وامتلاك الأقسام التى تتنافس من أجل زيادة حجم فصولها الدراسية من خلال

استخدام هذا المعيار لمكافأتهم بتحسين أوضاع أعضاء هيئة التدريس بها وتوفير المساحات والأماكن لهم، وزيادة مكافآتهم ومخصصاتهم المالية وغيرها.

وينتج أيضا بناء البرامج والمناهج الدراسية قيودا زائفة أخرى. فالطلاب يدرسون العديد من المقررات فى وقت واحد مع وجود تنسيق ضئيل جدا بينهم، ولا يوجد أى مبرر لدى الطلاب لعمل ذلك. ومن الممكن أن يدرس الطلاب مقررًا دراسيًا واحدًا فقط طوال الوقت لمدة شهر فى كل مرة على حدة، ويدرسون عددًا من المقررات فى عام كامل. ومثل هذه المقررات المكثفة تعتبر من المتطلبات الأساسية والقوية، والتى من خلالها يتم تطوير بحوث الفعل (ومعظم الأشكال الأخرى من) تعليم وتعلم بحوث الفعل. ومع ذلك فإن أى إعادة للتنظيم تحتاج إلى التخيل والطموح، والذى يفتقده بوجه عام المسئولون عن إدارة التعليم العالى.

وأيضا تتسم المقررات والحلقات الدراسية فقيرة زمنيا فى تعليم ممارسة بحوث الفعل. إنها كاملة، ولكنها من غير الممكن أن تغطى الدائرة الكاملة لمشروعات بحوث الفعل من خلال المدة المثالية للتقويم الجامعى. ومن الممكن توفير الوقت الطويل خلال مرحلة البكالوريوس، ولكن لا تبذل المعاهد التعليمية الجهد المناسب لحدوث ذلك.

وبوضوح فإن هذه القيود الزائفة للتغيير الضرورى لزيادة كفاءة التعليم والتعلم فى بحوث الفعل تعتبر نتيجة لعدم الرغبة فى مقابلة تحديات نموذج ٢ لإنتاج المعرفة. إن الفشل فى تحقيق ذلك فى الحال يتطلب تكاليف مالية عالية لمعظم الجامعات، وسوف يظهر العامة والسياسيون الانسحاب المتزايد لكل من الدعم المادى والأخلاقى من التعليم العالى العام **(Lyall & Sell, 2006)**.

بعض إمكانيات تعليم بحوث الفعل فى مرحلة البكالوريوس:

باستثناء تقديم بعض البرامج الخاصة للجماعات الصغيرة من طلاب مراحل البكالوريوس، فإننا نعتقد أن التركيز الرئيسى لتعليم بحوث الفعل لطلاب البكالوريوس يكون على أهدافها وتاريخها فى سياق أكبر من إنتاج المعرفة الاجتماعية، والفهم المبدئى لأنواع المهارات اللازمة لإنجازها. وقد أظهرت خبرتنا التعليمية الطويلة لنا أنه حتى داخل حدود القيود الزائفة التى ذكرناها سابقا، فإن تعليم بحوث الفعل يمكن تنفيذه بنجاح. فنحن نستطيع أن نعطى الطلاب بعض الخبرات فى إدارة بيئاتهم لتعليمية ذات الإنتاجية التعاونية، ومساعدتهم على التعلم عن المشروعات ودور بحوث الفعل، وإعطائهم الفرصة لكى يعكسوا اهتماماتهم وقدراتهم على الوسائل التى ربما تزيد من كفاءة بحوث الفعل. ويمكن أن يتم هذا التعليم من خلال مقررات تقديمية (مداخل) كبيرة، على الرغم من ندرتها.

المراحل التعليمية فوق المتوسطة

Intermediate Undergraduate Instruction

من السهل تكوين الفصول الدراسية الصغيرة التى تركز على تعليم بحوث الفعل فى المراحل التعليمية فوق المتوسطة.

مقرر الإدارة العامة والتخطيط لليفين

Levin's Public Planning and Administration Course

فى NTUN وضع ليفين مجالاً تجريبيًا لبحوث الفعل هو تعليم الإدارة العامة والتخطيط. وقد جذب هذا الموضوع عددًا قليلاً فقط فى كلية الهندسة،

ولكن ذلك أتاح الفرصة للسماح بخلق بيئة تفاعلية. ولاستحضار مشكلات الحياة الواقعية داخل الفصل قسم ليفين الفصل إلى فرق كل فرقة تتكون من ثلاثة إلى خمسة طلاب، وكل فريق يقوم بالتفكير فى قضية تخطيط عامة تستحق التعامل معها فى الإقليم الذى يعيش فيه. وكان من السهل على الطلاب توجيه الاهتمام والدافعية لمشكلات مناطقهم. ومن ثم وجب على فرق الطلاب تطوير تركيزهم على مشكلاتهم الخاصة وربطها بالعمل ميدانى.

وقد أصبح دور ليفين مستمع وسائل نقدى لتدعيم الجهود لخلق مشروع بحثى، وغالبا، ولكن ليس دائما كان مصدرا للدخول فى موضوعات ونقاط فى المجال. وقد وجب على الطلاب أن يعملوا بأنفسهم فى المجال ويقوموا بإجراء عدد من المقابلات وجمع البيانات، على الرغم من حصولهم على حد أدنى من التدريب على الحصول على البيانات وجمعها. ومعظم هؤلاء الطلاب كانوا فى حاجة إلى مهارات فنية جديدة، وقد علموا أنفسهم من خلال تعاملهم الملموس مع مشكلات الحياة اليومية فى الموقف الميدانى.

وقد تم تصميم العملية التعليمية حول تنمية مشروعات الطلاب، والتوازن مقابل الكتب والنصوص الأساسية التى اعتبرها ليفين ضرورية وتحتاج إلى القراءة واستخدامها كأدوات. وفى واحدة من أهم وأكثر سنوات هذا المقرر نجاحا، فقد وضعت جميع مشروعات الطلاب الأربعة فى الصفحة الرئيسية فى الجريدة المحلية.

ولعل ميكانيزمات الدافعية القوية التى ظهرت من خلال العمل مع مشكلات الحياة الواقعية كانت واضحة جدا. وقد كرس الطلاب وقتًا وطاقة كبيرين فى مهامهم وواجباتهم والتى اشتكوا من عدم وجود وقت كاف لمقرراتهم الأخرى، ولكنهم أيضا رفضوا التقليل من انخراطهم فى المشروعات. والأخذ من الناس والتعلم منهم فى مواقفهم المشكلة هو الذى أوجد بحق التزامهم العالى وطاقتهم الكبيرة.

مقرر المدخل لبحوث الفعل لجرينوود

Greenwood's Introductory Course In AR

قام جرينوود بتدريس مقرر المدخل إلى بحوث الفعل لكل من طلاب البكالوريوس وطلاب الدراسات العليا معا لمدة ١٤ سنة. فقد بدأ المقرر بتقديم محتوى المقرر يومًا بيوم مع القراءات الموصى بها. ومن ناحية ثانية فإن الطلاب يحتاجون إلى الخضوع إلى قائمة بالمراجع وتكوين قائمة من مما يرغبون فيه ويقترحونه لهذا المقرر. وقد طلب منهم تحديد ما يريدون تحقيقه وما إذا كانوا قادرين ومعدين للمساهمة فى المقرر. وهذه الرغبات والاقتراحات توضع فى قائمة من أولويات المقرر بواسطة أدوات عمليات الجماعة، ويتم وضع النتائج فى منهج دراسى. ومن ثم يقوم الطلاب بشكل طوعى بالتنسيق وتوزيع الموضوعات عليهم وفقا لاهتماماتهم والخبرات والمعارف التى يقدمونها، وقاموا بالتعاون مع جرينوود بإعداد مواد المقرر وتوزيعها وتصميم عمليات الجماعة كجزء من المنهج.

وعلى الرغم من أن هذه الخبرة تعتبر مزعجة للطلاب فى البداية، فإن العملية قد انطلقت بسرعة كبيرة جدا، وأصبح الطلاب الذين عانوا من خبرة تعليمية سلبية لسنوات قادرين على إدارة عملية التعلم لديهم بصورة رائعة. وقد تعلموا طوال الفصل الدراسى عن التعقيدات التى تواجه اختياراتهم وتصميماتهم، وأيضا تعلموا أسلوب المعاملة الجيدة مع أنفسهم. وأيضا تولوا مهمة تطوير عملية تقييم مشتركة طوال فترة دراسة المقرر، وكذلك قاموا بتطوير نظام لتقييم لأنفسهم وإدارته، وكذلك تقييم أستاذ المقرر من كل الجوانب.

وكما فى مقرر ليفين فكان من المدهش أن يصبح الطلاب قادرين بسرعة على الانتقال إلى هذه الوسيلة التعليمية وكيف تقبلوها. وبالتأكيد فإنهم بذلوا جهدا أكبر وكان لديهم إرادة أكثر من الفصول المنظمة بشكل تقليدى. إنهم

مدركون وواعون لذلك، ويرجعون هذه الاستجابة إلى حقيقة أن ما يتعلمونه ويفعلونه يمثل خيارهم الخاص ومسئوليتهم نحو أنفسهم ونحو الآخرين.

مقرر ليفين عن النمو التنظيمى

Levin's Course on Organizational Development

أوجد ليفين مقررًا جيدًا عن النمو التنظيمى (OD) من منظور بحوث الفعل مستفيدا من خبراته في المقرر السابق والخاص فى التخطيط. وبدلا من اتخاذ النمو التنظيمى التقليدى ذى الخبرة المهنية، فإن عملية النمو التنظيمى قد تم بناؤها حول نموذج البناء التعاونى. وركز ليفين أيضا على التخطيط لعمليات التغيير وانعكاساتها باستخدام المنظور القائم على أساس خط الوقت Timeline نظرا لأن التغيير لا يحدث فى طرفة عين، ولكنه عملية تنشأ وتتطور بالتدريج. وقد تم استقبال هذه الوسيلة لتعليم بحوث الفعل بشكل جيد من الطلاب وكانوا أكثر انتباها لليفين أيضا. وكان تسجيل الطلاب عاليا جدا فى هذا المقرر (٣٠-٤٠) وكان تقييمهم مبشرا للغاية. "أنت تلتحق بهذا المقرر من أجل أن تتعلم": "يجب أن تعمل فى هذا المقرر أكثر مما تعمل فى كل المقررات مجتمعة التى تدرسها فى هذا الفصل الدراسى": "إنك سوف تحتاج كل ما درسته فى هذا المقرر عندما تبدأ حياتك العملية".

وبتناول ردود الأفعال المبدئية هذه، فقد تطلع ليفين إلى الوسائل الأفضل لجذب الواقعية داخل الفصل وتطوير بناء المهام لدعمها. وقد قام الطلاب بتقدير المنظمة التى قاموا بدراستها، والتى تتضمن جوانب القوى والضعف. وكان هذا التحليل يمثل تغذية راجعة لأول خطة تطوير والتى من خلالها حصل الطلاب على تغذية عكسية نشطة أجبرتهم على تغيير أو إعادة

تطوير خططهم المبدئية. وهذا التغيير المتواضع فى البناء أوجد تغيرًا دراميًا فى المقرر لأنه نشط واستثار مواقف التغيير الدينامى، وجعل واضحًا أمام الطلاب أن خطة عملية النمو التنظيمى هى فقط مجرد خطة وليست برنامج عمل نهائى لكيفية تطوير الأشياء. لقد تعلموا كيف يغيرون إستراتيجياتهم وأهدافهم بتغير وتطور العملية.

وبناء على هذه الخبرة، فقد تطلع ليفين إلى وسيلة لعرض الحالة بدون أولوية للتركيز على الانتباه من أجل أن يكون لدينا طلاب يتعلمون أيضا كيفية تحديد المشكلات وليس فقط حلها. وقد فتح التطور الكبير فى مجال الحاسبات والفيديو الباب أمام إمكانيات جديدة. لقد سجل ليفين العديد من الحوارات مع الناس داخل المنظمات ووضعها على برامج الفيديو فى الحاسبات الآلية وأتاح الفرصة للطلاب للاستماع إليها ومشاهدتها، وكتابة الملاحظات عليها، ومناقشة ما رأوه وسمعوه.

وبالإضافة إلى ذلك فقد تم دعوة عدد من أعضاء المنظمة "الحالة" لتقديم محاضرات داخل الفصل، والتى أعطتهم الفرصة لعرض خبراتهم وآرائهم عن منظمتهم. وقد تم ذلك فى جلسات تراوحت مدتها بين ٢-٣ ساعات. وبعد ذلك قام ليفين بعد عدة أسابيع من الفصل الدراسى إما بتنظيم مؤتمر فيديو **Video conference** أو – فى حالة أن تكون المنظمة محلية – القيام بدعوة السكان المحليين لتوضيح ومناقشة القضايا التى يمكن أن يعمل من خلالها الطلاب فى مشروعاتهم.

وقد تمثلت مهمة الطلاب ببساطة فى البدء فى "وضع خطة نمو تنظيمى لتحسين عمليات المنظمة". إن عرض المشكلة المبسط وغير واضح الهدف أدى إلى إحباط الكثير من الطلاب. ومن جانب آخر فقد عكس الموقف التجريبى كيف أن عدم التنظيم وعدم الوضوح كان يمثل مواقف

الحياة الواقعية. ومنذ أن أعطى العنصر المهم من الفعل المهنى معنى وإحساسا مفهوما لمواقف الحياة الواقعية المعقدة والكلية والقدرة على صياغة فهم واسع لماهية القضايا الأساسية التى يجب أن نتعامل معها، فقد أصبح هذا هو التعليم الواقعى. ولعل الجزء الذى يستغرق جهدا أكبر ويستنزف الكثير من الوقت فى هذه المهمة يتمثل فى تحليل المقابلات. وكان ذلك يمثل تحديا وإشكالية للطلاب عندما يكون لديهم معرفة بدائية عن تحليل البيانات. وكان من الضرورى أن يدرسوا مقررًا قويًا وعميقًا عن تحليل البيانات.

وكان تركيز التدخل ينصب على التفاوض مع المستفيدين المحليين، وكان لزاما على الطلاب أن يفكروا ويناقشوا بجدية ميادين التعلم التى اقترحوها لتحقيق التغيير التنظيمى. وفى نهاية المقرر، تم دعوة أعضاء المنظمة لكى يشاركوا فى العرض النهائى للطلاب، وقد تم إعطاء تغذية عكسية مباشرة وكبيرة بواسطة أصحاب المشكلة. وكان عمل الطلاب يتم دائما استيعابه وتلقيه بشكل جيد من المستفيدين المحليين، حتى عندما يتخذ العمل موقفا نقديا من المنظمة المحلية.

ولعل أكثر أنواع الانفصال وضوحا لعمليات بحوث الفعل يتمثل فى نقص التعرض المباشر فى المجال. فليس من الممكن إرسال ٣٠-٥٠ طالبًا إلى موقع واحد لأنهم سوف يملأونه. وقد لا يستطيع الطلاب بأنفسهم إجراء عملية التغيير القائمة على عمليات بحوث الفعل.

وقد قام العديد من معلمى بحوث الفعل الآخرين بتطوير ميادين تعلم تعاونية مشابهة، وهناك القليل الذى يمثل استثناء عن ما وصفناه بالضبط. وبالأحرى فإننا نريد التركيز على أنه على الرغم من السيطرة المؤسسية للنموذج البنكى، فمن السهولة وضع الطلاب متعلمين متعاونين. وبالطبع فإن من شأن الأستاذ أن يبدأ بأول الخطوات وأن يعرف كيف يدعم عملية التعلم.

المقررات القائمة على أساس الخبرة لمرحلة البكالوريوس:

Experience- Based Courses for Undergraduates

من أجل الوصول إلى مستوى متقدم من طلاب البكالوريوس فى بحوث الفعل، فإن تكوين فصول دراسية ذات أعداد قليلة لدراسة بحوث الفعل أصبح أمرا ممكنا. فقد قام جرينوود بالتعاون مع بعض زملائه المتطوعين **(Nimat Hafez Barazangi, Ken Reardon, Paula Horrigan, and Leonardo Vargas Mendez)** ومع مركز كورنيل للخدمات العامة بتكوين وإدارة برنامج بارتيلز للزملاء من مستوى البكالوريوس فى بحوث الفعل **Bartels Undergraduate Action Research Fellows Program**. وقد قمنا بتنظيم عملية تنافسية على عضوية طلاب البكالوريوس للالتحاق ببحوث الفعل، وذلك بالاستفادة من التمويل المقدمة من مركز كورنيل. ويجب أن تتضمن استمارة التقدم مشروعا محليا جاريا، وخطاب تأييد من المستفيدين المحليين ويوضح استعدادهم لعمل سمينار (حلقة نقاشية) خاصة ببحوث الفعل مع زملائهم الآخرين طوال العام. وفى المقابل فإن هؤلاء مع حاجاتهم للمساعدة المالية يتلقون منحة دراسية، ويحصل الجميع على بعض التمويل لدعم مشروعاتهم.

والافتراض المنطقى كان يتمثل فى أن العلاقة والارتباط الأفضل بين الخدمة والتعليم يمكن أن يحدث لو أن خطة المشروع الفردى للطلاب تم مناقشته وعرضه فى حلقات نقاشية، وأن التدريب على بحوث الفعل قد تم تقديمه أيضا فى حلقات نقاشية وكان يرتبط باحتياجات المشروع. وقد نجح المشروع تماما وتم تقييمه بدقة وصرامة **(Hafez Barazangi, Greenwood, Burns, & Finne, 2004)** وأصبح مألوفا للطلاب وأصحاب المشكلات المحليين. ولكن لم يرغب مركز كورنيل فى إعادة تخصيـص مساعداتها

المالية الموجودة لمثل هذا البرنامج، أو حتى الدعم الرسمى لتشجيع أعضاء هيئة لتدريس بالبرنامج على إحيائهم لبعض الواجبات التعليمية فى أقسامهم العلمية. وهذا لم يكن يحتاج إلى أموال جديدة، ولكن كان يحتاج فقط أن تخصص الإدارة الموارد القائمة لتمويل هذه الأنشطة. ونتيجة لذلك فعندما انتهى التمويل الممنوح اختفى البرنامج. وتظهر مثل هذه الحالات أنه ليس مجرد امتلاك برنامج تعليمى لبحوث الفعل لا يعنى البقاء والاستمرار فى المجال الأكاديمى.

وقد أدار كينيث ريردون **Kenneth Reardon**، وهو أكثر الأشخاص شهرة على المستوى القومى فى كل من البحث والخدمات برنامج المنح الدراسية الحضرية بكورنيل. ومن خلال الميزانية المتاحة له أعطى أكثر من ٢٠ طالبًا بكالوريوس من ست كليات بكورنيل بالإضافة إلى جماعة صغيرة من طلاب الدراسات العليا فرصة العمل خلال الصيف مع التنظيمات القائمة على أساس المجتمع بمدينة نيويورك. ولإعدادهم فقد تم تعليمهم بحوث الفعل داخل الحرم الجامعى والتخطيط لحلقات النقاش المنتظمة أثناء العام الدراسى. وبالإضافة إلى إعطاء الطلاب هذه الخبرة، فقد استهدف البرنامج تشجيع الطلاب على اختيار الوظائف أو المهن التى يفضلونها فى مجال الخدمات العامة. من خلال إعطائهم الخبرات والأدوات اللازمة لفهم مستقبلهم (ومزيد من المعلومات متاح على **http://www.cusp.cornell.edu**).

ويوجد عدد وافر من الأمثلة لما يطلق عليه "خدمة التعليم **Service Learning**" فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تنوعت جودة هذه الخبرات بشكل كبير. ففى بعض الحالات يعمل الطلاب ببساطة كمتطوعين فى المؤسسات المحلية وفى هذه الحالة يطلق على هذه التجربة "خدمة التعليم **Service Learning**". وفى الحالات الأخرى فإن لدى أعضاء هيئة التدريس

مشروعات مستمرة محليا، والتى يمكن أن ينخرط بها الطلاب، وفى حالات قليلة تتضمن المقررات التى يتم تدريسها عناصر خدمة التعليم. وليس كل خدمات التعليم "تعليمية"، وأن معظمها لا توجه نحو إستراتيجيات بحوث الفعل، ولكنها تتخذ الشكل التقليدى من الإرشاد النابع من الخبرة **Expert-driven consulting**.

وتركز مساحة تطوير بحوث الفعل على الأنشطة الموجودة (الكائنة) مثل شرح برامج مرحلة البكالوريوس لكل من جرينوود وريردون، ولكن كسب الدعم المادى المؤسسى المنتظم، والاعتراف بهذه الأنشطة يعتبر معركة عسيرة. وقد أظهرت هذه التجارب والخبرات كيف أنه من الممكن إيجاد تعليم على مستوى البكالوريوس يمكن أن يعد الطلاب لإجراء بحوث الفعل.

التدريب على بحوث الفعل فى مرحلة الدكتوراه PhD Training in AR:

من وجهة نظرنا فإن أكثر الميادين الواعدة والمأمولة لتعليم بحوث الفعل توجد فى التدريب على مستوى الدكتوراه. فالطلاب يكونون أكثر نضجا ويستطيعون تركيز انتباههم على مجموعة محددة من الاهتمامات، ولبرامج الدكتوراه المدة الكافية لجعل برامج التغيير الكبرى ممكن تنفيذها. وهذا يخلق موقفاً يستطيع من خلاله الطلاب الانخراط فى المجال لمدة مناسبة، ويستطيعون طبقا لذلك التعرض لأنشطة بحوث الفعل المنظمة والمنتظمة.

برامج الدكتوراه المميزة Individualized PhD Programs:

تعتبر أكثر الطرق مباشرة لعمل ذلك هى خلق مشروعات بحوث فعل مميزة، والتى يدعمها المشرف (المرشد) بشكل مباشر، ويرشد الطلاب

سواء فى الميدان أو فـــى ردود الفعل الأكاديمية والكتابة. وهذا الشكـــل من النصيحة ينصب علـــى أنشطة التغيير أو الأنشطة الأكاديمية ويخلق علاقة فردية من شخص لآخر، والتى توجد فى معظم برامج الدكتوراه. ومن السهل نقل هذه العلاقة بشكل بارع إلى عمليات التعليم والتعلم، فى كل من الميدان وفى ردود الفعل وفى عمليات البحث. وهذا النوع من التحالف والاتحاد الذى يتميز بعمق التعاون يمكن أن يكون ذا قيمة كبيرة جدا، ولكنه أيضا يحتاج بدرجة كبيرة نشاط تدريبى يحتاج إلى تعامل كبير مع أساتذة ذوى خبرات كبيرة وشخصيات قوية وموارد مالية ضخمة. ويوجد أيضا أحد الحدود الواضحة المرتبط بكيفية تعامل المشرف الفرد مع عمليات الإشراف والمواقع الميدانية. وغالبا ما توجد أيضا مشكلة دفاع مثل هؤلاء الطلاب ضد ردود الفعل العدوانية من زملائهم النظاميين (فى التعليم النظامى التقليدى) الذين لا يحبون بحوث الفعل، ويضعون مقرر ومتطلبات اختبار غير مفيدة لطلاب بحوث الفعل، ولا يميلون إلى مساهمة أقسامهم العلمية مع طلاب الدراسات العليا الذين يتعمدون تهميشهم.

برامج الدكتوراه المعتمدة على الجماعة

Group-Based PhD. Programs

فى **NTNU** أنشأ ليفين العديد من برامج الدكتوراه المتتالية لبحوث الفعل **(Levin, 2003)**. وبعد ذلك أصبح جوهر تدخل بحوث الفعل هو إيجاد الفرص للتعلم الجمعى من خلال تكامل الأعضاء المحليين وباحثى الفعل فى عمليات تعليمية وانعكاسية (فكرية). وهذا النوع من التدريب فى مرحلة الدكتوراه يمكن أن يحدث فقط فى مواقف الحياة الواقعية. ويشترك كل من الطلاب والمشرفين فى تحمل مسئولياتهم نحو تصميم عمليات التعلم، وتمكين عملية ردود الفعل (التفكير) فى الفعل، وردود الفعل (التفكير) على الفعل

(Schon, 1983). ولجعل مثل هذا البرنامج ممكنا لزم على ليفين رفع التمويل الخارجى بما يسمح لمجموعة من طلاب الدكتوراه المرور من خلال هذا البرنامج معا (Levin, 2003). وقد تم ربط برامج الدكتوراه هذه بالمشروعات الميدانية المستمرة وبالتفاعل المنتظم من خلال حلقات النقاش (السيمينارات) فى ميدان العمل، والتدريب فى الحرم الجامعى. وكان جوهر وقلب العلاقة بين المعلم والمتعلم فى هذه البرامج يتمثل فى توفير وإيجاد الإمكانيات التعليمية التى ترتبط مباشرة بالتطبيق الواقعى والملموس، سواء من خلال الارتباط المتبادل داخل ميدان العمل أو فى الانعكاسات وردود الأفعال على خبرات العمل المشتركة. ولكى يكون ذلك ممكنا فقد وجب على ليفين أن يكون لديه الحرية والقدرة على أن يرتبط بواقعية بالمشروع الميدانى، ويكون قادرا على إدارة فن رد الفعل أو رد الفعل، وجعل ذلك ممكنا للطلاب لكى يروا ويفهموا لماذا وكيف تم تنفيذ هذه الأفعال.

وقد كانت هذه البرامج ناجحة لأنها أنتجت جيلاً جديدًا من باحثى الفعل المدربين جيدا فى النرويج، ولكن توجد وسيلة، والتى من خلالها يصبح مثل هؤلاء الجماعات من طلاب الدكتوراه منعزلين. وأصبحت ردود الأفعال بين الجماعات المغايرة من الطلاب والمشرفين فى برامج الدكتوراه التقليدية مفقودة. وعلى العكس من ذلك فقد سيطرة العملية من خلال العلاقات المباشرة من شخص إلى آخر.

برامج الدكتوراه الدولية: إدوار

An International PhD. Programs: Edwor:

ومن خلال التمويل الذى قدمه مجلس البحث النرويجى، انتقل ليفين إلى ما وراء حدود برامج دكتوراه فى بحوث الفعل المعتمدة على الجماعات

المحلية إلى برامج الدكتوراه الدولية. وارتباطا بالبناء المعيارى والنموذجى للبرنامج النرويجى المهم الذى تم تكوينه ٢٠١٠ (والممول من المؤسسة النرويجية العلمية) فقد تم وضع برنامج الدكتوراه. وقد اختار ليفين تسعة من أعضاء هيئة التدريس منهم أربعة غير نرويجيين، وكانوا يعملون فى وظيفة أساتذة مساعدين فى NTNU، وخمسة من أعضاء هيئة التدريس النرويجيين من مختلف المعاهد البحثية فى النرويج. وقد قبلت الكلية النرويجية طلبات ٢٤ طالبا وسمحت لهم بالالتحاق بها منهم أمريكى ودينماركى وثلاثة أتراك.

ويتوقع من كل هذه الطلبات والاستمارات أن تأتى للبرنامج بمشروع جار تنفيذه بالفعل. وقد انقسم التدريس على أربع سنوات، والتى تتضمن أربعة ١- أسبوع من التعليم المكثف بشدة وجلسات الإرشاد والتى من خلالها يتم إنجاز الساعات المتطلبة للمقررات الدراسية لدرجة الدكتوراه النرويجية. وقد أنشأت المنهج الدراسى ووزعت المقررات على نظرية العلم، والمنهج، والبحث، وأنساق الإبداع، والكتابة. وكل أنواع الكتابة تتم باللغة الإنجليزية. وقد اختار كل طالب اثنين من المرشدين بمرحلة الدكتوراه من داخل البرنامج. وعند هذه المرحلة (منتصف ٢٠٠٦) كان البرنامج فى عامه الأخير.

ونظرا لأن هؤلاء الطلاب كانوا فى الثلاثينيات والأربعينيات من العمر وكانوا يعملون فى وظائف طول الوقت، فإن إيجاد الوقت الكافى لدراسة الدكتوراه، وكذلك التركيز المناسب فى الدراسة واجه العديد من الصعوبات لكثير من هؤلاء الطلاب. وبالإضافة إلى ذلك فإن القيود الخاصة بستة عشر أسبوعا من المقابلات المكثفة فى مصطلحات التماسك الاجتماعى والتعلم الاجتماعى، والتى تحدث فى الأنواع الأخرى من برامج الدكتوراه القائمة على أساس الجماعة كانت واضحة. ومع ذلك كان لإدوارد النجاح الكافى فى أن البرنامج تم تمويله ببرامج دكتوراه أخرى، والدروس التى تم تعلمها تم تطبيقها فى إعادة تصميم العملية.

رسائل دكتوراه بحوث الفعل AR Dissertations:

كان باحثو الفعل صامتين لمدة طويلة من الزمن عن مشكلات كتابة المقالات الطويلة ورسائل الدكتوراه عن بحوث الفعل وجذب القبول لها. ولحسن الحظ فقد أتيح الآن الكثير من الاستجابات البناءة. ولعل إحدى أكثر الوثائق المفيـدة التى ظهـرت الآن هـى "دكتـوراه بحـوث الفعـل AR Dissertation" (Herr & Anderson, 2005): ونحن نوصى بها لجميع كتاب المقالات ورسائل الدكتوراه، كمرشد عملى للتغلب على الصعوبات التى تواجه كتابة رسائل الدكتوراه الخاصة ببحوث الفعل.

وبالمقارنة بالتأليف الفردى للكتب الذى لا يعتبر كافيا، فإن رسائل دكتوراه بحوث الفعل تعتبر أفضل. إن تطوير اجتماعاتنا ولقاءاتنا المشتركة والتى تؤسس لكتابة بحوث فعل عالية الجودة تنتمى إلى الشبكة الدولية لبرامج وخطط عمل باحثى الفعل، كما حددها برادبورى وريسون (2001a). إن كل قضايا التعبير والصياغات المتعدد للكتابة، والسمات الفكرية، والسرية التى تواجه عمليات بحوث الفعل فى البيئات الجامعية تحتاج إلى التنمية والتطوير التعاونى للاستجابات الواعية من جانبنا للتصرف مع الطلاب الذين ندربهم.

وضع بحوث الفعل فى الجامعة Situating AR within University:

يعتبر التعليم واحدا من أهم وسائل- وليس الوسيلة الوحيدة فقط - وضع بحوث الفعل داخل الجامعات. لقد بنيت الجامعات لترعى المناسب من هؤلاء الذين يستحقون الحياة فيها، ومن يديرونهم. وتمتلك الجامعة عددا كبيرا من الأقسام العلمية المنفصلة، والتى من المفترض أن يتضمن كل قسم منها فرعا من المعرفة بدون أى التباس أو غمـوض فى حدوده، ويتم خلـق

هذه المعارف بشكل منفصل، بناء على رغبة كل من البيروقراطيات الجامعية والسلطات الأكاديمية. ويصبح كل من رؤساء وعمداء الكليات وقيادات الجامعة (الرئيس، والمدير، ونائب الرئيس) يتولون السلطة بالتتابع والتدرج ويقتسمون الإدارة. وأيا كان ما يقومون به فإن هذه البناءات التنظيمية تؤكد على وجود البناءات الهرمية السياسية داخليا "وبنائيا تنتج عدم اتصال" مع مشكلات العالم، فيما عدا المشكلات التى تهم إلى حد بعيد أصحاب قوى العمل والنخب السياسية الذين يملونهم ويدفعون الأموال والدعم السياسى والاقتصادى لهم. وما دام لا يهتم أى شخص بالدراسات التى يقوم بها الباحثون بالجامعة، فإن اتجاه تيلور سوف يبقى، ولكن أصبحت هذه الجامعات الآن تدعى أنها تلتزم بقيمها التى تظهرها نحو المجتمع ككل، وليس بالمهن الأكاديمية والإدارات الأكاديمية، ومع ذلك لا يوجد دليل على هذا الموقف.

ويوجد الآن تركيز كبير متزايد على البحث والعمليات الاستكشافية، وبصفة خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية، ليس فى أنبوبة الاختبار، ولكن فى السياق التطبيقى (Nowotny et al, 2001). ومع ذلك فإن اقتراح الصيغة ٢ لإنتاج المعرفة بشكل مجرد ليس مثل امتلاك ميكانيزمات تنظيمية لتحقيقها فى الجامعات. وتتطلب الصيغة ٢ لإنتاج المعرفة تحريك معارف مفردات المجتمع وطرق الجماعة بسهولة وسرعة حول المشكلات الخارجة عن نطاق المهنيين الأكاديميين فى سياق تطبيقى، وبالتعاون مع المستفيدين المحليين التى تعتبر هذه المشكلات هى مشكلاتهم الخاصة.

وفى الوقت الحاضر فإن كل الجامعات لديها بناء سلطوى هرمى وبناءات مقسمة إلى أجزاء، مع وجود حراس بوابات كل مستوى من أقسام الكلية إلى الجامعة ككل. ويتمثل التحدى الأكبر هنا فى فرص تجميع ذوى

الخبرة والاهتمام من أعضاء هيئة التدريس والطلاب من جميع بناءات الجامعة أو الكلية ككل، وإيجاد العمل التنظيمي الذى يدعم الارتباط بالصيغة ٢. ويعارض العديد من الأكاديميين إجراء مثل هذه التغييرات، ويعتقد العديد من القيادات الإدارية أن مثل هذه التغييرات غير ممكنة التحقيق بدون زيادة الراديكالية فى هرم السلطة الإدارية، وبتر أو تقليل الحرية الأكاديمية والسيطرة على الإمكانيات، وإعادة تنظيم بناءات الأقسام العلمية. وبكلمات أخرى فإننا سمعنا كل التبريرات بأن قيادات الأعمال والقيادات الإدارية كانت غير قادرة فى حقبتى السبعينيات والستينيات من القرن الماضى على تحسين أدائها وإنجازاتها.

إن العملية الكلية لخلق "الجامعات الملتزمة" **(Marginson, & Considine, 2000; Slaughter &Leslie, 1997)** كانت تمثل نوعا واحدا من الاستجابات الإدارية واستجابات صانعى السياسة لهذا التحدى. لقد حققت مرونة أكبر من خلال جعل كل الوحدات معرضة للمساءلة من سلطة خارجية، وفصل البحث والتعليم إلى مشروعات يشارك فيها مختلف التخصصات، وفرض نظم الجودة الشاملة- واتحاد كل الجهود تحت قوة مركزية. وكلما فكر شخص فى المعنى الكبير للعملية الهرمية **Hierarchization** كعمل كبير وضخم يقوم به الباحثون والخبراء فى التطور التنظيمى، فإننا نعلم أن هذا يعتبر غير بناء فى خلق عمليات الصياغة ٢ فى التعليم العالى.

وهنا يوجد تشابه واضح بالتاريخ المعاصر لإعادة تنظيم المؤسسات الصناعية. وتحت تأثير المنافسة العالمية فإن هذه الشركات التيلورية **Tayloristic**، والتى لم تعلن إفلاسها قد تحولت بأساليب جوهرية. إن الحدود بين الشركات وبين زبائنهم الخارجيين كانت منخفضة، وتم إعادة بناء العلاقة بينهما على أساس تعاونى. إن أشكال التسلسل الهرمى التنظيمى الداخلى قد تم تهميشه

بشكل واضح وانتقل اتخاذ القرار بدرجة ما إلى أسفل نحو موضوع الإنتاجية كلما كان ممكنا. وقد أصبحت الفرق متعددة المهارات والتفاعلات المتبادلة نظام مفضل للإنتاجية. ويشارك الجزء الأكبر من قوى العمل فى الفهم التفصيلى لإستراتيجيات العمل وتحدياته، والمشاركة بالأفكار والخبرات فى حل مشكلات الشركات (انظر على سبيل المثال **Womack et al, 1990**).

ويعتبر هذا بوضوح صورة مثالية، ولكنها لا ترتبط بمناقشتنا. إن ما يدعى حاليا على أنه أكثر الممارسات جدية فى معظم الجامعات يعتبر لا شيء مما وصفناه سابقا. فلو أعادت الجامعات بناء نفسها وفقا لهذا النموذج الصناعى، فلابد أن يعاد توزيع السلطة إلى أسفل بالتوازى مع الحق فى الفعل، والتفاعل مع المستفيدين الخارجيين، ويكون واضحا وبارزا فرق العمل بها وتعدد المهارات. ولو تم فعل ذلك فيمكن بحق أن تنخرط الجامعات بفعالية فى عمليات الصيغة ٢.

ونحن الآن فى وضع نحدد من خلاله أن إستراتيجيات بحوث الفعل تعتبر فى حدود مشتركة مع الصيغة ٢ لإنتاج المعرفة. إن فرق العمل التى تتسم بالتعاون وتعدد المهارات مع وجود اتصالات جيدة مع المستفيدين الخارجيين تقوم بدراسة المشكلات والتعامل معها "فى إطار تطبيقى" وتنتج "معرفة قوية اجتماعيا". كيف إذن تستطيع الجامعات إعادة تنظيم نفسها لجعل الصيغة ٢ لإنتاج المعرفة هى شكل البحث المسيطر.

ويجب على الجامعات أن تحدد بوضوح المستفيدين الخارجيين، ويجب أن تحدد مطالبهم ومشكلاتهم بواسطة الجامعة وليس بواسطة بعض الأنواع الأخرى من المنظمات البحثية. ونظرا لأن العديد من الكليات أو أعضاء هيئة التدريس والمستفيدين الخارجيين أصبح بينهم بالفعل علاقات جيدة وأفكار حول إمكانية التعاون المثمر بينهم، وكذلك إمكانية تكوين ميادين

جديدة للاتصالات الداخلية فإن ذلك يؤدى إلى جذب انتباه الجامعة لهذه المعلومات. وعندما يتم تحديد المستفيدين الرئيسيين ومشكلاتهم، كما فى أى مشروع لبحوث الفعل، فإنه من الضرورى تحديد ما هو نوع الخبرة المهنية، والتى تزيد من قيمة العمل نحو التعامل مع هذه المشكلات. وهذا ما يجب أن تكون عليه الخبرة التفاعلية مع المستفيدين الخارجيين.

وعندما يكون هناك تحديد واضح للأشخاص ذوى القيمة فى الجامعة، فيجب على الجامعة أن تعيد بناء عملها التنظيمى، وذلك للسماح لهم بتكوين فريق لهذا الغرض، وتحريرهم من بعض الواجبات الأخرى، ومنحهم المزيد من المرونة، سواء للوجود داخل وخارج حرم الجامعة أو التفاعل مع أعضاء الفريق الآخرين ومع المستفيدين المحليين بشكل منظم، وتدريب أنفسهم على الجوانب التى يعملون بها فى المشروعات. والوقت المحدد للأنشطة يحتاج إلى مراجعته سنويا (دوريا) حتى ينتهى المشروع ويعود الأكاديميون إلى كلياتهم، وربما يكونون مطلوبين مرة أخرى فى مشروعات أخرى.

وربما تتسبب هذه العملية فى تحقيق التنوع الواسع لجماعات بحوث الفعل قصيرة المدى، ولو تم التعامل معها بدقة، فإنه يمكن أن تساهم بقوة فى الحياة الأكاديمية للجامعات. إن خلق ميادين تنافسية جامعية لتقديم تقارير للمجتمع عن المشروعات، واختيار الطلاب الذين تتناسب أدوارهم مع المشروعات كجزء من تدريبهم على مستوى البكالوريوس والدراسات العليا، واستخدام الموظفين الإداريين لاستمرار عملية اكتشاف أصحاب المشكلات والموارد التى تدعم أنشطتهم، كل ذلك يبدو ممكنا تماما.

الخلاصة:

إن ما يميز ما وصفناه تماما، ليس فقط مقابلة متطلبات الصيغة ٢ للبحث من خلال بحوث الفعل، ولكن أيضا يعتبر ذلك ممكنا حقا. فإن ما هو

ممكن ما هو فعال يعتبران شيئين مختلفين. وليس ذلك سهلا ولا كما نعتقد أن يتخذ مكانا متميزا بدون الكفاح. ويوجد أعداء حقيقيون، وهؤلاء يمثلون نخب القوة والذين هم حاليا يستفيدون من الاتجاهات الدعائية والإقصائية لإنتاج المعرفة والإدارة، وهؤلاء الذين لا يتخيلون أى عالم آخر غير الذى يعرفونه، والكسول والمتشائم والذى لا يريد أن يكون مقلقا. ومع ذلك فليس من الواضح أن هناك خيارا. وقد بدت الجامعات لنا وكأنها آخر التنظيمات العامة الكبرى، والتى تحولت إلى ساحات الليبرالية الحديثة لكى تلعب دور الاهتمام الذاتى التنافسى (**Lyall & Sell, 2006**).

وبدلا من التسليم بذلك، فنحن نعتقد أنه يجب أن تحاول بحوث الفعل قيادة حركة مضادة تستهدف الارتقاء بما دعاه رونالد بارنيت **Ronald Barnett (2003)** "بالأيديولوجيات الفعالة **Virtuous Ideologies**"، والتى تمثل الأيديولوجيات التى تركز على توازن البرجماتية الجديدة للأوضاع المتنافرة أو المتباعدة فى الحوارات الديمقراطية بدلا من إبطال وإنهاء كل أشكال المعارضة، واستبدال المقوم الأساسى للديمقراطية. ونحن كباحثى فعل أقدر على تبليغ المستفيدين المحليين الآخرين كيفية تحويل مواقفهم من خلال الإنتاجية التعاونية، ولكن يبدو أننا أقل مهارة وشجاعة فى أخذ هذه الدروس إلى معاهدنا الخاصة بنا.

ونحن نشك بأنه حتى مع الضغوط الخارجية والعدوانية نحو الجامعات، والتى وصلت اليوم إلى نقطة الغليان، فإن زملاءنا الأكاديميين وإداريى الجامعات سوف يستمرون فى اتباع الطرق المألوفة ويرتبطون بنموذج ١ عن إنتاج المعرفة ونموذج ١ عن الروتينيات الدفاعية، بينما يستمر لوى أذرعه باحثو الفعل.

الهوامش

١) هذه الخبرة تم شرحها بواسطة الطلاب وجرينوود فى إلفيمو جرانت ماثيوس

(Greenwood, Martin, Strubel, and Thomas (1997)

الفصل السابع عشر

بحوث الفعل والمشاركة وتحقيق الديمقراطية

AR, Participation, and Democratization

نستعيد من خلال هذا الفصل الختامى لهذا الكتاب بعضا من القضايا الواسعة التى تحيط بالمشاركة وتحقيق الديمقراطية. هذه الكلمـات تـستخدم كثيرا هذه الأيام فى دوائر بحوث الفعل وما وراءها، ولكن غالبا ما تـستخدم هذه المفاهيم كمعارك أيديولوجية. ولوضع بحوث الفعل فى صورة واسعة من المشاركة والديمقراطية فإننا نحتاج إلى توضيح وشرح واقعـى لاسـتخدامنا لهذه المصطلحات.

فالمشاركة وتحقيق الديمقراطية فى حد ذاتهما ليسا دواء وشفاء مـن كل الأمراض، إنهما لن يحلا كل المشكلات فى العالم. إنهما لا يملكان عصا سحرية لتحويل العالم إلى عالم يتسم بأنه الأفضل وتتحقق فيه العدالة ويكتب له الدوام والاستمرار. ودائما ما تلتصق المشاركة بالـسياسات. ويمكـن أن تدعم المشاركة فى اضطهاد أصحاب **Holders** القوة باستخدامها كرمز بدون محتوى، أو أن تصبح أداة للتحول الاجتماعى الحقيقى. ولا تستطيع المشاركة تمهيد الأرض للديمقراطية إذا لم تخلق ساحات وميـادين واقعيـة ومدعمـة لتوزيع والمشاركة فى القوة التى تزيد من قدرة المشاركين المحليـين علـى التحكم فى مواقف حياتهم الخاصة.

إننا نعتبر أنفسنا مدعمين ومعـززين لكـل مـن المـشاركة وتحقيـق الديمقراطية، ولكن نريد تجنب أن نكون أسرى الانقـسامات وأشـكال الجـدل

الأخلاقى. ونحن نعلم من خلال قراءاتنا للعديد من الكتاب أن الانقسامات الراديكالية فى الغالب دائما ما تحل مكان المناقشات الفكرية المتوازنة. إن المنطق الثقافى المزدوج غالبا ما يميز قطبًا أو طرفًا واحدًا ويجعل الآخر شيطانا ومصدرا لكل الشرور، والإفراط فى تبسيط العالم بأسلوب بغيض أخلاقيا.

ونظرا لوجود برامج أخلاقية فى بحوث الفعل، فإن باحثى الفعل حساسون تماما لأى تفسيرات أخلاقية. ومنذ أن عارض باحثو الفعل التسلسلات الهرمية السلطوية غير العادلة وفضلوا إعادة توزيع القوة والاحترام على نحو واسع، فمن السهل لنا أن نكون من ضمن المحتجين على السلطة الفاشستية وتسلسلها بواسطة المشاركة غير النقدية وتحقيق الديمقراطية وحتى المساواة، والادعاء دائما بأن بحوث الفعل تكون بجوار الملائكة. وغالبا ما تكون المشاركة على نحو مثالى فى حين تكون النظم السلطوية، والتى تحدث المشاركة داخلها غافلة. وبينما يمكن وضع بعض التوضيحات والشروح النظرية المفيدة من خلال المقارنة بين المفاهيم بطريقة محورية، وهذه القطبية تعتبر غير مفيدة عند تصميم الأفعال. وتحدث الأفعال دائما فى منطقة ضبابية، ويمثل هدفنا هنا فى تمييز الضباب الأكثر امتلاء قليلا.

ونحن نعتقد أن هناك أنواعا معينة من المشاركة تعتبر حيوية لنجاح أعمال بحوث الفعل، وأنه بدون المشاركة لا يمكن حل المشكلات الاجتماعية بفعالية. ولكن المشاركة فى حد ذاتها ليست سببًا فى وجود عمليات بحوث لفعل جيدة، إنها أداة لعملية واسعة لإنتاج المعرفة، وتصميم الفعل، والتقييم. والمشاركة ليست "شىء" أو "كمية"، إنها عملية غالبا ما تتميز بالتعقيد، والتفاوت وأحيانا التناقض. والمشاركة دائما ما تستقر داخل حدود تسلسل هرمى سياسى واجتماعى واسع.

إن تحقيق الديمقراطية بمعنى تحقيق تقرير المصير وتحرير الإرادة لأكبر عدد ممكن من المستفيدين المحليين للبحث عن الخطط والتصميمات الاجتماعية التى تتسم بالعدالة والأكثر حرية والأكثر دعما، يعتبر الهدف الأكبر لبحوث الفعل. إن الأنواع الخاصة بعمليات المشاركة هى التى تخدم هذا الهدف، ولكن المشاركة بمفردها لا يمكن أن تحقق الديمقراطية.

المشاركة Participation:

نظرا لأنه يتم التعامل مع المشاركة بأكثر عمومية، فإنه من المهم تمييز هذا المصطلح بوسائل تساعد باحثى الفعل على تقسيم الاتجاه الكلى لمشروعاتهم إلى ثلاثة اتجاهات. ويمكن النظر إلى المشاركة من وجهات نظر مختلفة. وقد اخترنا منها ثلاثة هى: الأولى تقوم على أساس القوة والضبط، والثانية فى إطار نظرية المعرفة للوضع السياسى. والثالثة تبنى على أساس البرجماتية الواقعية فى أماكن العمل.

أرنستين Arnstein: القوة والضبط Power and Control:

كنقطة انطلاق فإننا نعتقد أن المصدر الجيد هو التحليل الرمزى للمشاركة التى تم تكوينها عام ١٩٦٩ بواسطة شيرى أرنستين Sherry Arnstein. حيث إنها متعددة الأبعاد كما فى شكل (١٧-١).

وتتمثل قيمة مساهمة تحليل أرنستين التناول الواسع للمشاركة من خلال تضمين كل شىء من معالجة (التعامل مع) ضبط (تحكم) المواطنين، ومن ثم تمييز التأثيرات على علاقات القوة. على سبيل المثال يستطيع الناس القول إنهم يشاركون فى مواقف تشغيلية Manipulative، ولكن من وجهة نظر

القوة فإنهم ليسوا مشاركين فى النتائج الاجتماعية التى تم تحقيقها. ومهما يكن فإن هذه الرموز تجعل من الواضح أن المشاركة ليست دائما فضيلة.

٨- تحكم المواطن ٧- قوة التفويض ٦- المشاركة	درجة قوة المواطن
٥- الاسترضاء ٤- الإرشاد ٣- الإعلام	درجة الرمزية
٢- العلاج ١- المعالجة	عدم المشاركة

شكل (١٧-١)

وقد بدأت رمزية **Typology** أرنستين بالمعالجة والعلاج. ويكون موجود هنا خبيرا أو شخصا من أصحاب القوة، والسكان يعتبرون وفقا لرغبتهم كمشاركين فى مجموعة المواقف. مع ذلك فمن وجهة النظر السياسية فإن هذه لا تعتبر اتجاهات مشاركة لأن الهدف من الخبراء والقادة هو الإتيان بهؤلاء المشاركين ليفعلوا ما يريدون منهم. وكان التركيز منصبا على السلطة والعلاقات العامة (وغالبا على الوطنية، والكبرياء الوطنى، وغيرها مثل التعبير عن الانفعالات).

وتتضمن أول خطوة من عملية الاحتواء السياسى ما أسماه أرنستين "الإعلام **Informing**". وهذا يمكن تنميته وتطويره بأساليب متعددة. وفى

الحدود الضيقة فإنه يتضمن إعلام أصحاب السلطة والقيـادات مـوظفيهم أو ناخبيهم أو زبائنهم من خلال المقابلات أو بالاتصال بهم ما الذى يحدث. وفى كثير من الأحيان فإن هذا النوع من الاتصال يعتبر اتصالا ذا اتجاه واحـد. مثال هذا الإعلام هو قيام المدير التنفيذى للشركة الرئيسية بجمع المـوظفين وإعلامهم بأنه سوف يتم إلغاء ٥٠٠٠ وظيفة خلال فترة معينة من الزمن.

والنوع الثانى من المشاركة هو "الاستـشارة **Consultation**" وهنـا يرتبط من هم بالسلطة، سواء طوعا أو بواسطة التفويض الرسمى بالاستشارة مع المستفيدين الشرعيين. ويمكن أن يتضمن ذلك المقابلات ومنتديات الحوار العامة ولجان المواطنين وغيرها. وبينما يجعل هذا النوع من الاستشارة من هم فى السلطة أكثر متاحين بشكل أكبر لأسئلة وطلبات ناخبيهم أو زبـائنهم، فإن معظم أساليب الاتصال مثل المقابلات من الصعب إدارتها والتحكم فيها. وفى الغالب ما يكون لديهم صوت عدوانى، وتعامل جيد "لتدوير" المعلومات بواسطة كل الأساليب.

وفى نموذج أرنستين فإن النوع التالى من المشاركة هو "الاسترضاء **Placation**"، والذى من خلاله ينتقى عدد معين من جماعـات المـستفيدين المؤثرين فى شبكات اتصال تتسم بالقوة والاندماج فيها. وتمثل هذه الشبكات قنوات رأى للمستفيدين من خلال أعضاء مختارين من هؤلاء أصحاب القوة، وأيضا ينتخبون قادة لجماعات المستفيدين داخل خطط لهؤلاء أصحاب القوة. ويستطيع أصحاب القوة تعلم أساليب تعامل جيد، ويمكن أيضا نقـل بعـض المعلومات عن ما يفعلونه ويفكرون فيه إلى المستفيدين، ولكـن يـأتى دور المستفيدين فى إصدار أحكام حول ما يجب فعله فى الحد الأدنى.

إن أكثر الأشكال قوة للمشاركة هو "الـشراكة **Partnership**" بـين المستفيدين وأصحاب القوة. إنهم يملكون اختيار التعاون مع جماعات العمـل

المؤلفة، ومن جانب آخر المشاركة فى المعلومات والتحليل والقوة مع بعضهم البعض. وفى هذه الحالة يكون هناك إعادة توزيع للقـوة مـن القمـة إلـى مستويات واسعة وكبيرة من النسق، ويتخذ شـكل عمليـة اتخـاذ القـرار الخصائص التعاونية.

وقد أطلق أرنستين على النمط التالى من المشاركة مصطلح "القـوة المفوضة **Delegated Power**"، والتى تتضمن منح المستفيدين الوضع الأكبر فى اتخاذ القرارات التى تؤثر فى اهتماماتهم ورعايتهم. ولا يعنى ذلك فقـط وضع المستفيدين بقوة وكثافة فى العملية، ولكن أيـضا جعلهـم يحاسـبون أنفسهم، ويحاسبون القيادات والآخرين فى المجتمع عن مدى جودة وصـحة قراراتهم وأفعالهم.

وقد وصف أرنستين موقف "ضبط وتحكم المواطن **Citizen Control**"، والذى من خلاله يشارك بشكل تام هؤلاء المتأثرون بأى قرار أو ظـرف أو فعل فى التخطيط وصنع السياسات وتنفيذ الأفعال للتأثير فى موقفهم الخاص وكل التجمعات الواسعة التى هم جزء منها.

جرينبيرج Greenberg: الوضع السياسى Political.Positioning:

فى مقالته بعنوان "نتائج عامل المشاركة: شرح الأدبيـات النظريـة" بنى جرينبيرج **Greenberg (1975)** تصنيفا آخر كان مفيدا لفهم المشاركة فى عمل المنظمات". وقد دمج جرينبيرج المـشاركة مـع الجهـود الـسلوكية والموقفية والنتائج السياسية والاجتماعية فى مناقشاته. وقد كون أربعة نماذج **Typologies** واعتبرها مدرسة جديدة فى التفكير.

والنمـوذج الأول هـو التفكيـر القـائم علـى أسـاس الإدارة **Management-based Thinking**، والذى مـن خلالـه نتوقـع أن تكـون

المشاركة أقل فى القوة والشدة وأضيق فى المجال. وكان التركيز منصبا على رفع الروح المعنوية وزيادة كفاءة العملية (التشغيل). وقد تطابقت أهداف المشاركة مع أهداف الشركة، وكانت النتيجة هى تحسين عملية التشغيل ككل للمصنع أو الشركة.

ويتضمن المستوى الثانى من التفكير علم النفس الإنسانى **Humanistic Psychology**. ويتوقع أن يكون قوة المشاركة عالية جدا، ولكن فى مجال ضيق تماما. ويمكن رؤية التأثيرات فى تحسين الصحة العقلية وفى الكيان الإنسانى بوجه عام. ويمكن رؤية هذه التأثيرات أيضا فى تحسين أداء المنظمة.

وقدم جرينبيرج فى المستوى الثالث فى نظرية الديمقراطية، حيث نتوقع أن تكون قوة المشاركة عالية جدا، وأن تمتد لمدى واسع من القضايا الاجتماعية والسياسية. ويتوقع أن تتسبب المشاركة فى زيادة الاهتمام بالأمور العامة وفهمها بشكل جيد. وبالإضافة إلى ذلك فإنه من الممكن أن تؤدى المشاركة إلى مزيد من التسامح وتقبل وجهات نظر الآخرين، والأساليب المختلفة أو المضادة. ولعل التأثير الأكبر يتمثل فى تنمية روح المواطنة لدى أفراد المجتمع.

أما الفئة الرابعة عند جرينبيرج فهى "مشاركة اليسار **Participatory Left**" والتى يتوقع أن تكون المشاركة ذات قوة عالية وتمتد إلى سلسلة واسعة من القضايا المجتمعية والسياسية. وهنا تحدث المشاركة حياة عمل صحية، ونمو الرغبة نحو الضبط، ومستويات مرتفعة من الأنشطة الاقتصادية، ولكن تنضم إلى من يناصبون العداء للمركزية البيروقراطية وهرم السلطة. ولعل التأثير النهائى للمشاركة يأتى من كونها ليست قائمة على أساس نخبوى، ولكن على أساس الثورة الجماهيرية.

ليفين Levin: العالم البرجماتى القائم على أساس الواقع

Real-World Pragmatics:

تعتبر هذه الاختلافات مفيدة جدا فى سياقات العالم الـواقعى. وفـى دراسة لليفن (١٩٨٤) حيث كانت تركز قضية هذه الدراسـة علـى تحديـد موقف المشاركة فى المجتمع النرويجى الصناعى. وبدلا من استخدام الدراسة المسحية، فقد تم إجراء البحث فى الشركات الكبرى النرويجية التى تـسيطر عليها العمليات الصناعية، وقامت على أساس المقـابلات المتعمقـة. وقـد أظهرت نتائج الدراسة أن مفهوم الفرد عن المشاركة يـرتبط بأهميـة دوره ووضعه ومكانته فى المنظمة. وتعتقد الإدارة أن المشاركة مهمة ومفيدة جدا، بسبب أنها تمثل نقلة فعالة فى تمرير المعلومات إلى العاملين. كما أنها تعتبر مهمة أيضا نظرا لأنها توفر المعارف والمعلومات الأساسية للإدارة، والتـى تزيد من فهمهم العميق لما يفعله العاملون ويفكرون فيه.

ويعتبر ذلك اتجاها عمليا تماما للمشاركة، مجرد من كل الالتزامات الأيديولوجية للمؤسسات الديمقراطية. ومن جانب آخر فإن العـاملين الـذين يعملون فى مجال توزيع بالمتاجر والشركات لديهم منظور ضيق جدا عـن المشاركة، ويعتقدون أن المشاركة تعتبر مفيدة أساسا فـى امتلاكهـا علـى ظروف العمل المحلية الحالية. إنهم يفكرون من خلال خبراتهم بأن المشاركة ممكنة للتأثير فى التصميم المادى الواقعى لمكان العمل، وكيف أن الكـانتين (مطعم ومقهى العمل) يجب تصميمه وإدارته وغير ذلك.

وكانت وجهة النظر الثالثة للمشاركة بواسطة الاتحادات والنقابـات المهنية، والذى كان يفرض عليهم وضعهم الأيديولوجى نوعا مـن التنـاغم والتوافق، وقد رأوا أن المشاركة تعتبر مصدرا مهمًا للممارسات العلاجيـة، والتى يمكن أن تنقل الشركة إلى الديمقراطية الصناعية. وفى نفس الوقت فقد

ارتبطت هذه الجماعات بشكل كامل فـــى مـــشروعات للمـــشاركة العمليـــة الملموسة والتى تحسن من كفاءة الشركة أو المصنع، وبالمـــشروعات التـــى تحسن من ظروف العمل بوجه عام. وقد ضم هؤلاء النقابيون المهنيون الرأى القائل إن المشاركة تمتد من قضايا المشاركة العملية واليومية إلى التعامل مع القضايا السياسية الكبرى فى الشركات والمصانع.

وهذه العينة الصغيرة من المفاهيم النظرية التـــى تناولناهـــا تظهـــر بوضوح أن التى ارتفعت بالنقد لعملية المشاركة. وجزء من المشكلة قد تـــم حله عندما فهمنا أن كل الأنشطة المتنوعة في نماذج أرنـــستين وجرينبيـــرج وليفين قد تدفقت تحت راية المشاركة، والاستخدامات المعيبة وغير الجادة لما كنا نعتبره عمليات مشاركة زائفة، أصبحت معرضة للنقد بشكل تام. وعندما يتم إخبار الجماعة بأن المنظمة أو الحكومة ترتبط بممارسة عمليات الشراكة، وأنهم "مدخلات" مطلوبة فى حاجة إليها، ولكن سوف يتم اتخاذ القرارات بعد أن يقوم "المشاركون" بتقديم مدخلاتهم، فإن هذه العملية لن تؤدى إلى تحقيق الديمقراطية فقط بل إنها تحاول إخفاء المعالجة التى تأتى تحـــت المـــشاركة المتكلفة. ولهذا السبب وجدت العديد من المراحل والفتـــرات فـــى التـــاريخ العمالى عندما كافحت الاتحادات والنقابات العمالية مع الموظفين والعـــاملين فى مفاوضات، للانسحاب من خطط المشاركة المفوضـــة مـــن الـــشركة أو المصنع (مثال ذلك دوائر العمل، وإدارات الجودة الشاملة، وغيرها) كـــسلاح يستخدم فى مفاوضاتهم. وقد أدرك قادة الاتحادات والنقابات أن مثـــل هـــذه المشاركة، فى الواقع، ليست من أجل تقاسم القوة أو المشاركة فيهـــا ككـــل، ولكنها مجرد عملية لزيادة الكفاءة والمنافسة، وإشراكهم فى المسئولية.

إن المشاركة الإلزامية تعتبر شائعة ومعتادة فى الكثير من المواقـــف وتقود بعيدا عن الديمقراطية. ولقد ذكرنا بالفعـــل آراء كـــوك وكوثـــارى

Cooke and Kothari عن المشاركة فى هذا المعنـــى كـــشكل جديــد مـــن الاستبداد (الفصل ١٣) ومع ذلك فقد وجدنا أن مناقشاتهم كانت مفرطة فـــى التبسيط، إننا نعتقد أن صورتهم عن المشاركة الزائفـــة فـــى الكثيـــر مـــن مخططات ونماذج تنمية المجتمع والتنمية الدولية دقيقة للغاية. وتحت مثل هذه الظروف الإلزامية فإن مقاومة المشاركة فى حد ذاتها يمكن أن تكون فعـــلا ممهدا للديمقراطية. وتحتاج بحوث الفعل إلى أن تأخذ هذه الانتقادات بجديـــة وأن تكون أقل ثقة فى أن المشاركة فى حد ذاتها هى شيء جيد، ولكنه محير. إن شبح الانتخاب دائما ما يكون حاضرا.

تحقيق الديمقراطية Democratization:

إذا كان فهم المعانى المتنوعة والمتباينة للمشاركة معقدا، فإن مفهوم تحقيق الديمقراطية يقدم العديد من التحديات نظرا لاتساع مرجعياته. وهـــذا المصطلح يتصل بالبناءات والعمليات والحكومات واتخاذ القرارات والأهداف الأخلاقية، لا يوجد أى تعامل قصير يجعله عادلا. وعلى الرغم من أهميـــة انتساب باحثى الفعل إليه، فإن المناقشات الداعمة لمعنى تحقيق الديمقراطيـــة فى بحوث الفعل تعتبر نادرة، ونحتاج إليها بشدة.

ولتنظيم أفكارنا حول تحقيق الديمقراطيـــة، قمنـــا بإعـــداد دراســـة مختصرة تلقى الضوء على العناصر المختلفة لهذه العملية. ولعل مفتاح كـــل ذلك هو فكرة التعاون **Collaboration**. وتحتاج عملية تحقيق الديمقراطيـــة إلى وضع وتحديد المشكلات التى يجب أن ينصب عليهـــا الاهتمـــام بـــشكل تضامنى. وتقرير ما يجب تقريره يعتبر واحـــدا مـــن أكثـــر الموضـــوعات الرئيسية فى أى نوع من العملية الديمقراطية. وتعتبر الديمقراطيـــة منفعـــة

جماعية، ونتيجة لذلك لا يمكن تحقيقهـا مـن خـلال الفرديـة المتطرفـة (الراديكالية). والديمقراطية سواء كانت قائمة على أساس النماذج النيابيـة أو نماذج المشاركة، فإنها تقوم على أساس قدرة الناس على اتخـاذ القـرارات الجماعية. إن القواعد التى تتخذ للوصول إلى القرار تتباين وفقـا لاخـتلاف السياقات والبيئات، ولكن تتمثل القضية الرئيسية فى أن القرارات تقوم علـى أساس البناءات الجماعية للمعنى وعلى التعاون والصراع بين الأعضاء الذين يقومون معا بتشكيل وتكوين هذا القرار.

وعندما يتم وضع وتحديد المشكلات بشكل تعاونى، فمـن ثـم فـإن التضامن يعتبر أيضا جوهريا فى وضع الحلول لهذه المشكلات. وهنا أيـضا نجد أن لتحقيق الديمقراطية معان متعدد. إنها تتضمن تكوين وتطوير الأساس المعرفى المطلوب وأبعاد وجوانب المشكلات. وهذا يعنى فى الغالب تـوفير الأدوات الضرورية للمتعاونين والتدريب المناسب لهم لذلك فإنهم يستطيعون مواصلة البحث فى المشكلات التى حددوها بأنفسهم. وفى كل هذه الحـالات فإن مسئولية الوصول إلى المعرفة الضرورية تتحقق بطريقة ديمقراطية بدلا من أن تكون مركزة فى يد الخبراء.

وعندما يتم تكوين المعرفة، فإن عملية التحليل تعتبر أيضا تعاونيـة، وتعطى الفرصة للآراء المتعددة لمختلف المستفيدين ولخبـراتهم مـع هـذه المشكلات. ومن هنا يمتد التعاون إلى تصميم الأفعال والإجراءات التى سوف تساعد فى حل المشكلات والتى تعطى الدافعية للعمل من البداية. إن خطـوة تصميم الفعل تعتبر عملية مشتركة ولا تعتمد فقط علـى الخبـراء لتـصميم البرامج. وأخيرا فإن عملية التعاون تمتد إلى تطبيق الأفعال والإجراءات التى تم تصميمها وتقييم النتائج.

وتعتبر قاعدة التعاون واضحة ورئيسية في أي مكان وأن دور المشاركة والذى تتضمن درجة عالية من الحكم التعاونى يعتبر رئيسيا. وعلى الرغم من أن هذا النوع من تحقيق الديمقراطية فى البحث يتضمن ذلك، فإننا نعتقد أنه من الأهمية بمكان التأكيد على أنه من المفترض تماما احترام معارف وخبرات أصحاب المشكلات فى المجتمع. وتسلم الديمقراطية هنا بأن كل كيان إنسانى يعرف أكثر عن مواقف حياته من أى شخص آخر، وأن كل فرد يتم منحه الدعم المناسب قادر على المساهمة بمعارفه وتحليلاته فى العملية الاجتماعية التعاونية لو أننا نملك المهارات الجماعية الكافية التى تساعدنا على توفير الميدان المناسب للتعاون.

وأحد الأشياء التى نفتقد من خلالها الفهم عند الحديث عن الديمقراطية وبحوث الفعل هو كل من نماذج الإجماع **Consensus** ونماذج الأغلبية فى الديمقراطية والتى تعتبر ضارة وغير ملائمة لمفهوم الديمقراطية الذى يوجه بحوث الفعل. وفيما عدا الموقف الاستثنائى، والذى من خلاله يكون لدى كل فرد اهتمامه الذاتى (ذلك أن، الشهاب أو النيزك القادم إلى طريقنا لا يضرب الأرض) فإن اتخاذ القرار بالإجماع عادة ما يتضمن أصواتا وآراء مسيطرة تستبد وتضطهد الأشخاص التابعين الآخرين. وقاعدة الأغلبية هى الأخرى معوقة لنا نظرا لأنها أكثر عدائية. ففى هذه الحالة فالأغلبية تفوز والأقلية تسحق.

ومن وجهة نظرنا فإن الاتجاه الوحيد نحو الديمقراطية والذى يتسق مع بحوث الفعل هو الديمقراطية ذات المواقف التوافقية **Harmonization of Positions (Lijphart, 1977)**. فبحوث الفعل لا تدور حول محو الاختلاف، ولكن تدور حول تنظيم هذه الاختلافات وتحديد الوسائل الممكنة نحو احترام هذه الاختلافات التى قد لا يستطيع المستفيدون إظهارها أو عرضها. ويعنى هذا فى الغالب تقييد الأفعال التى تحدث فى هذه المناطق، والتى يكون فيها

توافق كاف بين الاهتمامات للسماح بتنفيذ الفعل، وعلى الرغم من ذلك فـإن النجاح مع هذه الأفعال يمكن أن يؤدى أخيرا إلى إمكانية تحديد الكثير مـن القضايا سبب الخلاف. ولكن ما نرفضه هو فكرة أن قواعد اتخـاذ القـرار يمكن أن تستخدم لتجاهل أو سحق الاهتمامات المنطقيـة لأى جماعـة مـن جماعات المستفيدين مهما كانت قليلة. وبهـذا المعنـى فـإن فكرتنـا عـن الديمقراطية تتطابق تماما مع وجهة نظر البرجماتية الحديثة بأن الهدف مـن هذه الأنشطة هو "الاحتفاظ بالحوارات المستمرة" **(Rorty, 1980)**.

وأخيرا فإننا نعتقد أن عملية تحقيق الديمقراطية تحتاج إلى نوع مـن اليقظة التامة حول عدالة العملية فى تزامنها مع عدالة النتائج. ذلك أنه عندما تتواصل مشروعات بحوث الفعل وتتقدم للأمام، فإنه يجب علينـا الاهتمـام بطلب الانفتاح والعدالة فى العمليات اليومية التى تحدث ولكن أيضا النظـر إلى عدالة النتائج. وهذان لا يجب أن يكونا منفصلين. إنه مـن الممكـن أن يكون لدينا عمليات منفتحة وعادلة وتنتهى بنتائج فقيرة. وإنه مـن الممكـن أحيانا أيضا أن نحقق نتائج جيدة بواسطة عملية سيئة. وفى بحـوث الفعـل فنحن نحاول أن نكون منتبهين ومتسقين مع اهتمامنا بالديمقراطية على طول الطريق وفى نهاية كل يوم.

موقع المشاركة وتحقيق الديمقراطية

Venues for Participation and Democratization

ونتحدث فى هذا الموضوع عن المـشاركة وتحقيـق الديمقراطيـة بطريقة مجردة ومحايدة. والإستراتيجية الأخرى تتمثل فى التفكير سياقيا عن الظروف الممكنة التى وجدناها فى المواقف التى عملنا بها. وتختلف ظروف

المشاركة وتحقيق الديمقراطية فى الصناعة وفى الخدمات الصناعية، وأن هذه الظروف تختلف من تلك الموجودة فى منظمات الخدمات، والمؤسسات التعليمية والمؤسسات الحكومية، ومؤسسات التنمية الدولية، والمنظمات غير الحكومية. وبالطبع فإنها تختلف أيضا داخل كل قطاع من هذه القطاعات طبقا للأنشطة النوعية، والبناءات التنظيمية، والثقافات التنظيمية.

ومنذ أن عمل كلا المؤلفين فى الصناعة وتنمية المجتمع والمؤسسات التعليمية ومنظمات الخدمات، فإننا نعى وندرك الظروف المختلفة لإمكانية المشاركة وتحقيق الديمقراطية فى هذه الأماكن المختلفة. إننا نعانى من انصراف بعض باحثى الفعل من عملنا، والذين يعتقدون أن أى عمل فى المؤسسات الصناعية والحكومية وفى الجامعات هو اختيارى أساسا، وأن الإبقاء على وضع متماسك ومترابط لبحوث الفعل يحتاج إلى الابتعاد عن "معدة الحيوان **Belly of the beast**" وفى حين أننا نحترم آراء زملائنا التى تختلف عن آرائنا، فليس من الواجب علينا الموافقة عليها.

ومن وجهة نظرنا فإن الوصول إلى أعلى مستوى من الإنتاجية لبحوث الفعل يتطلب أن ننظر لجميع المواقف الإنسانية بعقل مفتوح، وأن نتعلم كيف تقدم بحوث الفعل إسهاماتها فى كل جوانب الإصلاح والرقى الإنسانى فى جميع البيئات والسياقات. ونحن لا نعتقد بأن أى سياق تنظيمى يمتنع عن بحوث الفعل، وعلى الرغم من ذلك فإننا نعترف حاليا بأن هناك بعض المشروعات المعينة فى أى قطاع، وربما تعمل فى ظروف معادية كثيرا لبحوث الفعل، لذلك فلا معنى ولا هدف من القيام بها.

لذلك فنحن نؤكد على أن الديمقراطية هى سياق مقيد **Context bound**، دائما ما يعمل داخل سياقات معينة، وبناءات قوة وبيئات. فجزر الفارو **Faroe Islands** على سبيل المثال لها نظامها الديمقراطى الخاص بها، ولكن

هناك قضايا معينة ترتبط بسياسات خارجية، فهم ينسقون جهودهم مع الدانمارك، والتى من جانب آخر تتبع وتلتزم بقرارات الاتحاد الأوروبى. وأخيرا يكافح الاتحاد الأوروبى لاتخاذ وتطبيق قراراته على أساس ديمقراطى. لذلك فالديمقراطية تعمل دائما تحت ظروف معينة تمثل حدودا مقيدة لها، سواء على المستوى القومى أو على المستوى المحلى.

ويبدو أنه يتم تجاهل ذلك فى بحوث الفعل. ولعل أفضل مثال لتعقيدات هذه العلاقات يظهر فى مشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية. وكانت الفكرة تتمثل فى تدعيم الديمقراطية على مستوى عمال التوزيع فى المحلات التجارية، حيث بدأت بالتفاوض على هدنة بين الاتحاد الكونفيدرالى للموظفين ونقابات العمل. وقد انقلب هذا الأمر لكى يتحول إلى حالة من التناقض والاختلاف فى هذه الجهود الديمقراطية، والذى تمثل فى الانفصال بين وضع القوة لنقابات العمل فى الشركات التى تقوم على مستوى عالٍ من العضوية وبين التمثيل الجماعى نحو الإدارة وعمليات الديمقراطية المحلية على مستوى عمال التوزيع. ويمكن أن تجعل القرارات التى يتم اتخاذها على مستوى الموظفين والعمال ونقابات العمل غير ضرورية بسبب تضاءل وتآكل تأثيرها، مما يجعل هذه النقابات تتسم بالعدوانية على عملية تحقيق الديمقراطية على مستوى الموظفين والعمال. وباختصار فإن الديمقراطية فى أحد المستويات لابد أن تراعى التوازن مع الظروف على كل مستويات النسق الأخرى. وتتطلب مختلف المستويات صياغات مختلفة لعملية تحقيق الديمقراطية تكون أكثر فعالية.

وهناك وسيلة أخرى لتحديد موقفنا هى القول بأن بحوث الفعل دائما مرتبطا بيئيا. وكما حددنا بشكل متكرر فى هذا الكتاب، أن عمليات بحوث الفعل يمكن أن تتحسن دائما، وأنها دائما منفتحة أكثر مما وجدناها فى أى

يوم. ولكن هذا يعني بالضرورة أيضا أن ما يؤسس لأدوات التحسين يقيس ما تم تحقيقه اليوم مقابل ما تم تحقيقه بالأمس. وهذا ليس معيارا مطلقا ولكنه عملية مستمرة لمحاولة التعمق فى ظروف المشاركة وتعزيزها، وبذلك يتم توسيع عملية تحقيق الديمقراطية فى الموقف.

ولإعطاء مثال على تطبيق بحوث الفعل فى المواقع الصناعية، والتى تكون فيها ملكية وسائل الإنتاج فى أيدى مجموعة من المستفيدين خارج قوة العمل، أو أن تكون فى أيدى ممول الشركة أو أسرته، وتتضمن عملية معقدة لزيادة قدرة المنظومة الكاملة من المستفيدين للتأثير فى ظروف العمل وأرباحه، وأخيرا لتحقيق التوزيع العادل لأرباح العمل. ولكن العدالة هنا لا تعنى تماما التقسيم المتساوى أو حتى أى معنى قريب من ذلك. ومع ذلك فيمكن أن تعنى التحسينات المهمة فى الأمن والسلامة فى العمل، والرضا الوظيفى، وربما الأجر وبعض الإنصاف فى العمل. وبينما يكون الارتباط فى مثل هذا العمل دائما ما يكون اختيارا أخلاقيا فرديا، فإننا نعتقد بأنه ليس لأى شخص الحق فى صرف النظر عن هذا العمل كمحددات خارجية لبحوث الفعل نظرا لأن الظلم وعدم العدالة سيبقى وأيضا بسبب أن المنظمات الرأسمالية لا يمكن أن تسقط تماما.

ونحن نعتقد أيضا بأنه بدون وجود أى مواقع عمل تتسم بالديمقراطية، فإن مستقبل الديمقراطية السياسية بوجه عام سيكون فى مهب الريح. إن العمل فى أماكن تتسم بالسلطوية والإجبار، ومن ثم الاقتراع والتصويت ديمقراطيا لمجموعة من القادة أصحاب رءوس الأموال الكبرى، يعتبر من الصعب وصفه بأنه حكم ديمقراطى حقيقى وجاد. لذلك فإننا نفهم العمل الصناعى على أنه عملية مؤلمة وبطيئة لكسب أرضية للديموقراطيه داخله.

وهناك العديد من المناقشات المشابهة التى أجريت فى منظمات الخدمات، والمؤسسات الحكومية وفى الكثير من المؤسسات التى تسودها الاتجاهات

السلطوية الحالية والانتخابات والممارسات غير الديموقراطية. وبينما نجد أن الحقيقة المؤكدة بأن باحثى الفعل الذين ترعبهم بشدة مثل هذه الظروف، والتى لا تجبرهم على أن يكونوا موجودين فى هذه الأماكن يجب ألا يقوموا بهذا النوع من العمل، فليس حقيقيا أن هذا العمل خارج حدود بحوث الفعل. ولنقبل أن إدانة بحوث الفعل للعشوائيات الفقيرة على مستوى العالم ومهاجمتنا كوضع اختيارى على حقهم، فإن ترويض بحوث الفعل على هامش الرأسمالية المتقدمة.

ويعتبر الانتخاب (الاختيار) **Co-optation** دائما مخاطرة رئيسية فى أى عملية من عمليات بحوث الفعل، ولكن ما الذى يؤسس لهذا الانتخاب غير قابل للتحقق بسهولة. فقد يجد شخص ما وجود إمكانيات فى الموقف تسمح بتحقيقه ولا يجد شخص آخر. وبالنسبة للشخص الذى لا يرى عدم وجود إمكانيات، فإنه يحاول إجراء بحوث الفعل فى أى موقف لا يدين عملية الانتخاب، وبالنسبة للشخص الذى يرى وجود إمكانيات، فإن الفشل فى اتخاذ الفعل يبدو أن يكون راجعا للاختيار الانفعالى. ومن وجهة نظرنا فإن كل بحث فعل فردى يحتوى على عناصر الانتخاب والمشاركة الزائفة والمعالجة. والحل فقط هو استمرار الحذر والانتباه الشخصى والمناقشة الفعالة بين ممارسى بحوث الفعل للحفاظ على وضوح مجال وهدف والخط البيانى **contours** لهذه القضايا.

الخلاصة: بحوث الفعل وعمليات الديموقراطية:

إن هدف بحوث الفعل هو دعم عمليات تحقيق الديموقراطية. والآن يدور السؤال حول مدى وجود منظور عام لبحوث الفعل لتدعيم ذلك. وبمراجعة مناقشاتنا السابقة، فإننا قلنا إنه لتحقيق عملية اتخاذ القرار على

أساس ديمقراطى، فلابد أن تبنى العمليات على أساس المشاركة، والتى تتضمن أصحاب المشكلات. وقد قلنا أيضا إن القرارات الديموقراطية ليست مرادفا للعمليات القائمة على أساس الاتفاق العام. فالقرارات يجب أن تتخذ على أساس تنوع وتعدد الأبعاد للمستهدفين. وفى نفس الوقت فإن هذه العملية تعمل على إعادة هيكلة الأوضاع التى تبدو كنتيجة لعمليات إنتاج المعرفة فى أنشطة بحوث الفعل.

ومن وجهة نظرنا فإن جوهر العملية الديموقراطية هو إنتاج المعرفة. إن هذا النوع من المناقشة الزائفة التى تقوم عادة على أساس الأوضاع الأيديولوجية، فى بحوث الفعل، ويجب أن يحل محله عمليات الإنتاج الجماعى للمعرفة الذى يقوم على أساس الخبرات والتجارب العملية الفعالة الهادفة على حل المشكلات المرتبطة. وتختلف عملية إنتاج المعرفة هذه عن الجدل الأيديولوجى السياسى، حتى لو أنها تأثرت بهذه الأيديولوجيات، نظرا لأن عملية تكوين الوعى ترتبط بالموقف الفعلى والمشترك. وبسبب ذلك فإن تكوين الوعى سوف يكون عمليا ونظريا.

وإضافة إلى ذلك فإن هذه الأرضية من تكوين الوعى فى السياق والاختيارات العملية تخلق إمكانية التغلب على "سيطرة الطبقة الحاكمة"، كما طرحها جرامسى **Gramsci** بقوة **(Ransome,1992)**. وقد رأى جرامسى أن الطبقات المعدمة تتبنى (تخضع) نماذج المجتمع التى يسيطر عليها أصحاب القوة، وبذلك يصبحون غير قادرين على تصنيف (فرز) أفضل الاهتمامات التى تخصهم. وتعتبر هذه مشكلة مرعبة (هائلة)، ولكن بحوث الفعل تحاول التعامل مع هذه المشكلة بشكل تدريجى ولكنه مهم من خلال خلق العمليات التى ترفع من المعرفة وتصميمات الفعل والتى تتطابق مع الترتيبات الواسعة لاهتمامات المستفيدين. وعلى الرغم من مخاطر الانتخاب **Co- Optation** فإن عمليات تكوين المعرفة المنتجة بطريقة تعاونية فى بحوث الفعل تعتبر وسيلة وإعادة لتدعيم الديمقراطية.

المراجع

Adams, J. (2004, July). *Scientific teams and institutional collaborations: Evidence from U.S. universities, 1981–1999* (Working Paper no. 10640). Cambridge, MA: National Bureau of Economic Research.

Alinsky, S. (1946). *Reveille for radicals.* Chicago: University of Chicago Press.

Amabile, T. M. (1996). *Creativity in context.* Boulder, CO: Westview.

Argyris, C. (1974). *Theory in practice.* San Francisco: Jossey-Bass.

Argyris, C. (1980). *Inner contradictions of rigorous research.* New York: Academic Press.

Argyris, C. (1985). *Strategy, change, and defensive routines.* Boston: Pitman.

Argyris, C. (1993). *On organizational learning.* Cambridge, MA: Blackwell.

Argyris, C., Putnam, R., & McClain Smith, D. (1985). *Action science: Concepts, methods, and skills for research and intervention.* San Francisco: Jossey-Bass.

Argyris, C., & Schön, D. (1978). *Organizational learning.* Reading, MA: Addison-Wesley.

Argyris, C., & Schön, D. (1996). *Organizational learning II.* Reading, MA: Addison-Wesley.

Arnstein, S. R. (1969, July). A ladder of citizen participation. *Journal of the American Planning Association, 35*(4), 216–224.

Barnes, B. (1977). *Interests and the growth of knowledge.* London: Routledge & Kegan Paul.

Barnes B., & Shapin, S. (1979). *Natural order.* Beverly Hills, CA: Sage.

Barnett, R. (2003). *Beyond all reason: Living with ideology in the university.* Buckingham, England: Society for Research into Higher Education and Open University Press.

Bateson, G. (1979). *Mind and nature: A necessary unity.* New York: Dutton.

Belenky, M., Bond, L., & Weinstock, J. (1997). *A tradition that has no name.* New York: Basic Books.

Belenky, M., Clinchy, B., Goldberger, N., & Tarule, J. (1997). *Women's ways of knowing.* New York: Basic Books.

Belshaw, D. (1981). A theoretical framework for data-economizing appraisal procedures with applications for rural development planning. *IDS Bulletin, 12,* 12–22.

Benson, L., Harkavy, I., & Puckett, J. (2000). An implementation revolution as a strategy for fulfilling the democratic promise of university-community partnerships: Penn-West Philadelphia as an experiment in progress. *Nonprofit and Voluntary Sector Quarterly, 29*(1), 24–45.

Berger, P., & Luckmann, T. (1966). *The social construction of reality.* Garden City, NY: Doubleday.

Bowers, C. A., & Apffel-Marglin, F. (Eds.). (2004). *Rethinking Freire: Globalization and the environmental crisis.* Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.

Bradbury H., & Reason, P. (2001). Conclusion: Broadening the bandwidth of validity: Issues and choice-points for improving the quality of action research. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 447–455). London: Sage.

Bradley, K., & Gelb, A. (1983). *Cooperation at work: The Mondragón experience.* London: Heinemann Educational Books.

Brint, S. (1994). *In an age of experts: The changing role of professionals in politics and public life.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Brokhaug, I., Levin, M., & Nilssen, T. (1986). *Tiltaksarbeid på dugnad* [Collective work for community development]. Trondheim, Norway: IFIM/ORAL.

Brookfield, S. (1986). *Understanding and facilitating learning: A comprehensive analysis of principles and effective practices.* San Francisco: Jossey-Bass.

Brookfield, S. (1987). *Developing critical thinkers: Challenging adults to explore alternative ways of thinking and acting.* San Francisco: Jossey-Bass.

Brown, L. D., & Tandon, R. (1993). Ideology and political economy in inquiry: Action research and participatory research. *Journal of Applied Behavioral Science, 19*(3), 277–294.

Brulin, G. (2001). The third task of universities or how to get universities to serve their communities. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 440–446). London: Sage.

Brunner, I., & Guzman, A. (1989). Participatory evaluation: A tool to assess projects and empower people. In R. Conner & M. Hendricks (Eds.), *International innovations in evaluation methodology* (New Directions in Evaluation no. 42; pp. 9–18). San Francisco: Jossey-Bass.

Brunsson, N. (1989). *The organization of hypocrisy: Talk, decisions and actions in organizations.* Chichester, England: Wiley.

Burke, T. (1994). *Dewey's new logic: A reply to Russell.* Chicago: University of Chicago Press.

Bråthen, S. (1973). Model monopoly and communication systems: Theoretical notes on democratization. *Acta Sociologica, 16*(2), 98–107.

Carr, W., & Kemmis, S. (1985). *Becoming critical: Education, knowledge and action research.* London: Falmer.

Chambers, R. (1981). Rapid rural appraisal: Rationale and repertoire. *Public Administration and Rural Development, 2*(2), 95–106.

Chambers, R. (1994a). The origins and practice of participatory rural appraisal. *World Development, 22*(7), 953–966.

Chambers, R. (1994b). Participatory rural appraisal (PRA): Analysis of experience. *World Development, 22*(9), 1253–1268.

Chambers, R. (1994c). Participatory rural appraisal (PRA): Challenges, potentials and paradigms. *World Development, 22*(10), 1437–1454.

Chambers, R. (1997). *Whose reality counts? Putting the first last.* London: Intermediate Technology.

Chambers, R. (2002). *Participatory workshops: A sourcebook for 21 sets of ideas and activities.* London: James & James/Earthscan.

Chambers, R. (2005). *Ideas for development.* London: James & James/Earthscan.

Chandler, D., & Torbert, W. (2003). Transforming inquiry and action: Interweaving flavors of action research. *Journal of Action Research 1* (2), 133–152.

Chávez, C. (1975). *César Chávez: Autobiography of La Causa* (with J. E. Levy). New York: Norton.

Chessler, M., & Chesney, B. (1995). *Cancer and self-help: Bridging the troubled waters of childhood illness.* Madison: University of Wisconsin Press.

Clifford, J., & Marcus, G. (Eds.). (1985). *Writing culture.* Berkeley: University of California Press.

Cooke, B., & Kothari, U. (Eds.). (2001). *Participation: A new tyranny?* London: Zed Books.

Crane, B. (2000). *Building a theory of change and a logic model for an empowerment-oriented family support training and credentialing program.* Unpublished doctoral dissertation, Cornell University, Ithaca, NY.

Cronbach, L. J., & Suppes, P. (1969). *Research for tomorrow's schools: Disciplined inquiry for education.* London: Macmillan.

Cummings, T. G., & Worley, C. G. (2001). *Organization development and change.* Cincinnati: South-Western.

Dahl, R. (1989). *Democracy and its critics.* New Haven, CT: Yale University Press.

Davis, L. E., & Taylor, J. C. (1972). *Design of jobs.* Harmondsworth, England: Penguin.

Deming, W. E. (1983). *Out of the crisis: Quality, productivity, and competitive position.* Cambridge, MA: MIT Center for Advanced Engineering Technology.

Dewey, J. (1900). *The school and society.* Chicago: University of Chicago Press.

Dewey, J. (1902). *The child and the curriculum.* Chicago: University of Chicago Press.

Dewey, J. (1976). *Essays on logical theory, 1902–1903* (A. Boydston, ed.). Carbondale: Southern Illinois University Press.

Dewey, J. (1991). *Logic: The theory of inquiry.* Carbondale: Southern Illinois University Press.

Dewey, J. (1991/1927). *The public and its problems.* Athens: Ohio University Press. (Original work published 1927).

Diggins, J. (1994). *The promise of pragmatism.* Chicago: University of Chicago Press.

Douglas, M. (2002). *Purity and danger: An analysis of the concepts of pollution and taboo.* London: Routledge.

Dreyfus, H., & Dreyfus, S. (1986). *Mind over machine.* New York: Free Press.

Eikeland, O. (1992). *Erfaring, dialogikk og politikk* [Experience, dialogue and politics]. Oslo: Work Research Institute.

Elden, M. (1979). Three generations of work democracy experiments in Norway. In G. Cooper & E. Mumford (Eds.), *The quality of working life in Western Europe* (pp. 226–257). London: Associated Business Press.

Elden, M., & Levin, M. (1991). Co-generative learning: Bringing participation into action research. In W. F. Whyte (Ed.), *Participatory action research* (pp. 127–142). Newbury Park, CA: Sage.

Elliott, J. (1991). *Action research for educational change.* Buckingham, England: Open University Press.

Elster, J. (Ed.). (1986). *Rational choice.* Oxford, England: Basil Blackwell.

Elvemo, J., Grant Matthews, L., Greenwood, D., Martin, A., Strubel, A., & Thomas, L. (1997). Participation, action, and research in classroom. *Studies in Continuing Education, 19*(1), 1–50.

Emery, F., & Emery, M. (1974). *Participative design: Work and community life.* Canberra: Australian National University Centre for Continuing Education.

Emery, F., & Thorsrud, E. (1976). *Democracy at work.* Leiden, Netherlands: Martinus Nijhoff.

Emery, F., & Trist, E. (1973). *Towards a social ecology.* London: Plenum.

Emery, F. E., & Oeser, O. A. (1958). *Information, decision, and action.* Melbourne: Melbourne University Press.

Emery, M. (1982). *Searching.* Canberra: Australian National University Centre for Continuing Education.

Emery, M. (1993). *Participative design for participative democracy.* Canberra: Australian National University Centre for Continuing Education.

Emery, M. (1998). *Searching.* Amsterdam: John Benjamins.

Engelstad, P. H., & Haugen, R. (1972). *Skjervoy i gar, i dag og i morgen* [Sjervøy, yesterday, today and tomorrow]. Oslo: Work Research Institute.

Eurich, N. (1985). *Corporate classrooms: The learning business.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Fals Borda, O. (1969). *Subversion and social change in Colombia* (J. D. Skiles, trans.). New York: Columbia University Press.

Fals Borda, O., & Rahman, M. (Eds.). (1991). *Action and knowledge: Breaking the monopoly with participatory action research.* New York: Apex.

Fetterman, D., Kaftarian, S. J., & Wandersman, A. (1995). *Enpowerment evaluation: Knowledge and tools for self-assessment and accountability.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Filley, A. C., & House, R. J. (1969). *Managerial process and organizational behavior.* Glenview, IL: Scott, Foresman.

Fine, M. (1992). *Disruptive voices: The possibilities of feminist research.* Ann Arbor: University of Michigan Press.

Finger, M., & Asún, J. M. (2001). *Adult education at the crossroads: Learning our way out.* New York: National Institute of Adult Continuing Education.

Finne, H., Levin, M., & Nilssen, T. (1995). Trailing research: A model for useful evaluation. *Evaluation, 1*(1), 11–32.

Flood, R., & Romm, N. (1996). *Diversity management*, Chichester, England: Wiley.

Fox Keller, E. (1985). *Reflections on gender and science.* New Haven, CT: Yale University Press.

Frege, G. (1956). The thought: A logical inquiry. *Mind, 65,* 289–311. (Original work published 1918).

Freire, P. (1970). *The pedagogy of the oppressed.* New York: Herder & Herder.

Freire, P. (1998a). *Pedagogy of the heart.* New York: Continuum International.

Freire, P. (1998b). *Teachers as cultural workers: Letters to those who dare.* Boulder, CO: Westview.

Fuller, S. (2000). *The governance of science: Ideology and the future of the open society.* London: Open University Press.

Furner, M. (1975). *Advocacy and objectivity: A crisis in the professionalization of American social science, 1865–1905.* Lexington: University of Kentucky Press.

Gabarrón, L., & Hernández-Landa, L. (1994). *Investigación participative* [Participatory research]. Madrid: Centro de Investigaciones Sociológicas.

Gadamer, H. G. (1982). *Truth and method* (2nd ed.). New York: Crossroads.

Gallagher, R. A. (2001). *T-Groups.* Available at http://www.orgdct.com/more_on_t-groups.htm

Gaventa, J. (1982). *Power and powerlessness: Quiescence and rebellion in an Appalachian valley.* Urbana and Chicago: University of Illinois Press.

Gardner, K., & Lewis, D. (1996). *Anthropology, development and the post-modern challenge.* London: Pluto.

Geertz, C. (1973). *The interpretation of cultures.* New York: Basic Books.

Gerhardsen, E. (1932). *Tillitsmannen* [Becoming a union official]. Oslo: Tiden Forlag.

Gibbons, M., Limoges, C., Nowotny, H., Schwartzman, S., Scott, P., & Trow, M. (1994). *The new production of knowledge: The dynamics of science and research in contemporary societies.* London: Sage.

Gilligan, C. (1982). *In a different voice.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Giles, D., Stanton, T., & Cruz, N. (1999). *Service-learning: A movement's pioneers reflect on its origins, practice, and future.* San Francisco: Jossey-Bass.

Gramsci, A. (1975). *Letters from prison* (L. Lawner, trans.). London: Jonathan Cape.

Greenberg, E. S. (1975, September). The consequences of worker participation and control: A clarification of the theoretical literature. *Social Science Quarterly, 2,* 225–242.

Greenwood, D. (1980). *Community-level research, local-regional-governmental interaction and development planning: A strategy for baseline studies* (Rural Development Occasional Paper no. 10). Ithaca, NY: Cornell University, Center for International Studies.

Greenwood, D. (1985). *The taming of evolution: The persistence of nonevolutionary views in the study of humans.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Greenwood, D. (1989). Paradigm-centered versus client-centered research: A proposal for linkage. In *Proceedings of the forty-second annual meeting, Industrial Relations Research Association* (pp. 273–281). Madison, WI: Industrial Relations Research Association.

Greenwood, D. (2002). Action research: Unfulfilled promises and unmet challenges. *Concepts and Transformation, 7*(2), 117–139.

Greenwood, D. (2004a). Action research: Collegial responses fulfilled. *Concepts and Transformation, 9*(1), 80–93.

Greenwood, D. (2004b). Feminism and action research: Is "resistance" possible and, if so, why is it necessary? In M. Brydon-Miller, P. Maguire, & A. McIntyre (Eds.), *Traveling companions: Feminism, teaching, and action research* (pp. 157–168). Westport, CT: Praeger.

Greenwood, D., et al. (1990). *Culturas de Fagor: Estudio antropológico de las cooperativas de Mondragón.* San Sebastian, Spain: Editorial Txertoa.

Greenwood, D., et al. (1992). *Industrial democracy as process: Participatory action research in the Fagor Cooperative Group of Mondragón.* Assen-Maastricht, Netherlands: Van Gorcum.

Greenwood, D., & Levin, M. (1998). Action research, science, and the co-optation of social research. *Studies in Cultures, Organizations and Societies, 5*(1), 237–261.

Greenwood, D., & Levin, M. (2000). Reconstructing the relationships between universities and society through action research. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed.; pp. 85–106). Thousand Oaks, CA: Sage.

Greenwood, D., Whyte, W., & Harkavy, I. (1993). Participatory action research as a process and as a goal. *Human Relations, 46*(2), 175–192.

Guba, E., & Lincoln, Y. (1981). *Effective evaluation: Improving the usefulness of evaluation results through responsive and naturalistic approaches.* San Francisco, CA: Jossey-Bass.

Guba, E., & Lincoln, Y. (1985). *Naturalistic inquiry.* Newbury Park, CA: Sage.

Guba, E., & Lincoln, Y. (1989). *Fourth generation evaluation.* Newbury Park, CA: Sage.

Guba, E., & Lincoln, Y. (2005). Paradigmatic controversies, contradictions, and emerging confluences. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (3rd ed.; pp. 191–215). Thousand Oaks, CA: Sage.

Gunder Frank, A. (1970). *Latin America: Underdevelopment or revolution: Essays on the development of underdevelopment and the immediate enemy.* New York: Monthly Review Press.

Gustavsen, B. (1985). Work place reform and democratic dialogue. *Economic and Industrial Democracy, 6,* 461–479.

Gustavsen, B. (1992). *Dialogue and development.* Assen-Maastricht, Netherlands: Van Gorcum.

Gustavsen, B., & Engelstad, P. H. (1986). The design of conferences and the evolving role of democratic dialogue in changing working life. *Human Relations, 39*(2), 101–116.

Habermas, J. (1984). *The theory of communicative action: Reason and the rationality of society* (T. McCarthy, trans.). Boston: Beacon.

Hafez Barazangi, N., Greenwood, D., Burns, M., & Finne, J. (2004). Evaluation model for an undergraduate action research program. In B. Hall & M. del Carmen Rodríguez de France (Eds.), *Learning the world we want* (pp. 152–159). Proceedings of the conference "Intersecting Conversations on Education, Culture, and Community," Victoria, British Columbia, November 2003.

Hall, B. (1975). Participatory research: An approach for change. *Convergence, 8*(2), 24–32.

Hall, B., Gillette, A., & Tandon, R. (Eds.). (1982). *Creating knowledge: A monopoly? Participatory research in development.* New Delhi: Society for Participatory Research in Asia.

Hanssen Bauer, J., & Aslaksen, K. (1991). *Rett sats* [Correct start]. Oslo: SBA.

Hemmati, M., Dodds, F., & Enayati, J. (2002). *Multi-stakeholder processes for governance and sustainability.* London: James & James/Earthscan.

Herbst, P. (1976). *Alternatives to hierarchies.* Leiden, Netherlands: Martinus Nijhoff.

Herbst, P. (1980). Community conference design: Skjervøy, today and tomorrow. *Human Futures* (2), 1–6.

Heron, J. (1996). *Co-operative inquiry: Research into the human condition.* London: Sage.

Heron, J. (2001). Transpersonal co-operative inquiry. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 333–339). London: Sage.

Herr, K., & Anderson, G. L. (2005). *The action research dissertation.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Herzberg, F. (1966). *Work and the nature of man.* Cleveland: World.

Hess, D. (2001). *Science studies: An advanced introduction.* New York: New York University Press.

Hinsdale, M., Lewis, H., & Waller, S. (1995). *It comes from the people.* Philadelphia: Temple University Press.

Horton, M. (with J. Kohl & H. Kohl). (1990). *The long haul: An autobiography.* New York: Doubleday.

Horton, M., & Freire, P. (1990). *We make the road by walking: Conversations on education and social change.* Philadelphia: Temple University Press.

House, E. (1972). The conscience of educational evaluation. *Teachers Colleges Record, 73*(3), 405–414.

House, E. (1993). *Professional evaluation: Social impact and political consequences.* Thousand Oaks, CA: Sage

Ishikawa, K. (1976). *Guide to quality control.* Tokyo: Asian Productivity Organization.

Jacob, F. (1982). *The possible and the actual.* Seattle: University of Washington Press.

James, W. (1948). *Essays in pragmatism.* New York: Hafner.

James, W. (1995). *Essays in radical empiricism.* Lincoln: University of Nebraska Press.

Johannesen, K. S. (1996). Action research and epistemology: Some remarks concerning the activity-relatedness and contextuality of human language. *Concepts and Transformation, 1*(2/3), 281–297.

Joyappa, V., & Martin, D. (1996). Exploring alternative research epistemologies for adult education: Participatory research, feminist research and feminist participatory research. *Adult Education Quarterly, 47*(1), 1–14.

Juran, J. M. (1980). *Quality planning and analysis.* New York: McGraw-Hill.

Kasmir, S. (1996). *The myth of Mondragón.* Albany: State University of New York Press.

King, J. (1998). Making sense of participatory evaluation practice. *New Directions for Evaluation, 80,* 57–67.

Knowles, M. (1990). *The adult learner: A neglected species* (rev. ed.). Houston: Gulf Publishing.

Knowles, M., and others. (1984). *Andragogy in action: Applying modern principles of adult education.* San Francisco: Jossey-Bass.

Kuhn, T. (1962). *The structure of scientific revolutions.* Chicago: University of Chicago Press.

Lather, P. (1991). *Getting smart: Feminist research and pedagogy with/in the postmodern.* New York: Routledge.

Latour, B. (1987). *Science in action.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Latour, B., & Woolgar, S. (1979). *Laboratory life.* Beverly Hills, CA: Sage.

Levin, M. (1984). Worker participation in the design of new technology. In T. Martin (Ed.), *Design of work in automated manufacturing systems* (pp. 97–103). Oxford, England: Pergamon.

Levin, M. (1988). *Lokal mobilisering* [Local mobilization]. Trondheim, Norway: IFIM.

Levin, M. (1993). Creating networks for rural economic development in Norway. *Human Relations, 46*(2), 193–217.

Levin, M. (1994). Action research and critical systems thinking: Two icons carved out of the same log? *Systems Practice,* 7(1), 25–42.

Levin, M. (1998). Book Review—PAR/Action and Knowledge. *Systemic Practice and Action Research, 11*(2), 207–211.

Levin, M. (2003). Ph.D. programs in action research: Can they be housed in universities? *Concepts and Transformation, 8*(3), 3–23.

Levin, M., & Klev, R. (Eds.) (2000). *Forandring som praxis* [Change as praxis]. Bergen, Norway: Fagbokforlaget.

Levin, M., & Martin, A. (1995). *Power differences in discourse.* Unpublished manuscript.

Levin, M., et al. (1980a). *Hitterværinger vi kan vil vi?* [Citizens of Hitra, we can but will we?]. Trondheim, Norway: IFIM.

Levin, M., et al. (1980b). *Teknisk utvikling og arbeidsforhold i aluminiumselektrolyse* [Technical development and quality of working life in aluminum smelting]. Trondheim, Norway: IFIM.

Lewin, K. (1935). *A dynamic theory of personality* (D. Adams & E. Zener, trans.). New York: McGraw-Hall.

Lewin, K. (1943). Forces behind food habits and methods of change. *Bulletin of the National Research Council, 108,* 35–65.

Lewin, K. (1948). *Resolving social conflicts.* New York: Harper.

Lewis, D. (2001). *The management of non-governmental development organizations: An introduction.* London: Routledge.

Lijphart, A. (1977). *Democracy in plural societies: A comparative exploration.* New Haven, CT: Yale University Press.

Lyall, K., & Sell, K. (2006). *The true genius of America at risk: Are we losing our public universities to de facto privatization?* New York: American Council on Education/ Praeger.

Madoo Lengermann, P., & Niebrugge-Brantley, J. (1998). *The women founders: Sociology and social theory, 1830–1930.* Boston: Mc-Graw-Hill.

McIntyre, A. (2004). *Women in Belfast: How violence shapes identity.* Westport, CT: Greenwood.

Maguire, P. (1987). *Doing participatory research: A feminist approach.* Amherst: University of Massachusetts, Center for International Education.

Maguire, P. (1994). Participatory research from one feminist's perspective: Moving from exposing androcentricism to embracing possible contributions of feminism to participatory research and practice. In I. de Koning (Ed.), *Proceedings of the international symposium on participatory research in health promotion* (pp. 5–14). Liverpool, England: Liverpool School of Tropical Medicine, Education Resource Group.

Maguire, P. (1996). Considering more feminist participatory research: What has congruency got to do with it? *Qualitative Inquiry, 2*(1), 106–118.

Mansbridge, J. (1983). *Beyond adversary democracy.* Chicago: University of Chicago Press.

Marginson, S., & Considine, M. (2000). *The enterprise university: Power, governance, and reinvention in Australia.* Cambridge, England: Cambridge University Press.

Markova, I., & Foppa, K. (1991). *Asymmetries in dialogue.* Herfordshire, England: Harvester Wheatsheaf.

Marshall, J. (2001). Self-reflective inquiry practices. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 433–439). London: Sage.

Marshall, J. (2004). Living systemic thinking. *Journal of Action Research, 2*(3), 305–325.

Marshall, J., & Mead, G. (Eds.). (2005). Self-reflective practice and first-person action research. Special Issue of the *Journal of Action Research 3*(3).

Martin, A. (2000). *Search conference methodology and the politics of difference.* Unpublished doctoral dissertation, Columbia University Teachers College.

Martin, A., Hemlock, N., & Rich, R. (1994). *Saskatchewan highways and transportation traffic safety search conference.* Ithaca, NY: Cornell University Programs for Employment and Workplace Systems.

Martin, A., & Rich, B. (1994). *Seneca Nation of Indians search '94.* Ithaca, NY: Cornell University Programs for Employment and Workplace Systems.

Martin, A. W. (1995, November). *Power differences in discourse.* Unpublished proceedings from Power Difference in Discourse, Ithaca, NY.

Maslow, A. (1943). A theory of human motivation. *Psychological Review, 50,* 370–396.

Miles, B., & Huberman, M. (1994). *Data analysis: An expanded sourcebook.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Mayo, E. (1933). *The human problems of industrial civilization.* New York: Macmillan.

Messer-Davidow, E. (2002). *Disciplining feminism: From social activism to academic discourse.* Durham, NC: Duke University Press.

Mezirow, J. (1991). *Transformative dimensions of adult learning.* San Francisco: Jossey-Bass.

Mezirow, J. (1996). Contemporary paradigms of learning. *Adult Education Quarterly, 46*(3), 158–173.

Mies, M. (1990). Women's studies: Science, violence and responsibility. *Women's Studies International Forum, 13,* 433–441.

Milgram, S. (1974). *Obedience to authority.* New York: Harper & Row.

Mills, C. Wright. (1959/1976). *The sociological imagination.* New York: Oxford University Press.

Monden, Y. (1983). *The Toyota production system: A practical approach to production management*. Norcross, GA: Industrial Engineering and Management Press.

Monk, R. (1990). *Ludwig Wittgenstein: The duty of genius*. London: Jonathan Cape.

Mosse, D. (1993). *Authority, gender and knowledge: Theoretical reflections on the practice of participatory rural appraisal* (ODI Network Paper 44). London: ODI:

Nash, N. S., & Hawthorne, E. M. (1988). *Corporate education* (ERIC Digest no. ED301142). Available at http://www.ericdigests.org/pre-9210/corporate.htm

Negt, O. (1977). *Sociologisk fantasi og eksemplarisk indlæring* [Sociological fantasy and exemplary learning]. Roskilde, Denmark: Roskilde Universitetsforlag.

Noffke, S. (1994). Action research: Towards the next generation. *Educational Action Research, 2*(1), 9–21.

Nowotny, H., Scott, P., & Gibbons, M. (2001). *Re-thinking science: Knowledge and the public in an age of uncertainty*. London: Polity.

Nørgaard, A. (1935). *Grundtvigianismen* [The Grundtvid way]. København, Denmark: Gyldendal.

Park, P., Brydon-Miller, M., Hall, B., & Jackson, T. (Eds.). (1993). *Voices of change: Participatory research in the United States and Canada*. Westport, CT: Bergin & Garvey.

Parsons, T. (1951). *The social system*. Glencoe, IL: Free Press.

Pateman, C. (1970). *Participation and democratic theory*. Cambridge, England: Cambridge University Press.

Patton, M. Q. (1986). *Utilization-focused evaluation*. Beverly Hills, CA: Sage.

Patton, M. Q. (1997). *Utilization-focused evaluation* (3rd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.

Peirce, C. (1950). *Philosophy: Selected writings*. New York: Harcourt Brace.

Pelletier, D., Kraak, V., McCullum, C., Uusitalo, U., & Rich, R. (1999). The shaping of collective values through deliberative democracy: An empirical study from New York's North Country. *Policy Sciences, 32*, 103–131.

Pelletier, D., McCullum, C., Kraak, V., & Asher, K. (2003). Participation, power and beliefs shape local food and nutrition policy. *Journal of Nutrition, 133*, 301–304.

Peters, S. (2001). The civic mission question in land-grant education. *Higher Education Exchange, 6*, 25–37.

Peters, S., Hittleman, M., & Pelletier, D. (2005). The North Country community food and economic security project case study. In S. Peters, N. Jordan, M. Adamek, & T. Alter. (Eds.), *Engaging campus and community: Public scholarship in the state and land-grant university system*. Dayton, OH: Kettering Foundation Press.

Peters, S., Jordan, N., Adamek, M., & Alter, T. (Eds.). (2005). *Engaging campus and community: The practice of public scholarship in the state and land-grant university system*. Dayton, OH: Kettering Foundation Press.

Philips, Å. (1988). *Eldsjälar* [Burning souls]. Doctoral dissertation, Stockholm School of Economics.

Polanyi, M. (1964). *Personal knowledge*. New York: Harper & Row.

Polanyi, M. (1966). *The tacit dimension*. Gloucester, MA: P. Smith.

Porter, T. (1995). *Trust in numbers: the pursuit of objectivity in science and public life*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Pretty, J. N., & Vodouhè, S. D. (n.d.). *Using rapid or participatory rural appraisal*. Available at http://www.fao.org/docrep/w5830e/w5830e08.htm

Pålshaugen, Ø. (1998). *The end of organization theory?* Amsterdam: John Benjamins.

Pålshaugen, Ø. (2000). Dialogkonferanser som metode i bedriftsutvikling [Dialogue conferences as method in enterprise development]. In M. Levin & R. Klev (Eds.). *Forandring som praxis* [Change as praxis] (pp. 187–195). Bergen, Norway: Fagbokforlaget.

Pålshaugen, Ø. (2002). Discourse democracy at work. *Concepts and Transformation, 7,* 141–192.

Price, D. (2004). *Threatening anthropology.* Durham, NC, and London: Duke University Press.

Rabinow, P. (1996). *Making PCR.* Chicago: University of Chicago Press.

Rabinow, P., & Sullivan, W. (Eds.). (1987). *Interpretive social science.* Berkeley: University of California Press.

Ransome, P. (1992). *Antonio Gramsci: A new introduction.* Hemel Hempstead, Hertfordshire, England: Harvester Wheatsheaf.

Rapoport, A. (1974). *Conflict in man-made environments.* Harmondsworth, England: Penguin.

Readings, B. (1996). *The university in ruins.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Reardon, K. (1997). Participatory action research and real community-based planning in East St. Louis. In P. Nyden et al. (Eds.), *Building community: Social science in action* (pp. 233–239). Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.

Reason, P. (Ed.). (1994). *Participation in human inquiry.* London: Sage.

Reason, P. (Ed.). (1988). *Human inquiry in action.* London: Sage.

Reason, P., & Bradbury, H. (Eds.). (2001a). *Handbook of action research.* London: Sage.

Reason, P., & Bradbury, H. (2001b). Introduction: Inquiry and participation in search of a world worthy of human aspiration. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 1–14). London: Sage.

Reason, P., & Rowan, J. (Eds.). (1981). *Human inquiry: A sourcebook of new paradigm research.* Chichester, England: Wiley.

Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research.* New York: Oxford University Press.

Reynolds, M. (1994). *Democracy in higher education: Participatory action research in the Physics 101–102 curriculum revision project at Cornell University.* Doctoral dissertation, Cornell University, Ithaca, NY.

Rolfsen, M., & Torvatn, H. (2005). How to" get through" communication challenges in formative evaluation. *Evaluation, 11*(3), 297–309.

Rorty, R. (1980). *Philosophy and the mirror of nature.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Ross, D. (1991). *The origin of American social science.* Cambridge, England: Cambridge University Press.

Rowan, J. (2001). The humanistic approach to action research. In P. Reason & H. Bradbury (eds.), *Handbook of action research* (pp. 114–123). London: Sage.

Russell, B. (1903). *The principles of mathematics.* Cambridge, England: Cambridge University Press.

Ryle, G. (1949). *The concept of mind.* London: Hutchinson.

Schafft, K., & Greenwood, D. (2003). Promises and dilemmas of participation: Action research, search conference methodology, and community development. *Journal of the Community Development Society, 34* (1), 18–35.

Schön, D. (1983). *The reflective practitioner.* New York: Basic Books.

Schön, D. (1987). *Educating the reflective practitioner.* San Francisco: Jossey-Bass.

Schön, D. (Ed.). (1991). *The reflective turn.* New York: Teachers College Press.

Schumacher, E. (1973). *Small is beautiful: A study of economics as if people mattered.* New York: Harper & Row.

Schwandt, T. (1997a). *Qualitative inquiry: A dictionary of terms.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Schwandt, T. (1997b). *Towards a new science of action research.* Paper presented at the Tavistock conference "Is Action Research Real Research," London.

Scriven, M. (1991). *Evaluation thesaurus.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Scriven, M. (1995). The logic of evaluation and evaluation practice. *New Directions for Evaluation, 68,* 49–70.

Scott, J. (1995). *Sociological theory:. Contemporary debates.* Cheltenham, England: Edward Elgar.

Senge, P. (1990). *The fifth discipline: The art and practice of the learning organization.* New York: Doubleday.

Shor, I., & Freire, P. (1987). *A pedagogy for liberation: Dialogues on transforming education.* South Hadley, MA: Bergin & Garvey.

Sherman, F., & Torbert, W. (Eds.). (2000). *Transforming social inquiry, transforming social action.* Boston: Kluwer Academic.

Sims Feldstein, H., & Poats, S. (Eds.) (1990). *Working together: Gender analysis in agriculture.* West Hartford, CT: Kumarian.

Skjervheim, H. (1974). *Objektivismen og studiet av mennesket* [Objectivity and the study of man]. Oslo: Gyldendal.

Slaughter, S., & Leslie, L. (1997). *Academic capitalism: Politics, policies and the entrepreneurial university.* Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Stringer, E. (2004). *Action research in education.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Swantz, M. L. (1985). *Women in development: A creative role denied? The case of Tanzania.* London: Hurst.

Sørensen, Å. B. (1992). Aktionsforskning i om arbejdslivet [Action research in work life]. *Tidsskrift for samfunnsforskning, 33* (s.), 213–230.

Taylor, C. (1985). *Philosophy and the human sciences.* Cambridge, England: Cambridge University Press.

Taylor, F. W. (1911). *The principles of scientific management.* New York: Harper Bros.

Thomas, H., & Logan, C. (1982). *Mondragón: An economic analysis.* London: Allen & Unwin.

Thomson, J., & Schoonmaker Freudenberger, K. (1997). *Crafting institutional arrangements for community forestry.* Rome: Food and Agriculture Organization of the United Nations (Forests, Trees and People Community Forestry Field Manual 7). Available at http://www.fao.org/docrep/w7483e/w7483e00.htm#contents

Tocqueville, A. de. (2001). *Democracy in America.* New York: New American Library, Signet Classic. (Originally published in two volumes, 1835 and 1840).

Torbert, W. (1991). *The power of balance: Transforming self, society, and scientific inquiry.* Newbury Park, CA: Sage.

Torbert, W. (2001). The practice of action inquiry. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 250–260). London: Sage.

Toulmin, S. (1996). Concluding methodological reflection: Elitism and democracy among the sciences. In S. Toulmin & B. Gustavsen (Eds.), *Beyond theory* (pp. 203–225). Amsterdam and Philadelphia: John Benjamins.

Toulmin, S., & Gustavsen, B. (Eds.). (1996). *Beyond theory.* Amsterdam and Philadelphia: John Benjamins.

Traweek, S. (1992). *Beamtimes and lifetimes.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Trist, E. (1981). *The evolution of socio-technical systems* (Occasional Paper No. 2). Toronto: Ontario Quality of Work Life Council.

Trist, E., & Bamforth, K. W. (1951). Some social and psychological consequences of the longwall method of coal getting. *Human Relations, 4,* 3–38.

Uphoff, N. (1992, 1996). *Learning from Gal Oya: Possibilities for participatory development and post-newtonian social science.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 1992. (Paperback edition with new introduction, Intermediate Technology Publications, 1996).

Usher, R. B., Bryant, I., & Johnston, R. (1997). *Adult education and the postmodern challenge: Learning beyond the limits.* London: Routledge & Kegan Paul.

van den Hombergh, H. (1993). *Gender, environment, and development: A guide to the literature.* Utrecht: Institute for Development Research, International Books.

Van Eijnatten, F. M. (1993). *The paradigm that changed the work place.* Assen, Netherlands: van Gorcum.

Ver Beek, K. (1996). *The pilgrimage for life, justice and liberty: Insights for development.* Doctoral dissertation, Cornell University, Ithaca, NY.

von Bertalanffy, L. (1966). *Modern theories of development.* London: Oxford University Press.

von Bertalanffy, L. (1968). *General systems theory.* New York: Braziller.

Weber, M. (1958). *The city* (D. Martindale & G. Neuwirth, trans.). Glencoe, IL: Free Press.

Weisbord, M. (1987). *Productive workplaces: Organizing and managing for meaning and community.* San Francisco: Jossey-Bass.

Weisbord, M. (1992). *Discovering common ground.* San Francisco: Berrett-Koehler.

Weiss, H., & Greene, J. (1992). An empowerment partnership for family support and education programs and evaluations. *Family Science Review,* 5(1 and 2), 131–149.

Westbrook, R. (1991). *John Dewey and American democracy.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Whyte, W. F. (1991). *Participatory action research.* Newbury Park, CA: Sage.

Whyte, W. F. (1994). *Participant observer: An autobiography.* Ithaca, NY: ILR Press.

Whyte, W. F., & Alberti, G. (1976). *Power, politics, and progress: Social change in rural Peru.* New York: Elsevier-North Holland.

Whyte, W. F., & Boynton, D. (Eds.). (1983). *Higher yielding human systems for agriculture.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Whyte, W. F., & Whyte, K. K. (1991). *Making Mondragón* (2nd ed.). Ithaca, NY: ILR Press.

Wittgenstein, L. (1953). *Philosophical investigations.* Oxford, England: Basil Blackwell.

Womack, J. P., et al. (1990). *The machine that changed the world.* New York: Rawson Associates.

Young, I. M. (1990). *Justice and the politics of difference.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Zabusky, S. (1995). *Launching Europe.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Zeichner, K. (2001). Educational action research. In P. Pearson & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of Action Research* (pp. 273–284). London: Sage.

المؤلفان فى سطور:

ديفيد جرينوود

يعمل أستاذ الأنثروبولوجيا ومديرًا لمعهد الدراسات الأوروبية بجامعة كورنيل، والتى عمل فيها عضو هيئة تدريس منذ عام ١٩٧٠. وقد اختير عضوا ممثلا للأكاديمية الملكية الإسبانية للعلوم السياسية والأخلاقية. وقد عمل مثل جون نايت **John Knight** أستاذا ومديرا لمركز ماريو إناودى **Mario Einaudi** لمدة عشر سنوات، وقد رأس هيئة مديرى التعليم الدولية. وقد عمل أيضا مقيمًا لبرامج العديد من المعاهد ومركز اللغات الأجنبية الدولية. وقد ركزت أنشطته على بحوث الفعل والاقتصاد السياسى والصراعات العرقية، والتنمية المحلية والإقليمية فى إسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية. وقد ركز عمله الحالى على تأثير الشركات الكبرى والنقابات والاتحادات على التعليم العالى مع التركيز على العلوم الاجتماعية بصفة خاصة. وقد نشر أعماله التى تتضمن الثروة غير المفيدة **Unrewarding Wealth**، إدارة التجارة وانهيار الزراعة فى مدينة الباسك الإسبانية، والتاريخ الثقافى والإنسانى والطبيعى، وترويض النشء والارتقاء، والديمقراطية الصناعية كعملية، وبحوث الفعل بالمشاركة فى الجماعات التعاونية بفاجور فى موندراجون، والمدخل إلى بحوث الفعل: البحث الاجتماعى من أجل التغيير الاجتماعى (بالتعاون مع مورتين ليفين)، بالإضافة إلى كتابين آخرين.

مارتين ليفين

يعمل أستاذا بقسم اقتصاديات الصناعة وإدارة التكنولوجيا بكلية العلوم الاجتماعية وإدارة التكنولوجيا بجامعة النرويج للعلوم والتكنولوجيا في تروندهيم. وقد حصل على درجاته العلمية في الهندسة وعلم الاجتماع. وقد عمل طوال حياته المهنية كباحث فعل مع التركيز الخاص على عمليات وبناءات التغيير الاجتماعي في إطار العلاقة بين التكنولوجيا والتنظيم. وقد اتخذت بحوث الفعل التي قام بها مكانا متميزا في البيئات الصناعية، وفي المجتمعات المحلية، وفي التعليم الجامعي حيث كان مسئولا عن تطوير ثلاثة برامج ناجحة للدكتوراه عن بحوث الفعل. وقد ألف العديد من الكتب والمقالات، والتي تتضمن البحث الاجتماعي من أجل التغيير الاجتماعي، وقدم المقالة الافتتاحية لأكبر النشرات الدولية عن الممارسة المنظمة لبحوث الفعل، وبحوث الفعل الدولية، وبحوث الفعل: دليل الاستقصاء الكيفي، ودليل بحوث الفعل.

المترجم فى سطور:

هشام سيد عبد المجيد

يعمل أستاذاً بقسم خدمة الفرد كلية الخدمة الاجتماعية- جامعة حلوان. وقد حصل على درجة دكتوراه الفلسفة فى الخدمة الاجتماعية تخصص خدمة الفرد عام ١٩٩٠ من كلية الخدمة الاجتماعية جامعة حلوان، وترقى إلى درجة أستاذ عام ٢٠٠٢. وقد عمل بالتدريس فى العديد من كليات الخدمة الاجتماعية فى مصر وليبيا والإمارات العربية المتحدة.

وقد شارك فى العديد من المؤتمرات العلمية المحلية والإقليمية والعالمية فى مصر والإمارات والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية، حيث قدم العديد من الأبحاث وأوراق العمل فى هذه المؤتمرات. كما قام بزيارة علمية لكلية الخدمة الاجتماعية بجامعة جنوب إلينوى بالولايات المتحدة الأمريكية للاطلاع على أحدث الإنجازات فى التعليم والبحث العلمى.

وبالإضافة إلى الإنجازات فى مجال التخصص، سواء على مستوى التدريس أو الممارسة أو البحث العلمى، يعمل المترجم كخبير فى مجال جودة التعليم العالى، سواء على مستوى التدريب أو الدعم الفنى أو المراجعة الخارجية للعديد من الكليات الجامعية. وقد حصل على العديد من الدورات التدريبية من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد، وكذلك من المركز القومى لتنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس والقيادات بوزارة التعليم العالى.

وللمترجم العديد من الإسهامات، سواء على مستوى البحوث العلمية أو تأليف الكتب العلمية، ونذكر من أهمها:

الأبحاث العلمية:

(1) **The challenge of modernization of social work education in developing countries: The case of Egypt ,USA, International Social Work Journal, V0l 53, N. 1, 2010**

(٢) الممارسة الخاصة للخدمة الاجتماعية فى مصر (٢٠٠٨) المؤتمر العلمى لكلية الخدمة الاجتماعية- جامعة الفيوم.

(٣) تطبيقات تكنولوجيا المعلومات فى تعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية (٢٠٠٥) المؤتمر العلمى لكلية الخدمة الاجتماعية- جامعة الفيوم.

(٤) مقارنة فعالية كل من التعديل السلوكى والتعديل السلوكى المعرفى فى التقليل من حدة المشكلات السلوكية للأحداث الجانحين" المؤتمر العلمى الرابع عشر للخدمة الاجتماعية؛ كلية الخدمة الاجتماعية؛ جامعة حلوان؛ مارس ٢٠٠١.

(٥) توقعات المتخصصين فى العمل مع الحالات الفردية من استخدامات الحاسب الآلى فى أنشطتهم المهنية، المؤتمر العلمى السنوى الثانى عشر "الخدمة الاجتماعية ومنظمات المجتمع" جامعة القاهرة، كلية الخدمة الاجتماعية- فرع الفيوم، ٢٠٠١.

(٦) تقييم استخدامات التجريب فى بحوث التدخل المهنى مع الحالات الفردية؛ نحو نموذج تجريبى يتناسب وهذه البحوث؛ المؤتمر العلمى الحادى عشر للخدمة الاجتماعية؛ كلية الخدمة الاجتماعية؛ جامعة حلوان؛ ١٩٩٨.

(٧) فعالية الممارسة العامة فى الخدمة الاجتماعية فى التقليل من المشكلات المدرسية لطلاب وطالبات المدارس الثانوية، الإمارات العربية المتحدة، القاهرة: مجلة دراسات فى الخدمة الاجتماعية والعلوم الإنسانية، مجلة علمية نصف سنوية تصدرها كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان، العدد السابع، أكتوبر ١٩٩٩

الكتب العلمية:

١) الإرشاد الاجتماعى، دار القلم للنشر بدبى ١٩٩٩.

٢) الممارسة العامة للخدمة الاجتماعية مع الفرد والأسرة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

٣) الممارسة الاجتماعيـــة للخدمة الاجتماعية مع الجماعـــة والمؤسسة والمجتمـــع، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

٤) البحـــث فى الخدمة الاجتماعية الإكلينيكيـــة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريـــة، ٢٠٠٦.

٥) ممارسة الخدمة الاجتماعية مع الأفراد والعائلات، الأردن، جامعة القدس المفتوحة، برامج التنمية الاجتماعية والأسرية، ٢٠٠٨.

التصحيح اللغوى: محمد محمود

الإشراف الفنى: حسن كامل

يعالج هذا الكتاب موضوعًا بالغ الأهمية؛ حيث يثير العديد من الموضوعات الجديرة بالاهتمام والمتعلقة بالبحث العلمي بوجه عام وبحوث الفعل بوجه خاص التي قد تعتبر مثيرة للجدل لدى الكثير من العلماء، وخاصة الذين اعتادوا على استخدام البحوث العلمية بشكلها التقليدي والمعروف، وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية. وهذا الكتاب نتاج لخبرة مؤلفيه ديفيد جرينوود ومورتين ليفين في مجال التدريس والعمل في مشروعات البحث العلمي، وخاصة بحوث الفعل لمدة طويلة من الزمن.

من أهم القضايا والموضوعات التي تضمنها هذا الكتاب والجديرة بالملاحظة والاهتمام:

- الانتقادات الواضحة من مؤلفي الكتاب للبحوث العلمية التقليدية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، والتي تتضمن المبالغة في سلطة الباحثين وسيطرتهم على البحث مع إهمال الفئات المستهدفة من هذه البحوث، وكذلك سيطرة أصحاب القوة والنفوذ المادي والسلطوي على البحوث العلمية التقليدية، وبالتالي التأثير المباشر على نتائج هذه البحوث، وأيضًا تعارض البحوث العلمية التقليدية مع قضايا التحرر وتحقيق الديمقراطية في المجتمعات الإنسانية وخاصة النامية.

- أهمية المشاركة الكاملة والتعاون بين الباحثين وسكان المجتمع (كباحثين غير مهنيين) ليس فقط في عمليات البحث وإجراءاته، ولكن أيضًا في إنتاج معرفة جديدة يكون مصدرها المستفيدين والمشاركين أنفسهم، ولا تقتصر على الكتابات والنظريات العلمية. وعمومًا، فإن من أهم أهداف بحوث الفعل تحقيق التغيير الحقيقي في كل المجالات الاجتماعية والسياسية، وتحقيق العدالة الاجتماعية وتحقيق الديمقراطية.

تصميم الغلاف: أحمد بلال